

أدبيات

تبع الآداب والثقافة المعاصرة

الشمخية السوية

Looloo

www.dvd4arab.com

يوسف ميخائيل أسعد

المقدمة

تعتبر الشخصية من أهم الموضوعات التي يولها علم النفس جل اهتمامه . ولقد انتحى المساهمون بدراسة الشخصية مناهج متباينة . فبعضهم من يتناول دراسته للشخصية من زاوية إحصائية ، ومنهم من يتناولها من زاوية تطورية ، ومنهم من يتناولها من زاوية نمائية ، ومنهم من يتناولها من زاوية وعظية إيحائية ، إلى آخر المناهج المتباينة التي يقع عليها الدارسون والباحثون .

ومن يتناول هذا الكتاب فإنه سوف يجد أن المنحى الذي أثرناه هو المنحى التفاعلي للشخصية مع الاعتراف من المناهج الأخرى المتباينة . على أن ما أوردناه إنما هو نتيجة للخلاصات الخيرية التي تأتت لنا نتيجة التأمل الطويل والمستأنى للزوايا العديدة للشخصية . ولا غرو فقد أسهمنا في دراسة الشخصية بتسعة مؤلفات هي : الشخصية القوية ، والشخصية الناجحة ، والشخصية المحبوبة ، والشخصية المتكاملة ، وشخصيتك بين يديك ، والشخصية المبدعة ، والشخصية القيادية ، والشخصية المتطورة ، وهذا الكتاب .

ولسنا ندعى أن ما قدمناه من مدارسة حول الشخصية الإنسانية قد غطى كل ما يمكن تناوله من زوايا أخرى عديدة تتعلق بها . فالواقع إننا تأمل في أن يتاح لنا أن نعرض لزوايا أخرى غير الزوايا التي تناولنا الشخصية منها ، وهي زوايا لا تقل في أهميتها عنها . فهذا الموضوع خصب أيما خصوبة بحيث تتاح الكتابة فيه من زوايا عديدة لا تكاد تنتهي . ومن الطبيعي أن كل مسهم بالكتابة فيه يصبغ كتابته بصبغته الذاتية وبتجاهاته وفلسفته كما أنه يصدر فيما يقوم بكتابته عن محصلته الخيرية .

وثمة مناهج للمعالجة كثيرة آثرنا منها ما نسميه بالمنهج الخبري الإبداعي . فكما أن الشاعر يقرض شعره نتيجة حفظه ثم نسيانه لكثير جداً من الشعر الذي اختاره وانكب عليه ، ولكنه لا ينقل عن غيره ما قرضه ، بل يبدع شعراً لم يسبق لغيره من الشعراء السابقين أو المعاصرين أن أبدعوه ، كذا الحال بالنسبة لمن يتبع هذا المنهج الخبري

الإبداعي . وكما أن الشاعر المبدع لا يدعى أنه لم يتأثر بما قرأه وحفظه . من أشعار ، بل يدعى أنه هضم أو تفاعل معه كما تتفاعل العناصر والمركبات في الكيمياء ، كذا فإن المتناول للشخصية بهذا المنهج الخبri والتفاعلي لا يزعم أنه لم يتأثر بما درس واستوعبه ، بل يزعم أنه هضم وتفاعل مع ما درسه وقرأه ثم أبان عن قوامه الثقافي السيكولوجي .

ولعلنا نزع من أن لا أمل في تقدم علم النفس ، بل ولا أمل في تقدم أي علم من العلوم دون هذا المنهج . صحيح أن هناك ديالكريتكًا مستمرًا فيما بين الممارسات العملية وبين الفكر المجرد ، ولكن مما لا شك فيه أن الممارسات العملية إن لم تتخصب بالفكر المجرد ، فإن المرء يجد نفسه دائرًا في حلقة مغلقة . فلا يتسم الجديد غير المسبوق ولا يستطيع المساهمة في مسيرة التجديد الفكري ، بل ولا يشارك في الريادة السيكولوجية . فلو لم يكن فرويد وبالفولف وغيرهما من رواد علم النفس هاضمين ومتفاعلين ومفكرين في الجديد الذي أفرزته دخالهم المتحررة من قيود الدراسات السابقة ، ما كان لهم إذن أن يقوموا بغزو تلك الأفاق التي لم يرق أحد من قبلهم بغزوها وتقديمها إلى المهتمين بالدراسات النفسية وبالجديد غير المسبوق .

ولنا أن نقول إن ثمة تفاعلات متعددة فيما بين العلوم والفنون والممارسات المتباينة التي شكلت شخصية من يتبع هذا المنهج . قسمة وشائج متينة تربط العلوم والفنون والمهارات والعلاقات بعضها ببعض ، بل ثمة وشيجة متينة بين العلم والأدب ، بل وبين الاستقبال الثقافي والتصدير الثقافي . فالقراءة والسمع استقبال ، والكتابة تصدير ، بل نستطيع أن نزع من أن القراءة إدراك بصري ، والسمع إدراك سمعي ، والكتابة مهارة يدوية وإفراز أو تصوير لما يتشكل من صور ذهنية في مخ الكاتب . ومعنى هذا أن كتابًا كهذا الكتاب الموضوع بين يديك هو مركب ثقافي من العديد من المصادر الثقافية التي شكلت عند الكاتب ما يسمى بالخبرة الشخصية التي تختلف كثيرًا أو قليلًا عن خبرات الآخرين المهتمين بالمجال نفسه الذي يهتم به أعنى الشخصية الإنسانية . من هنا فإننا نزع من أن كتابنا هذا نسيج وحده غير مسبوق ، بمعنى أن له ملامحه غير المتكررة في أي كتاب سبق كتابته في الموضوع نفسه .

يوسف ميخائيل أسعد

الفصل الأول معنى السوية

المعنى النمائي :

من المقطوع به أن الكائن الحي - إنسانًا كان أم حيوانًا - يحمل في مقوماته الوراثية المتمثلة في جيناته ما سوف يكون عليه نموه في مراحل عمره المتتالية إذا لم تتدخل ظروف خارجية معاكسة تعوق أو تعطل أو تحرف بالنمو إلى وجهات غير الوجهات الجينية المعجولة له في قوامه الوراثي . والواقع أنه حتى وقت قريب كان الاعتقاد السائد هو أن الوراثة دكتاتور لا راد لمشيئته ، ولكن هذا الدكتاتور قد منى بهزيمة ساحقة على يد هندسة الوراثة التي صار بمقدورها أن تتدخل قبل نشأة الجنين وبعد نشأته وتكونه ، بل وفي أية مرحلة عمرية يمر بها الكائن الحي . فيفضل هندسة الوراثة صار بمقدور المختصين في هذا المجال إعادة برمجة الخطوات التي سوف يمر بها النمو أو تعديل كذاقتها بالتخفيف أو التركيز ، وبالحنف والإضافة .

بيد أن هندسة الوراثة وما يمكن أن تضطلع به من مهام لا يقل بأى حال من شأن أو تأثير العوامل البيئية الطبيعية والاجتماعية . فالواقع أن المقومات الوراثية التي جبل عليها المرء وما يمكن لهندسة الوراثة التأثير به أو تعديله ، لا يمكن أن تبدو للعيان أو تترجم إلى الواقع السلوكي الخارجي إلا بمعاونة المؤثرات البيئية الطبيعية والاجتماعية . فما يكون موجودًا بالقوة ممثلًا في المقومات الوراثية المفطور عليها المرء أو بعد دخول هندسة

الوراثة في الخط ، يصير موجوداً بالفعل بعد افعال المؤثرات البيئية الطبيعية والاجتماعية فيه والعمل على إخراجها من مكانه إلى الواقع السلوكي الداخلي والخارجي على السواء . ولعلنا نحدد عمل المؤثرات البيئية الطبيعية والاجتماعية في ثلاثة منح هي : أولاً - المنحى الإيجابي : الذي بمقتضاه تخرج الإمكانات الوراثة إلى الواقع السلوكي .

ثانياً - المنحى السلبي : الذي بمقتضاه تعاق الإمكانات الوراثة والحيلولة بينها وبين الخروج إلى الواقع السلوكي .

ثالثاً - المنحى التحريفي : وبمقتضاه تنحرف المؤثرات البيئية الطبيعية والاجتماعية بما كان قد جبل عليه المرء من استعدادات وراثية وتوجيهها وجهات أخرى غير الوجهات التي كانت قد جعلت لها .

والواقع أن للنمو آفاقاً متباينة يجب ألا تعزب عن بالنا .

فئة أولاً - النمو البيولوجي : الذي ينبثق عنه النمو الفسيولوجي ، أعني وظائف الأعضاء .

ثانياً - النمو الوجداني : أعني بلورة الطاقة الوجدانية لدى المرء حول محاور معينة فتشكل عواطفه واتجاهاته .

ثالثاً - النمو العقلي : أعني القدرة على إقامة علاقات وظيفية فيما بين المدركات والمتكررات والمفاهيم المجردة .

رابعاً - النمو البياني أو الإفصاحي : أعني القدرة على التعبير باللسان أو بالقلم أو بالآلة الكتابية أو الكومبيوتر عن العواطف أو الاتجاهات أو الأفكار التي تدور بخلد المرء .

وثمت خامساً وأخيراً - النمو الاجتماعي : أعني القدرة على إقامة روابط وشائج بين المرء وبين غيره من أشخاص ، وأيضاً القدرة على قطع تلك الروابط والشائج حسبما تتطلب الظروف المحيطة بالمرء ذلك .

وعلينا أن نقرر أن سوية النمو تتبدى في مدى قدرة المرء على توظيف الجوانب الثمانية المتباينة التوظيف الفعّال والمناسب للمواقف الاجتماعية المتباينة . وتعبير آخر فإن قياس مدى سوية النمو يجب أن يتم بنظرة برجماتية ، أي في ضوء فاعلية ونتائج النمو في حياة المرء . فيقدر ما تكون فاعلية النمو في حياته يكون الحكم بمدى نموه نمواً سليماً . ومعنى هذا أن ما يجب أن نقيس به النمو هو النتائج التي تترتب عليه وليس النمو في ذاته . فلقد يحدث انبعاج ثنائي في جانب ما من جوانب شخصية المرء على حساب جانب آخر فلا يكون الانبعاج في هذه الحالة لصالحه ، بل يكون الحكم بأن ما حدث من انبعاج في نمو ذلك الجانب بمثابة خطأ في المسيرة الثمانية لذلك الشخص . خذ مثلاً لذلك بالشخص الذي ينبعج نموه البياني أو الإفصاحي بينما يكون ضامراً بإزاء نموه العقلي . فيصير متدفقاً في الإبانة ولكنه يكون ذابلاً من الناحية العقلية فيكون تدفقه الكلامي بمثابة رطانة طئانة يحس السامع لكلامه أو القارئ لما يكتبه بأنه على الرغم من تدفقه البياني فإن المضمون المعنوي لذلك الكلام المنطوق أو الكلام المكتوب مضمون ضعيف أو فضفاض .

وعلى الرغم من تمسكنا بالمعيار الوظيفي البرجماتي للنماء بإزاء جميع جوانب الشخصية ، فإننا نعترف مع هذا بأن من الصعوبة بمكان الوقوع على معيار أو معايير يتسنى لنا بواسطتها قياس مدى ما يتمتع به المرء من توظيف لما بلغه نماؤه في الجوانب المتباينة من شخصيته ، وإن كان علماء النفس قد استطاعوا في الواقع أن يضعوا بعض المقاييس المتعلقة بالنكاء أو بالحصيلة اللغوية أو بغير ذلك من جوانب . والشائع في الواقع هو الأخذ بالمعايير الارتجالية وذلك بإصدار أحكام تقريبية أو تقديرية . ولقد

تقول إن الناس بعامة لا يسعون إلى قياس مدى النمو بإزاء الجوانب المتباينة لأبنائهم أو ذويهم إلا عندما تبرز مشكلة صحية جسمية أو عقلية تحملهم على الشعور بالقلق والتأزم النفسى . فعدتذ فقط يسارعون إلى الاستعانة بالمختصين فى شئون القياسات المتباينة ليطمئنوهم أو ليتداركوا الموقف قبل استفحاله .

وبالنسبة للشخص الكبير فإنه يحاول قياس مدى ما بلغه من نمو فى المناحى المتباينة من شخصيته فى ضوء مقارنة نفسه بالآخرين من أترابه . وواضح أن المقارنة فى تلك الحالات تكون ذاتية . ومعنى هذا أن المعيار الذاتى للنمو هو المعيار الأكثر شيوعاً بين الناس . ولعلنا نحدد المحور الذى يدور حوله هذا المعيار الذاتى فتقول إنه مدى الإحساس بالسعادة أو بالشقاء . فبينما نجد أن المحور الموضوعى هو محور برجماتى أو نفعى أو وظيفى ، فإننا نجد أن المحور هنا هو محور يتعلق بمدى إحساس المرء بالرضا عن ذاته وعمما بلغه من نمو فى المناحى المتباينة من شخصيته .

ومن الممكن فى الواقع تحديد مدى سوية النمو فى ضوء المعايير التالية :

أولاً - معيار السن : فثمة فى الواقع متوسطات أمكن تحديدها بإزاء ما يجب أن يحصل عليه المرء من نمو فى الجوانب المتباينة من شخصيته فى كل مرحلة عمرية يبلغها . وينسحب هذا بإزاء الجنسين . فلكل جنس خصائص معينة تنعكس على المراحل العمرية المتباينة . فلولد الذى بلغ العاشرة مواصفات نمائية فى شخصيته من جميع جوانبها تتباين عن المواصفات النمائية الخاصة بالبنات التى بلغت نفس السن . والأطباء يهتمون بوزن الطفل حتى وهو بعد فى بطن أمه بوسائل معينة وقد حددوا الأوزان التى يجب ألا تزيد أو تنقص عنه . وكذا الحال بإزاء المرء عبر مراحل عمره المتباينة .

ثانياً - المعيار الثقافى : وبالإضافة إلى معيار السن فإن إنسان الحضارة يخضع لمعيار آخر هو المعيار الثقافى . ولعل أشهر معيار ثقافى يتمثل فى الامتحانات والاختبارات التى تعقد للتلاميذ والطلاب بالمراحل التعليمية المتباينة منذ التحاقهم بمعاهد التعليم المتباينة وحتى آخر مستوى تعليمى بالجامعة وبالدراسات العليا . ومن المتوقع أن يتوكلب النمو الثقافى مع الارتقاء فى السلم التعليمى . بيد أن النمو الثقافى لا ينحصر بين جدران معاهد التعليم . فثمة نمو ثقافى يتأتى عن التقدم الحضارى والتكنولوجى . فمما لا شك فيه أن انتشار وسائل الإعلام وبخاصة التليفزيون بالمدن والقرى على السواء قد عمل على التقدم بالنمو الثقافى بحيث لا نكاد نرى اليوم فروقاً جوهرية بين طفل المدينة وطفل الأقاليم أو القرى فيما يتعلق بهذا النوع من النمو الثقافى .

ثالثاً - معيار المسؤولية الاجتماعية : فنمو شخصية المرء يمكن أن يقاس فى ضوء المسؤولية التى تناط به . فيقدر كفايته فى النهوض بمسؤولية الوظيفة التى يتولاها أو قيامه بالمهام التى تسند إليه يكون تحديد مدى ما حازره من نمو وظيفى . فالطبيب الذى ينجح فى علاج مرضاه والوصول بهم إلى بر الشفاء يكون فى الواقع قد برهن على أنه قد نما بإزاء المجال العلاجى الذى تخصص فيه . وقس على هذا جميع الوظائف والمسؤوليات المتباينة فى شتى مرافق الحياة ومجالاتها المتباينة .

رابعاً - معيار القيم السائدة بالمجتمع : فثمة مجموعة من المعايير المتعلقة بالقيم المتباينة التى يأخذ المجتمع بها أبناءه . ولعل من أهم تلك القيم الدينية والقيم الأخلاقية والقيم العلائقية والقيم الجمالية . وكلما توكلب سلوك المرء مع ما تقرره هذه القيم المتباينة من معايير ، فإن ذلك يكون

النمائي القيمي المنشود والذي يبغى المجتمع تحقيقه في سلوك أبنائه .

خامساً - المعيار التربوي المستقبلي : فالواقع أن التربية بجميع أفاقها ومستوياتها في تناولها لمن تقوم بتربيتهم لا تحصر اهتمامها في نطاق الحاضر ، بل تمتد ببصرها إلى المستقبل . فهي لا تقوم بالتنشئة في ضوء ما يسود المجتمع من ظروف راحة واقعة ، بل إنها تتوقع ما سوف يكون عليه الحال في الغد القريب والغد البعيد وتضع خططها التربوية على هذا الأساس . فهي تعد أطفال اليوم لكي يكونوا رجال ونساء الغد . ومما لا شك فيه أن النظرة المستقبلية هي النظرة الشائعة اليوم والمهيمنة على الأفاق الفكرية للمربين . ولقد صارت المستقبلية علماً معترفاً به إذ أن التوقعات المستقبلية لم تعد رجماً بالغيب ، بل صارت توقعات مقننة وخاضعة للحساب بمعيار رجحان الحدوث (أنظر كتاب « البشرية والمستقبل الغامض » للمؤلف) . وحتى بالنسبة للتغيرات التي يحملها المستقبل معه ولا يتسنى الوقوف عليها أو تحديدها ، فإن على التربية أن تعمل على تهيئة الأجيال الجديدة بعقول متطورة قابلة لتقبل الجديد والتكيف له وعدم التزمّت والتلبس بالروح الرجعية أو بالجمود الفكري وعدم مسابرة التطورات المتدفقة باستمرار . ومما لا شك فيه أن هذا المعيار التربوي المستقبلي بحاجة إلى مربين يؤمنون به . ومن ثم فإن القائمين على شئون إعداد المربين يجب أن يضعوا في اعتبارهم هذا المعيار في إعدادهم للمعلمين الجدد . ولكن من المؤسف حقاً أن نجد أن التخلف عن الأخذ بهذا المعيار المستقبلي هو الممسك بتلابيب المسؤولين عن التربية والتعليم . ومن ثم فإن معاهد التعليم كثيراً ما تجد نفسها متخلفة عن الركب الحضاري إذ أنها لا تأخذ بما تفرزه التكنولوجيا

التعليمية والإعلامية بصفة دائبة من وسائل مؤثرة في جميع أنحاء حياة الناشئة بغير استثناء .

وهناك مجموعة من المعايير التي تتحدد السوية في ضوءها ، أو بتعبير أدق التي يختلف الناس حول الأخذ بها في تقديرهم لمدى السوية . والمعايير هي :

أولاً - المعيار الإطلاقي : وهذا المعيار يقسم الناس إلى فئتين لا ثالث لهما . فئة الأسوياء نمائياً ، وفئة غير الأسوياء نمائياً . فالشخص السوي وفق هذا المعيار هو الشخص الذي حصل على النمو السوي في جميع أنحاء شخصيته ، أي أنه يكون سويًا من الناحية النمائية بيولوجياً ووجدانياً وعقلانياً ولغوياً واجتماعياً . أما الشخص غير السوي من الناحية النمائية فهو الشخص الذي لم يتحقق له النمو السوي في جانب أو أكثر من جوانب شخصيته .

ثانياً - المعيار النسبي : وهذا المعيار يقسم الناس إلى فئات عديدة بدءاً من أعلى مستوى ممكن من السوية وهو مستوى نسبي أيضاً لأن من المستحيل أن يتحقق النمو المطلق في أي جانب من جوانب الشخصية مائة في المائة ، ثم نزولاً إلى مستويات أقل من السوية . وانتهاءً إلى أحط مستوى ممكن ، وهو أيضاً ليس مستوى مطلقاً إذ أن أحط الناس نماءً يكون حائزاً على قدر ما من النمو في جانب ما من جوانب شخصيته .

ثالثاً - المعيار الإحصائي : وهذا المعيار يقيس مستوى النمو في ضوء نسبة النمو في المجموعة التي ينخرط فيها المرء . فنمو التلميذ معرفياً يقاس في ضوء مستوى الفصل أو الفرقة التي ينخرط فيها . ومستوى القروي نمائياً يقاس في ضوء متوسط النمو الحضاري الذي بلغته قريته . وهكذا تتحدد مستويات النمو في الجوانب المتباينة من الشخصية في ضوء إحصاء رقمي يتعلق بالمجموعة التي ينتمي إليها المرء .

المعنى التكاملي :

بعد أن عرضنا للمعنى الثماني للسوية ، فإن علينا أن نعرض للمعنى التكاملي . ولعلنا نجد أن هذا المعنى الأخير يضم في رحابه عدة معانٍ فرعية نقدمها إلى النحو التالي :

أولاً - الاتساقية : فالواقع أن جميع مقومات الكائن الحي المتمتع بالسوية تعمل في اتساق فيما بينها بحيث لا يكون ثمة تعارض بين عمل مقومٍ منها مع عمل مقومٍ آخر ، بل يسود الانسجام والاتساق فيما بينها ، فتتعاون جميعاً في عملها دون أن يبدو بينها عراك أو مناهضة . فإذا ما حدث نفور أو تضارب فيما بينها فإن الكائن الحي يكون عندئذٍ قد فقد تكامله .

ثانياً - الغرضية : بيد أن الاتساق فيما بين مقومات الكائن الحي لا يكون لذات الاتساق ، بل يكون وسيلة لتحقيق هدف عام شامل للكائن الحي . ومن الطبيعي أن يكون الهدف الجوهري لأي كائن حي هو الحفاظ على وجوده على قيد الحياة . ولكن كلما ارتفع الكائن الحي في مستواه ، فإن أهدافاً جديدة تتجلى أمامه قد تفوق في أهميتها في نظره هدف البقاء على قيد الحياة . وعلى أية حال فهما تعددت أهداف الكائن الحي فمما لا شك فيه أن جميع مقوماته وأجهزته الجسمية والنفسية تعمل جميعاً على تحقيقها في تعاون تام وبغير تعارض فيما بينها ، أو بتعبير آخر في تكامل فيما بينها .

ثالثاً - الاتبثاقية : ومن المعاني الفرعية التي يضمها المعنى التكاملي للسوية هذا المعنى الاتبثاقى الذي نقصد به أن ثمة سلسلة من الاتبثاقات تحدث فيما بين مقومات الكائن الحي . فالركيزة البيولوجية للكائن الحي تنبثق منها الركيزة الوجدانية . وتنبثق من هذه الركيزة الأخيرة الركيزة العقلية . ومن الركيزة العقلية تنبثق الركيزة الكلامية . ومن الركيزة الكلامية تنبثق الركيزة الاجتماعية .

وكل ركيزة جديدة من هذه الركائز الاتبثاقية تتعاون مع الركائز السابقة عليها وتتسق معها وتتكامل .

رابعاً - التمايزية : ومن المعاني الفرعية للمعنى التكاملي للسوية هو هذا المعنى التمايزى الذى نجد بمقتضاه أن لكل مقومٍ من مقومات الكائن الحي قوامه الذاتى . فهو وإن كان يتكامل ويتعاون مع باقى المقومات المتبانية ، فإنه يستمر في الحفاظ على شخصيته وإبنته المستقلة . فلا يوجد انصهار أو اندماج بين مقومات الكائن الحي ، بل يوجد التكامل فيما بينها . فالتمايز والحفاظ على شخصية وقوام كل مقومٍ من مقومات الكائن الحي هو شاهد على تكاملية . فإذا ما حدث انصهار بين مقومين بحيث تتلاشى إثنية أحدهما كأن تلتهم إحدى الخلايا الخلايا المجاورة لها كما هو الحال في الأمراض السرطانية ، فإن هذا يعد شاهداً على فقدان التكامل الجسمى ، وبالتالي فقدان الكائن الحي لتكاملية . وقل الشيء نفسه إذا ما التهم الجانب العقلى الجانب الوجدانى فصار المرء ميت الوجدان ويتناول كل الأمور من منظور عقلانى . إن المرء في هذه الحالة يكون قد فقد تكاملية شخصيته بعد أن التهم العقل مقوماً هاماً من مقومات شخصيته ، أعنى المقوم الوجدانى .

خامساً - التأثير التبادلى : فمن المعاني الفرعية التي يشتمل عليها المعنى التكاملي للسوية وجود تأثير تبادلى فيما بين مقومات الكائن الحي المتبانية . فكما أن الجسم يؤثر في الوجدان ، كذا فإن الوجدان يؤثر في الجسم . وكما أن العقل يؤثر في الجسم والوجدان ، كذا فإن الجسم والوجدان يؤثران في العقل . فالتأثير لا يكون من طرف واحد فيكون هناك قطب مؤثر وقطب آخر متأثر من جهة أخرى .

ولعلنا نقوم بعد هذا بإلقاء الضوء على أهمية التكامل بإزاء السوية . إننا نجد أن هذه الأهمية تتمثل فيما يلي :

أولاً - أهمية وجودية : فالواقع أن التكامل فيما بين مقومات الكائن الحي وأيضًا فيما بين وظائفه التي يضطلع بها بعد شرطًا أساسيًا ولازمًا لاستمرار وجوده على قيد الحياة . ومن الحقائق المؤكدة أن الشيخوخة تفتقد التكامل فيما بين وظيفتين أساسيتين من وظائف الكائن الحي هما الوظيفة البنائية **Anabolism** والوظيفة الهدمية **Katabolism** . ويتعبير آخر فإن الهدم يجور على البناء وبالتالي فإن التكامل لا يتوافر للكائن الحي فيصير مهددًا بالموت . وإذا نحن نظرنا إلى الوجود من زوايا متباينة ولم تقتصر على الزاوية البيولوجية ، بل أخذنا في اعتبارنا أنواعًا متباينة من الوجود كالوجود المعنوي والوجود العقلائي والوجود الوجداني ، فإننا نجد أنه إذا لم يتوافر التكامل للمرء ، فإنه يكون مهددًا بالقضاء على وجوده أو أكثر من هذه الأنواع المتباينة من الوجود . فمن تطغى عليه الأنايية على الغيرية مثلًا وترتب على ذلك استيلاؤه على ممتلكات الآخرين فإنه يفقد وجوده المعنوي وذلك بعد الإلقاء به غياهب السجن .

ثانيًا - أهمية حيوية اقتصادية : فلدَى توافر التكامل في شخصية المرء ، فإنه يكون خليفًا إذن باستثمار طاقته الحيوية بحيث يبذل أقل جهد ممكن لتحقيق أكبر وأفضل عائد ممكن وفي أقصر وقت ممكن . ويتعبير آخر فإن الشخصية المتكاملة هي شخصية اقتصادية فيما يتعلق بالجهد الحيوي المبذول .

ثالثًا - أهمية إنتاجية : فكما كان التكامل على مستوى أرفع ، فإن هذا يكون خليفًا يجعل المرء عضوًا فعالًا ومنتجًا وثمرًا في المجتمع الذي يحتمى في ظله وينتمي إليه . ومن الطبيعي أن الأفراد المتباينين بالمجتمع الواحد إذا ما تكاملوا فيما بينهم ، فإن هذا التكامل يكون شاهدًا على سوية ذلك المجتمع ، وبالتالي فإن إنتاجيته تكون أوفر وعلى مستوى أرفع .

رابعًا - أهمية ذاتية انسجامية : فتكامل الشخصية يضفي على صاحبها الكثير من الانسجام النفسي والإحساس بالسعادة والوفاق الداخلي . والشأن في هذه الحالة كشأن الدولة التي يتحقق الانسجام الداخلي فيما بين أفرادها وبين المجموعات الفرعية كالهئات والمؤسسات ونحوها . وعلى العكس من هذا فإن الشخصية المنفسخة غير المتكاملة تشبه الدولة المنقسمة على ذاتها والتي تتشكل من فئات متعاركة وكرهه بعضها لبعض .

خامسًا - أهمية توافقية : فالشخصية المتكاملة تكون خليقة بأن تتعاون مع الشخصيات الأخرى وتتأزرر في أنشطتها المتباينة مع أنشطة الآخرين . فالشخص المتكامل هو الشخص السوي الذي يحظى بثقة الناس من حوله مما يدفع بهم إلى مد يد التعاون إليه وتبادل الخدمات معه .

وعلىنا في نهاية المطاف أن نستعرض المناحي التي يتبدى فيها تكامل الشخصية وبالتالي اتصافها بالسوية بهذا المعنى التكاملي . إننا نستطيع تحديد هذه المناحي على النحو التالي :

أولاً - المنحى البيولوجي والفسيوولوجي : ونقصد بهذا المنحى ما كان متعلقًا بكيمياء الجسم وتأثير الهرمونات التي تفرزها الغدد الصماء في التكامل الجسمي ، وكذا ما يتعلق بما يلج الجسم من مواد مخدرة أو منشطة أو غيرها من مواد مؤثرة في التكامل الجسمي . وكذا ما قد ينشأ في خلايا الجسم من علاقات سوية أو شاذة وما يمكن أن تفرزه بعض الخلايا من سموم أو من مواد تساعد على تحقيق التكامل البيولوجي . أما المنحى الفسيولوجي فإننا نعنى به ما يتعلق بوظائف الأعضاء الجسمية المتباينة وعلاقتها بعضها ببعض . من ذلك مثلًا علاقة كل عين من العينين بالعين الأخرى ، وعلاقة العينين مع الأذنين . ولا شك أن

www.dvd4arab.com

أجهزة الجسم المتباينة تتعاون وتتكامل فيما بينها في حالة تمتع المرء بالسوية الجسمية الفسيولوجية . ولكي يكون الجسم متمتعاً بالسوية ، لا بد أن تتوافر له السوية البيولوجية والسوية الفسيولوجية على السواء .

ثانياً - المنحى الوجداني : فلكي تتمتع الشخصية بالسوية الوجدانية ، فلا بد أن يتحقق لها الأتزان الوجداني من جهة ، والتخفف من المقومات الوجدانية المكونة من جهة ثانية ، والقدرة على الإفصاح عن المشاعر الوجدانية من جهة ثالثة ، والقدرة على التناغم الوجداني مع الآخرين من جهة رابعة ، والقدرة على الضبط الانفعالي الوجداني من جهة خامسة . فإذا ما توافرت هذه الشروط الخمسة فإن الشخصية تكون خليقة عندئذ بأن تكون شخصية متكاملة وبالتالي فإنها تكون متمتعاً بالسوية الوجدانية .

ثالثاً - المنحى العقلاني : والتكامل العقلاني يتمثل في الخلو من التناقض بين أفكار المرء من جهة ، وفي استمرار الاستقبال المعرفي من جهة ثانية ، وفي تفاعل الأفكار التي في حوزته بعضها مع بعض من جهة ثالثة ، وفي النقد الفكري الذاتي وتعديل أفكاره من جهة رابعة ، وفي القدرة على التعبير عن أفكاره بدقة من جهة خامسة . بهذه الشروط الخمسة يكون المرء متمتعاً بالسوية العقلانية طالما أنه متمتع بالتكامل العقلاني .

رابعاً - المنحى الاجتماعي : وهذا المنحى يتضمن القدرة على إقامة علاقات اجتماعية جديدة مع الأفراد أو مع الجماعات من جهة ، والقدرة على فسخ علاقات اجتماعية قائمة بينه وبين الآخرين بسبب ضررها أو لنعم ضرورتها من جهة ثانية ، والإحساس بالثقة بالنفس بإزاء الآخرين وعدم الذوبان في بوتقة العلاقة بهم من جهة ثالثة ، والقدرة على وضع المرء لنفسه في

المكانة المناسبة له سواء بإزاء الندية أم بإزاء الفوقية أم بإزاء اللحنية من جهة رابعة ، والقدرة على توزيع العواطف والاهتمامات بإزاء العلاقات الاجتماعية المتباينة في ضوء أهمية كل منها من جهة خامسة . فالتكامل في هذا المنحى الاجتماعي يجب أن يشمل على هذه الجوانب الخمسة حتى يتسنى نعت الشخصية بأنها شخصية متكاملة ، ومن ثم تكون شخصية سوية .

خامساً - المنحى الاقتصادي : وهذا المنحى يركز على الجانب الاقتصادي المالي . فالواقع أن الإنسان كائن اقتصادي بمعنى أنه يحصل على شيء من المال وينفق منه . والتكامل الاقتصادي يعني القدرة على تحقيق التوازن فيما بين الوارد والمنصرف من المال . والشخصية المتكاملة هي الشخصية التي لا تكون مصابة بالتبذير أو التبذير كما لا تكون مصابة بالبخل والتقتير برغم توافر المال بين يديها . والشخصية المتكاملة اقتصادياً هي الشخصية التي تتمكن من تحديد أولويات الإنفاق والتخطيط لما سوف يتم ادخاره وما يتم إنفاقه في المستقبل القريب والمستقبل البعيد على السواء .

المعنى الوجداني :

مما لا شك فيه أن الحياة الوجدانية للمرء تمثل محوراً أساسياً من محاور السوية . فالشخص السوي هو الشخص الذي يتمتع بحياة وجدانية سوية . وهذا ما يدعونا في الواقع إلى التساؤل عن الشروط التي يجب أن تتوافر للمرء حتى يمكن وصفه بأنه سوي وأنه متمتع بحياة وجدانية سليمة . إننا نستطيع أن نحدد تلك الشروط على النحو التالي :

أولاً - توافر الطاقة الوجدانية المناسبة لكل مرحلة عمرية يمر بها المرء : فالطاقة الوجدانية ليست ثابتة لا تتغير مع تقدم المرء من مرحلة عمرية ثانية إلى مرحلة عمرية ثالثة ، بل هي طاقة

متغيرة . ولعلنا نزع من أن هذه الطاقة تكون على أشدها في لحظة الميلاد ، فلا تجد أمامها من سبيل تعبر عن نفسها من خلاله سوى الانفجار بالبكاء . ولا شك أن مرحلة الطفولة تتسم بطاقة وجدانية أكبر كماً وأشد اعتماداً مما يتوافر لنفس الشخص بعد انخراطه في المراهقة ، وأن المراهقة تتسم بطاقة وجدانية أغزر وأقوى من الشباب ، والشباب يتسم بطاقة وجدانية أغزر وأقوى من الكهولة ، والكهولة تتسم بطاقة وجدانية أغزر من الشيخوخة . بيد أن هذا التوزيع للطاقة الوجدانية لا يتسم بالتساوي بين جميع الناس ، بل إن المنحرفين عن السوية الوجدانية لا يتمتعون بالتوزيع السوي لطاقتهم الوجدانية خلال مراحل العمر المتتالية . وأكثر من هذا فإن بعض المنحرفين عن السوية يعانون من الفقر الوجداني أو من الغوران أو التدفق الوجداني الذي لا يتناسب مع المرحلة العمرية التي ينخرطون في إطارها .

ثانياً - القدرة على بلورة الطاقة الوجدانية حول موضوعات معينة فتستحيل إلى عواطف ثابتة نسبياً : فالطاقة الوجدانية هي المادة الخام التي تصنع منها العواطف المتباينة نتيجة التبلور حول موضوعات خارجية . ومما لا شك فيه أن التفجرات الوجدانية التي يبديها الوليد دون أن يكون هناك مبرر موضوعي لذلك ، وكذا حالات الجيشان الوجداني التي تتبدى خلال مراحل عمره التالية وبخاصة في مرحلتى الطفولة والمراهقة ، إنما تدل على عدم تبلور جانب كبير من الطاقة الوجدانية حول موضوعات محددة ، فلا يكون من مناص أمام تلك الطاقة الوجدانية سوى التفجر في هيئة بكاء مرير أو في هيئة ضحك صاخب دون وجود سبب وجيه للبكاء أو للضحك .

ثالثاً - تبطين الفكر بالطاقة الوجدانية بحيث تكون خادمة له لا سيدة عليه : فالشخص السوي يستطيع أن يقيم فكره على ركائز

وجدانية ولكنه لا ينساق وراء تلك الركائز الوجدانية ، فيسمح لها بأن تأخذ بأعنة فكره ، بل إنه يجعل منها مجرد وسائل تخدم أفكاره فحسب . فهو يعمد إلى الزيادة أو النقصان من تلك البطانة الوجدانية دون أن يحس بأن تلك الزيادة أو هذا النقصان يؤثران من قريب أو من بعيد في جوهر فكره أو في دلالة ما يفكر فيه .

رابعاً - القدرة على لباس الكلام المنطوق بما يناسبه من طاقة وجدانية : فالواقع أن الكلام في أساسه وسيلة لنقل العواطف قبل أن يكون وسيلة لنقل المعاني والأفكار . فقبل نشأة الكلام الذي يحمل المعاني كان هناك الكلام الذي ينقل المشاعر والانفعالات . وما يزال الكلام المعقول يحمل في طياته الكثير من الأصوات التي تشير إلى الأحاسيس الوجدانية . وحتى أكثر الكلام عقلانية يرتكز على خلفية وجدانية . ولكن تلك الركائز الوجدانية يجب أن تكون مناسبة لنوعية الكلام المنطوق . وكلما كان المرء على جانب أكبر من القدرة على تخير الركائز الوجدانية المناسبة لما يفوه به من كلام ، كان بالتالي أكثر قدرة على الإفصاح والإبانة . فالكلام الجيد هو ذلك الكلام الذي يحمل معاني جيدة من جهة ، ويحمل ما يتناسب تلك المعاني من مشاعر وجدانية من جهة أخرى .

خامساً - القدرة على توظيف الطاقة الوجدانية في مواقف الحياة المتباينة : فالحياة بما تتضمنه من مواقف متباينة لا تعتمد على الوقائع الخارجية وحدها ، بل تعتمد أيضاً على ما يدور بدخيلة الناس من وقائع نفسية ومن توظيف لطاقتهم الوجدانية . ولعلنا لا نخطئ إذا زعمنا أن دخائل الناس تشكل الدفة التي توجه الواقع الخارجى بما يحتوى عليه من أحداث ومواقف ومتغيرات . والشخص السوي وجدانياً هو ذلك الذي يكون قادراً على توظيف طاقته الوجدانية التوظيف السليم والمناسب للمواقف والحالات والأحداث المتباينة التي يوجد بها أو التي تحيط به .

ولعلنا نتناول بعد هذا المعايير التي يمكن أن تقاس السوية الوجدانية في ضوءها ، فنجد أن تلك المعايير يمكن أن تتحدد على النحو التالي :

أولاً - معيار التوافق النفسي : فالشخص المتمتع بالسوية الوجدانية يحس بانسجامه مع نفسه وبأنه في حالة توافق داخلي أو بتعبير آخر فإنه لا يكون في حالة من الهياج الوجداني أو في حالة تناقض وجداني أي أن يكون عرضة للصراع النفسي بسبب التيارات المتناقضة والمتصارعة في دخيلته بين الحب والكراهية ، أو بين الرضا والسخط ، أو بين السعادة والشقاء . والواقع أن هذا المعيار يتصف بالذاتية ، ولذا فإنه لا يلقى اعترافاً من قبل الباحثين الذين يعتمدون على المعايير الموضوعية الخالصة من المقومات الذاتية أو من التقديرات الشخصية . ولكن مع هذا فإننا لا نستطيع أن نغضى عن هذا المعيار برغم عدم اعتراف الباحثين به أو استخفافهم بأهميته .

ثانياً - المعيار التكيفي : وهذا المعيار يجمع بين الذاتية والموضوعية . ذلك أن التكيف للواقع الخارجي يعتمد على ما يحس به المرء في دخيلته من مشاعر وبأنه متوافق مع ذلك الواقع ، وأنه لا يجد في دخيلته تعارضاً بين ما يعمل في نفسه من مشاعر وبين ما يتطلبه ذلك الواقع من ألوان سلوكية ومن مواقف أو إتيان بتصرفات معينة ، ومن جهة أخرى فإن التكيف للواقع الخارجي يعتمد على شواهد معينة خارجية تتمثل في مدى انسجام السلوك الشخصي الخارجي مع متطلبات الواقع . ومن المعروف أن من الممكن أن يكون المرء متلوثاً بالوان الواقع الخارجي دون أن يكون منسجماً من الناحية الوجدانية مع متطلبات ذلك الواقع الخارجي . إذن فمن الضروري أن يكون الواقع النفسي الداخلي

والسلوك الخارجي جميعاً في حالة من التوافق والانسجام وعدم التعارض أو التباعد أو التنافر .

ثالثاً - المعيار الاجتماعي : وهذا المعيار يتصف بأنه موضوعي خارجي بحث . فالناس من حول المرء يصدرون أحكاماً على غيرهم بأنهم أسوياء وجدانياً أو غير أسوياء . فالشخص المتمسم بالثبات الوجداني وبالهدوء النفسي كثيراً ما يحظى بالأحكام التي تصدر لصالحه فيقرر المتعاملون معه والقريبون منه والمعاشررون له أنه سوى من الناحية الوجدانية على عكس الشخص سريع الاستثارة أو سريع الغضب . إنه لا يحظى بالحكم لصالحه ، بل يقرر المتعاملون معه أنه غير سوى من الناحية الوجدانية .

رابعاً - المعيار الأخلاقي : وهذا المعيار الأخلاقي صنو للمعيار السابق ، أعني المعيار الاجتماعي . بيد أن المعيار الأخلاقي لا يقتصر على الناحية التقديرية ، بل ينسحب إلى الحكم بالخير والشر ، أو بالصواب والخطأ ، أو بالمناسب وغير المناسب . فالناس في هذا المعيار لا يقررون مدى الإتيان الوجداني أو لا يصدرون أحكاماً سيكولوجية ، بل يصدرون أحكاماً أخلاقية تنصب على ما كان يجب أن يكون ، أو بتعبير آخر فإن تلك الأحكام الأخلاقية تصدر في ضوء مثل أعلى يقاس السلوك الصادر عن المرء في ضوءه . ومن الطبيعي أن تختلف الجماعات بإزاء ما تصدره من أحكام أخلاقية في ضوء القيم الأخلاقية التي تأخذ بها وتقررها . فالخير والشر ، والصواب والخطأ ، والمناسب وغير المناسب تتباين بتباين المجتمعات والبيئات . ومن ثم فإننا لا نتوقع أن تكون الأحكام الأخلاقية بإزاء السوية الوجدانية متطابقة برغم تباين المجتمعات والبيئات .

خامساً - المعيار الصحي : أخيراً نأتى إلى هذا المعيار المتعلق بالصحة النفسية والصحة الجسمية . والواقع أن هناك ارتباطاً وثيقاً وحميماً فيما بين الحياة الوجدانية وبين صحة المرء الجسمية والنفسية . ولعلنا نزعم أن من الواجب النظر بنظرة تكاملية إلى الصحة الجسمية والصحة النفسية . ومن المأخوذ به حالياً هذا الاتجاه التكاملى المعروف باسم **السيكوسوماتيك Psychosomatic** . بيد أن هذا المعيار هو معيار يَعدى أو قل إنه معيار يقيس مدى الخلل أو الانحراف عن السوية الوجدانية أكثر من كشفه عن مدى تمتع المرء بتلك السوية .

وعلينا فى نهاية المطاف أن نلقى بالضوء على أهمية السوية الوجدانية فى حياة المرء . إننا نستطيع أن نحدد تلك الأهمية فى النقاط التالية :

أولاً - الإحساس بالسعادة الشخصية : فالشخص المتمتع بالسوية الوجدانية يستشعر السعادة تخيم على حياته وعلى مشاعره الداخلية ، فيكون شخصية متفائلة مستبشرة بالمستقبل ومتهينة لاستقبال الظروف المفرحة والتي تحمل له تباشير الحياة السعيدة فى المستقبل القريب ، وفى المستقبل البعيد على السواء (أنظر كتاب **التفائل والتشاؤم** ، للمؤلف) .

ثانياً - إسعاد الآخرين : وصاحب الشخصية السوية وجدانياً يكون خليقاً بإسعاد الآخرين المتعاملين معه والمعاشرين له . فهو يكون الابن أو الابنة أو الزوج أو الزوجة أو الأب أو الأم الذى يشيع السعادة فى قلوب الناس من حوله .

ثالثاً - إحراز النجاح فى الحياة : فالشخص المتمتع بالسوية الوجدانية يكون خليقاً بأن يحرز النجاح فى حياته وذلك لأن الهدوء النفسى الذى يعتبر القرنين أو الصنو للسوية الوجدانية يضى على المرء قدرة على التفكير الهادئ الرصين وعلى استئثار

ما وهبه من نكاه وقدرات عقلية ومهارات متباينة . هذا بالإضافة إلى ما يتمتع به من إصدار لأحكام صائبة فيما يتصدى للحكم عليه من مسائل وموضوعات ومواقف متباينة .

رابعاً - مساعدة الآخرين ومساندتهم : وصاحب السوية النفسية الوجدانية يكون مؤهلاً بالقدرة على مساندة الآخرين نفسياً واجتماعياً معاً . فالشخص الذى يتمتع بالسوية الوجدانية يكون خليقاً بإضفاء روح الهدوء النفسى على غيره ، بل إنه يستطيع أن يستقطب الهياج النفسى المشتعل فى قلوب المضطربين نفسياً دون أن يكون عرضة لانتقال ذلك الاضطراب النفسى إلى قوامه الداخلى .

خامساً - الاستمرار فى الاكتساب الخبرى والإبانة الخيرية : فالشخص المتمتع بالسوية النفسية الوجدانية يكون قابلاً للاستمرار فى النمو الخبرى بغير توقف أو تعثر أو بغير شعور باليأس والقنوط أو بعدم القدرة على الاستمرار فى التقدم فى اكتساب المعرفة وهضمها وبالتالي الإبانة عنها وتقديم الجديد فيما يقول أو يكتب . ولسنا نغالى فى الواقع إذا ما قررنا أن جميع النابهين من الفلاسفة والعلماء والحكماء والأدباء والفنانين يتمتعون بالسوية الوجدانية . وحتى أولئك الذين يتهمون بالانحراف النفسى وبعدم الاستقرار الوجدانى ، فإنهم وقت انخراطهم فى إنشاءاتهم الإبداعية يكونون فى حال من الاستقرار الوجدانى . ذلك أن من المستحيل أن يقوم المرء بتقديم أى عمل إبداعى وهو فى حالة هياج وجدائى لا يبقى ولا يذر .

المعنى العقلانى : علينا أن نبدأ بتحديد الشروط الواجب توافرها حتى يتسنى توافر الحياة العقلية السوية للمرء ، والشروط هى :

أولاً - ضرورة توافر المقومات الوراثية المتعلقة بالجهاز العصبى وتوافر الظروف المناسبة لنموها واعتمالتها حتى الثامنة عشرة : فالواقع أن الحياة العقلية وإن كانت تتأثر بما تتلقاه من الخارج من مؤثرات بيئية ، فإنها نشاط انبثاقى من دخيلة المرء . فكان النشاط الذهنى الذى يضطلع به المرء عبر مراحل عمره المتعاقبة هو نتيجة التفاعلات المستمرة فيما بين آخر مستوى بلغه نتيجة التفاعلات المتعاقبة التى تتم فى قوامه الذهنى وبين المؤثرات الخبرية الجديدة ، بل وفى نطاق مقومات المركب الذهنى ذاته الذى بلغه المرء . وبتعبير آخر فإن الحياة الذهنية للمرء هى حياة دينامية بل إنها سلسلة من الأحداث العقلية المتلاحقة والمتدفقة معاً .

ثانياً - ومن شروط السوية العقلانية تمتع الجهاز العصبى المركزى بالسوية من حيث مستوى نمو مقوماته وتكاملها وخلوها من العطب : فالجهاز العصبى المركزى الذى يتكون من المخ والمخيخ والنخاع الشوكى لا يقوم بإفراز الأفكار كما تفرز الغدد الدمعية الدموع من العينين ، وإنما تتأتى الأفكار نتيجة قيام علاقات معينة بين أجهزة الحس وبين مراكز الترجمة بالمخ ، ثم بين المدركات الحسية التى تتأتى نتيجة هذه الترجمة وبين أجهزة المخ الأخرى . والواقع أن العمليات العقلية لا تعتمد على ما يتم استحداثه من مدركات حسية ، بل تعتمد أيضاً على ما تم تخزينه من خبرات وأيضاً على ما يتوقع حدوثه فى المستقبل . ناهيك عن ترابط الأنشطة العقلانية بالأنشطة الوجدانية والأنشطة الإرادية بعضها ببعض .

ثالثاً - ومن شروط السوية العقلانية سلامة أجهزة الحس الخمسة ومراكز الترجمة الخاصة بها بالمخ : فالحواس الخمس هى النوافذ التى تطل من خلالها على الواقع الخارجى ، ولتى عن

طريقها ننلقى خبراتنا التى نعيش عليها ولتى تتشكل منها إبتئناً . ومن الجدير بالملاحظة أن ثمة تعاوناً وتكاملاً وترابطاً فيما بين أجهزة الحس المتباينة . وبالتالي فإن المدركات الحسية التى تتأتى عن عمل تلك الأجهزة تتسم بالتكامل والتضامن والاتساق بحيث تلتئم جميعاً فى حزمة واحدة ، ويكون إدراك المرء للواقع الخارجى إدراكاً كلياً شاملاً . ناهيك عن أن الإدراك اللاحق يرتبط ارتباطاً حميماً بما تم إدراكه قبلاً . فثمة ما يشبه السلسلة التى تتداخل حلقاتها بعضها فى بعض بحيث تكون هناك تداخلات فيما بين السابق واللاحق من المدركات ، أو قل إن هناك تداخلاً فيما بين التذكر والإدراك . فنحن لا ندرک الأشياء بدءاً بل ندرکها بالتعرف ، أى عن طريق ربط الجديد الذى يتم إدراكه بالقديم الذى يتم تذكره .

رابعاً - تكامل الوظائف العقلية الإدراكية والتذكرية والتخيلية والارتفاع بها إلى مستوى المفاهيم المجردة : فمن شروط السوية العقلانية تمتع المرء بالتكامل فيما بين أنشطته الذهنية المتباينة . فالمدركات الحسية تستحيل إلى نشاط ذهنى تذكرى ، وكذا فإن المدركات والمنتكرات تستحيل فى جانب منها إلى أخيلة ، كما أن النشاط الذهنى يرتفع إلى مستوى التجريد والتعميم ، فيستخدم المرء المفاهيم المجردة كرموز بديلة للواقع الحسى الموجود بالواقع الخارجى . وبتعبير آخر فإن عالماً ذهنياً مستقلاً ينشأ فى عقل المرء يكون فى خط متواز مع العالم الخارجى ، ويستمر التفاعل بين العالمين . فبينما يعمل العالم الخارجى على تغذية العالم الداخلى ، فإن العالم الداخلى يحاول السيطرة على العالم الخارجى ويستثمره ويوجهه الوجهات التى يريدتها أو التى تخدم مصالحه وتحقق أهدافه المتباينة .

خامساً - القدرة على الإفصاح والبأس الأفكار ما يناسبها من كلام منطوق أو مكتوب : فمن شروط السوية العقلانية القدرة على الإبانة السليمة بحيث يأتي الكلام المنطوق أو الكلام المكتوب على مقياس الأفكار والمشاعر التي تجول بخاطر المرء . فالشخص السوي عقلاً لا يعبر بكلام أكثر من المعنى المطلوب أو أقل منه ، كما أنه يتحدث أو يكتب بطريقة سليمة ، فلا يستخدم الألفاظ أو المسميات في غير ما جعلت له من أغراض ، ويكون نطقه للكلام بالطريقة السوية غير المشوبة بالخلط أو العوجاج أو العجز عن التعبير أو التردد واللجلجة والتهتبه أو اللكنة أو غير ذلك من عيوب النطق . فثمة في الواقع توازن فيما بين النشاط الذهني والنشاط الإفصاحي أو التعبيري . وثمة سرعة واحدة يجب أن تراعى فيما بين التفكير والتعبير . فإذا زادت سرعة التفكير عن سرعة التعبير أو إذا زادت سرعة التعبير عن سرعة التفكير ، فإن هذا يشير إلى وجود عوجاج في مدى تمتع المرء بالسوية العقلانية .

وعلى ما بعد هذا أن نسلط الضوء على أهمية السوية العقلانية .
إننا نستطيع استبانة هذه الأهمية في المناحي التالية :

أولاً - صحة المرء النفسية : فمن يفتقد سويته العقلية يكون بالتالي عليل النفس ومريض الشخصية . وعلى العكس من هذا فإن صاحب العقل الرصين والراجح يكون متمتعاً بموفور الصحة النفسية . وغنى عن القول أن ثمة وشائج قوية ومتينة فيما بين السوية العقلانية والسوية الوجدانية . فمن انحرف عقله عن السوية ينحرف وجدانه بالتالي عنها ، وكذا فإن من ينحرف وجدانه عن السوية ينحرف عقله . ويتعبير آخر فإن ثمة تأثيراً متبادلاً فيما بين العقل والوجدان . فالاضطرابات العقلية كثيراً ما تكون صدى للاضطرابات الوجدانية ، تماماً كما أن الاضطرابات الوجدانية كثيراً ما تكون صدى للاضطرابات العقلية .

ثانياً - علاقة المرء بالآخرين : فالتفكير السوي أساس لازب في إقامة العلاقات السوية بالآخرين . ولعلنا لا نبالغ إذا ما قررنا أن الغالبية العظمى من الخلافات والمشاحنات التي تنشأ بين الأفراد بعضهم وبعض ، أو بين الجماعات بعضها وبعض ، إنما يكون العامل الرئيسي فيها عوجاج الفكر عن السوية وما ينشأ عن ذلك من عوجاج في الوجدان والإرادة جميعاً . فلو صح التفكير لتخلص الناس بالتالي من الغالبية العظمى من الخلافات والمنازعات والمشاحنات . فالسعادة لا تترف إلا على من وهبوا فكراً سيدياً يسرون به حياتهم ويوجهون في ضوئه تصرفاتهم ويتخذون بواسطته مواقفهم ويحددون في هديه اتجاهاتهم في الحياة .

ثالثاً - التقدم الحضارى والثقافى : فالتقدم الحضارى - كأننا ما يكون - لا يتسنى تحقيقه إلا إذا توافرت العقلية السليمة وشروط التفكير السديد للممكين بأزمة الحضارة ومفود الثقافة . فما لم تتوفر المناهج العلمية التي تتبعها العلوم والتكنولوجيا ، فإن من المتعذر إذن التقدم خطوة واحدة إلى الأمام في مراقي الحضارة والثقافة . وما يعلّق بسير الممكين بزمام الحضارة والثقافة من شذوذ في التفكير أو عوجاج عن السوية ، إنما هو في الواقع شذوذ إلى أعلى ، أعنى أنه فوق السوية وليس أدنى منها ، كما أن العبقرية كثيراً ما تنتهـم بالخروج عن السوية لبعدها شقتهـا عن المستوى العام الشائع بين جمهرة الناس . فالنتدر على العباقرة هو نتدر العاجزين عن الارتقاء إلى مستواهم والنظر إليهم بدهشة لاختلافهم وتباينهم عن المؤلف المستساغ ، ولكن يكفى أن نقول إنه لولا العبقرية والعباقرة لما كنا نستظل بظل الحضارة العظيمة التي ننعـم بها .

رابعاً - الركائز التي تقوم عليها القيم الأخلاقية : فلولا ما أهل به الإنسان من قدرة على وزن الملوك بميزان منطقي

عقلاني، لما كان له إذن أن يميز الغث من السمين، أو الشر من الخير، أو الطلاح من الصلاح. فالتقييم الأخلاقي هو في جوهره تقييم عقلاني أو قل إن تقييم المشاعر والتصرفات يبنى على أسس عقلانية معيارية. ولولا ما ينعم به المرء من قدرة على التقييم العقلاني لما استطاع أن يصدر أحكاماً أخلاقية سديدة، ولما استطاع بالتالي أن يعدل من سلوكه وسلوك الآخرين، ولما استطاع أن ينشئ فلسفات أخلاقية متباينة وخصبة.

خامساً - الركائز الدينية الروحية : فلولا ما أنعم به على الناس من سوية عقلانية، لما كان لهم إذن أن يتلقوا رسائل السماء، ولما استطاعوا أن يفهموا ما يأمرهم به دينهم أو ينهاهم عنه. فكل ما يشتمل عليه الدين يعتمد في الواقع على قدرة المتلقي على التفكير العقلاني السديد. صحيح إن الإيمان الديني يعتمد على التسليم تسليمًا قَبْلِيًّا بما ورد بنصوصه، وأن التفسيرات والشروح الدينية إن هي سوى تفسيرات وشروح تأكيدية وليست تفسيرات وشروحاً نقدية، ولكنها على كل حال تعتمد على العقل والتفكير المنطقي. وعلينا في نهاية المطاف أن نعرض لما يمكن أن يصيب السوية العقلانية من اعوجاجات. إننا نستطيع أن نحدد تلك الاعوجاجات على النحو التالي :

أولاً - العطب الفسيولوجي : فما قد يصيب المخ من أورام أو من أمراض متباينة يمكن أن يحدث انحرافاً في مسيرة التفكير السليم، فلا يتسنى للمرء أن يصدر الأحكام الصائبة على ما يعرض له من أمور، بل إنه قد يهبط في مستواه التفكيرى إلى مستوى منخفض تماماً، فيكون بحاجة إلى من يأخذ بيده أو يفكر له ويصدر القرارات المتباينة بدلاً منه.

ثانياً - الأمراض النفسية الوجدانية : فلقد يصاب الإنسان بالأفكار الثابتة أو بالوساوس أو بأفكار الإشارة أو بالهلوسات أو بغير ذلك من أمراض نفسية وجدانية تنحرف به عن القدرة على التفكير السليم أو على إصدار القرارات الصائبة.

ثالثاً - الانحياز والتعصب : ومن عوامل الانحراف عن السوية العقلانية إصابة المرء بالانحياز إلى أفكار معينة أو التعصب ضد أفكار أخرى. ذلك أن من شروط الفكر السوى التجرد من الهوى والتخلص من عوامل الانحراف إلى أفكار معينة أو مناهضتها نتيجة بعض العوامل الوجدانية التي تكون في الغالب عوامل لا شعورية لا يحس المرء بوطأتها عليه واعتمالها في مقوماته.

رابعاً - الاعتماد على فروض خاطئة : فما يبنى من فكر على فروض خاطئة يسلم بها صاحب ذلك الفكر، إنما يكون فكراً خاطئاً. فما يبنى على الباطل فهو باطل أيضاً. والواقع أن الكثير مما يبرهن على فساده من الفكر يكون قد بنى على أسس باطلة أو على فروض اعتقد في صوابها مع أنها فروض خاطئة.

خامساً - المعتقدات الخرافية : وكذا الحال بإزاء المعتقدات الخرافية التي تشيع في عقول كثير من الناس. إن تلك المعتقدات التي لا أساس لها من الواقع الخارجي تدفع بالمعتقدين فيها إلى إقامة آبنية عقلية زائفة. فلكم وقع الناس في هذا المطب من الفكر الزائف بسبب ما يؤمنون به من خرافات ليس لها أى أساس من الصحة أو الواقعية.

المعنى التكيفي :

علينا أن نتناول أولاً الزوايا المتعددة التي يجب أن ننظر منها إلى التكيف السوى. إننا نستطيع أن نحدد تلك الزوايا على النحو التالي :

أولاً - إن التكيف السوي لا يعنى التلون والتشكل وفق الألوان والأشكال المحيطة بالمرء : فالواقع أن التكيف السوي يتسم بتحكم المرء من دخيلته وعدم الخضوع للضغوط التي تقع عليه من الخارج . وبتعبير آخر فإن التكيف السوي يحتم استمساك المرء بأينته وجوهريته شخصيته وأن يستمر مقيود سلوكه في يده فلا يقلت منه فيمسك به الأشخاص المتعاملون معه أو الظروف والمواقف التي تكتنفه .

ثانياً - إن التكيف السوي يكون تكيفاً للمرء نفسه من جهة وتكيفاً للواقع الخارجى من جهة أخرى : ويعنى هذا فى الواقع أن التكيف السوي يتضمن فى معناه التكيف أيضاً . فالمرء السوي لا يستمر فى تكيف نفسه للواقع الخارجى ، بل إنه يكيف نفسه لذلك الواقع الخارجى أحياناً ، كما أنه يقوم بتكيف ذلك الواقع الخارجى لواقعه الداخلى أحياناً أخرى . وبتعبير آخر فإن المرء السوي يكون متأثراً فى بعض المواقف ، كما يكون مؤثراً فى مواقف أخرى . فهو يأخذ ويعطى ، ويغير من نفسه ويغير من الآخرين والأشياء والأحوال والمواقف أيضاً ، وهو يكون متبصراً بما يحيط به من أشياء ولا يكون كرشية فى مهب الريح . أو قل إنه فى جميع الحالات يكون هو المسيطر على عملية التكيف . فحتى فى الحالات التي يتكيف فيها مع الواقع الخارجى ، فإنه يكون مدركاً وراعياً ومريداً لذلك التكيف . ومن الطبيعي أنه يفعل الشيء نفسه بإزاء قيامه بتكيف الواقع الخارجى لواقعه الداخلى . فهو يكون مدركاً وراعياً ومريداً لذلك التكيف والتعديل والتطوير والحذف والإضافة التي يدخلها على الواقع الخارجى المحيط به .

ثالثاً - تحقيق المعادلة الصعبة بين المبادئ الأخلاقية الإيجابية وبين النتائج السلبية المتأتية عن السلوك : فهل يستمسك المرء بالمبادئ الأخلاقية الإيجابية كالصدق مثلاً فى كل موقف وفى كل وقت ومع كل إنسان مهما كانت النتائج المترتبة على قول الصدق خطيرة أو مدمرة أو ضارة ، فيكون تكيفه للمبادئ الأخلاقية والتزامه باتباعها هو الأساس فى سلوكه ، أم أن يزن ما يجب اتباعه بميزان النتائج المتأتية عن السلوك المتبع فيكيف سلوكه للمبادئ الأخلاقية ، بل لما يتوقعه من نتائج ؟ وبتعبير آخر هل على المرء أن يكيف نفسه للإطلاق أم للسلبية ، وهل يكيف نفسه لمثل عليا تجريدية لا تخضع للقياس بالنفع والضرر ، أم أن عليه أن يلوى عنق المبادئ الأخلاقية بحيث تطأطأ رأسها لما يمكن أن يتأتى من نتائج تقاس فى ضوء مدى اللذة والألم ، أو فى ضوء مدى النفع والضرر ، أو فى ضوء مدى السعادة والشقاء ؟ إننا نجد أمامنا هنا نوعين من التكيف : أحدهما تكيف للأفكار الإيجابية التي تسمى مبادئ ، والآخر تكيف لما يبدو أو يمكن أن يبدو من نتائج قريبة أو بعيدة ، ذاتية أو غيرية ، قليلة أو كثيرة ، مؤقتة أو دائمة . من الطبيعي أن يقع المرء على نوع من هذين النوعين يضم صوته إليه . وحتى إذا هو حاول التوصل إلى حل لهذه المعادلة الصعبة والتوفيق بين هذين الطرفين ، فإنه سوف يجد نفسه فى النهاية منحازاً أو متعاطفاً مع طرف منهما على حساب الطرف الآخر .

رابعاً - النظرة الآتية والنظرة المستقبلية : والتكيف السوي يجب أن يأخذ فى اعتباره زاويتين : زاوية الموقف الراهن من جهة ، وزاوية المستقبل القريب والمستقبل البعيد من جهة أخرى . ومن الخطأ أن يجتزئ المرء بالتكيف للحظة الزائلة التي يحيا فى إطارها ، بل عليه أن يتدرج بنظرة مستقبلية أيضاً إلى ما يتوقع

حدوثه . وأكثر من هذا فإن على الإنسان العاقل أن يأخذ في اعتباره الماضي والحاضر والمستقبل جميعاً . ذلك أن الأضلاع الثلاثة للزمان ليست منفصلة بعضها عن بعض ، بل أكثر من هذا فإن الزمان والمكان متعانقان أو متفاعلان أو أنهما صنوان أو قسيمان لا يفترقان بعضهما عن بعض ، فليس هناك زمان بغير مكان ، كما أنه لا يوجد مكان بغير زمان . والنظرة الحديثة إلى الزمان والمكان هي نظرة زمكانية تدمج الزمان والمكان معاً في كيان واحد وفي مفهوم واحد وفي لفظ واحد .

خامساً - التكيف النفسي والتكيف الأخلاقي : كثيراً ما يقف التكيف النفسي في تعارض مع التكيف الأخلاقي . فخذ مثلاً لذلك بالتكيف الجنسي . إن ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية تحول دون تكوين أسرة في المراهقة أو حتى في الشباب ، بينما تكون الرغبة الجنسية على أشدها خلال هاتين المرحلتين . فيكون على المراهق والمراهقة والشاب والشابة أن يقع اختيارهم إما على التوافق النفسي بالعمل على إشباع الرغبة الجنسية وإما على التوافق الأخلاقي بقمع تلك الرغبة والحيلولة بينها وبين الإشباع فيتحقق التكيف الأخلاقي على حساب التكيف النفسي . وهكذا فإننا نجد أن الكثير من الناس يكونون متكيفين تكيفاً أخلاقياً سويّاً ولكنهم لا يكونون متكيفين تكيفاً نفسياً سويّاً .

وعليتنا أن نقدم بعد هذا العقبات التي تحول دون تحقيق التكيف السوي في حياة المرء للمواقف المتباينة . والعقبات هي :

أولاً - العقبات الوراثية والاستعدادية : فعلى الرغم من أننا نؤمن بالتفاعلات الخيرية المتتالية في حياة المرء منذ بدء تكوينه حتى اللحظة الأخيرة التي يعيشها ، فإننا نؤمن في المقابل بأن المرء مقيد بالاستعدادات التي جبل عليها . ذلك أن التفاعلات الخيرية

لا تستطيع أن تنشئ لديه أو تغرس فيه استعدادات غير مجبول عليها . فالواقع أن التفاعلات الخيرية لا تتم إلا بإزاء الموجود بالوراثة . فالشخص الذي لم يرث استعدادات لتعلم المهارات اليدوية ، لا يستطيع أن يتفاعل خبرياً مع الإمكانيات العملية الأدائية الخاصة بالمهارات اليدوية . وقل الشيء نفسه بإزاء جميع الاستعدادات المتباينة . فالتفاعلات الخيرية لا تخلق في شخصية المرء ما ليس موجوداً لديه ، بل هي تستثمر ما هو موجود وموروث بالفعل . فإذا لم تكن الاستعدادات متوافرة بالوراثة ، فإنه لا يستطيع أن يتكيف للواقع الخارجي الذي يطالبه بالقيام بممارسات معينة أو الاضطلاع بأنشطة بالذات .

ثانياً - عقبات لا شعورية : ومن العقبات التي تقف حائلاً دون التكيف السوي اكتساب المرء لمقومات لا شعورية تشكل سدوداً منيعة بينه وبين التكيف السوي للواقع الحي الذي يحيط به . فلقد تعمل المقومات اللاشعورية المكبوتة التي نتجت عن قسوة مدرس الرياضيات على سد المنافذ أمام إمكان قيام هذا الشخص بالتقدم خطوات حثيثة في العلوم الرياضية سواء في طفولته أم في مراهقته أم خلال أعمارها التالية جميعاً ، وفي جميع الظروف والمواقف المتباينة . ولسنا نشك في أن الكثير من ألوان العجز عن التكيف السوي أو الإتيان بألوان التكيف الشاذ إنما يعزى في نهاية الأمر إلى تلك المكبوتات اللاشعورية التي تشكل سدوداً أو حواجز بين المرء وبين ملاءمة نفسه مع المتطلبات الحياتية المختلفة .

ثالثاً - عقبات حضارية : ومن العقبات التي تقف حائلاً بين المرء وبين إحراز التكيف السوي الناجح في الحياة تلك العقبات التي تترتب على اختلاف المستوى الحضاري الذي بلغه المرء عن المستوى الحضاري السائد بالمجتمع الذي يوجد به . فالقروى الذي

ينزح إلى المدينة ، أو المهاجر من أحد الأقطار العربية إلى قطر لا يجيد لغة التخاطب به أو لا يجيد أساليب التعامل السائدة به لا يكون خليقاً بأن يتكيف تكيفاً سوياً معه ، بل يكون ملفوظاً منه ونابياً عنه .

رابعا - عقبات قيمية : وهى العقبات المتعلقة بالقيم الدينية والقيم الخلقية والقيم الجمالية والقيم المادية . فتباين الفرد بإزاء هذه القيم عما يسود مجتمعه يجعله فى حالة من العجز عن التكيف تكيفاً سوياً لما ينحو إليه ذلك المجتمع من تقييمات .

خامسا - عقبات معرفية : فالشخص الذى لا يستمر فى النمو معرفياً فى المجال الذى تخصص فيه يفقد ما كان يتمتع به قبلاً من تكيف سوى للعمل أو المهنة أو التخصص الذى كرس نفسه له . فالطبيب الذى لا يتوأكب مع التذفقات الطبية المستمرة فى مجال تخصصه الطبي يجد أن السجادة قد سحبت من تحت قدميه ، ولم يعد قادراً على مسابرة الركب الطبي فى مسيرته العلاجية والوقائية . وحتى إذا هو تظاهر بمواكبة التقدم فى مجال تخصصه الطبي فإن هذا التظاهر لا ينطلى على زملائه وأسائذته ، بل يكشفون عن جهله لدى حضوره المؤتمرات والندوات الطبية .

الفصل الثانى

خصائص الشخصية السوية

النمو المتوازن :

نعنى بالنمو المتوازن تعاون كل منحنى من مناحى النمو مع جميع المناحى الأخرى وعدم طغيانه أو تعطيل عمل أى منحنى من تلك المناحى . ويتعبير آخر أن يكون نمو كل منحنى من مناحى النمو بغير زيادة أو نقصان عن الحد الواجب والمناسب . فالشخصية السوية تتمتع بحصيلة نمائية ممتازة بفضل خضوع كل أجهزتها لمبدأ العدالة النمائية . فكل جهاز من أجهزة تلك الشخصية لا يطمح إلى بلوغ مستوى من النمو أعلى من المستوى الذى له الحق فى أن يبلغه ، كما لا يتقاعس عن بلوغ المستوى النمائى الذى من حقه أن يصل إليه .

وأكثر من هذا فإن على كل جانب نمائى بالشخصية السوية أن يكون مستعداً لتعويض النقص النمائى الذى يبدو فى جانب أو أكثر من الجوانب النمائية الأخرى . فإذا ما حدث قصور فى النمو الإبصارى ، فإن النمو السمعى يتقدم حينئذٍ للتعويض عما لحق البصر من ضعف أو من عمى كلى . وكذا الحال بإزاء جميع جوانب النمو المتباينة . فالشخص الذى لم يحظ بجسم قوى ولم يقيض له النمو البيولوجى السوى ، يجد أن لديه ما يعوضه عن النقص فى نموه الجسمى بما يصل إليه عقله من نمو . فأنشطته العقلانية تعوض العجز عما تبدى لديه من قصور فى أنشطته الجسمية .

وثمة خصيصة أخرى من خصائص النمو المتوازن هي الابتنائية . فالنمو الوجداني هو انبثاق من النمو البيولوجي بمعنى أن النمو البيولوجي عندما يبلغ مستوى معيناً ، عندئذ يبرز النمو الوجداني . فالجنين في الشهور الأولى من تكوُّنه يكون عبارة عن كائن حي لا يبدي نشاطاً يمكن وصفه بأنه نشاط وجداني . ولكن مع استمراره في النمو في بطن أمه ثم مع خروجه من بطنها بالميلاد ، فإنه يكون قد بلغ مستوى نمائياً يسمح بالنبثاق مستوى جديد من النمو هو المستوى الوجداني الذي يعبر عن نفسه من خلال الانفجار في البكاء بعد ميلاده مباشرة . وقل الشيء نفسه بلزاء جميع جوانب النمو الأخرى ، فالنمو العقلاني انبثاق من النمو الوجداني ، والنمو الإفصاحي الكلامي انبثاق من النمو العقلاني والنمو الوجداني ، والنمو الاجتماعي انبثاق من النمو الكلامي والنمو العقلاني والنمو الوجداني .

والنمو المتوازن لا يتبدى توازنه في نطاقه الداخلي فحسب ، أعنى في نطاق النمو نفسه ، بل يتبدى أيضاً في النطاق الخارجي ، أعنى في علاقة النمو بالمواقف والوظائف المتوقعة أو المرجوة من المرء . فثمة توازن بين مستوى النمو الذي يبلغه المرء وبين الأنشطة الخارجية التي يقبل على الإتيان بها أو التي يطالبه المجتمع من حوله بأن يضطلع بها . فثمة توازن فيما بين النمو الوجداني والعقلاني والكلامي والاجتماعي وبين الانخراط في السلم التعليمي . وثمة توازن فيما بين النمو في جبهات الشخصية المتباينة التي يبلغها الشاب أو الشابة وبين انخراطه في السلك الوظيفي وتحمل مسؤوليات الحياة العملية . وثمة توازن نمائياً بين النضج الجنسي وبين تأسيس أسرة بالزواج . ولكن تأسيس أسرة جديدة لا يستند إلى بلوغ مستوى النضج الجنسي فحسب ، بل يستند أيضاً إلى مناح أخرى كثيرة من مناحي نمو الشخصية . وكلما كانت تلك

المناحي المتباينة متواكبة مع النضج الجنسي السليم ، فإن الزواج يكون بالتالي ناجحاً .

ومن خصائص النمو المتوازن أيضاً البدء من الخاص والانتهاه إلى العام ، أو بتعبير آخر البدء من الدوائر الضيقة والانتهاه إلى الدوائر الواسعة ، وأضيق دائرة من دوائر النمو هي دائرة النمو البيولوجي ، وأوسع دائرة هي دائرة النمو الاجتماعي . على أن هذه الدائرة الأخيرة تضم في نطاقها دوائر متباينة الاتساع تبدأ بأضيقها نسبياً وتنتهي بأوسعها . ولعلنا نزع من أن أضيق دائرة من تلك الدوائر المنخرطة في نطاق النمو الاجتماعي هي الدائرة التكيفية للبيئة المحلية التي تحيط بالمرء ، ثم تتوالى الدوائر الاجتماعية في الاتساع نتيجة الانفتاح على بيئات اجتماعية أوسع تنتهي ببيئة المجتمع العالمي بأسره .

ومن خصائص النمو المتوازن أيضاً الانفتاح على الواقع المحسوس من جهة ، والانفتاح إلى عالم الرموز والأفكار المجردة من جهة أخرى . وهذان النوعان من الانفتاح يتوازيان مع النمو المعرفي المتمثل في النمو المعرفي الإدراكي الحسي ، وفي النمو المعرفي التذكرى ، وفي النمو المعرفي التخيلي ، وفي النمو المعرفي التصوري المتعلق بالمفاهيم المجردة . وكلما كان كل مستوى من هذه المستويات المعرفية على جانب كبير من المتانة والنمو السليم والمستمر ، كان هذا أذعى لضمان نمو المستويات التالية من النمو العقلي بطريقة سوية وسليمة ومكينة .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن أهمية تحقيق المرء للنمو المتوازن في جميع مناحي شخصيته . إننا نستطيع أن نحدد تلك الأهمية في النقاط التالية :

أولاً - تحقيق الحرية النفسية : فالواقع أن الحرية النفسية

تعنى تفتيق الاستعدادات الشخصية النمائية وإخراجها من حيز الكمون إلى حيز الواقع الخارجى السلوكى . وعدم تحرير تلك الطاقات النمائية معناه مصادرة الحرية النفسية للمرء وسجنه فى الإطار الذى بلغه دون تنسُّمه للأطر الأخرى الأوسع نطاقاً والأكثر رحابة . فكلما استطاع المرء أن يحقق قدرًا أكبر من النمو فى كل جانب من جوانب شخصية بحيث لا يطغى أى جانب منها على غيره من جوانب ، ويحيث لا يتخلف فى نموه عن المستوى الواجب بلوغه ، كان بالتالى أكثر تمتعًا بالحرية النفسية . فالحرية النفسية هى تحقيق النمو المتوازن فى أعلى مراتبه وعلى أوسع نطاق ممكن وفى الجبهات المترامية أمام الشخصية . وليس من شك فى أن الحرية النفسية نسبية ، فمجال النمو منفتح أمام الشخصية بلا حدود . ولعلنا نزعم أن الفيلسوف أو العالم أو الأديب أو الفنان أو المخترع هم أشخاص تسنى لهم أن يتمتعوا بمستويات نمائية وبتفتيق ما لديهم من إمكانات استعدادية لا تتسنى للأشخاص الذين لم يتمكنوا من تفتيق مواهبهم فظلوا أسرى الموجود ، أعنى ما سبق للمبدعين تقديمه إلى البشرية من إبداعات ، فأخذوا يستهلكون ما هو مطروح بالفعل أمامهم دون أن يساهموا بتقديم جديد غير مسبوق .

ثانيًا - تحقيق السعادة الشخصية : والنمو المتوازن الذى يقبض للمحوظين من الناس هو الكفيل بتوفير التوازن النفسى لهم ، أو قل إنه الخليق بمنحهم نوعًا من الرضا الذاتى والخلو من القلق الذى ينشأ لدى غير المتمتعين بالتوازن النمائى نتيجة عدم الانساق فى نمو جميع قطاعات الشخصية بشكل سوى . ومما لا شك فيه أن الشخص المتمتع بالنمو المتوازن يجد أن الطريق إلى

النمو المستمر مفتوح أمامه على عكس الشخص الذى يجد طريق النمو أمامه مسدودًا . فالواقع أن الكثير من الناس يتوقفون عن النمو وذلك لأنهم يكونون أسرى النمو البيولوجى وهو النمو الذى يتوقف مع بلوغ الثامنة عشرة تقريبًا . فهم بعد هذه السن يتوقفون عن النمو فى القطاعات الأخرى من شخصياتهم . وعلى العكس من هذا فإن المتمتعين بالنمو المتوازن يستمرون فى نموهم متمولين آفاقًا متجددة باستمرار فى المجالات النمائية ومستثمرين ما بلغوه من مستويات نمائية للتقدم خطوات جديدة من النمو وهى المستويات التى سبق أن عرضنا لها .

ثالثًا - تحقيق التوافق الاجتماعى : فالمجتمع - سواء بالمعنى الخاص ممثلًا فى المجتمع المحلى أم بالمعنى العام المتمثل فى المجتمعات البعيدة مكانًا أو زمانًا أو مكانًا وزمانًا معًا - مستمره فى النمو أمام المرء . فما يتسنى له معرفته والوقوف عليه مما هو شائع بأحد المجتمعات البعيدة عنه أو مما كان شائعًا بالمجتمعات التى اندثرت ، أكثر مما تحتمله قدراته العقلية والنشاطية . ومعنى هذا فى الواقع أن على الفرد أن يستمر فى النمو المعرفى حتى يتسنى له أن يتوافق مع التطورات الاجتماعية المتلاحقة ، وهى التطورات النمائية التى تتدفق مع تدفق التكنولوجيا ومع تدافع التطورات الاجتماعية الحضارية التى لا تتوقف عند حد . فالنمو الخبرى المتوازن والمستمر والتمتع والمفتوح على الواقع الاجتماعى المتطور باستمرار هو شرط لما يمكن أن يبلغه المرء من توافق اجتماعى ، ومن انسجام مع التطورات الاجتماعية المتدفقة من حوله . ومما لا شك فيه أن على الإنسان الحديث أن يستمر فى نموه المتوازن حتى يتسنى له أن يلاحق التطورات المذهلة التى تحدث حوله فى بيئته المحلية وفى بيئاته الأوسع نطاقًا التى تضم فى نهاية

المطاف البيئة العالمية التي صارت مؤثرة فيه أكثر فأكثر حتى لكان إنسان اليوم يعيش في قرية صغيرة تُسمع أصداء الساكنين فيها من جميع سكانها .

رابعا - تحقيق التقدم في الحياة : من المؤكد أن التقدم في الحياة واحتلال مكانة مرموقة بها مرهون بتحقيق النمو المتوازن والمستمر والمنفتح على مجالات متباينة كثيرة ومتداخلة ومتفاعلة بعضها مع بعض . فالواقع أن النمو المتوازن ليس نموًا داخليًا فحسب . بل هو نمو تفاعلي مع واقع الحياة حول المرء . فثمة تفاعلات مستمرة تعتمل فيما بين دخيلة المرء وبين الواقع والأحداث المحيطة به . وكلما كانت تلك التفاعلات على جانب أكبر من الدقة والاستمرارية والتنوع ، فإن نجاح المرء في الحياة يكون مكفولًا بدرجة أكبر من الاحتمال . والتقدم في الحياة يجب ألا يقاس في ضوء الثمار المتأتية فحسب ، أعنى في ضوء ما يحصل عليه المرء من فوائد مادية . فالجانب الاقتصادي لا يمثل سوى جانب واحد ربما لا يكون أهم جوانب التقدم في الحياة . ولقد نقول إن المال الذي يعود على المرء من كفاحه في الحياة هو ثمرة ونتيجة وليس غاية أو وسيلة . فالوسيلة والغاية تختلفان عن الثمار المادية المتأتية عن الاستعانة بالوسيلة والصبو إلى تحقيق الغاية . فالفيلسوف والعالم والمخترع والأديب والفنان لا يحرزون المال الكثير كما يمكن أن يحرزه المقاتل أو التاجر ، ولكن مما لا شك فيه أن وسيلة وغاية الفيلسوف والعالم والمخترع والأديب والفنان أكثر رقيًا من وسيلة المقاتل أو التاجر ، وذلك لأن ما يستعين به كل منهم وما يهفو إليه من غايات يتسم بالإبداع غير المسبوق ، بينما يخضع المقاتل أو التاجر لأطر تطبيقية لما سبق أن وضعه المبدعون في المجالات التي يمارسانها . فالتقدم الذي يحرزه المبدعون ينشأ عن

استمرارهم في النمو والتطلع إلى آفاق جديدة لم يتشوقها أحد من قبل ، أعنى تمتعهم بالإبداعية التي تتناولها في البند التالي .

خامسا - تحقيق الإبداعية : فالنمو المتوازن هو الخليق بالتقدم حثيثًا في مراقي النمو المتباينة والانفتاح على المجهول اللانهائي المترامي أمام صاحب النمو المتوازن . ومن الأخطاء الشائعة الاعتقاد في أن إبداع المبدع يحدث طفرة في نموه بحيث يتخطى الخطوات التي تتأدى كل خطوة منها إلى الخطوة التالية لها . والحقيقة أن المبدع يستمر في نموه المتوازن مرتفعًا إلى آفاق عليا من النمو لا تتأني لغير المبدعين . فبينما نجد الكثير من الناس حتى المتعلمين منهم يظنون قابعين في نطاق العنينة معتقدين أن ليس في الإبداع أفضل وأكثر مما كان أو مما تم اكتشافه أو تقريره من فلسفة أو علم أو أدب أو فن ، فإننا نجد أن المبدعين يعتقدون أن المجهول أوسع نطاقًا بكثير من المعلوم ، وأن ثمة لا نهائية أمامهم يمكن أن يتقدموا نحوها وأن يغتروا من رحابها بقدر ما يتسنى لهم دون أن يبلغوا نهاية الشوط لأن اللانهائية هي الحقيقة المؤكدة في أنظارهم وأن تغضيتها برمتها من المستحيلات .

الأخذ والعطاء :

تتسم الشخصية السوية بأنها تحقق توازنًا فيما بين الأخذ والعطاء ، أو بتعبير آخر فيما بين الأنانية والغيرية . فالشخصية السوية لا تنحاز إلى الذاتية فحسب ، بل تنحاز أيضًا إلى الجماعية . فالذاتية والجماعية من مقومات الشخصية السوية . وليست الجماعية خارج نطاق المرء فحسب ، بل هي من صميم وجوده . فالفرد يحمل في قوامه ذاتيته من جهة ، وروح الجماعة التي ينتمى إليها من جهة أخرى . فالإنسان ليس أنانيًا بالطبع فحسب ، بل هو كائن أناني واجتماعي أيضا

بالطبع . فمن يكون أنانياً فحسب لا يكون شخصاً مكتمل السوية ، كما أن من يكون اجتماعياً فحسب - وهذا لا يتبدى إلا في الحالات النادرة - فإنه لا يكون أيضاً مكتمل السوية . فالشخص السوي هو ذلك الذى يحقق التوازن فيما بين الأنانية والاجتماعية أو العنصرية . والواقع أن الأخذ والعطاء يتضمنان عدة مناح لعلنا نقدمها على النحو التالى :

أولاً : المنحى البيولوجى : ويتمثل هذا المنحى فى عدة جوانب أساسية هى : الطعام والدواء والجنس والذئفء والحماية من الأخطار التى تهدد الحياة . فبالنسبة للطعام فإن الإنسان السوي يحقق توازناً فيما بين إشباع جوعته وإشباع جوعه غيره من المحيطين به وبخاصة الصغار والأقرباء . وكلما كان المرء على جانب أكبر من السوية ، كان خليقاً بتقدير حاجته الغذائية وحاجات الآخرين ، ويكون بمقدوره أن يميز فيما بين ما يرغب فيه وما يحتاج إليه من جهة ، وبين ما يرغب فيه غيره وما يحتاجون إليه من جهة أخرى . فلقد تكون الرغبة فى تناول نوع ما من الطعام متواكبة مع الحاجة إليه ، بينما قد تكون فى حالات أخرى مناهضة للحاجة ويكون من الواجب مقاومة الرغبة فى تناول ذلك الطعام الذى يضر بالصحة برغم الانتداز بتناوله . أما بالنسبة للدواء والتطبيب بصفة عامة ، فإن على المرء أن يكون ساهراً على صحته وعلى صحة المحيطين به وذلك بتوفير الظروف الصحية المناسبة له وللآخرين من جهة ، ومسارعاً باستدعاء الطبيب وشراء الأدوية التى يصفها وينفذ تعليماته فى العلاج بكل دقة من جهة أخرى . وبالنسبة للجنس فإن الزوج والزوجة يجب أن يضعوا نصب أعينهما أن العلاقة الجنسية شركة بينهما وأن المتعة الجنسية يجب ألا تكون على حساب الطرف الآخر أو على غير هواه أو رغماً عن أنفه بحجة

أن تلك المتعة حق من حقوقه يجب أن يحظى به فى ظل أى ظرف من الظروف . فالأخذ والعطاء الجسديان يجب أن يراعى فى العلاقات الجنسية . أما بالنسبة للذئفء والحماية من الأخطار فإن على الشخص السوي أن يكفلهما سواء لنفسه أم لغيره . ويتعبر آخر فإن الشخص السوي يحس بما يحتاج إليه الآخرون كما يحس بما يحتاج إليه هو شخصياً من ذئفء ومن ذب للأخطار المتباينة التى تحيق به وتهدد أمنه أو حياته .

ثانياً - المنحى المادى : ويتمثل هذا المنحى بصفة رئيسية فى الملكية وما يمكن أن يترتب عليها من استخدامات متباينة . والواقع أن المال قد صار رمزاً للملكية . ومع التطور الحضارى فإن الأوراق المالية صارت رمزاً للملكية . فأنت لا تستطيع أن تزعم أنك مالك لأحد العقارات إذا لم تكن حائزاً على ورقة كتبت بها أنك مالك لذلك العقار . وقل الشيء نفسه بلإزاء جميع الملكيات المتباينة . وكما أنك تأخذ إحدى الملكيات من غيرك سواء بالتوريث أو بالشراء أو بالتنازل أو بغير ذلك من وسائل ، فإن عليك أيضاً أن تعطى الآخرين شيئاً من ممتلكاتك . وليس من شك فى أن الإحسان إلى الفقراء هو نوع من العطاء المادى . ولكن بالنسبة للأقربين فإن من الواجب الاهتمام بإعطائهم من ملكياتنا قدرًا أكبر حتى يتحقق التوازن بين الأخذ والعطاء . تلك أن الشخصية غير السوية هى الشخصية التى تنحو إلى الأخذ أكثر من انتعائها إلى العطاء .

ثالثاً - المنحى الخدمى : وإلى جانب المنحى المادى فإننا نجد المنحى الذى يتضمن تقديم خدمات متباينة إلى الآخرين من حولنا . بيد أن تقديم الخدمات إلى الآخرين يجب أن يكون خلواً من أى تحيز أو تعصب . فمن يقوم بتقديم خدمة إلى غير من يجب أن يتحرز من

أنه ربما يكون بتقديره تلك الخدمة قد أوقع الظلم على شخص آخر أكثر استحقاقاً لتلقيها بدلاً من ذلك الشخص الذي تسدى إليه . وثمة أنواع كثيرة من الخدمات ولكن يمكن تصنيفها في فئات أساسية على النحو التالي :

أولاً - خدمات تتعلق بتذليل عقبة أو عقبات .
ثانياً - خدمات تتعلق بإبعاد خطر وشيك الوقوع .
ثالثاً - خدمات تتعلق برد حقوق مغتصبه .
رابعاً - خدمات تتعلق بالتصدي لمغتصب أو فاسد أو منائى أو

معتد .
خامساً - خدمات تتعلق برد الاعتبار وإظهار الحقيقة وتبرئة مظلوم من إتهام باطل أو افتراء بغير أساس من الصحة .
وعلى الشخصية السوية أن تحقق توازناً فيما بين الأخذ والعطاء فلا يكون العطاء على حساب المصلحة الشخصية أو على حساب مصلحة الأسرة أو الأبناء ، وأن يكون العطاء بادئاً بمن هم أقرب إلى المرء ، وألا يكون العطاء لأهداف الشهرة أو بعد الصيت أو لإحراز المديح والثناء على صفحات الجرائد والمجلات .

رابعاً - المنحى الثقافى : والشخصية السوية بإزاء هذا المنحى الثقافى تتخذ موقف المشاركة الثقافية وليس موقف الأخذ فحسب .
فهى ليست مثل الإسفنج التى تمتص ما حولها دون أن يكون لها دور فى العطاء . على أن الثقافة لا تقتصر على الجانب المعرفى ، بل تمتد لكى تشمل جميع الخبرات التى يتسنى للمرء الحصول عليها ، فيقوم بإشاعتها وإشراك الآخرين فيها وتدريبهم عليها .
فمن خصائص الشخصية السوية عدم الاستئثار بما حصلت عليه من ثقافة بل انتحازها إلى تقديمها إلى الآخرين بل وحمل الآخرين على أن يقدموا إنتاجاتهم الثقافية وإبداعاتهم غير المسبوقه .

خامساً - المنحى النفسى : وهذا المنحى يتمثل أساساً فى الحب . فالشخص السوى بحاجة إلى أن يحب (بفتح الحاء) وإلى أن يحب (بكسر الحاء) .
ويتعبير آخر فإنه بحاجة إلى أن ينهل من عواطف الآخرين فيأخذ نصيباً من حبيهم ، كما أنه بحاجة إلى أن يصفى على الآخرين من حبه فيعطيههم ويمنحهم من عواطفه قسطاً .
ولكن الحب الذى يقدمه المرء إلى الآخرين يجب أن يكون مناسباً لمن يقدم إليهم . فالحب الذى يحس به الزوج تجاه زوجته يجب أن يكون أعمق وأغزر من الحب الذى يحس به تجاه أية امرأة أخرى . وكذا يكون حب الزوجة لزوجها . وحب الأب والأم لأطفالهما يجب أن يكون أعمق وأغزر من الحب الذى يحسان به تجاه أطفال الآخرين .

وعلىنا بعد هذا أن نقوم بإلقاء الضوء على أهمية الأخذ والعطاء بالنسبة للشخصية السوية . إننا نستطيع أن نوضح تلك الأهمية على الوجه التالى :

أولاً - تقدير المرء لنفسه : فالواقع أن المرء لا يستطيع أن يقدر ذاته إلا فى ضوء معيارين أساسيين : معيار ذاتى من جهة ، ومعيار اجتماعى من جهة أخرى .
فبالنسبة للمعيار الأول فإن المرء يتساءل بينه وبين نفسه : كم أحرزت وإلى أى مدى وصلت ؟ .
أما بالنسبة للمعيار الثانى فإن المرء يسأل نفسه قائلاً : ماذا يقول الناس عنى وما نوع الأحكام التى يصدرونها عني ؟ .
وفى ضوء إجابة المرء عن هذين السؤالين اللذين يوجههما إلى نفسه ، فإنه يقرر القيمة التى ينوطها بشخصيته ويحدد تقديره لنفسه .

ثانياً - تقييم أسلوبه الذى يتبعه فى الحياة : والشخصية السوية بعد أن تصدر حكماً تقديرياً على مكانتها أمام ذاتها وأمام

الآخرين ، فإنها تبدأ في تقييم المنهج الذي اتبعته في العاضى من حيث الأخذ والعطاء ، فهل كان ذلك المنهج عادلاً مقسطاً بإزاء نفسه وبإزاء الآخرين ؟ وهل حقق التوازن بين الأخذ والعطاء ؟ وما الذى يجب العمل على إضافته ؟ وما الذى يجب العمل على حذفه حتى يستقيم الأخذ والعطاء ويتحقق التوازن فيما بينهما ؟

ثالثاً - تجديد الأهداف المتعلقة بالأخذ والعطاء : وفي هذه الخطوة يقوم الشخص صاحب الشخصية السوية بحذف أهداف قديمة استنفدت قوتها ورونقها وإحلال أهداف جديدة محلها يرى أنها أكثر رونقاً ومناسبة وفاعلية في حياته . ولا شك أن الأهداف الجديدة التى يترسّمها الشخص صاحب الشخصية السوية تحقق له قدراً أكبر من التكامل النفسى ، كما تعمل على تخليصه من النفاص والعيوب التى اعتورت أهدافه السابقة التى قام بإلغائها وإحلال أهدافه الجديدة محلها .

رابعاً - ترسّم وسائل جديدة أكثر فاعلية لتحقيق أهدافه الجديدة : ولكى يتسنى للشخص صاحب الشخصية السوية أن يحقق أهدافه الجديدة التى حددها والتى أحلها محل الأهداف القديمة التى استنفدت أغراضها ، فإنه يقوم بتحديد الوسائل الخليفة بتحقيق تلك الأهداف الجديدة بأقل جهد ممكن . والوسائل المترسمة لتحقيق الأهداف الجديدة تنصب على عمليتين أساسيتين : عملية الأخذ وعملية العطاء .

خامساً - تحديد الشخصيات أو المجموعات التى يتم التعامل معها : أخيراً يصل الشخص صاحب الشخصية السوية إلى الخطوة النهائية التى تتمثل في تحديد الشخصيات أو المجموعات التى يمكن أن يكونوا أداة ناعمة وإيجابية فى الأخذ والعطاء . وتعبير آخر فإن الشخص السوى لا يعيش منفرداً من جهة . ولا ينصهر فى بوتقة

المجتمع الذى يعيش فى إطاره من جهة أخرى ، بل يعيش فى إطاره النفسى الداخلى من جهة ، وفى إطاره الاجتماعى الخارجى من جهة أخرى . ومن هنا فإنه يقيم علاقات وشائج بالآخرين من الأفراد والمجموعات حتى يكسب لذاتيته قوة من جهة ، وحتى يترك بصمته على ما ومن يحيطون به ويتعاملون معه من جهة أخرى . فهو يأخذ لذاتيته ويعطى غيره فنتمو ذاتيته وينمو الآخرون بتأثيره وبما يضى به عليهم من قدراته ومجهوداته .

وعلىنا فى نهاية المطاف أن نستعرض العقبات أو الصعوبات التى تعتور طريق الشخصية السوية بإزاء الأخذ والعطاء . فنلك العقبات أو الصعوبات تتحدد على النحو التالى :

أولاً - رجحان كفة الأثانية على كفة الغيرية : فالإنسان بحكم تكوينه وفطرته نزاع إلى الأثانية وناب عن الغيرية . فالطفل الصغير يتذرع بالأثانية فى جميع أنشطته المتباينة ، ثم يأخذ فى اكتساب النزعة الغيرية شيئاً فشيئاً . بيد أن اكتسابه للغيرية لا يعنى أن تلك الغيرية تتغلب على الأثانية أو تعمل على قهرها . فالغالبية العظمى من الناس حتى الأسوياء منهم يجدون مشقة فى تحقيق التوازن فيما بين الأثانية والغيرية ، أو بين الأخذ والعطاء . فتمة إذن حاجة إلى بذل الجهد المستمر لتحقيق التوازن فيما بين الكفتين المتنافستين .

ثانياً - احتدام التنافس على البقاء بين الأفراد : ومن العقبات التى تقف فى طريق الشخصية السوية لتحقيق التكامل أو التوازن فيما بين الأخذ والعطاء ما يحتدم بين الناس من تنافس على البقاء . فالفرد لى يظل فى بؤرة الوجود ومعترفاً بمكانته لأبد أن يشهر سيفه ضد غيره لأن ذلك الغير يربص به الدوائر معتبراً أن وجوده لا يتحقق إلا إذا هو عمل على إفناء وجوهه غيرك كما يقول

توماس هوبس (١٥٨٨ - ١٦٧٩) فإن الإنسان نخب للإنسان .
وإذا صح هذا بالنسبة للإنسان في عهد هوبز ، فإنه يصح بالأولى
في العصور الحديثة التي طغت فيها المادية والأثانية وذبلت فيها
محبة الإنسان لأخيه الإنسان إلى حد بعيد ، بل حلت الكراهية
والمجافاة محل المحبة والوداد .

ثالثاً - ذبول القيم الروحية : فالواقع أن الأخذ والعطاء لدى
الشخص السوى يرتبطان بالتوازن الذي ينبغي أن يتحقق فيما بين
القيم الروحية والقيم المادية . فالشخصية السوية لا تأخذ وتعطي
أشياء مادية تتسم بالنفع فحسب ، بل هي تأخذ وتعطي قيماً روحية
تسيطر على الأشياء المادية ، بيد أن الحضارة الحديثة قد عملت
على تقيؤض أركان القيم الروحية المطلقة وأحلت القيم المادية
النسبية محلها . فصار السؤال الملح على أذهان معظم الناس هو :
ما المنفعة من الإتيان بهذا السلوك أو ذاك ؟ ومن ثم فإن التضحية
وتقديم الخير للآخرين لم يعد له وجود في السلوك الحديث بوجه
عام . ويتعبير آخر فإن معيار السلوك السائد صار الحصول على
أكبر قدر من اللذة وتحاشي أكبر قدر من الألم . وصار إنسان هذا
العصر ينظر إلى المستقبل بتوجس وتشاؤم ، ومن ثم فإنه يعمل
الحساب كل الحساب للمستقبل المحفوف بالغموض والأخطار
ولا يعتمد على الرعاية الإلهية في تسيير أمور حاضره والتخطيط
لمستقبله . وبالتالي فلا مراعاة من جانب الإنسان لقيم إنطلاقية
ولا لوخر ضمير بسبب التقصير في حقوق الآخرين من المحتاجين
والمعوزين . المهم هو « أنا وبعدي الطوفان » .

الاستمرارية الخيرية :

إن الشخصية السوية لا تتوقف بحال عن اكتساب خبرات جديدة
من جهة ، وعن تحسين الخبرات التي سبق أن اكتسبتها من جهة

أخرى . وهي في تلك الاستمرارية تستند إلى مجموعة من الأسباب
التي نستطيع تحديدها وتقديمها على النحو التالي :

أولاً - التعويض عن الفاقد من الخبرات التي سبق اكتسابها :
فما يتم للمرء اكتسابه من خبرات لا يظل على نفس المستوى من
النضارة والقوة والفاعلية ، بل إنه ينذب ويضوى . فما لم يقم بإحراز
مقومات خبرية جديدة ، فإنه يكون عرضة إذن للذبول الخبرى .
فالشخص السوى يكون حريصاً على الاستمرار في تجديد خبراته
حتى لا يصاب بالهزال الخبرى ، وحتى لا يتخلف عن أترابه
وعمن يحيطون به من أفراد ومجموعات .

ثانياً - مواكبة التغيرات الحضارية والتكنولوجية
المتلاحقة : والشخص السوى في أى موقع من مواقع الحياة
لا يحيا في إطار حياة تتسم بالثبات وعدم التغير ، بل يحيا في إطار
حياة تتسم أساساً بالتغير والتحول . والواقع أن الحضارة التي تطلنا
تسير في تطوراتها وتقدمها الاجتماعى والتكنولوجى تبغاً لمتنالية
هندسية . ويتعبير آخر فإن التغيرات والتطورات تتصاعف من
فترة لأخرى . فإذا لم يقم المرء باستقبال وهضم ما يحدث من
تغيرات وتطورات في المجال الذى يعمل فيه وبإزاء الأنشطة
المتباينة بما فى ذلك الأنشطة الترفيهية ، فإنه يضحي متخلفاً عن
ركب الحياة ولا يسعه سوى الانزواء بعيداً عن الأضواء وقد اكتنفته
الخلج والحسرة مما أصابه من ذبول حضارى ومن تخلف عن
القدرة على مجابهة المواقف الجديدة التي تكتنفه من كل جانب .

ثالثاً - اكتشاف المجهول : والشخصية السوية تكون كلفة
بالكتشف عن المجهول باستمرار . وليست عملية الكشف عن
المجهول من مسؤوليات العلماء وحدهم ، بل هي مسؤولية جميع
الناس فى مختلف الأعمار وفى جميع العواقر والطوائف . فالحياة

تبدو أمام المرء بمستويات كثيرة وفي لغائف معقدة . فعلى كل امرئ أن يعد يده إلى ما حوله من أشياء ليكشف الغطاء عنها . والكشف عن المجهول نسبي في الواقع . فما يتسنى للطفل لكشف الغطاء عنه يتباين عما يستطيعه المراهق أو الشاب أو الكهل أو الشيخ . وكذا الحال بالنسبة للأشخاص الحائزين على مستويات علمية متباينة في المجالات المتباينة . فما يتسنى لعالم الذرة أو عالم الفلك كشف النقاب عنه من أسرار الوجود يتباين عما يتسنى لغيره الوقوف عليه أو كشف النقاب عنه . ولكن مع هذه التباينات التي تتبدى من شخص لآخر ، فإن جميع الناس بلا استثناء يحاولون كشف النقاب عن المجهول بقدر ما أهلوا به من وسائل الكشف واستجلاء ملامح المجهول .

رابعاً - اكتساب أسلحة دفاعية وهجومية جديدة : فالشخصية السوية في أي سن وفي أي موقع تحس أنها في صراع مع الحياة . فهي لا بد أن تتخذ موقفاً دفاعياً عن حياضها من جهة ، وموقفاً هجومياً فتفتح حصوناً منيعة لاحتلال مواقعها والإفادة منها من جهة أخرى . فالدفاع والهجوم لا يقتصران على المجال العسكري ، بل يمتدان إلى جميع مناحي وميادين الحياة . فالعالم في معمله يبحث عن وسائل يدافع بها عن الجنس البشري المهدد بالأمراض الفتاكة مثل مرض الإيدز ، كما أنه يبحث عن الوسائل الهجومية التي يتسنى بواسطتها مهاجمة أسباب وناقلات الأمراض ، كأن يحاول اكتشاف الوسائل التي يتسنى بواسطتها إبادة فيروس الإيدز أو غيره من فيروسات فتاكة . وقل الشيء نفسه بإزاء جميع الناس برغم تباين مواقعهم واهتماماتهم . ومما لا شك فيه أن هذا الاكتساب الخبري للأسلحة الدفاعية والأسلحة الهجومية يجب أن يكون مستمرًا بزيادة مطردة بسبب تزايد المشكلات وتعدد المواقف بشكل مطرد أيضًا .

خامساً - تحقيق الذات : ومن العوامل التي تجعل الاستمرارية الخيرية ضرورة لازمة للمرء في أية سن وفي أي موقع يحتله الرغبة في تحقيق الذات . فالإنسان بطبعه ينحو إلى التعبير عن مكنوناته الداخلية وإخراجها من مكانها إلى الواقع السلوكي . فهو لا يريد أن تبقى استعداداته ومواهبه مطمورة بدخيلته ، بل يريد أن يقوم بترجمتها إلى ما يشير إليها وينم عنها فيعمل شأنه ويتبوأ المكانة المرموقة بين أقرانه . ومن حسن حظ الإنسان أن بدخيلته كنزاً لا يفتنى ولا يستنفد من الاستعدادات والمواهب المطمورة . فمهما حاول أن يستخرجها جميعاً وأن يستثمرها جميعاً ، فإنه يجد أنه لم يستطع سوى استثمار القليل منها وأن أمامه شوطاً بعيداً للغاية لا أمل في قطعه بأكمله . فهو إذن يدأب على الاجتهاد في تحقيق ذاته إلى أقصى حد يتسنى له دون أن يتوقف عند حد ما بعده حد ، أي أنه لا يستطيع أن يجد نفسه في نهاية الشوط وقد استثمر جميع استعداداته ومواهبه وأن لا أمل له بعد ذلك في التقدم خطوات جديدة نحو تحقيق ذاتيته وإخراج مكان من نفسه المحبوبة إلى الواقع السلوكي الخارجي .

ولعلنا نسأل بعد هذا عن العوامل التي تقف حائلاً بين الشخصية السوية وبين الاستمرارية الخيرية . إننا نستطيع في الواقع أن نحدد تلك العوامل على النحو التالي :

أولاً - سيطرة الأعمال النمطية : فثمة في الواقع أشخاص أسوأ بكثيرين لم يتسن لهم الاستمرار في النمو الخبري بسبب انخراطهم في أعمال روتينية نمطية لا يخرجون من إطارها إلى رحابة الخبرات الجديدة . فالحصارة برغم اتساع مداها ، تتطلب وجود فئة كبيرة من الناس لا هم لهم سوى تطبيق أنماط ثابتة من الأداءات التي تتكرر وفق خطوات ثابتة لا تتغير ولا سبيل إلى

الزيادة فيها أو النقص منها بأى حال من الأحوال . ومما لا شك فيه أن خطر النمطية يهدد الكثير من العقول التي كانت خليقة بأن تقدم إبداعات جديدة وتتنسّم أفاقاً كثيرة رغبة من الخبرات العظيمة .

ثانياً - الربط فيما بين الاستزادة الخيرية وبين العائد المادى : فالكثير من اناس يربطون بين ما يمكن أن يحصلوه من خبرات جديدة وبين ما يمكن أن تدرّه عليهم تلك الخبرات الجديدة من عائد مادى . وغنى عن القول أن الناس قديماً كانوا يطلبون الخبرة لذات الخبرة دون أن يتوقعوا أن يحصلوا من ورائها أية فوائد مادية . ولكن القيم المطلقة قد هُزمت أمام القيم النسبية التي تقيس قيم الأشياء ، بل وقيم الأشخاص في ضوء ما يتأتى عنهم من فوائد . فالיום يقول الشاب لنفسه : « ماذا يعود على من فائدة مادية إذا أنا قرأت أو اكتسبت خبرة ما من الخبرات الكثيرة المتباينة ؟ » فهو إذن يسعى إلى القراءة أو إلى اكتساب الخبرات المهارية أو غيرها إذا كانت القراءة أو اكتساب الخبرات واعدة بعائد مادى يزيد من دخله أو يرفعه بين أقرانه أو يعود عليه بترقية أو بتعيين في وظيفة مرموقة أو حتى بزواج من فتاة ثرية ومن أسرة رفيعة المستوى .

ثالثاً - عدم التشجيع أو التقدير : فالكثير من الناس لا يتحركون نحو اكتساب الخبرات الجديدة طالما أنهم لا يلقون التشجيع والتقدير والمديح من الآخرين . وحتى بالنسبة لكثير من الكتّاب والفنانين فإنهم إذا لم يكَل لهم أستاذة الفكر والفن الثناء والتعريف والتشجيع ، فإنهم يتوقفون إذن عن الاستمرار في النمو الخبرى . ولكن ليس جميع الكتّاب وجميع الفنانين على هذه الشاكلة ، بل إن البعض من كتّابنا وفنانينا يعمدون إلى تقييم أنفسهم

بأنفسهم ولا يعتمدون على تقييم الآخرين لهم . فهم يستمرون في النمو الخبرى حتى ولو لم يقابلوا بالتشجيع ، وحتى إذا ما قولوا باللامبالاة أو الهجوم أو التحقير من جانب المعرضين الحاقدين .

رابعاً - التخلف الثقافى : ومن العوامل التي تعطل الأشخاص الأسوياء عن الاستمرارية الخيرية تخلفهم ثقافياً رغم سويتهم التي لا يشوبها غبار . فبينما تكون لديهم الإمكانيات الكافية التي تؤهلهم لتلك الاستمرارية الخيرية ، فإنهم بسبب التخلف الثقافى للبيئة الحضارية التي يعيشون فى نطاقها ، فإنهم لا يمتون خبرياً . فعدم توافر الجو الثقافى المناسب للنمو الخبرى حولهم وعدم توافر الإمكانيات التي تساعدهم على اكتساب خبرات جديدة ، يحملهم على أن يقبوعوا فيما درجوا عليه وتمرسوا به واعتادوا عليه من ممارسات . فخذ مثلاً لذلك بمن يشتغلون بالكتابة فى الأماكن النائية التي لا تتوافر بها المراجع ومصادر المعرفة المتجددة والمتدفقة . إنهم بالطبع لا يجدون الوسائل المناسبة لتنمية ثقافتهم . وكذا فإن أولئك الكتاب برغم نبوغهم وقدراتهم الكتابية غالباً ما لا يتطورون مع وسائل التعبير . فهم يظنون ممسكين بالأقلام يبدجون بها ما يقومون بإنشائه من كتابات ولا يتطورون مع المستحدثات فى وسائل الإهانة . فهم لا يكتسبون خبرة الكتابة على الآلة الكاتبة وبالأولى فإنهم لا يكتسبون خبرة الكتابة على الكمبيوتر وذلك لأن بيئتهم فقيرة ثقافياً ولا تتدفق عليها تكنولوجيا الثقافة كما هو الحال فى العاصمة أو فى عواصم المحافظات ، مما لا يسمح لهم باكتساب الخبرات الجديدة وبالتالي فإنهم يتوقفون على ما سبق لهم اكتسابه من خبرات لم تعد تقارن بما وصلت إليه الخبرات الحضارية والتكنولوجيا المتدفقة والمتجددة .

خامساً - افتقار المنهج : ومن العيوب التي تعطل حائلاً بين الشخص السوى وبين الاستمرارية الخيرية عدم توافر منهج مناسب

لاكتساب الخبرات الجديدة والمتجددة . فالواقع أن المنهج يعتبر الوسيلة التي يتدرج بها المرء في اكتساب الخبرات الجديدة . فإذا كان المنهج المستخدم في هذا الغرض عقيماً أو لم يكن هناك منهج على الإطلاق بين يدي المرء للحصول الخبرى المعرفى أو المهارى ، فإن ذلك الافتقار يؤدي به إلى العمق الخبرى وإلى التوقف عن الاستمرارية الخبرية برغم توافر المواصفات السوية لديه .

ردود الفعل المناسبة :

يعتبر الفعل المنعكس أبسط وأعم نشاط يشمل جميع الكائنات الحية حتى بعض النباتات . فإذا ما اقتربنا برأس دبوس وشككنا الأميبا - وهى كائن حى وحيد الخلية - فإنها تنسحب بعيداً عن مصدر الشكة التى أصابتها . وكذا الحال بالنسبة للإنسان . فإذا ما شككنا رجل شخص مستغرق فى نومه بدبوس ، فإنه يقدم الاستجابة نفسها بأن يسحب قدمه بعيداً عن مصدر الألم الناجم عن شكة الدبوس . وكلما ارتفع الكائن الحى فى سلسلة التطور فإنه يكون خليقاً باكتساب ما يسمى بالفعل المنعكس الشرطى . وهنا نذكر بافلوف وما كشف النقاب عنه بالتجربة والقياس على الكلاب . فالكلب الذى يقدم إليه الطعام مصحوباً بصوت جرس معين يُسبب لعابه ، إذا ما تكرر تقديم الطعام إليه مصحوباً بصوت الجرس ، فإن صوت الجرس وحده دون تقديم الطعام يكون خليقاً بإحداث الاستجابة نفسها - أعنى سيلان لعاب الكلب - ومن الطبيعى أن ينطبق هذا القانون بإزاء الإنسان ولكن فى أنحاء أكثر وأسمى من الأنحاء التى تتبدى عند الكلب .

وبالنسبة للإنسان الذى تتبدى لديه أنواع متباينة من الأفعال الشرطية ، فإننا نستخدم لفظ « ردود الفعل » . فثمة ردود فعل على المستوى الفسيولوجى من جهة ، وعلى المستوى الوجدانى من جهة ثانية ، وعلى المستوى العقلانى من جهة ثالثة ، وعلى المستوى

التعبيرى من جهة رابعة ، وعلى المستوى العلائقى بالآخرين من جهة خامسة .

فعلى المستوى البيولوجى فإن ردود الفعل تتبدى فى الجوانب التالية :

- أولاً - الجانب العضلى .
- ثانياً - الجانب الهضمى .
- ثالثاً - الجانب الدورى .
- رابعاً - الجانب العصبى .
- خامساً - الجانب الغددى .

وردود الفعل المتعلقة بجميع تلك الجوانب تكون مرتبطة فى تشكيلها بخبرات معينة يكتسبها المرء ويتمثل أو تتركز فى كل جانب منها . فردود الفعل العصبية مكتسبة بالاشتراط تماماً كما يحدث فى حالة سماع الكلب لصوت الجرس فيسيل لعابه حتى بغير أن يقدم إليه أى طعام . فثمة مواقف معينة أو مدركات مرئية أو سمعية أو لمسية أو شمية أو ذوقية تؤدي إلى تقديم ردود الفعل الفسيولوجية بطريقة آلية لا شعورية لا يكون للمرء سلطان عليها بإجماعها أو التحكم فى مسيرتها وشدتها .

والشخصية السوية وإن كانت مشتملة على ردود الفعل الفسيولوجية المتعلقة بالجوانب الخمسة التى ذكرناها ، فإن ما تكون قد اكتسبته منها يكون من النوع الإيجابى الذى يساعد على الاضطلاع بالأنشطة ائمتباينة وليس من النوع السلبي الذى يعوق تلك الأنشطة أو ينحرف بها عن مساراتها السوية . فبالنسبة للجهاز الهضمى مثلاً عند الشخصية السوية فإن ردود الفعل التى اكتسبها تكون مساعدة فى هضم الطعام وليست مُعيقة أو مفسدة .

وعلى المستوى الوجدانى فإن ردود الفعل التى يكتسبها المرء تتمثل فى المناحى التالية :

أولاً - منحنى الخوف . ثانياً - منحنى الغضب .

ثالثاً - منحنى التفاؤل والتشاؤم .

رابعاً - منحنى الحب والكرهية .

خامساً - منحنى الفرح والحزن .

وهذه المنحى الخمسة تكتسب صيغها المتباينة في ضوء ما تم اكتسابه من خبرات متباينة من الحياة بدءاً بالطفولة حتى اللحظة التي يجيها المرء . فما يكتسبه في مواقف حياته المتباينة يشكل العوامل التي تدفع به إلى الخوف ، وإلى الغضب ، وإلى التفاؤل والتشاؤم ، وإلى الحب والكرهية ، وإلى الفرح والحزن . وإلى جانب المواقف التي يشترك فيها جميع الناس بغير استثناء من حيث اكتسابهم لتلك المنحى الوجدانية الخمسة ، فإن هناك مواقف أخرى فردية أو فريدة هي التي يمكن اعتبارها مواقف تُفضى إلى الاعوجاجات أو المشكلات النفسية . وبالنسبة للشخصية السوية فإنها الشخصية التي تشترك مع جميع الشخصيات المحيطة بها في المواقف التي تكتسب فيها ردود الفعل التي لا تخرج عن إطار السوية بفضل عموميتها واعتدال أثرها في شخصية ومواقف وسلوك المرء بعامه .

وعلى المستوى العقلاني فإن ردود الفعل تتمثل في مجموعة من المنحى نستطيع أن نحددها على النحو التالي .

أولاً - المنحنى الإدراكي . ثانياً - المنحنى التذكري .

ثالثاً - المنحنى التخيلي .

رابعاً - المنحنى التصوري التجريدي .

خامساً - المنحنى التوقعي أو المستقبلي .

والواقع أن الشخصية السوية تكون قد اكتسبت مجموعة من ردود الفعل التي تجعل مدركاتها سوية ومتوازنة ومقتربة من التطابق بين الواقع الخارجى المدرك وبين ما يتم لها إدراكه

حسباً بأى من الحواس الخمس . وهذا يكون مبادئاً لما يحدث لدى الشخصية المنحرفة عن السوية التي تبعد مدركاتها الحسية عن الموضوعات المدركة فتكون مصابة بالهلوسات الحسية فترى أو تسمع أو تلمس أو تشم أو تذوق أشياء لا وجود لها في الواقع الخارجى . وكذا الحال بالنسبة للتذكر . فالشخصية السوية في تذكرها لما سبق أن مر في إدراكها ، فإنها تطابق بين ما تتذكره وبين ما سبق أن مر في إدراكها بالفعل بلا حذف أو إضافة أو تحريف أو تشويه أو تزييف . وبالنسبة للمخيلة فإن ردود الفعل التخيلية التي تبديها الشخصية السوية ، تكون في نطاق سلطانها . ففى وإن كانت تقوم بتشكيل صور جديدة مبتكرة من الحصيله الإدراكية والتذكرية بالتكبير والتصغير ، وبالحدف والإضافة ، والتقديم والتأخير ، فإنها تكون رائية في ذلك إلى تحقيق أهداف معينة . فالأديب والفنان وغيرهما من مبدعين يعملون مخيلاتهم لتحقيق أهداف إبداعية وليس لممارسة الخيال لإشباع شهوات معينة كما يحدث في أحلام اليقظة التي يخرط فيها غير الأسوياء . وبالنسبة للمفاهيم المجردة التي يقدمها الأسوياء كردود فعل عقلانية ، فإنهم يقومون بتشكيلها لأهداف ثقافية تختلف في مستواها من شخص لآخر حسبما يتوافر له من مستوى ثقافى . وأخيراً فإن ردود الفعل العقلانية التوقعية أو المستقبلية ، تستهدف ما يمكن توقع حدوثه وما يمكن استحداثه وتحقيقه في الحياة من جانب المرء . فالواقع أن الشخصيات السوية ليست شخصيات متفرجة على ما يحدث في الحياة من حولها دون أن تلعب دوراً في الأحداث والوقائع التي تحدث . فالإنسان السوى متأثر ومؤثر معاً وليس متأثراً فحسب . من هنا فإن ردود فعله يزاء توقعاته المستقبلية تتسم

بالمعقولة وعدم الشطط حتى وإن كانت طمّوحة فإنها تظل مرتبطة بالواقع وغير نابية عن المنطق وعن سنن الحياة الفعلية .

وبالنسبة للمستوى التعبيري لردود الفعل التي يقدمها الإنسان السوي ، فإننا نجد أن هذا المستوى يتضمن مجموعة من الجوانب التي يمكن تحديدها على النحو التالي :

أولاً - الحصيلة الكلامية ، أعنى المفردات الكلامية التي يكون المرء قد اكتسبها فهماً وتعبيراً .

ثانياً - مهارة الربط بين المشاعر الوجدانية وبين الكلمات أو العبارات المنطوقة أو المكتوبة .

ثالثاً - مهارة الربط بين المعاني وبين الكلمات ، أو العبارات المنطوقة أو المكتوبة .

رابعاً - مهارة الإبانة أو التعبير باللسان أو بالقلم أو بالكتابة على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر .

خامساً - القدرة الإبداعية اللغوية ، وذلك بنحت كلمات جديدة أو تطويع الكلام المنطوق أو الكلام المكتوب لأهداف جديدة ، فيضيف أبعاداً جديدة للغة ويعمل على تخصيبها والارتقاء بها وجعلها أكثر قابلية للتفاعل مع اللغات الأخرى .

وواضح أن الشخصية السوية هي الشخصية الخليقة بأن تكون ردود فعلها بإزاء هذه الجوانب الخمسة التي ذكرناها إيجابية ومؤثرة تأثيراً بعيد المدى مع تحقيق التكيف بين المرء وبين المحيطين به والمشاركين معه في الكلام أو المتلقين عنه ما يعبر عنه من أفكار أو مشاعر .

وبالنسبة للمستوى العلائقي الاجتماعي ، فإننا نجد أن ردود الفعل على هذا المستوى تتضمن عدة جوانب لعلنا نحددها على النحو التالي :

أولاً - القدرة على إقامة علاقات جديدة بين المرء وبين شخص آخر .

ثانياً - القدرة على إقامة علاقة بين المرء وبين مجموعة من الأشخاص .

ثالثاً - القدرة على فصح علاقة بين المرء وبين شخص ما .

رابعاً - القدرة على فصح علاقة بين المرء وبين مجموعة من الأشخاص .

خامساً - قدرة المرء على تأكيد علاقة أو تخفيفها مع شخص أو مجموعة من الأشخاص .

ومن الطبيعي أن تكون لدى الشخص السوي المبررات الكافية لإقامة أو شجب أو تأكيد أو تخفيف العلاقات بينه وبين غيره من الناس أفراداً كانوا أم جماعات . فلك المبررات هي التي تشكل الفعل ، وما يستجيب به المرء ويقنمه من ألوان سلوكية متباينة تشكل ردود الفعل . وهذا ما ينسحب على جميع المستويات الخمسة التي ذكرناها وهي المستوى الفسيولوجي ، والمستوى الوجداني ، والمستوى العقلاني ، والمستوى التعبيري ، وأخيراً المستوى العلائقي . ويتعبّر آخر فإن جميع أنحاء السلوك التي تبدو لدى الأفراد والجماعات لا تعدو أن تكون ردود فعل على مواقف أو مؤثرات أو ظروف أو وقائع أو أحداث تستثيرهم ولكنها تكون مصطبغة بما سبق أن مر في قوامهم من خبرات متباينة .

وهناك في الواقع مجموعة من العوائق التي تعمل على الانحراف بردود الفعل عن المجرى السوي لعلنا نقوم بتحديدها على النحو التالي :

أولاً - الأحداث المفاجئة : فالواقع أن الحياة بمثابة سلسلة من الأحداث والتقلبات التي لا يمكن التنبؤ بمسارها أو مقوماتها

بعد إجراء إحدى العمليات الجراحية أو بعد تناول بعض العقاقير الطبية أو بعد الإصابة بأحد الأمراض التي تؤثر في نسبها .

رابعاً - المكبوتات اللاشعورية : فقد كشف فرويد النقاب عن الآثار النفسية السلوكية التي تترتب على اكتساب بعض الخبرات غير المواتية وكتبتها في اللاشعور . والواقع أن المكبوتات اللاشعورية تغور وتروج فجأة دون أن تكون هناك مشاهد تشير إلى قرب فورانها وتوجهها . فيغير توقع فوران تلك المكبوتات التي لا يتسنى للمرء إلجامها تبدو أمارات سلوكية غير سوية على الرغم من أن من الظلم الحكم بأن المرء غير متمتع بالسوية بشكل عام وفي عموم حياته ومناجيبها المتباينة .

خامساً - ما سبق أن اكتسبه المرء من عادات متباينة : والعادات التي يكتسبها الإنسان خمسة أنواع هي : العادات الحركية ، والعادات الوجدانية ، والعادات العقلانية ، والعادات الكلامية التعبيرية بالطلق أو الكتابة ، والعادات العلائقية . والعادات جميعاً ألوان سلوكية يأتيها المرء بطريقة شبه لا شعورية فينتأى عن هذا ما يمكن أن يشكل ردود فعل غير مناسبة لا يمكن وصفها بالسوية بالرغم من أنها تكون صادرة عن شخصية يتصف سلوكها بالسوية بصفة عامة .

النظرة الزمكانية :

تتصف الشخصية السوية بأنها تقوم بصهر المكان والزمان في بوتقة واحدة مستخرجة منهما مفهوماً واحداً عابدياً لها في مناحى الحياة المتباينة وفيما تنهض به من أنشطة . ولعلنا نبدأ بإلقاء الضوء على هذه النظرة الزمكانية فجدد أنها تتصف بالخصائص الآتية :

أولاً - إن النظرة الزمكانية هي نظرة برجماتية : فالشخص السوي يستخدم هذا المركب من الزمان والمكان لتحقيق أهداف

وأطرافها وما سوف تصير إليه أو تتجه نحوه . فبينما يتوقع المرء أموراً ، فإنه يجد أموراً أخرى مباينة لها أو متناقضة معها أو منخرقة عن منطقتها . من هنا فإن ردود فعله على ما تحمله له الحياة من أحداث مفاجئة لا يكون متساوياً مع ما كان متوقعاً منه أن يقدمه أو يبديه أمام الناس . فكثير من الناس يتخذون من السلوك ما يمكن أن يوصف بأنه سلوك تكويى يشبه سلوك الأطفال أو سلوك البدائيين كردود فعل على الأحداث المفاجئة التي لم يكونوا يتوقعون وقوعها .

ثانياً - التقلبات المزاجية : وكما أن الواقع الخارجي لا يسير وفق خط مستقيم أو وفق نمط متسق يمكن التنبؤ به أو توقعه ، كذا فإن دخيلة المرء لا تسير وفق خطة مشقة . فتمه ما يعرف بالتقلبات المزاجية التي تحدث حتى في دخائل الأشخاص الأسوياء ولكن على نحو ضئيل بينما تكون تلك التقلبات المزاجية محتدمة لدى الأشخاص المنحرفين عن الصحة النفسية . ولكنها على أية حال صفة شائعة عند جميع الناس ، وليس من شخص مهما كان متمتعاً بالصحة النفسية الممتازة معصوماً من التقلبات المزاجية . ولا شك أن المرء وهو تحت وطأة تلك التقلبات المزاجية لا يكون مؤهلاً لتقديم ردود فعل تتسم بالسوية أو المنطقية . فأكثر الناس سوية يقدمون في بعض المواقف التي يكونون خلالها منحرفين مزاجياً ردود فعل لا يمكن وصفها بالسوية أو بأنها مما تصدر عنهم في العادة والأعم من المواقف .

ثالثاً - التغيرات التي تعتور كيمياء الجسم : وكذا فإن الحالة الجسمية مرهونة بالحالة الكيميائية التي يكون عليها جسم المرء . فإذا ما تغيرت النسب الهورمونية بالجسم لسبب أو آخر يصيب إحدى الغدد الصماء أو أكثر من غدة صماء ، فإن ذلك التغير يترك أثره في ردود الفعل التي يقدمها المرء ، ولقد تتغير كيمياء الجسم

عملية وظيفية في حياته . فهو لا يفصل بين الواقع المحسوس - كأننا ما يكون ذلك الواقع - وبين الزمان الذي يتلبس به ذلك الواقع . فهو لا يخلط الواقع المحسوس الذي تلبس بالزمان الماضي بالواقع المحسوس الذي يتلبس بالزمان الحالي أو سوف يتلبس بالزمان المستقبلي . فالنظرة الزمكانية تحدد الواقع بما يتلبس به من زمان . ومن ثم فإنها لا تجعل من الواقع الماضي أو الواقع الحاضر أو الواقع المستقبلي واقعاً جامداً ، بل تستخدمه لتحقيق أهداف معينة . فوقائع الماضي لها استخداماتها ، وكذا وقائع الحاضر ووقائع المستقبل المتوقع حدوثها . فجميع الوقائع يمكن الاستفادة منها واستخدامها الاستخدام الأمثل . وإذا كان هذا هو حال الشخصية السوية ، فإنه ليس حال الشخصية غير السوية التي لا تلبس الواقع بما يناسبه من زمان ، بل هي تنظر إلى الواقع لا باعتباره أحداثاً متتابعة ، بل تنظر إليه بطريقة استاتيكية كما لو أنه ثابت لا يتغير . فالنظرة الزمكانية تسمح للشخص السوي الذي يأخذ بها بأن ينظر إلى الكون من حوله باعتباره سلسلة من الأحداث المتتالية والمتلاحقة ، وأن الخلق بالمرء أن يوظف تلك الأحداث المتتالية بحيث يكون توظيفها توظيفاً مفيداً وفعالاً .

ثانياً - إن النظرة الزمكانية هي نظرة تقدمية : وفي ضوء هذه النظرة الزمكانية فإن الشخص السوي يكون خليقاً بأن يكون شخصية تقدمية . والشخصية التقدمية هي الشخصية التي تضع مخططات مستقبلية تهفو إلى تحقيقها أو تتوقع لها أن تتحقق . فهي الشخصية التي تهفو إلى المستقبل أكثر من تشبثها بالماضي أو بالحاضر . فهي إذ تتناول الماضي والحاضر ، فإن تناولها لهما يكون لخدمة الأهداف المستقبلية وليس للتعلق بأهداب الماضي أو للركون إلى الحاضر دون تقدم إلى ما بعد ذلك الحاضر من

مستقبل . فصاحب النظرة الزمكانية شخصية تقدمية ترغب في تحقيق التقدم لنفسها ولغيرها معبرة أن المستقبل هو الهدف والغاية وليس الماضي أو الحاضر سوى أداتين أو وظيفتين لتحقيق ذلك المستقبل .

ثالثاً - إن النظرة الزمكانية هي نظرة واقعية : فالشخص السوي في نظره الزمكانية يتسم بالواقعية . فهو لا بطير على أجنحة الخيال ولا يقبع في مكانه رازحاً تحت وطأة أحلام اليقظة ، بل هو شخصية مثبثة بالواقع المحسوس وبالنتائج التي يمكن تحقيقها نتيجة ما يبثه من جهد وما يوجه إليه اهتماماته ، بل إنه يجيد تقييم الأمور بميزانها الواقعي الصحيح . والواقعية التي ينشدها الشخص السوي ليست واقعية مادية ضيقة الأفق كما قد يظن ، بل هي واقعية فسيحة تميز بين الواقع والخرافة ، أو بين المتماusk من الأفكار وبين الفجح الخاوي منها . فالفكر المجرد المتين والمركز على أسس مكيئة هو من صميم الواقعية التي يؤمن بها الشخص السوي . والأفكار التي تسيطر على الواقع المادي وتعمل على توجيهه نحو مستقبل أفضل هي في نظر الشخصية السوية أفكار واقعية . فنحن اليوم لا نخضع أفكارنا للواقع الخارجي ، بل نخضع الواقع الخارجي لأفكارنا . فنحن نفكر ثم نفرض أفكارنا على المادة المحسوسة الجامدة وعلى الكائنات الحية بما فيها الإنسان نفسه . إذن فالواقعية ليست مرادفاً للمادية ، بل إن الواقعية هي المنطقية وهي تمالك الأفكار وترباطها بحيث يتسنى لها أن تترك أثرها في الواقع بالمعنى العام لهذه الكلمة . ذلك أن الواقع قد يكون واقعاً نفسياً كما قد يكون واقعاً موضوعياً . فالمعالج النفسي الذي يهزم المرض النفسي المسيطر على مريضه أحد المرضى النفسيين هو شخص مثبث بالواقعية ويريد لها أن تكون

النوع الثاني من الفيزياء يهتم بتناول المواد التي تحتاج إلى أجهزة مكبرة أو إلى أجهزة إلكترونية معينة يتسنى بواسطتها الوقوف على أسرارها . وصاحب النظرة الزمكانية لا يهتم بالموجود كما هو عليه حالياً فحسب ، بل إنه يمتد ببصره إلى الماضي ليعرف ما كان عليه حاله في الماضي السحيق ، كما يمتد ببصره إلى المستقبل ليتحسس ما سوف يكون عليه حاله في المستقبل البعيد .

هي المسيطرة على الأفق النفسي لذلك المريض بدلاً من الأوهام التي رانت عليه . فالواقعية بهذا المعنى الواسع المشتمل على دخيلة المرء وعلى خارجيته هي الخصيصة التي يتحلى بها الشخص السوي المتفتح بالنظرة الزمكانية .

رابعاً - إن النظرة الزمكانية هي نظرة تكاملية : فلعننا نكون قد لاحظنا من كلامنا في الفقرة السابقة أن هذه النظرة الزمكانية هي في الوقت نفسه نظرة تكاملية . ذلك أنها لا تأخذ في اعتبارها زاوية دون أخرى . فهي تتناول الإنسان من جميع زواياه دون أن تسقط من حسابها أية زاوية . فهي تتناول الواقع الداخلي السيكولوجي والواقع الخارجي الموضوعي عبر الماضي والحاضر والمستقبل ، ولا تقتصر على شخصية المرء صاحب هذه النظرة الزمكانية وحده ، بل هي تمتد بها لكي تشمل الناس جميعاً ، بل إنها تمتد بها لكي تشمل الكائنات الحية والوجود المادي بأسره بغير استثناء . فهي تجمع الكل في قبضة تكاملية واحدة ، أو بتعبير آخر فإنها تجعل من الوجود على اختلاف طبقاته ونوعياته ومسمياته كيئناً منسجماً بعضه مع بعض ومتناغماً ومتسقاً ومؤثراً بعضه في بعض .

خامساً - إن هذه النظرة ممتدة وشمولية : وهكذا نجد أن هذه النظرة الزمكانية بعيدة الغور وشاملة بحيث تنظر بنظرة أفقية وبنظرة رأسية إلى الوجود . فهي من حيث النظرة الأفقية تتناول ما يسمى بالماكروفيزيا (**Macrophysics**) ومن حيث النظرة الرأسية فإنها تتناول ما يسمى بالميكروفيزيا (**Microphysics**) . وبينما يهتم النوع الأول من الفيزياء بالمواد التي يمكن الوقوف عليها بالعين المجردة أو بإحدى الحواس ، فإن



الفصل الثالث

العوامل التي تدعم السوية النفسية

الرعاية المتوازنة :

نعنى بالرعاية المتوازنة اتخاذ الموقف المتوسط فيما بين أخذ الناشئ بالشدة ، وبين أخذه بالتدليل وترك الحبل على الغارب له يفعل ما يشاء ويقال كل ما يرغب فيه بغير إجماع أو ضبط أو تشذيب . والواقع أن الرعاية المتوازنة تتضمن مجموعة من الجوانب التي نستطيع تحديدها على النحو التالي :

أولاً - الرعاية الصحية : فمن الخطأ بالطبع إهمال صحة من نقوم برعايتهم ، ولكن من الخطأ أيضاً المبالغة في تلك الرعاية الصحية بحيث لا تعطى الفرصة للجسم لكي يحصل على المحصنات الطبيعية . فكما أن التحصين ضد الأمراض المعدية هو نوع من تعويد الجسم على المعاشة مع مسببات المرض ، كذا فإن المخاطلة والتعرض لما تزخر به البيئة من مسببات المرض بعض التعرض يكسب الجسم مناعة من الإصابة بالكثير من الأمراض . فمن خصائص الكائنات الحية عموماً وبضمنها الإنسان التكيف للظروف البيئية المحيطة والتعايش معها إلى أقصى حد ممكن . ومن ثم فإن المبالغة في عزل المرء عن البيئة يحرمه من ممارسة التكيف . ولكن من الجهة المقابلة فإن تعريض المرء لما يفوق قدرته الجسمية على التكيف مع الظروف البيئية يعرضه للخطر . فالموقف الواجب اتخاذه هو الموقف الوسط فيما بين المبالغة في

اجتئاب مصادر العدوى ، وبين المبالغة في التعرض لتلك المصادر . ناهيك عن وجوب اتخاذ موقف الرعاية المتوازنة بصد تناول الأطعمة . فلا بد من تحقيق التوازن في تناول النوعيات الأساسية من المواد الغذائية وعدم الإفراط في تناول نوع منها وإهمال تناول الأنواع الأخرى ، وكذا تحقيق التوازن فيما بين الكمية التي يتناولها المرء من الطعام ، فلا يفرط في كمية الطعام الذي يتناوله ولا يحرم جسمه من كمية الطعام التي ينبغي تناولها . فإذا ما تحقق هذا التوازن الصحي ، فإن المرء يكون خليقاً بالتمتع بالسوية الصحية البيولوجية .

ثانياً - الرعاية الوجدانية : وبالنسبة للجانب الوجداني من الشخصية ، فإنه بحاجة أيضاً إلى التوازن في الرعاية . فثمة موقف وسط بين التعلق الوجداني وبين التحرر الوجداني . فحتى يتمنى توافر السوية الوجدانية للمرء ، فإنه يجب أن يحظى بالرعاية الوجدانية وأن يحس بأنه شخصية مرغوب فيها وأن المحيطين به متعلقون به ولا يستغفون عنه ، ولكنه من جهة أخرى يجب أن يحظى بالتحرر والانفكاك من الروابط الوجدانية التي تكبله . فالمرء برغم شغفه بحب الآخرين له ، فإنه في الوقت نفسه لا يجب أن ينسج الآخرون حوله خيوطاً من الوشائج الوجدانية شبيهة بخيوط العنكبوت التي تحول بينه وبين نشر وجدانه في اتجاهات متباينة وتوزيعها على شخصيات متعددة . فالحرية التي يبغيها المرء في الناحية الوجدانية هي حرية في حدود الموضوعات والأشخاص الذين يتجددون في حياته . فلا يصير حب الناس للمرء حباً احتكارياً بحيث يمنع أو يحرم من أن يحب أشخاصاً جديداً ، أو من الانتحاء إلى آفاق جديدة يوجه إليها عواطفه ، أو من أن يسحب حبه من أشخاص وموضوعات كان متعلقاً بهم ثم زاد فيهم قبيل

المستمع بالضجر والملل ، كما يجب ألا يكون سريعاً فيفوت المتلقي ما يحمله من معان أو مقاصد . فالرعاية الإفصاحية أو البيانية يجب أن تتحرى التوازن حتى يصير المرء خليقاً بأن يكون مبيناً متمكناً من إيافته ، ومفصلاً عن مقاصده بتمكن فينال القبول من جانب المتلقين بما يفوه به أو يقوم بكتابه .

خامساً - الرعاية العلنقية : فعلى الرغم من أن الإنسان مدني بالطبع ، فإن الرعاية الاجتماعية أو العلنقية يجب أن تعد إلى تحقيق التوازن فيما بين الانكباب على الخارج وذلك بإقامة العلاقات بالآخرين ، وبين العودة إلى الذات والانكباب على التأمل والدخول إلى أغوار النفس والعمل على هضم ما سبق أن أقيم بين المرء وبين الآخرين من علاقات وشائج . ناهيك أيضاً عن تحقيق التوازن فيما بين الوارد والمنصرف من العلاقات الاجتماعية . فثمة علاقات اجتماعية جديدة تنشأ من جهة ، وثمة علاقات اجتماعية قديمة تزول وتنتهر أو تنبل من جهة أخرى . ويخطئ من يظن أن ما ينشأ من علاقات بين المرء وبين غيره من أفراد هي علاقات مؤبدة لا تقبل أو لا تحتمل النبول والتلاشي . فالواقع أن العلاقات شأنها شأن كل أنحاء الوجود تنشأ وتتم وتنتضج ثم تنبل وتذوي وتختفي تماماً ولا يبقى منها سوى الذكريات إن وجدت . والرعاية المتوازنة سواء رعاية الآخرين للمرء أم رعايته لنفسه يجب أن تضع هذا المبدأ التوازني نصب عينها فتحقق التوازن فيما بين العلاقات الجديدة التي تنشأ وبين العلاقات القديمة التي تذوي وتلاشي .

وعلياً أن نعرض فيما يلي للعوامل التي تساهم في تحقيق الرعاية المتوازنة . إننا نستطيع أن نحدد تلك العوامل على النحو التالي :

من كثافة حبه لهم . ومن جهة أخرى فإن من الواجب لكي تتحقق السوية الوجدانية أن يتحقق التوازن بين أن يحب المرء (بكسر الحاء) وبين أن يحب (بفتح الحاء) . فإذا ما رجحت كفة من هاتين الكفتين على الكفة الأخرى ، فإن السوية الوجدانية تكون مهددة بالانهيار . فعلى المسؤولين عن رعاية الناشئة أن يضطلعوا بتدريبهم على تحقيق التوازن الوجداني في تعاملاتهم وعلاقاتهم بالآخرين من حولهم .

ثالثاً - الرعاية العقلية : وبالنسبة للرعاية العقلية المتوازنة ، فإن من الواجب توفير الظروف المناسبة لتغذية المرء بالمدرجات الحسية المتباينة من جهة ، ولتغذية ذاكرته الكلامية وذاكرته المعنوية من جهة ثانية ، ولتغذية مخيلته من جهة ثالثة ، ولتغذية قدرته البيانية بالألفاظ والمصطلحات والعبارات المتعلقة بلغته القومية وبلغة أو لغات أجنبية من جهة رابعة ، وبتغذية قدرته على التجريد والتعميم بالتدريب على التمرس بالقولب المنطقية من جهة خامسة . فالمربي الحصيف هو الذي يضطلع بهذه الرعاية العقلية بحيث لا تطفئ ناحية من هذه النواحي الخمس على غيرها وبدا تتحقق الرعاية العقلية المتوازنة .

رابعاً - الرعاية الإفصاحية أو البيانية : وفي هذا النوع من الرعاية يكون من الواجب تحقيق التوازن فيما بين المعاني أو المشاعر التي يرجى التعبير عنها ، وبين الكلام المنطوق أو الكلام المكتوب الذي يبين به المرء . ومن ثم فإن من الواجب ألا يكون الكلام أقل كماً فيكون مضغوطاً بحيث يعجز عن الإفصاح عن المعاني أو المشاعر ، كما أن من الواجب ألا يكون الكلام فضفاضاً فيزيد كماً عن المعاني أو المشاعر التي يستهدف التعبير عنها . ومن جهة أخرى فإن الإبانة أو الإفصاح يجب ألا يكون بطيئاً فيحس

أولاً - التخلص من النزعة الانحيازية : فالواقع أن الإنسان يميل بطبعه إلى التطرف إلى اليمين أو إلى اليسار ، أو بتعبير آخر إلى الإفراط أو إلى التفريط . فاتخاذ الموقف الوسيط أو تحقيق الرعاية المتوازنة من الصعوبة بمكان . فتمة نوع من التدريب الذي يجب على المرء إخضاع نفسه له حتى يتسنى له اتخاذ الموقف المعتزن بعيداً عن الانحياز إلى طرف من الطرفين المتباعدين . وحتى إذا كان لدى المرء الاستعداد الكافي للخضوع لمثل هذا التدريب ، فإن القائمين على تدريبه يكونون في الغالب منحازين مسبقاً لطرف من الطرفين المتقابلين والمتباعدين . فهم لدى تدريبيهم لمن يخضعون لتوجيههم يشربونهم التحيز تشريباً ويحملونهم على الانحياز إما إلى الإفراط وإما إلى التفريط .

ثانياً - اتساع الأفق وإحراز الفهم الخصب : وحتى يتسنى تحقيق الرعاية المتوازنة فإن من الضروري أن يكون المرء متمتعاً بالقدر المناسب من اتساع الأفق ومن إحراز الفهم الخصب . وهذا يستدعي أن يكون المرء حائزاً على مستوى مرتفع من الذكاء ، وأن يكون على جانب مناسب من المرونة الذهنية ، كما يكون قادراً على التكيف مع الأحداث والوقائع التي تستجد حوله ، وألا يكون جامد الفكر ومتحجراً بإزاء القوالب السلوكية التي سبق له اكتسابها . فلكي يتحقق التوازن النفسي وبالتالي السوية النفسية ، فإن من الضروري أن يكون المرء قادراً على التكيف للظروف والمستجدات والأحداث فيتسع عقله لاستيعابها ووزنها بالميزان الصحيح والمناسب لها .

ثالثاً - التدرع بالحكمة والبصيرة الشاقبة : والواقع أن الحكمة لا تعنى الفهم واتساع الأفق فحسب ، بل تعنى اتخاذ الموقف الحصيف بإزاء خيارات كثيرة مطروحة بالموقف . فالشخص الحكيم هو الشخص الذي يستطيع أن يقع على الخيار المناسب من بين خيارات كثيرة متواجدة أمامه بالموقف . فلكي يحقق المرء

التوازن النفسي وبالتالي السوية النفسية ، فإن عليه أن يكون صاحب بصيرة ثاقبة وقادرة على اتخاذ موقف وسط حكيم بين مواقف متباينة كثيرة .

رابعاً - العدالة في تقييم المواقف والاتجاهات : فلكي يتسنى تحقيق السوية النفسية عن طريق الرعاية المتوازنة ، سواء كانت رعاية من جانب الآخرين أم من جانب المرء لنفسه ، فلا بد أن يكون متسماً بالعدالة في تقييم المواقف والاتجاهات . فالواقع أن الإنسان - سواء أراد أم لم يرد - لا بد أن يتخذ الموقف التقييمي بإزاء ما يحيط به من مواقف وما يتبدى أمامه من اتجاهات . فهو كالمقاضى الذي يجب أن يعطى كل ذي حق حقه ولا يظلم طرفاً على حساب طرف آخر . ومعنى هذا أن من الواجب تحقيق التوازن فيما بين المواقف والاتجاهات المتضاربة أو المتباعدة بعضها عن بعض . فاتخاذ الموقف المتوازن هو الخلق بتحقيق السوية النفسية .

خامساً - التخلص من الاندفاع ومن النكوص : وبالإضافة إلى ما ذكرناه فإن المرء لكي يحقق التوازن النفسي لا بد له من التخلص من الرغبة في الاندفاع وركوب الهوى ، وكذا التخلص من الرغبة في النكوص والانزواء . فلكي يتحقق التوازن في الرعاية سواء رعاية الآخرين للمرء أم رعاية المرء لنفسه ، فلا بد من تحقيق القدرة على ضبط النفس وعدم الاندفاع في تيار الانفعالات المتباينة ، وكذا تحقيق القدرة على عدم النكوص والانزواء بعيداً عن مجريات الحياة .

وعلينا في نهاية المطاف أن نستعرض العقبات التي تحول دون تحقيق الرعاية المتوازنة فنجد أن تلك العقبات يمكن أن تتحدد على النحو التالي :

أولاً - المكبوتات اللاشعورية : فالإنسان منذ أن يولد ويحس ما حوله وهو دائم الاكتساب لمقومات وجدانية يترسب بعضها في لا شعوره مشكلاً موجّهات للسلوك غير الإرادية ، فلا تكون أعماله مزوية ومخططة ، بل تكون عفوية وغير خاضعة للتخطيط أو الترسّم . فالكثير من التصرفات التي تصدر عن المرء نتيجة اعتماد تلك المكبوتات اللاشعورية تدل على أنه لم يتمتع بالرعاية المتوازنة ، فهو يكون ناحيا منحى التطرف إلى جانب الإفراط أو إلى جانب التفريط ، أعنى المبالغة أو التهاون .

ثانياً - الرغبات الجنسية : فمن العقبات التي تحول دون تحقيق الأتزان بين الطرفين المتناقضين للإفراط والتفريط سيطرة الرغبات الجنسية على المرء . فهو لا يكون على بيّنة من أمره ، فيتخذ الموقف الوسط بين الطرفين المتباعدين بتبصر ، بل يكون مغمضاً عينيه بسبب الانحياز للجنس أو التعصب ضده . فلا تكون أحكامه متزنة وعادلة ، بل تأتي منعطفة مع أو منعطفة ضد الأشخاص الذين يتعشقههم أو الأشخاص الذين ينبر عنهم جنسياً .

ثالثاً - العادات الاتفالية العنصرية : ومن العقبات التي تحول دون تحقيق الأتزان الوجداني وبالتالي السوية النفسية ما يكون قد سيطر على المرء من عادات عنصرية . فثمة ما ذكرناه من ردود الفعل وبعضها ردود الفعل العنصرية ، فنجد أن المرء يغضب لدى بزوغ مثير معين قد لا يعمل على إثارة غيره على الإطلاق أو لا يثيره بنفس القدر الذي يثير ذلك الشخص . ومعنى هذا أنه لدى بزوغ ذلك المثير ، فإن المرء يغضب ولا يبقى ولا يتر ، بل يقلب الدنيا ظهرًا لبطن ولا يستطيع أن يتخذ الموقف الوسط فيما بين الشعور بالاستياء والشعور بالرضا أو الارتياح . إنه لا يشعر إلا بأن الهياج العنصري قد اجتاحت أنحاء جميعاً وأنه لا يستطيع أن ينظر

يهدهو إلى الموقف ، بل إن عاصفة نفسية قد استبدت به ولم تبقى أي ملمح من ملامح الهدوء يستطيع أن يستند إليه أو يعتمد عليه في تقصى حقائق الموقف بمنطقية وعقلانية .

رابعاً - الاتدفاع مع الجمهرة : ومن العقبات التي تحول دون اتخاذ الموقف المتزن أو الموقف الوسط بين الطرفين المتباعدين هو انخراط المرء في نطاق جمهرة أخذ بها الغضب كل مأخذ فاهتجت جنباتها وعصفت بها أعاصير الغضب . فالمرء في اندماجه مع الجمهرة التي تلهه في لفائفها لا يستطيع أن يستبين حقائق الموقف فيفلت منه زمام العقل ولا يستطيع أن يتحاشى الانخراط في الإفراط في الهياج النفسى .

خامساً - الإحباطات التي يعانى منها المرء : فالواقع أن المرء الذى يُفت في عضده ويقابله الفشل من كل جانب بالرغم من اجتهاده فى الحياة ، لا يستطيع أن يفكر فى الموقف الذى يوجد به يهدوء وزوية ، بل تعصف به الأفكار الصاخبة أو المبالغ فيها أو غير المتعلقة ، ومن ثم فإنه قد يتخذ من المواقف والتصرفات ما يندم عليه وقد عملت الإحباطات المريرة على إبعاده عن مواطن صفاء الذهن ، ونحوته عن اتخاذ المواقف الصحيحة المنسمة بالأتزان فيما بين الإفراط والتفريط ، أو بين المبالغة فى الغضب والمبالغة فى الخضوع . وباختصار فإن الإحباطات التى تكتنف المرء تعمل فى الغالب على الخروج به من نطاق السوية النفسية المتمثلة فى الوسطية والدفع به إلى المبالغة فى اتخاذ المواقف غير السوية .

الإحساس بالطمأنينة :

من العوامل التى تساعد المرء على أن يتمتع بشخصية سوية إحساسه بالطمأنينة . على أن الإحساس بالطمأنينة يتضمن فى جوانبه مجموعة من الخصائص التى نستطيع تحديدها فيما يلى :

أولاً - عدم الإحساس بالقلق : والقلق هو مجموعة من المخاوف المتفاعلة بعضها مع بعض ، بحيث يتأتى عن تفاعلها مركب نفسي قوامه الإحساس بعدم الاستقرار النفسي والتوجس من أشياء لا يمكن تبيينها أو الوقوف عليها أو التنبؤ بحدوثها أو معرفة أسبابها . والقلق قد يكون مؤقتاً وسرعان ما ينتشع مع حدوث وقائع مبشرة أو أحداث مفرحة في حياة المرء ، كما أنه قد يكون مستمراً ودائماً في حياته لا يفارقه بل يسيطر عليه ويأخذ بزمامه ويشل حياته النفسية ويدفع به إلى حافة اليأس المرير . وهذا النوع من القلق يعتبر من الأمراض التي تكون بحاجة إلى علاج نفسي حتى يتسنى الوقوف على العوامل التي عملت على نشوئه وتمكثته من القوام النفسي للمرء . والواقع أن عدم إحساس المرء بالقلق هو الخلق بدعم السوية النفسية ، وذلك لأن هذا الإحساس صنو للاعوجاج النفسي والخروج من إطار السوية النفسية .

ثانياً - التمتع بالاسترخاء العصبى : فمن المفروض أن الأعصاب المنتشرة بجميع العضلات وأجزاء الجسم المختلفة تتوتر إلى الحد المعقول استعداداً للنهوض بمهام معينة ثم هي بعد ذلك تعود مرة أخرى إلى ما كانت عليه من استرخاء عصبى . ولكن الذى يحدث فى كثير من الحالات أن تظل الأعصاب مشدودة ومتوترة بالرغم من أن أسباب شدها وتوترها قد تزائلت وكان من المفروض أن تعود إلى ما كانت عليه من استرخاء ، ولكنها تظل فى حالة من التوتر المستمر حتى فى أثناء النوم والركون إلى الراحة بالجلوس أو الاضطجاع والتمدد على الفراش التوثير . فالواقع أن التوترات العصبية لا تحدث نتيجة الخضوع لظروف خارجية أو بسبب حدوث مواقف ضاغطة على المرء ، وبسبب أحداث غير مواتية فحسب ، بل إنها تنشأ أيضاً بسبب استحضار المواقف السابقة التى

أحدثت التوترات ، بل إنها تنشأ أيضاً بما يستحدثه المرء من صور ذهنية تخيلية ماضية أو آنية أو مستقبلية تكون مشمولة بالتوترات . فقد ينشئ المرء الصور الذهنية المثيرة لأعصابه جرياً وراء أحلام اليقظة ويعيش منفعلاً بتلك الصور ، كما لو أنها تحدث بالفعل فتتوتر أعصابه أما توتر ولا تعود إلى ما كان يجب أن تعود إليه من استرخاء ، بل تظل فى حالة توتر مما يعزف بالمرء عن التمتع بالهدوء النفسى وبالطمأنينة والأمان النفسيين . ولكن مما لا شك فيه أن الشخصية السوية هى الشخصية التى تتمتع بالاسترخاء النفسى . ولقد يجد الشخص السوى نفسه متوتراً فيعمد إلى ممارسة بعض التدريبات التى تعيد إليه استرخاءه النفسى والعصبى ، فيتمتع بذلك بهدونه النفسى ويستعيد طمأنينته وأمانه النفسيين (أنظر كتاب « تخلص من التوتر النفسى » ترجمة المؤلف) .

ثالثاً - الإحساس بالتفاؤل والاستيثار بالمستقبل : فكلى يكون المرء شاعراً بالطمأنينة ، فلا بد أن يكون التفاؤل مرفقاً بجناحيه على قوامه الداخلى وأن يكون متوقفاً لمستقبل أفضل من الحاضر والماضى جميعاً . فالإحساس بالاستيثار بما سوف يحمله المستقبل للمرء من أحداث سعيدة ، لما يضافى عليه الشعور بالطمأنينة والأمان النفسيين . وهذا الموقف النفسى مناهض للموقف الذى يجد الشخص المههد نفسه فيه . فمثل هذا الشخص المههد نفسياً يحس بالتشاؤم من المستقبل متوجساً مما سوف يحمله له من مفاجآت خطيرة ومفعمة بالمأسى والمضايقات أو الأجزان والأوصاب المتبائية . ومما لا شك فيه أن الإحساس بالطمأنينة نتيجة الإحساس بالتفاؤل والاستيثار بما سوف يحمله المستقبل من أحداث سارة لمما يعمل على دعم السوية النفسية للمرء .

أن الربط بين الماضي والحاضر والمستقبل يسمح للمرء بأن يقف على ما أحرزه بالفعل من تقدم ونمو ، فيفرح بما حدث في قوامه من نمو ، ويستبشر بما سوف يحرزه من نمو متزايد في المستقبل . وأكثر من هذا فإن الوقوف على الأبعاد الثلاثة للزمان بالنسبة لعمر المرء هو الخلق بقيامه بالتخطيط للمستقبل . وما دام هناك تخطيط للمستقبل ، فإن المرء يطمئن إلى ما سوف يكون عليه ذلك المستقبل من نمو أبلغ ومن تقدم أفضل مما سبق له أن حازه سواء في الماضي أم في الحاضر . ويتعبير آخر فإن النظرة الزمانية إلى حياة المرء تكفل الطمأنينة . فهو لا يكون في حالة من التهرؤ النفسى وهى الحالة التى تحدث نتيجة التمزق الزمانى وعدم الربط بين الماضي والحاضر والمستقبل وعدم الاستمرارية الزمانية المطلوبة لتوقع مستقبل أفضل من الحاضر والماضى جميعاً .

ولكن لا يفوتنا أن ثمة مجموعة من العوائق التى قد تقف حائلاً دون توافر الطمأنينة للشخص السوى . ولعلنا نقوم بتحديد تلك العوائق على النحو التالى :

أولاً - هبوط معنوية المرء والفقدان المؤقت للثقة بالنفس :
 فمن الحقائق النفسية التى لا نفوتنا ونعرفها جميعاً ، أن ثمة فترات من هبوط المعنوية النفسية بل ومن الإحباط تعتور حياة المرء ، حتى لقد نقول إن حياة المرء المعنوية فى ارتفاع وانخفاض شأنها شأن أمواج البحر التى ترتفع بين مدّ وجذر . فنحن لا نثق فى أنفسنا بنفس الدرجة من القوة والتماسك كل الوقت ، بل إننا نجد أنفسنا فى قمة الثقة والتفاؤل بالمستقبل فى بعض الأوقات ، بينما نجد أنفسنا فى أوقات أخرى وقد خارت معنوياتنا وصرنا فى حضيض اليأس والقنوط والتشاؤم من المستقبل . ولكن الشخص السوى يعمد إلى مقاومة ما يعتريه من هبوط فى معنويته ويسارع إلى تكدير نفسه

رابعاً - الإحساس بما فى الحياة من جمال ونظام وترتيب :
 فالإحساس بالطمأنينة يتأنى عن التمتع بالقدرة على اكتشاف ما فى الكون بكافة أطرافه وجوانبه ونوعياته من جمال ونظام وترتيب . فالواقع أن المرء هو جزء من الوجود . فإذا هو نبا عن هذا الكون وخرج عن قوامه ، فإنه عندئذ لا يستطيع أن ينسجم معه أو أن يصير قطعة من قطعه ولحماً من لحمه . فاندماج المرء فى هذا الكون وانسجامة معه وعدم الإحساس بنفوره منه أو بخروجه عن إطاره لوماً يحمله على الشعور بالطمأنينة . ففى الوقت الذى يحس فيه المرء بأنه جزء لا يتجزأ من الكون وأنه ابن حقيقى له وليس عدواً له أو ليس نائياً فى وجوده عن وجود ما حوله من أشياء وأحياء ، عندئذ تشيع الطمأنينة بين جنباته ويحس بجمال حياته ، بل وبجماله هو شخصياً باعتباره جزءاً من الكون الجميل .

والإحساس بالجمال مرتبط بالإحساس بالنظام والترتيب . ففى اللحظة التى يحس فيها المرء بجماله ، فإنه يحس أيضاً بما يتمتع به من نظام وترتيب . والجمال والنظام والترتيب التى يحس بها المرء تجاه نفسه ، إنما هى انبثاق من إحساسه بالجمال والنظام والترتيب الذى يتمتع به الكون من حوله . ومن المؤكد أن الطمأنينة لا تتوافر لإنسان ناب عن الوجود من حوله وكان ذلك الوجود قد ناصبه العداة ، وأنه فى تنافر معه ولا ينسجم معه ولا يحس بالوداد فى علاقته به .

خامساً - ربط الماضي بالحاضر وربط الحاضر بالمستقبل :
 فمن المؤكد أن المرء لا يحس بالطمأنينة إذا هو صار ممزقاً من حيث وجوده بين ماضٍ منفصل عن حاضره وبين حاضرٍ منفصل عن مستقبله . فالاستمرارية الزمانية المكانية التى أطلقنا عليها اسم الزمكانية هى الكفيلة ببث روح الطمأنينة فى قلب المرء . فالواقع

بما بلغه من نضج ومن حصول على أوجه من النجاح ومن تغلب على مشاكل كآداء كانت تعترض طريقه ، بل إنه يتذكر العناية الإلهية وما تسانده به من مؤازرات وتيسير للصعاب وفتح لأبواب النجاح أمامه فينهض من جديد وترتفع معنويته مرة أخرى ويمتدرد إحساسه بالطمأنينة .

ثانياً - الأحداث المفاجئة غير المتوقعة التي تفت في

العصء : فما يقف حائلاً دون استمرار الطمأنينة رانية على قلب المرء ، وقوع أحداث مفاجئة لم يكن المرء يتوقعها ، فيترتب على ذلك زوال الطمأنينة من القلب والإحساس بالتوجس ، بل والتشاؤم من مستقبل محفوف بالمخاطر أو من أرجه الفضل المتباينة . ولقد تكون الأحداث المفاجئة غير المتوقعة حقيقية ويقف عليها المرء بأحجامها الحقيقية ، كما أنها قد تكون أحداثاً تافهة أو حتى وهمية لم تقع بالفعل بل اعتملت في عقل المرء فظن أنها قد وقعت له مع أن الواقع أنها لا تخصه ولم تصوب تجاهه ، بل تخص غيره وقد صوبت تجاه ذلك الغير . ولقد تعمل المخيلة عملها في هذا الصدد ، فتقوم بتكبير الأحداث الصغيرة فتصير ضخمة للغاية بحيث تسد جميع المنافذ الممكنة أمام المرء مع أن تلك المنافذ الممكنة موجودة ومفتوحة أمامه ولكنه لا يراها بسبب الغشاوة التي وضعها بواسطة مخيلته أمام عينيه .

ثالثاً - الإصابة بمرض بسيط يظنه المرء مرضاً مميتاً : فلقد يصاب المرء بورم معين فيتوهم أنه قد أصيب بالسرطان فتتهبط معنويته إلى أحط مستوى ويفقد الطمأنينة النفسية فقدائاً تاماً ، وبالتالي فإنه يكون عرضة للإصابة بأحد الأمراض النفسية . ولكنه بعد أن يعرض نفسه على الطبيب المختص فيؤكد له أن الورم الذي أصابه ليس سوى خراج عادي يعالج بتناول بعض المضادات الحيوية ، فإنه يسترد معنويته المفقودة وإحساسه بالطمأنينة .

رابعاً - توجيه النقد إلى المرء أو تجاهل ذوى الشأن له ولأميالاتهم به : فلقد يصاب الكثير من الفلاسفة والأدباء والفنانين وغيرهم بالإحباط بسبب ما يوجه إليهم من نقد ، أو لأن أحداً لا يعيرهم أى اهتمام أو لأن ما يقدمونه من إنتاج لا يجد صدقاً فيما يقوم النقاد بكتابه أو إذاعته . ولكن المفكر أو المبدع الذى يعمل على أرض صلبة كثيراً ما يرجع إلى نفسه مؤكداً أنه لا يعتمد فى تقييم نفسه على ما يقوله الآخرون ، بل يعتمد على معايير ذاتية يفكرها ويعرف قيمتها ، مؤكداً لنفسه أنه أرفع مستوى من أن يناله النقد اللاذع أو الإهمال واللامبالاة بالإحباط . فهو موجود بما يبدعه لا بما يمنحه به الآخرون ، وأن معياره الذى لا يمكن أن يُقَل هو مدى الإبداعية فى أعماله وعدم نقله عن غيره بالعنونة التى أصيب بها الكثير من المشاهير الذين يركبون التيار أو الذين يندرعون بالأساليب الملتوية فى إبراز أعمالهم وإعلانها على الملأ . وبذا فإنه يسترد طمأنينته النفسية ويدعم سويته .

خامساً - النضوب الإبداعي المؤقت : فمن الحقائق المعروفة

فى حياة كثير من الكتاب أن ثمة فترات من حياتهم الثقافية يكون الإبداع خلالها متعزراً أو صعباً لدرجة أن عملية الكتابة تكون من شبه المستحيلات . ففى تلك الفترات فإن معنوية المبدع تكون فى الحضيض . ولكن من حسن الحظ أن تلك الفترات سرعان ما تمر ويسترد المبدع مسيرته الإبداعية من جديد . وبذا فإنه يستعيد إحساسه بالطمأنينة وتدعم سويته النفسية .

امتصاص الصدمات :

لا تسير الحياة وفق وتيرة واحدة ، بل تسلك وفق منعرجات كثيرة متتالية ، ولا تخلو حياة المرء من صدمات غير متوقعة تهز كيانه وتشتت فكره وتأخذ به كل مأخذ وتقلب حياته النفسية ظهراً

لبطن وتعمل على إظلام الدنيا في عينيه بحيث لا يكاد يجد بصيصاً من الأمل في غد مشرق أو في فتح صفحة جديدة بيضاء بعد الصفحة السوداء التي كدرت حياته وجعلتها جحيمًا لا يطاق . ولكن الواقع أن بُعد الغيوم الكثيفة تشرق الشمس من جديد ، وبعد اكفهار الظروف والمواقف يبرز الأمل مرة ثانية ، وبعد اليأس يلوح الرجاء ، وبعد الكدر يأتي الصفاء .

بيد أن الإنسان ليس مجرد لعبة في يد القدر ، بل هو متأثر ومؤثر ، وبقدر ما يكون ألعوبة في يد الظروف ، فإنه بدوره يلعب دوراً في توجيه الظروف ، وبقدر ما تنعكس على نفسه آثار ما يلقاه في الحياة من عنت ، بقدر ما يكون بمقدوره أن يتحكم في دخيلته وأن يكون سيد مصيره النفسي وصائب حياته بما يشاء أن يصبغها به . فهو المسيطر على دخيلته ، وهو الموجه لدفة حياته النفسية إذا أراد أن يكون هو المسيطر وهو الموجه .

والواقع أن الإنسان السوي هو ذلك الذي يلعب دوراً في التأثير والتوجيه الذاتيين وفي تشكيل فلسفة حياته وفي السيطرة على المواقف النفسية التي يتخذها . فهو ليس مجرد صدى لما يتلقاه من الخارج من مؤثرات ، بل هو متأثر ومؤثر كما قلنا ، وهو متناغم مع الواقع المحيط به ، كما أنه المسيطر على ذلك التناغم بالتخفيف منه أو بتحويله الوجهات التي ترفع عنه المعاناة والابتئاس ، وبتعبير آخر فإن الشخص السوي يتمتع بالقدرة على امتصاص الصدمات التي تجابهه في الحياة .

وثمة في الواقع مجموعة من الوسائل التي يستخدمها الشخص السوي في امتصاص الصدمات التي تجابهه في الحياة لعلنا نقوم بتحديددها على النحو التالي :

أولاً - التقدير الواقعي للصددمات : فما يلاقه المرء في حياته من صدمات يمكن أن ينظر إليه بالتحويل والمبالغة ، كما يمكن أن ينظر إليه بالتحويل من شأنه والتقليل من قيمته ، كما يمكن أن ينظر إليه بنظرة واقعية خالية من التحويل والتحويل جميعاً . وهذه النظرة الأخيرة هي نظرة الشخص الواقعي السوي الذي لا ينحو إلى المبالغة كما لا ينحو إلى الاستهانة بما يلقاه في واقع الحياة من صدمات أو كوارث أو مفاجآت مكررة . ولكن مما لا شك فيه أن النظرة الواقعية إلى الصدمات هي الوسيلة المثلى في مجابهة المواقف . ذلك أن النظرة التهويلية تلقى باليأس في القلب ، كما أن النظرة التهوينية تشتمل على الخداع النفسي الذي سرعان ما ينقشع فيقف المرء على الواقع المرير فتزداد وطأة ما يجابهه من صدمات لم يكن قد أعد العدة النفسية المناسبة لامتصاصها .

ثانياً - وبعد اتخاذ هذا الموقف الواقعي من الصدمة أو الموقف المولم نفسياً ، فإن الشخص السوي يعمد إلى إعداد العدة النفسية المناسبة للامتصاص النفسي . ومن المعروف أن المرء يعد طاقة نفسية لدى إقدامه على أي نشاط كائنًا ما يكون هذا النشاط . فهو سواء كان بلاءً أي نشاط إيجابي أم كان بلاءً أي نشاط سلبي ، فإنه لا بد أن يجهز له الطاقة النفسية المناسبة له كمًّا وكيفًا . فيالنسبة للنشاط السلبي المتمثل في امتصاص الصدمات ، فإن الشخص السوي يعد الطاقة النفسية الخليقة بامتصاص ما يلقاه من صدمات . ومن الطبيعي أن يتم هذا الإعداد بطريقة لاشعورية أو تحت الشعورية . ولقد نقول إن الشخص السوي يكون قد درب نفسه على مثل هذا الموقف الاستعدادي لإعداد الطاقة النفسية التي يتسنى له بواسطتها امتصاص الصدمات التي تقابله في حياته .

ثالثاً - ترسم أهداف جديدة تضاف إلى الأهداف القديمة :
ومما يعمل على امتصاص الصدمات التي تجابهه الشخص السوي

قيامه بابتكار أهداف جديدة لم تكن قد راودته من قبل ووضعها نصب عينيه حتى يتسنى له أن يحققها في أول فرصة تتاح له . والواقع أن الحياة إذا لم تخصّب بالأهداف المتجددة ، فإنها تتضب ، أو قل إن الأهداف القديمة تبلى أو تتعفن كما يتعفن الطعام . فإذا لم يقم المرء باستبدال أهدافه ، فإنه يكون في حالة لا تسمح له بأن يستوعب الصعوبات أو أن يهضم الصدمات التي يتلقاها والتي تتعلق بتلك الأهداف القديمة . تجديد الأهداف وخلق الجديد منها وإحلاله محل الأهداف القديمة يعمل على تجديد الجهاز النفسي ، بل ويسمح للمرء بأن يمتص ما يتلقاه من صدمات نفسية متباينة .

رابعاً - الانشغال في نشاط جديد : مما يعمل على امتصاص الصدمات التي يجابهها المرء في الحياة فتح مجالات نشاطية جديدة والانشغال بها . فالواقع أن فتح جبهات جديدة أمام المرء يُعْمَل نشاطه فيها ، لئلا يهون من أثر الصدمات التي أصابته . ذلك أن توجيه الطاقة النفسية في أعمال جديدة يعمل على تجديد تلك الطاقة النفسية ذاتها وبالتالي فإن الجهاز النفسي للمرء لا يصاب بالضمور أو قل إنه لا يصير كالبركة التي تحوى على الماء الآسن . فالحركة النشاطية المستمرة والمتجددة تعمل على التحرر من ربة الصدمات النفسية التي أصابت المرء . فالتحرر من وطأة الصدمات النفسية لا يتأتى إلا بالتحرر النفسي الداخلي من الجمود أو التوقف عن الحركة ، وبذل الجهد والتخلص من الجمود الذهني والوجداني والإرادي .

خامساً - مقارنة المرء نفسه بغيره ممن أصيبوا بصدمات أقوى وأشنع : وما يساعد الشخص السوي على امتصاص الصدمات التي يجابهها في حياته مقارنة ما أصابه من صدمات بما أصاب غيره منها بشكل أشنع وأقسى . والواقع أن ثمة نوعاً من

التجاوب النفسي بين المرء وبين غيره فيحسن بأنه وغيره في نفس الخندق النفسي ، وبالتالي فإن التضامن النفسي يشمل مع غيره فيحسن بالطمأنينة النفسية أو قل إنه يحسن بالتجاوب الوجداني مع غيره ، بل ويحسن بالشفقة تعمره بزاء ذلك الغير الذي أصابه من الصدمات ما هو أشنع مما أصابه ولحق به . فيرى نفسه في موقف المحسود على قلة وخفة ما أصابه من صدمات بالمقارنة بما أصاب غيره .

بيد أن هناك مجموعة من الصعوبات التي تعترض طريق الشخصية السوية في سبيل امتصاص الصدمات التي تتلقاها في الحياة . والصعوبات هي :

أولاً - إصابة القدرة على تفهم الموقف بالشلل : فلقد تكون الصدمة التي تصيب الشخص من القوة والفجأة بحيث لا يستطيع أن يُعْمَل فكره في الموقف ، بل يصاب بما يشبه الشلل الذهني ، فيتوقف مجرى تفكيره أو قل إن تفكيره يتركز في موضوع واحد هو تلك الصدمة التي أصابته بحيث لا يستطيع أن ينتقل منها إلى غيرها من موضوعات . وفي بعض الحالات لا يستطيع المرء أن يفكر على الإطلاق حتى فيما يتعلق بالصدمة التي أصابته . فهو يتوقف عن التفكير ويصير في حالة ذهول وترين على مجال تفكيره عُباشاً لا يتسنى له التخلص منها أو التخفف من وطأتها ، ولقد تظل هذه الحالة رائية على ذهن المرء فترة قد تصل إلى عدة ساعات أو حتى إلى عدة أيام إلى أن يتسنى له أن يستعيد ما كان عليه قبلاً من قدرة على التفكير السوي .

ثانياً - الجيشان الانفعالي : ومن الصعوبات أو العقبات التي تعترض طريق الشخص السوي لدى تلقيه لبعض الصدمات ما يمكن أن يفور ويموج لديه من جيشان انفعالي والواقع أن الانفعال

خامساً - الإصابة بالاكنتاب المؤقت : وفي بعض الحالات التي يصاب فيها المرء بالصددمات المفاجئة فإنه ينخرط في حالة نفسية اكتئابية مؤقتة قد تمتد إلى بضعة أيام . ولكن الشخص السوي يستطيع أن يسترد ما كان عليه من تفتح على الواقع من حوله وأن يتخلص مما ران عليه من اكنتاب مؤقت بسبب الصدمة التي أصابته . والواقع أن للشخص السوي دوراً يلعبه بإزاء ما يمكن أن يصيبه من حالات اكتئابية مؤقتة وذلك بما يبذله من جهد نفسي يخلصه من اكنتابه . ومن المعروف أن الطبيب النفسي عندما يتناول المريض بالاكنتاب فإنه يعمد إلى حثه على مساعدة نفسه بالتغلب على ما أصابه منه . فالدور الذي يضطلع به المعالج النفسي هو دور المشجع الذي يثبت في المريض الرغبة في التغلب على ما أصابه وليس دور الفاعل والمؤثر بالطريق المباشر . فإذا كان هذا هو موقف المعالج النفسي بإزاء المريض بالاكنتاب الشديد ، فإنه بالأولى يكون دور الشخص السوي بإزاء نفسه إذا ما أصيب بالاكنتاب المؤقت الذي يتأتى نتيجة الصدمات المفاجئة التي يتلقاها في حياته .

التدريب على حل المشكلات :

المشكلة عبارة عن عقبة تعنور طريق حياة الفرد أو الجماعة فتحول بينه أو بينها وبين تحقيق الهدف أو الأهداف التي يرغبان تحقيقها . والواقع أن هناك عدة أنواع من المشكلات لعلنا نقوم بتحديددها على النحو التالي :

أولاً - المشكلات التي تهدد الحياة : من ذلك القحط والمجاعات والفيضانات والحرائق والحروب والفنن والإرهاب والأوبئة والأمراض المستعصية والحوادث التي يتسبب عنها عاهات تحول دون مواصلة العمل واجتلاب الرزق ونحو ذلك من مشكلات تهدد بقاء الحياة بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر .

الشديد قد يعمل على العجز عن تبين واستيضاح ما يحتوي عليه الموقف من مقومات ، بل إنه لا يستطيع والحالة هذه أن يقوم بالربط بين الأسباب والنتائج . فهو يتوقف عن مجرد محاولة الوقوف على ما وقع عليه من صدمات . وأكثر من هذا فإنه لا يستطيع أن يستبين ما يجب عليه اتخاذه من تصرفات حيال ما أصابه وأثر فيه . فهو يفقد ما يمكن أن يتخذه من تصرفات أو مواقف .

ثالثاً - فقدان القدرة على الاتصال بالآخرين : ولقد يتأتى عن تلقى الصدمات عجز الشخص السوي عن إقامة جسور اتصالية بينه وبين الآخرين . ومن المعروف أن الاتصال بالآخرين كثيراً ما يكون هو الطريق المؤدى إلى امتصاص الصدمات أو إلى التخلص من وطأتها والتخفيف منها . ولكن في بعض المواقف التي يتلقى فيها المرء الصدمات الشديدة ، فإنه يفقد القدرة على الكلام مع الآخرين وعلى تبادل المشاعر الوجدانية معهم . فيلزم الصمت القاتل عاجزاً عن الإفصاح عما يدور بقلبه من مشاعر مضمينة وعما أصاب نفسيته من صدمات مروعة .

رابعاً - الوقوف مكتوف اليدين بإزاء الخيارات المتوافرة بالموقف : يفعد وقوع الصدمات الشديدة وما يترتب عليها من عجز عن التفكير وعن الإلمام بمقومات الموقف ، فإن الشخص السوي يجد نفسه في تلك الحالة عاجزاً عن تصفح الخيارات المتوافرة بالموقف والتي يمكن الاختيار من بينها للتخفف من شدة وقوع الصدمة . ولكن الواقع أن شدة الصدمة يمكن أن تعصف بالقدرة على الاختيار من بين الخيارات المتوافرة بالموقف والتي يمكن أن تسعف المرء بالتخفف من هول الصدمة . ولكن بالرغم من سوية المرء ، فإنه يظل لفترة تقصر أو تطول وهو عاجز عن الوقوع على الاختيار المناسب .

ثانياً - المشكلات التي تهدد المستقبل : من تلك المشكلات الفصل من العمل أو الإنذار بالفصل وكذا الرسوب في الامتحان الذي يُعتمد عليه في تحديد خطوات المستقبل ، وتوقيع عقوبة السجن على أحد الأشخاص مما يترتب عليه ضياع المستقبل الوظيفي أو الأسرى ونحو ذلك من مشكلات لها تأثير في مستقبل المرء أو أسرته .

ثالثاً - المشكلات المتعلقة بسمعة المرء : من ذلك اتهام شخص ما في شرفه سواء بالحق أم بالباطل وضياع سمعته بين أقربائه وجيرانه وزملائه ومعارفه . ومن أهم الاتهامات في هذا الصدد الاتهامات الجنسية والمالية . والواقع أن هذا النوع من المشكلات يتعلق بصميم الشخصية وجوهرها . فإذا ما وجهت مثل هذه الاتهامات إلى شخص ما ، فإنها تظل لصيقة به فلا يستطيع التخلص منها إلا إذا غير بيئته وهاجر إلى قطر بعيد فيبدأ صفحة جديدة تماماً فيها .

رابعاً - المشكلات المتعلقة بالعمل : فقد تستغنى الجهة التي يعمل بها المرء عن خدماته فيفصل من عمله لأنه يعتبر من العمالة الزائدة أو لأن هناك من هم أفضل منه في أداء المهام التي يضطلع بها ، وقد تكون التدفقات التكنولوجية على مجالات العمل هي السبب في الاستغناء عن الكثير من الموظفين ، وقد يكون الكساد الذي أصاب السوق هو السبب في الاستغناء عن كثير من الأيدي العاملة ، وقد يكون التنافس بين المؤسسات التي تعمل في نفس المجال هو السبب في الفصل من العمل .

خامساً - المشكلات الدراسية والثقافية : فقد يعثر بعض الطلبة في مواصلة دراستهم فتتعدد مرات الرسوب في السنة الواحدة ، وذلك بالرغم من الانكباب على الاستذكار والانتظام على

حضور الدراسة والاستقامة . ويكون السبب في حدوث المشكلة الدراسية متعلقاً باستعداد الطالب أو بسبب انخفاض مستوى تكائه أو لعدم مناسبة المواد المقررة لحالته المزاجية أو لما يميل إليه أو لانخفاض استعداداته الخاصة بنوع معين من المعرفة أو بسبب وجود مشكلات نفسية لا شعورية تجعله نافرًا من الدراسة وغير قادر على الاستيعاب أو لغير ذلك من أسباب . ولقد يحاول الشاب الذي لديه ميول وطموح للكتابة الأدبية نشر ما يقوم بكتابته من شعر أو نثر على صفحات المجلات المحلية أو القومية ولكنه لا يجد من يعيره اهتماماً ، بل تلقى كتاباته في سلة المهملات ، فيحاول مرات متكررة ، ولكن دون جدوى .

سادساً - المشكلات الأسرية : وهي المشكلات التي تنشأ بين الزوجين أو بين أحد الزوجين وأسرته الطرف الآخر ، أو بين الأب وأحد أبنائه أو بناته ، أو بين الأم وأحد أبنائها أو بناتها . وقد تنصب على المشكلات الأسرية على المسائل المالية ، كما أنها قد تنصب على المسائل السلوكية أو على غير ذلك من أمور .

سابعاً - المشكلات مع الأقرباء أو الجيران : وهذا النوع من المشكلات قد يتعلق بالشؤون المالية ، كما قد يتعلق بخلافات حول بعض المسائل أو العلاقات أو بسبب القيل والقال ، أو بسبب الغيرة والحقد أو بسبب العدوان على الممتلكات وإتلافها أو لغير ذلك من أسباب .

ثامناً - المشكلات العقائدية : فقد يتسبب التباين في العقيدة الدينية أو العقيدة السياسية في نشوء المشكلات بين الناس الموجودين في بيئة واحدة ، ويكون المحور الذي تدور حوله تلك المشكلات إثارة المناقشات والمجادلات التي قد تنتهي إلى ما لا يحمد عقاباً من المجابهات والشجارات التي ربما تؤدي إلى نزيف من الدماء لا يتوقف ويستدعي تدخل جهات الأمن لوقفه .

تاسعاً - المشكلات الفكرية : وهذا النوع من المشكلات ينشأ في العادة في أوساط المتقنين ، ويكون حول قضايا فكرية تتسم بالتعقد وبعد الغور . من ذلك مثلاً قضية الكتابة بالفصحى أو العامية ، وقضية الإبداع في الوسيلة أم في المضمون ، وقضية الأدب النسائي والأدب الرجالي ، وقضية عزل الموهوبين وتخصيص تعليم خاص لهم أم درجهم مع العاديين إلى غير ذلك من مشكلات فكرية .

عاشراً - المشكلات الرياضية : وتتركز هذه المشكلات في تحديد الجهة المسئولة عن الرياضة والتربية الرياضية ورعاية المتقنين رياضياً . فهل هذه الجهة هي وزارة التعليم أم وزارة الشباب والرياضة ؟ وإذا كانت الوزارة الأخيرة هي المسئولة عن هذه المهمة فهل تقوم بإنشاء مدارس خاصة بالأطفال والمراهقين والشباب الموهوبين رياضياً أم تقوم برعايتهم وهم مع أترابهم بمدارسهم العادية ؟

وبعد أن قمنا بتقديم هذه الأنواع العشرة من المشكلات التي يمكن أن تجابه المرء في موقف أو آخر من مواقف الحياة التي تتباين بتباين الأفراد ، فإن علينا أن نستعرض الخطوات التي يمر بها الشخص السوي حتى يتم له التدريب على حل المشكلات التي تجابهه في الحياة أو التي يحس بمسئوليته عن التصدي لها والتوصل إلى حلول بليزاتها والخطوات هي :

أولاً - تفهم أبعاد المشكلة : فمن الخطأ أن يتناول المرء المشكلة التي يتعرض لها من طرفها الذي انتهت إليه أو من حيث النتائج التي تآتت عنها دون أن يبدأ من أول الخيط ، أعني من بداية المشكلة ثم مروراً بالمرحل أو الخطوات التي مرت بها وانتهاءً إلى ما انتهت إليه . والواقع أن تناول المشكلة من جذورها ومروراً

بالمراحل التي تطورت خلالها لما يرضعها في قبضة المرء برمتها فلا يقلت منها جزء وينبؤ عن فهم وبصيرة المتصدى لها . ومما لا شك فيه أن عدم فهم المشكلة برمتها لما يشوبها بالغموض والإبهام ويجعلها لغزاً غير قابل للحل في نظر صاحبها .

ثانياً - التوقعات المستقبلية : وفي هذه الخطوة يقوم المرء بتشوف آفاق المستقبل فيما يتعلق بما سوف تصير إليه المشكلة التي يتناولها . ومما لا شك فيه أن هذه القدرة التوقعية على جانب كبير من الأهمية بزاء الوقوف على ما سوف تنتهي إليه ، أو ما يتوقع لها أن تنتهي إليه . ومن الطبيعي أنه بغير اتخاذ هذه الخطوة التوقعية فإن العمل على حل المشكلة لا ينسني للمرء .

ثالثاً - التخطيط بناء على فهم أبعاد المشكلة والتوقعات المستقبلية : وفي هذه الخطوة يقوم صاحب المشكلة أو المتصدى لحلها بوضع الخطط العملية التي من شأنها التوصل إلى أحسن حل ممكن لها . ولقد يكون الحل الذي يتم التخطيط له حلاً جزئياً حاسماً ، كما أنه قد يكون حلاً تخفيفياً أي التخفيف من شدة وطأة المشكلة إلى أقصى حد ممكن إذا لم يكن من سبيل للقضاء عليها قضاء مبرماً شاملاً كاملاً .

رابعاً - سد الروافد التي تساند المشكلة : وبعد فهم المشكلة من بدايتها وحتى المرحلة التي انتهت إليها ، فإن على من يتصدى لحلها أن يقف على الروافد والمصادر التي تعمل على دعمها ومدّها بالقوة وعلى تنشيطها ودعمها . لقد تتمثل تلك الروافد في بعض الأشخاص الذين يعملون في الخفاء أو علانية على الاستمرار بالمشكلة في قوة وتزايد واحتداد ، فلا يكون من وسيلة سوى

القضاء على تلك المصادر والعمل على إبعادها وسد الطريق أمام من يقومون بتقديم الوقود لزيادة اشتعال الموقف بحيث يتعذر إطفاء جذوة المشكلة والقضاء عليها .

وتمة مجموعة من العقبات التي تعترض طريق الشخص السوي بإزاء محاولاته لحل المشكلات التي تجابهه لعنا نقوم بتقديمها على النحو التالي :

أولاً - عدم التذرع بالصبر للوقوف على تاريخ المشكلة
وما يتوقع لها أن تصير إليه : فالكثير من الأشخاص الأسوياء لا يكونون متمتعين بالصبر الكافي لنقصى الحقائق التي تتعلق بالمشكلة . فالواقع أن الوقوف على ثمار المشكلة أو النتائج التي تترتب عليها أسهل وأيسر من تتبع المشكلة من أول الخيط ومروراً بالمرحل التي تطورت بها إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه من حالة أو من نتائج . من هنا فإن الغالبية العظمى من الناس الأسوياء يتخذون الطريق السهل فلا يتعبون أنفسهم في التفكير ، بل يقفزون مباشرة إلى آخر ما انتهت إليه المشكلة ويبدأون في التفكير من نهايتها وليس من بدايتها .

ثانياً - ارتجال الحلول والأخذ بما يخطر على البال منها :
فالكثير من الأشخاص الأسوياء لا يتحرون الدقة في اختيار الحلول التي يرتوئونها لحل مشكلاتهم ، بل يقفزون إلى حلول ارتجالية أو إلى أول حل يخطر لهم بالبال . وفي الغالب لا تكون الحلول المرجلة هي الحلول الناجعة ، بل ربما تكون سبباً في تعقد المشكلة أكثر فأكثر .

ثالثاً - عدم التذرع بالوسائل المناسبة في تنفيذ حل المشكلة :
وحتى إذا كان الحل الذي يخطر ببال الشخص السوي

هو الحل الناجع ، فإنه قد لا يتسنى له الوقوع على الوسائل السليمة أو الفعالة في تنفيذ ذلك الحل الناجع . فليس بكاف أن يقع المرء على الحل المناسب للمشكلة ، بل لا بد له من الاستعانة بالوسائل الناجعة والمناسبة لتنفيذ ذلك الحل . وتتمثل الوسائل التي يستعين بها المرء في حل المشكلة في الأدوات أو الآلات أو الخامات بالإضافة إلى المهارات المستخدمة في تشغيل تلك الأدوات والآلات والخامات . ولكن كثيراً ما يعوز الشخص السوي ما كان يجب أن يحوزه من مهارات ذهنية أو كلامية أو علاقية أو حركية حتى يتسنى له التصدي لحل المشكلات التي تجابهه .

رابعاً - الافتقار إلى الخبرة السابقة :
ومن العقبات التي تعترض طريق الشخص السوي في سبيل حل المشكلات التي تعترض طريق حياته افتقاره إلى الخبرة السابقة المتعلقة بذلك النوع الذي يجابهه من مشكلات . فهو يكون خالي الوفاض مما كان يجب أن يحوزه من خبرة سابقة في المجالات التي تنخرط فيها تلك المشكلات . ومما لا شك فيه أن الخبرة السابقة وما عاناه المرء من صعوبات ومن تجارب أفضت إلى اكتسابه مهارات معينة واتجاهات عقلية وقدرات خاصة في مجابهة المشكلات وحلها لما يكسبه القدرة على الاضطلاع بالحلول لمشكلاته الراهنة على خير وجه وأفضله وأنجعها .

خامساً - انعدام القدرة على الاستمرارية والمواصلة :
فالكثير من الأشخاص الأسوياء تعوزهم القدرة على الاستمرار في حل المشكلات التي تجابههم حتى النهاية ، بل إنهم ما يكادون يقطعون نصف الطريق في حل مشاكلهم حتى يتوقفوا وينصرفوا إلى أمور أخرى تشغلهم وتلهيهم عن تلك المشاكل التي اعتملت في

حياتهم والتي كان أحرى بهم أن يستمروا في سبيل حلها حتى النهاية بحيث يقلعوا المشكلة من جذورها فلا تبقى لها ذيول أو آثار أو جذور تنبت من جديد ويكون استفحالها أشنع مما كانت عليه قبلاً .

القدرة على التعاون :

إذا نحن أقينا الضوء على معنى التعاون ، فإننا نجد أن معناه يتضمن مجموعة من المعاني الفرعية التي نستطيع تقديمها على النحو التالي :

أولاً - مشاركة شخص أو أكثر في اهتمام مشترك : فتمه الاهتمامات كثيرة تستولي على عقول وأفئدة الناس ، وبعض الاهتمامات تكون فردية منحصرة في نطاق شخص واحد لا يشترك فيها معه شخص أو أشخاص آخرون . من ذلك مثلاً اهتمام المرء بالاستحمام أو بالحلاقة . وبعض الاهتمامات تتسم بأنها مشتركة بين فردين أو أكثر كما هو الحال في ممارسة إحدى الألعاب الثنائية أو الجماعية . وفي هذا النوع الأخير من الاهتمامات يكون المشتركون في حالة تعاون فيما بينهم لتحقيق أهداف النشاط الذي ينخرطون فيه ويمارسونه .

ثانياً - إن التعاون يتوازى مع التنافس : فعلى الرغم من أن التنافس مضاد للتعاون ، فإن كل نشاط تعاوني يتضمن في نطاقه تنافساً . فمثلاً بالنسبة لإحدى المباريات الرياضية بين فريقين ، فإن التعاون الذي يتوافر بين إحدى الفريقين يقابله تنافس بينهما . وكل تعاون في أي نشاط جماعي لا بد أن يتوازى معه تنافس بين المجموعات الفرعية التي يتضمنها التنظيم الكلي للمجموعة الكبيرة .

ثالثاً - إن النشاط التعاوني يتسم بالغرضية أو بهدف عام يراد بلوغه وتحقيقه : فليس هناك من نشاط يتصف بالتعاون إلا ويكون هادفاً نحو غرضية معينة ورائباً إلى تحقيق هدف عام . فالمدرسة التي يسودها روح التعاون والتنافس تستهدف في نهاية المطاف إحراز نجاح مجموعة طلابها بمجاميع مرتفعة وكسيهم لمستوى ثقافي وتعليمي مرموق .

رابعاً - إن النشاط التعاوني يشتمل على أنواع معينة من الأداءات أو المهارات : فالتعاون لا يتم في فراغ ، بل يتم في نطاق أعمال معينة تتم إما بالمهارات اليدوية وإما بالمهارات الإدارية أو العلانية .

خامساً - إن النشاط التعاوني يتسم بالدينامية أي أنه لا يتسم بالضبط من الخارج على الأفراد أو على المجموعة : فحتى إذا كانت هناك مؤثرات خارجية أو إذا كانت هناك قيادة تحت المشتركين في النشاط على بذل الجهد وتجويد الأداء ، فإن التعاون لا بد أن ينبع من دخيلة الأفراد والمجموعة ككل بطريقة دينامية أي نتيجة بواعث نفسية داخلية وليس نتيجة التحريك من الخارج .

والواقع أن القدرة على التعاون تعتبر من السمات الرئيسية التي يتسم بها الشخص السوي . وهناك مجموعة من العوامل التي تساعد على التدريب على التعاون لعنا نقوم بتحديثها على النحو التالي .

أولاً - تقسيم المجموعة إلى مجموعات فرعية : فالمدرس الذي يرغب في تدريب التلاميذ أو الطلاب على التعاون ، فإن عليه أن يقوم بتوزيع تلاميذ الفصل إلى مجموعات فرعية بحيث تشتمل كل مجموعة فرعية على شخصين أو أكثر بحيث لا يزيد عدد أي مجموعة فرعية عن خمسة أفراد . ثم يحدد نشاطاً عاماً يضطلع به

الفصل ككل بحيث تتنافس كل مجموعة من المجموعات الفرعية على الأداء في محاولة التفوق على باقي المجموعات . وبذا فإن التعاون يحدث في نطاق كل مجموعة فرعية من جهة ، كما يحدث التنافس بين كل مجموعة فرعية وباقي المجموعات الفرعية الأخرى من جهة أخرى . ويتأتى عن اتباع هذا النهج من التعاون بين المجموعات الفرعية والتنافس فيما بينها تدريب التلاميذ على التعاون والتنافس معاً .

ثانياً - تجديد الأهداف النشاطية : فمن المعروف أن الأهداف الجماعية - شأنها شأن الأهداف الفردية - إذا لم تداخلها التجديدات المستمرة وتحديث الأهداف القديمة ، فإنها تصاب بالضمور والخفوت والذبول . من هنا فإن المخططين للأنشطة الجماعية لا بد أن يكون في جعبتهم الكثير من الأهداف المستقبلية التي يعتزمون وضعها نصب أعين المجموعات التي يقومون بقيادتها بحيث يحلون الأهداف الجديدة محل الأهداف القديمة كلما أحسوا بأن الذبول قد بدأ يصيب الأهداف القديمة وذلك بسبب فتور همة المشتركين في النشاط الأدائي أو العلائقي .

ثالثاً - تجديد القيادات والتشكيلات : فالواقع أن الاعتياد على ممارسة نوع معين من النشاط يصيب المرء بالزهد فيه وفتور الهمة بإزاء النهوض به . من هنا فلا بد من القيام بإحلال أشخاص جدد محل الأشخاص الذين ظلوا يمارسون نوعاً معيناً من النشاط وقد بدا عليهم فتور الهمة والتبرم بسبب الاستمرار في الموقع نفسه مدة طويلة . أضف إلى هذا أن تجديد التشكيلات المتعلقة بالمجموعات الفرعية لما يجدد القوام النشاطي للمجموعة الكلية الكبيرة .

رابعاً - تحديث وسائل التنفيذ والممارسة : فمن وسائل تحسين التدريب على التعاون في نطاق المجموعة الفرعية وعلى

التنافس بين المجموعات الفرعية التي يتم تشكيلها في نطاق المجموعة الكلية الكبيرة العمل على تحديث الوسائل التي يتم بها أداء العمل . ومن المعروف أن التكنولوجيا الحديثة متدفقة ومستمرة في التدفق في جميع المجالات النشاطية . فمن الخطأ إنزاع التنافس عن الأخذ بالمستحدثات التكنولوجية في المجالات النشاطية المتباينة . ومن المؤسف حقاً أننا نجد أن المؤسسات التعليمية تنفاس عن الأخذ بالمستحدثات التكنولوجية التعليمية وما تزال مصرة على الأخذ بالوسائل التقليدية التي كانت شائعة حتى بالعصور الوسطى أو قبلها في التعليم بل وفي جميع أنشطتها المتباينة .

خامساً - التجديد الذهني والتدريبي للقيادات : فطالما أننا نبحث عن الوسائل التي تساعد على التدريب على التعاون ، فإن الأحرى بنا أن نؤكد على ضرورة إشاعة روح التعاون المعرفي والأدائي بين القيادات المتباينة . فلا بد من إقامة جسور متينة فيما بين القيادات الجماعية المتباينة وذلك بإيفاد البعثات والتبادل الثقافي سواء في نطاق الوطن الواحد أو بين الأوطان المتباينة ، وذلك لأن العمل على ترسيخ روح التعاون بين القيادات هو الخلق بترسيخ تلك الروح بين القيادات الفرعية ، بل وبين الأفراد الذين تتشكل منهم المجموعات الفرعية المتباينة .

ولعلنا نختم هذا الموضوع بأن نؤكد أن الشخصية السوية هي الشخصية التي تستطيع أن تتعاون مع الآخرين في أكثر من مجال واحد . وكلما كان المرء على جانب أكبر من القدرة على التعاون مع غيره في مجالات متباينة وكثيرة ، فإنه يكون بالتالي متمتعاً بقدر أكبر من السوية . بيد أننا لا نطالب بأن يتعاون المرء مع غيره في مجالات وأنشطة وهو خالي الوفاض بلزاتها ، أو وهو غير مؤهل لها نفسياً ، أو ليست داخلة في نطاق اهتماماته الشخصية .

ثانياً - النمو الجنسي المتأخر : وكذا فإن التأخر في النمو الجنسي وذلك بتأخر نمو الأعضاء التناسلية أو ضهور الغدد الجنسية أو عدم نموها بما يتلاءم مع العمر الذى بلغه المرء ، إنما يشير إلى الانحراف الجنسي . فلقد يوجد مراهق بلغ الثانية عشرة ولكن أعضاءه الجنسية لا تزيد فى حجمها وقوتها عن حجم وقوة الأعضاء التناسلية لطفل فى الخامسة من عمره . ولقد تكون الأعضاء التناسلية سوية ولكن الغدد التناسلية تكون متخلفة فى نموها ، أو أنها لا تقدم الإفرزات المنوية المناسبة للسن التى بلغها المرء سواء فى المراهقة أم الشباب . وكذا يقال عن البنت التى تتخلف فى نمو أعضائها التناسلية أو فى نمو غددها الجنسية . فجميع الحالات التى تكون فيها الأجهزة التناسلية أو الغدد التناسلية متخلفة عن مستوى النمو السوى المناسب للمرحلة العمرية التى بلغها المرء تتخرط فى إطار انحراف النمو الجنسي .

ثالثاً - الإحرفات الهرمونية : لقد تكون الأجهزة التناسلية والغدد التناسلية سليمة من حيث مستوى نموها ومناسبتها مع السن التى بلغها المرء ، ولكن تكون ثمة عيوب فى المكونات الهرمونية نفسها إذ أنها قد تكون مقفلة إلى عناصر معينة أو قد تكون متضمنة لعناصر تؤثر بشكل أو آخر فى عملية الإنجاب ، أو قد تكون حاملة لمقومات وراثية رديئة فىأتى الإنجاب مبتمراً أو لا يستمر الجنين بعد تكونه على قيد الحياة ، أو يأتى النسل هزيلاً أو مشتملاً على تشوهات خلقية متباينة . ولقد تكون الإحرفات الهرمونية انحرافات غير توافقية بمعنى أن الهرمونات التى تحملها فئة معينة من الرجال لا تكون مناسبة للهرمونات التى تحملها فئة معينة من النساء ، بينما تناسب غيرهن . والعكس أيضاً صحيح فالهرمونات التى تحملها فئة معينة من النساء قد لا تكون مناسبة للهرمونات التى تحملها فئة معينة من الرجال .

الفصل الرابع معنى انحراف الشخصية

المعنى الجنسي :

إننا عندما نلقى الضوء على معنى الانحراف الجنسي ، فإننا نجد أن ثمة مجموعة من المعانى الفرعية التى يتضمنها هذا المعنى لهذا النوع من الانحراف . ولعلنا نقوم فيما يلى بتقديم هذه المعانى الفرعية على النحو التالى :

أولاً - النمو الجنسي المبكر : فعلى الرغم من أن الحساسية الجنسية توجد منذ ميلاد الطفل - نكراً كان أم أنثى - فإن ثمة فرقا بين تلك الحساسية الجنسية وبين الرغبة الجنسية . فالحساسية الجنسية التى تنبذى فى حياة المرء منذ ميلاده تتسم بأنها سلبية ، بينما تتسم الرغبة الجنسية بأنها إيجابية . فإذا ما تبذت الرغبة الجنسية فى حياة المرء قبل المراهقة ، فإن هذا يعتبر شاهداً على وجود انحراف جنسى فى حياته . وفى الغالب يكون ظهور الرغبة الجنسية المبكرة متوكباً مع النمو المبكر للغدد والأعضاء التناسلية . فلقد وجد أن بعض الأطفال الذين لم يبلغوا الثالثة وقد أخذت أجهزتهم التناسلية فى النمو المتدفق الذى لا يناسب سوى أحد المراهقين . وأكثر من هذا فقد تواتى الدورة الشهرية طفلة فى الخامسة من عمرها أو قبل هذه السن . ويكون هذا النمو المبكر للأجهزة التناسلية - سواء لدى الولد أم لدى البنت - شاهداً على الإحرفات الجنسية ، وبالتالي على انحراف الشخصية عن السوية .

رابعاً - الإحترافات الفيتيشية الجنسية : فئمة بعض الإحترافات الجنسية التي يصاب بها بعض الأشخاص من الجنسين تتمثل في التعلق جنسياً ببعض المتعلقات الخاصة بالفئة الجنسية المقابلة . من ذلك مثلاً تعلق أحد الشبان بأحذية النساء . فهو يكون شغوفاً بتأمل حذاء المرأة ويحتاج جنسياً لمجرد مشاهدة الأحذية النسائية المترصصة بفترينات محلات الأحذية . وإذا شاهد امرأة تسير في الطريق ، فإن أهم ما يهيمه هو تأمل حذائها بينما يكون منصرفاً عن تأمل أى شيء آخر من جسدها . وكذا فإن المرأة قد تصاب بهذا الإحتراف الفيتيشى . فلقد تركز إحدى الشابات رغبتها الجنسية في رباط العنق الذي يرتديه الرجل . فلا يستهويها جنسياً في فئة الرجال سوى رباط العنق . ومن الفيتيشات الجنسية أيضاً التركيز جنسياً على جزء معين من جسد الفئة الجنسية المقابلة مع إهمال أى جانب آخر من الجسد . فمن الفيتيشات الجنسية تركيز بعض الرجال المنحرفين جنسياً على يد المرأة أو قدمها . فما يهيمه في المرأة وما يركز بصره فيه هو يدها أو قدمها مع إهماله لكل شيء خلاف هذين الجزئين من جسدها .

خامساً - الشذوذ في الممارسة الجنسية : والواقع أن هناك أنواعاً متباينة من الشذوذ في الممارسة الجنسية . من ذلك مثلاً اللواط بالنسبة للرجال ، والسحاق بالنسبة للنساء . وأيضاً الاستمناء ، وكذا القذف السريع مما يحرم الطرف الآخر من الوصول إلى النعاط (قمة الشهوة) ، وكذا استخدام العنف في الممارسة الجنسية وهو ما يعرف السادية أو الرغبة في تقبل الإيذاء والتلذذ بالألم الذي يوقعه الطرف الآخر في أثناء الممارسة

الجنسية ، وهو ما يعرف بالماسوكية ، وهناك أنواع كثيرة من الشذوذ في الأنشطة الجنسية لا داعى للاسترسال في نكرها في هذا المقام (انظر كتاب « جنون الجنس » ترجمة المؤلف) .

وبعد أن قمنا بتقديم هذه الجوانب التي تتبدى فيها الإحترافات الجنسية ، فإن علينا أن نقوم باستعراض العوامل التي يتأتى عنها بزوغ تلك الإحترافات الجنسية إلى سطح السلوك والعوامل هي :

أولاً - العوامل الوراثية : فالكثير من الإحترافات الجنسية يكون مردها إلى العوامل الوراثية التي تلعب دورها في نشأة تلك الإحترافات الجنسية . ومن الطبيعي أن تنصدر قائمة تلك الإحترافات ما كان متعلقاً بالمقومات البيولوجية وما يترتب عليها من مظاهر سلوكية متباينة . من ذلك مثلاً تسارع نمو الأعضاء والغدد التناسلية أو تباطؤ نموها ، أو ما كان متعلقاً بالمقومات الهرمونية من حيث نقص بعض العناصر أو وجود عناصر غير مواتية بها . أما بالنسبة لأنواع الشذوذ في الممارسة الجنسية ، فإنه حتى إذا كانت له جذور وراثية ، فإن تلك الجذور لا تخرج إلى الواقع السلوكي إلا إذا كانت مساندة بواسطة عوامل بيئية تحفزها على الخروج من مكانها إلى مجال النشاط الجنسي الخاص بالممارسة الجنسية الفعلية .

ثانياً - العوامل البيئية : ونعني بها المؤثرات الخارجية التي تعمل على تشكيل الشخصية وتصيب سلوكها بالصياغة المتوائمة مع ما تنحو إليه تلك المؤثرات . ولكن الواقع أن الإنسان ليس كالكمامة التي تتشكل تبعاً للمؤثرات التي تضغط عليها من الخارج ، بل إنه قد يستجيب بطريقة عكسية أى على النحو المضاد لما تريد أن تحمله عليه المؤثرات الخارجية . فهو قد يتشكل على النحو المضاد لما تنحو إليه وتضغط عليه . فئمة بعض الشخصيات التي

أحيطت بمقومات تأثيرية منحرفة جنسياً ، لم تتشكل بحيث تنكيف لما كان يحيط بها من مؤثرات جنسية منحرفة ، بل إنها اتخذت الطريق المضاد ، فنشأت كارهة للانحرافات الجنسية ونايبة عنها . ويكون حالها على غير ما كان متوقفاً لها من انحراف عن الملوك الجنسي سوى . ولكن الانحراف الجنسي لا يكون بالممارسات الجنسية غير السوية فحسب ، بل إنه قد يكون أيضاً بكارهية النشاط الجنسي والتأى عنه . فالكبت الجنسي ونعني به القمع اللاشعوري للرجبات الجنسية ، إنما هو انحراف جنسي أيضاً . وبهذا المعنى يكون للانحراف الجنسي معنى سلبي إلى جانب المعنى الإيجابي . فالنأى عن الجنس وكرهية الممارسات الجنسية بكافة صورها حتى الشرعى منها يدخل في إطار الانحراف الجنسي ، شأنه شأن الانحرافات الجنسية التي نكرناها قبلاً . ومن الطبيعي أن يتأتى النوعان الإيجابي والسلبي للانحراف الجنسي عن تأثير العوامل البيئية التي تؤثر في القوام النفسى للمرء .

ثالثاً - العوامل المعرفية : فثمة بعض الأفكار أو المفاهيم أو الاتجاهات التي تصل إلى المرء عن طريق السمع أو عن طريق المشاهدة أو عن طريق القراءة أو عن طريق الأفلام أو التمثيليات أو المسرحيات أو عن طريق غير ذلك مما ينحرف بفكره من السوية إلى الانحراف . فلقد فهم بعض المراهقين مدلول بعض الألفاظ فهما خاطئاً فيتأتى عن ذلك الفهم الخاطئ سلوك جنسي منحرف . من ذلك مثلاً مفهوم الكبت (Repression) وعدم التمييز بينه وبين مفهوم القمع (Suppression) ، فيعتقد خطأً أن عليه أن يعبر عما يحس به من رجبات جنسية علانية فينخرط

في الإباحية بسبب الفهم الخاطئ لمفهوم الكبت وخلطه بمفهوم القمع ، إذ أن الكبت عملية لا شعورية بينما القمع عملية إرادية وصحية من الناحية النفسية ، بل إنها عملية ضرورية للتوافق الاجتماعي .

رابعاً - التلبس بمجموعة من العادات الرديئة : والعادات تنقسم إلى خمس فئات هي العادات الجسمية الحركية ، والعادات الوجدانية ، والعادات الذهنية ، والعادات اللغوية ، والعادات الاجتماعية . والواقع أن هذه الأنواع الخمسة من العادات تتداخل فيما بينها وتسيطر على سلوك المرء . وبالنسبة للجنس فإن الكثير من الانحرافات الجنسية يرتد إلى سيطرة العادات الرديئة على سيكولوجية المرء . من ذلك العادة السرية أو الاستمنااء الإرادى أو الشبه إرادى ، وتركيز الوجدان في المسائل الجنسية بحيث لا يتوزع الوجدان أو بتعبير أدق لا يتمحور حول محاور متباينة بل ينحصر في النطاق الجنسي وفى الموضوعات الجنسية ، وكذا الفكر ، فلا يكاد الشخص يفكر إلا في الموضوعات الجنسية وحتى كلامه المنطوق أو المكتوب يوجه أساساً إلى الجنس . وأخيراً فإن علاقاته بالآخرين تكون علاقات جنسية فى الغالبية العظمى منها . فهو لا يرى فى تصرفات وعلاقات الناس من حوله سوى ما كان متعلقاً بنشاطهم الجنسي أو ما يظن أنه نشاط جنسي . فهو يترجم كل ما يقع عليه بصره أو ما يصل إلى سمعه ترجمة جنسية بحتة .

خامساً - الخطط والنشاط المستقبلي : وبالإضافة إلى مجموعة العادات المنحرفة عن الجادة التي تعمل على إشاعة الإحتراف الجنسي فى سلوك المنحرفين جنسياً ، فإن ما يقومون بالتخطيط له وما يبتغون تحقيقه فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد من حياتهم يكون منحصرًا فى المسائل الجنسية . فهم فى

ترسّمهم لمثل عليا مستقبلية يكونون قد ترسّموا مثلاً عليا جنسية ،
أو أنهم يتخذون من الشخصيات التي يعتبرونها قد حظيت بنصيب
وافر من الجاذبية الجنسية مثلاً عليا لهم ييغون التمثل بها واقتفاء
أثرها وتقليدها في كل ما تتصف به من صفات وفي كل ما تمارسه
من أنشطة .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن النتائج التي تترتب على الانحرافات
الجنسية سواء بالنسبة للشخص المنحرف نفسه أم بالنسبة
للمحيطين به . إننا نستطيع أن نحدد تلك النتائج في البنود التالية .

أولاً - سوء التوافق الجنسي : فالواقع أن التوافق الجنسي في
العلاقات الجنسية لا يتأتى إلا باتخاذ الموقف الوسط المعتدل الذي
لا ينحو إلى الإفراط أو إلى التفريط . وحتى ما قد يعتقد بأنه
مرغوب أو ممدوح جنسياً عندما يكون المرء على جانب كبير من
التدقق الجنسي ، فإنه يكون متواكباً في الغالب مع الفشل في الحياة
الزوجية . فالغالبية العظمى من الزوجات لا يحببن الرجال
المفرطين في الممارسات الجنسية . ناهيك عن أن التدقق الجنسي
كثيراً ما يكون متواكباً مع النضوب الجنسي المبكر قبل بلوغ
الشيخوخة .

ثانياً - التخلف الحضاري : فالشخص أو الشعب المنكب على
الجنس يكون في الغالب متخلفاً من الناحية الحضارية . ولسنا بهذا
نعمط الجنس حقه أو نقلل من أهميته ، بل إننا نقول فقط إن السوية
الجنسية هي الخليفة بأن تجعل الشخصية متحضرة وقابلة للتقدم إلى
مراقي الحضارة ومنتقحة على مجالات كثيرة خصبة .

ثالثاً - سوء التوافق الاجتماعي : فمن المعروف أن كل
مجتمع يحدد المعايير التي تقاس في ضوئها السوية الجنسية . ولكن

الشخص الذي لا ينجح في صب سلوكه الجنسي وفق تلك المعايير
التي يحددها مجتمعه لا يكون بالتالي في انسجام معه ، بل يكون
نابياً عنه وخارجاً عن طوعه ومنبذاً ممن يحيطون به وقد توجسوا
من سلوكه فلا يحظى بتقديرهم له واحترامهم لشخصيته .

المعنى الغضبي :

يعتبر الغضب في حد ذاته من الظواهر السلوكية التي لا يمكن
الحكم عليها بالسوية أو بالشذوذ إلا في ضوء اعتبارات معينة
نستطيع أن نحددها على النحو التالي :

**أولاً - مناسبة الموقف لما يبديه المرء من سلوك يتصف
بالغضب :** فإذا كان السبب المثير لحفيظة المرء يستحق مدى
ما يبديه من غضب ، فإنه في تلك الحالة يكون من مظاهر السلوك
السوي . ولكن إذا كان ما يبدو في سلوك المرء من مظاهر غضبية
أكثر مما يستحقه الموقف أو أقل مما يستحقه ، فإن السلوك
الغضبي في تلك الحال لا يكون متصفاً بالسوية .

**ثانياً - الوسائل التي يستخدمها الشخص الغاضب للتعبير عن
غضبه :** والوسائل التي نقصدها تتمثل في الأصوات والكلام الذي
يفوه به الشخص في أثناء غضبه والحركات والإشارات والقسمات
التي ترسم على وجهه ، والأشياء التي يلامسها أو يجرها أو
يستخدمها في أثناء التعبير عن غضبه ونحو ذلك من وسائل يستعين
بها في التعبير عن مشاعره الغاضبة . ففي ضوء تلك الوسائل
المستخدمة في أثناء الغضب يمكن الحكم بمدى سوية الشخصية .

ثالثاً - النتائج السلوكية التي تترتب على انفعال الغضب :
فلمقد تنحصر تلك النتائج في نطاق المشاعر لدى الشخص أو
الأشخاص الذين يوجه إليهم الغضب ، وقد تمتد إلى الإيلام

بالضرب أو بالإصابة بالجروح أو القتل أو بإتلاف الممتلكات أو إيقاع الآخرين تحت طائلة القانون أو إشعال الحرائق أو إطلاق الأعيرة النارية أو تفجير المتفجرات أو وضع العراقيل أو تفويج التهم أو غير ذلك من نتائج سلوكية تتأتى عن احتدام الغضب فى القلب . وفى ضوء النتائج التى تترتب على الشعور بالغضب يمكن الحكم على مدى سوية الشخصية .

رابعاً - مدى مناسبة شدة الغضب للبيئة البيولوجية والسيكولوجية للشخصية : فالواقع أن شدة الغضب يجب أن تكون مناسبة لما لدى المرء من قدرة عضوية ونفسية على تحمل الآثار التى تترتب على ما ينخرط فيه من انفعالات غضبية . فإذا زادت شدة الغضب على ما يمكن احتمالها جسدياً وسيكولوجياً ، فإن النتائج التى يمكن أن تترتب على ذلك تكون وخيمة . فقد يصاب المرء فى أثناء هياجه الغضبى بالشلل أو بالسكتة القلبية أو قد يصاب بالجنون والخروج عن نطاق السوية تماماً .

خامساً - مدى ما يمكن أن يحققه الشخص الغاضب من نتائج مستقبلية قريبة أو بعيدة : فمما لا شك فيه أن السلوك لا ينحصر فى نطاق بُعدى الماضى والحاضر ، بل يمتد أيضاً إلى المستقبل . ففئة غرضية معينة يترسمها الشخص من إتيانه بالسلوك الغاضب . فيقدر نطلعه إلى ما سوف يترتب على انخراطه فى الغضب ، ويقدر توظيفه للغضب لإحراز نتائج محددة توظيفاً سليماً وإيجابياً ، بقدر ما يكون غضبه سويًا . ولكن إذا عمى المرء عما سوف يترتب على غضبه فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد من نتائج ، أو إذا كانت النتائج التى يترسمها فى المستقبل نتائج رديئة وضارة له أو لغيره أو له ولغيره معاً ، فإن غضبه فى هذه الحالة لا يكون منصفاً لسوية .

وهناك فى الواقع مجموعة من العوامل التى تساعد على انحراف الغضب عن السوية لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولاً - **المواقف المفاجئة** : فالسلوك الذى لا يستطيع المرء الاستعداد له نفسياً ، يكون متنبوفاً فى الغالب بتصرفات خرقاء لا يمكن وصفها بالحكمة . فإذا ما فوجئ المرء بموقف مثير لغضبه ، فإنه لا يستطيع أن يلم شعته أو أن يعد الطاقة المناسبة لإبداء غضبه فى الحدود اللائقة ، بل إنه فى مثل تلك المواقف ينفجر فجأة ولا يبقى ولا يذر . ولكن فى المقابل فإن الشخص الذى يفاجأ بأحد المواقف المباغطة قد يجد نفسه عاجزاً عن إبداء مظاهر الغضب السلوكية التى كان من المتوقع منه أن يبديها لدرجة أن المحيطين به تأخذهم الدهشة . وفى مثل هذه الحالات فإن المرء يكون معرضاً للإصابة بالسكتة الدماغية أو بالسكتة القلبية أو للإصابة بالأمراض السرطانية أو بقرحة المعدة أو بغير ذلك من أمراض تتأتى نتيجة الاعتمال الداخلى لصددمات المواقف المفاجئة .

ثانياً - **عدم التمرس بالمهارات الغضبية** : فعلى الرغم من أن الغضب تعبير تلقائى لدى جميع الناس فى جميع الأعمار ، بل ولدى الكثير من الحيوانات ، فإن توظيف الغضب فى المواقف المتباينة ، والتمرس بأساليب معينة للتعبير عن المشاعر الغاضبة بحاجة إلى مرانة ودربة . فمن الملاحظ أن الأشخاص الذين يعملون بعيداً عن صخب الحياة ، أو بتعبير آخر يعملون فى اعتكاف ووحدة وفى عزلة شبيهة تامة عن العلاقات الاجتماعية ، لا يكونون قادرين على توظيف مشاعرهم الغاضبة فى المواقف التى تحتم ذلك . فهم لذلك ينتحون إلى الاستعانة بغيرهم ممن لهم باع ودربة فى التوظيف الغضبى فى مثل تلك المواقف لكى يساعدوهم ويتوبون عنهم فى

التعبير عن غضبهم وإحراز النتائج المرجوة من اتخاذ المواقف الغضبية . والواقع أن العجز عن توظيف الغضب في المواقف المتباينة يعتبر انحرافاً عن السوية .

ثالثاً - الإحساس بالخوف : فالشخص الغاضب إذا ما أحس بالخوف سيطر على قوامه ، فإنه لا يستطيع أن يبين عما يحسه من غضب بالقدر المناسب ، أو أنه لا يستطيع أن يوظف غضبه التوظيف المناسب بحيث يحصل على النتائج التي يترجأها من إحساسه بالغضب . ولكن الخوف يمكن أن يُفضى إلى عكس ما نكرناه . فقد يغفل الشخص الخائف خوفه بالمبالغة في إيداء الغضب أو قد يأتي بتصرفات خطيرة ضد من يوجه إليهم غضبه كالاعتداء بالضرب أو حتى بالقتل ، ويكون العامل الأساسي في تلك التصرفات هو سيطرة الخوف عليه واختلاطه بالغضب ومحاولة إخفاء خوفه وذلك بالمبالغة في التعبير عن غضبه .

رابعاً - الوقوع تحت تأثير بعض المحرضين أو المشجعين أو المتفجرين : فمن العوامل التي تؤدي إلى الإنحراف بالغضب عن السوية ، توجد بعض الأشخاص في الموقف يزيدونه التهاباً وإثارة . فهناك من الأشخاص من يجتهدون في إثارة الآخرين لكي يستمتعوا بمشاهدة الخصومات والمعارك . فهم يعدون المسرح لوقوع أحداث على جانب كبير من الإثارة والمغامرة . بيد أن المحرضين لا يساهمون بأى نصيب في الموقف الغضبي ، بل يقتصر على التحريض والتشجيع وإثارة الحمية والتعريض بمن يبدي أن نوع من التراجع أو التراضي فيتمونه بالتخاذل والجبن . فهم يتفرون على من يغضب بينما يكونون في الوقت نفسه مفعمين بالسرور والحيور كلما نجحوا في العمل على زيادة التوتر وفي

العمل على تفجير الطاقات الغضبية بغض النظر عن وجاهة الأسباب التي تدعو إلى اشتعال جذوة الغضب . فمهمتهم الأساسية هي جعل الأسباب العارضة للغضب أسباباً جوهرية تمس الشرف والكرامة وتهدد المستقبل .

خامساً - العوامل اللاشعورية : ومن العوامل التي تؤدي إلى الانحراف بالغضب عن السوية تلك العوامل اللاشعورية التي تسير السلوك دون وعي من جانب الشخص الغاضب بأنه مسير بتلك المقومات اللاشعورية المكبوتة لديه في لا شعوره والتي تمتد بجذورها حتى الطفولة . فالمحيطون بالمرء بندهشون عندما يشاهدون أحد الأشخاص يبدي غضباً شديداً بإزاء مواقف لا تستدعي كل هذا القدر من الغضب ولا هذا المستوى العنيف من التصرفات الهائجة لأسباب تافهة . ولكن المتفحص والمتأمل لسلوك ذلك الشخص يكتشف أن العوامل اللاشعورية الدفينة هي المسئول الأول عما يبديه من هذا الهياج الصاخب والغضب الذي يقاب الدنيا ظهراً لبطن . فما اختزنه ذلك الشخص من مقومات لا شعورية بسبب عجزه في طفولته عن التعبير عما كان يحسه من مشاعر غاضبة يستيقظ فجأة في تلك المواقف وقد تفتحت أمامه المنافذ للتعبير عن تلك الطاقات اللاشعورية المكبوتة وإطلاقها من معاقفها التي ظلت حبيسة بين جدرانها المنيعه طوال تلك السنين منذ الطفولة حتى اللحظة التفجيرية التي حان موعداها في ذلك الموقف المتمسم بالهياج الصاخب والغضب غير المعقول والذي لا يمكن وصفه بالسوية من قريب أو من بعيد . (انظر كتاب « ميكولوجية الغضب » للمؤلف) .

وهناك مجموعة من النتائج التي تترتب على الانحراف العنصري عن السوية لعلنا نقوم بتحديددها وتقديمها على النحو التالي :

أولاً - اتهام المرء بالجنون أو بسوء الخلق : فالشخص الذي يصاب بالانحراف العنصري ويكون من سماته أنه لا يتذرع بالحكمة في مواقف حياته المتباينة ، بل يثور بحيث لا يبقى ولا ينز ولا يحسب حساباً لما يترتب على ما يبيديه من سلوك غاصب من نتائج ، يحكم عليه المحيطون به والمتعاملون معه بأن شخصيته لا تتصف بالانزان ، بل قد يحكم عليه البعض بأنه شخص مجنون أو بأنه مريض نفسياً . وقد يحكم عليه آخرون بأنه شخص سيئ الخلق ولم يحسن أهله تربيته منذ طفولته فنشأت شخصيته موهجة ولم يتدرب على ضبط انفعالاته الغاضبة فلا يقدم السلوك اللائق في المواقف الاجتماعية المتباينة .

ثانياً - احتقار المرء لنفسه وندمه المستمر على ما انخرط فيه من مظاهر سلوكية غضبية : فالشخص الذي لا يستطيع أن يلجم نفسه أو أن يقمع مشاعره الغاضبة أو أن يأتي بالتصرفات المتسمة بالحكمة كثيراً ما يخسر المعارك التي ينخرط فيها ، بل إنه كثيراً ما يحس بأنه شخصية تافهة ، وقد أخذ المحيطون به بالتهكم عليه أو إبداء علامات الاحتقار له أو النأي عنه وتجنب المجالس التي يوجد بها ويتحاشون التحدث معه أو حتى مسامرتة أو الدخول معه في أية مناقشة أو التطرق إلى أي موضوع . فيترتب على مواقف الآخرين منه عقده العزم على عدم الانخراط في الغضب في المواقف التالية ولكن دون جدوى إذ أنه يجد أنه مغلوب على أمره وأنه عاجز عن ضبط انفعالاته التي تأخذ به كل مأخذ وتستولي على مقاليد شخصيته رغماً عن أنفه .

ثالثاً - التعرض للمساءلة الإدارية والقانونية وتحمل القصاص : فالكثير من المواقف الغاضبة تنتهي إلى المساءلة الإدارية إذا كان الشخص الغضوب موظفاً ، كما أن الكثير من تلك المواقف ينتهي إلى أقسام الشرطة والنيابة العامة والمحاكم ، مما يترتب عليه الزج بالمرء في السجن وضياح مستقبله ومستقبل أسرته معه .

رابعاً - الخسائر المادية الجسيمة : فلقد يندفع الشخص الغضوب إلى اتخاذ بعض التصرفات الخرقاء التي يترتب عليها الإضرار بممتلكات الآخرين وما يترتب على ذلك من تعويضات قد تكلفه كل ما يملك أو قد تعرضه للاستدانة حتى يتسنى له تسديد المال الذي تسبب في خسارته الآخرين له . وقد ينخرط أحد الأشخاص في الغضب في أثناء لعبه القمار فيراهن بكل ما لديه من مال فيخسره ويصير خالي الوفاض ومقلماً فيعرض نفسه وأسرته للعوز والحاجة مرتبياً في غمرة الفقر المدقع بعد التمتع في العز والجاه .

خامساً - الانتحار : وفي كثير من حالات الانحرافات العنصرية فإن المرء الغاضب قد يندفع إلى إنهاء حياته بيده فيقتل نفسه بطريقة أو بأخرى . وقد يكون الانتحار بأن يتصدى الشخص الغاضب لشرذمة من أعدائه وهم منججين بالسلح وقد صاروا متربصين به ومتوقعين انخراطه في الغضب الجامح لكي يتلقوه فيمزقونه إرباً إرباً ، ويكون في هذه الحالة منتحراً بأبدي أعدائه - إذا صح التعبير - وذلك لأنه يعلم أنه لا يقوى على كل تلك الجمهرة المحتشدة ضده والمترفقة لوقوعه في أيديهم للقضاء عليه . ولكن غضبه الجامح يحرمه من التفكير المستأنى والمتبصر بزوايا الموقف فيندفع لا يلمح على شيء فيمزقه أعداؤه شر ممزق ، ويأتون عليه ويكون في هذه الحالة شهيداً غضبه المنحرف عن السوية .

المعنى الخوفى :

عندما نعرض للخوف ، فإننا نجد أن شأنه كشأن الغضب من حيث عدم القدرة على وصفه بالسوية أو بالشذوذ إلا في ضوء مجموعة من الاعتبارات التي نستطيع تقديمها على النحو التالي :

أولاً - من حيث مناسبة مشاعر الخوف للموضوع الذى يسببه : فالخوف الذى يبديه أحد الأشخاص لدى مشاهدته للأسد فى الغابة سائراً وقد ضل طريقه يجب أن يكون أشد من الخوف الذى يبديه ذلك الشخص نفسه وهو يشاهد الأسد فى القفص بحديقة الحيوان . ولكن إذا هو أبدى نفس القدر والشدة من الخوف لدى مشاهدته للأسد بالقفص بحديقة الحيوان كما كان حاله لدى مشاهدته بالغابة ، فإن خوفه فى هذه الحالة يكون خارج نطاق السوية ويحكم عليه بأنه شخص غير سوى .

ثانياً - من حيث التصرفات التى تصدر عن المرء فى أثناء شعوره بالخوف : فالشخص الذى يحس بالخوف الشديد لدى مشاهدته للغار أو الصرصور فيقفز من النافذة هرباً من مصدر خوفه غير السوى ، يكون تصرفه هذا تصرفاً مبالغاً فيه ، وبالتالي فإنه يكون تصرفاً خارجاً عن نطاق السوية ومندرجاً فى نطاق التصرفات الشاذة أو المريضة . وكل الشئ نفسه بإزاء من يستبد به الخوف لدى ركوبه إحدى وسائل المواصلات السريعة فيستجد بمن حوله حتى يتسنى له النزول وعدم الاستمرار فى الرحلة التى تقوم بها السيارة أو القاطرة .

ثالثاً - من حيث واقعية الموضوع الذى يسبب الخوف : فالشخص الذى يخاف لأنه يتخيل أشياء لا وجود لها بالفعل فى الواقع الخارجى ، كأن يخاف من أشباح لا وجود لها إلا فى ذهنه

المرضى بالهلوسات ، فإن خوفه لا يكون خوفاً سوياً ، بل يكون خوفاً مرضياً . وكذا الحال إذا ما ترجم شخص ما مشاهدات عادية ترجمة مهددة لحياته أو أمنه فاستبد به الخوف وأخذ بعناقه . من ذلك مثلاً إذا ما شاهد شخص ما فلاحاً يحمل الفأس على كتفه ، فأخذ يصرخ مولولاً وقد وقع فى رُوعه أن ذلك الفلاح يحمل ذلك الفأس للإجهاز عليه ويقتله . فما شاهد ذلك الشخص يعتبر شيئاً عادياً فلا يُستشعر أى خوف من مشاهدته ، ولكن الترجمة التى انتحى إليها هى ترجمة منحرفة عن الواقع وعمما يجب أن تكون عليه ترجمة ما وقع تحت بصره .

رابعاً - من حيث مشاعر الخوف التى يحس بها المرء فى أثناء نومه : فالغالبية العظمى من الناس يشاهدون أحلاماً بعضها سار وبعضها الآخر مكرر . ولقد يستشعر الشخص السوى بعض الخوف فى أثناء مشاهدته لأحد أحلامه . ولكن الشخص المنحرف نفسياً يبدي من الخوف فى أثناء مشاهدته لبعض الأحلام ما ينم عن الهلع الشديد والاضطراب والانزعاج والفرع . فيهب من نومه صارخاً أو مشدود الأعصاب أو وهو يتصيب عرقاً . وقد يشاهد الحلم المزعج نفسه عدة مرات وفى كل مرة يغطيه نفس القدر من الخوف والانزعاج والاضطراب مع ما يصاحب ذلك من صراخ وتوتر وتصيب للعرق وغير ذلك من أعراض جسمية متباينة . فالمشاعر الخوفية التى تنتاب ذلك الشخص فى أثناء مشاهدته لبعض أحلامه تخرج به من نطاق السوية إلى نطاق الانحراف النفسى .

خامساً - من حيث مدى الإحساس بالخوف لدى تذكر مواقف مخيفة مرت فى حياة المرء بالفعل : فالواقى أن الأشخاص الأسوياء يحسون بالخوف بقدره معقولة لدى تذكرهم

لمواقف شعروا خلالها بالخوف الشديد . ولكن إذا كان الخوف الذي
ينجم عن هذا التذكر للأحداث المخيفة السابقة بنفس الشدة أو بأكثر
من المعقول ، فإن ذلك الخوف يكون إذن خارج نطاق السوية
ومنحرفاً في نطاق الانحراف أو الشذوذ الخوفى . (انظر كتاب
« سيكولوجية الخوف » للمؤلف) .

وثمة ما يعرف بالمخاوف المرضية ، وقد قام مكدونالد لادل
بتعريف الخوف المرضى (Phobia) بأنه خوف لا يمرر له من
شيء أو من عمل ما . فصفة الخوف تعزى هنا إلى أنها متأصلة منذ
الطفولة . فما يخشى منه شعورياً يرمز إلى شيء مكبوت قد يكون
إما خبرة واقعية أو يكون في كثير من الأحيان حالة انفعالية يحس
بها الشخص كخطر يهدد تكامل شخصيته . ولقد اتخذت المخاوف
المرضية أسماء يونانية ولكن أساسها واحد بصفة أساسية . وهي
جميعاً بحاجة إلى تحليل لكي يتضح سببها وحتى يتسنى للشخص
أن يتكيف من جديد للحياة . وفيما يلي قائمة بالمخاوف المرضية
الشائعة :

أولاً - الاستعدادات الوراثية : فالواقع أن البنية العصبية التي
يرثها المرء ذات دخل كبير في احتمال إصابته بالمخاوف
المرضية . فصاحب الجهاز العصبي المرفه والحساس أو الهش
يكون حاملاً في الوقت نفسه الاستعدادات للإصابة بنوع أو آخر من
تلك المخاوف المرضية . ولا شك أن هندسة الوراثة سوف تلعب
دوراً هاماً في المستقبل لحماية الناس من تلك المخاوف المرضية
وذلك بتقوية الجهاز العصبي أو بالتدخل في الاستعدادات الوراثية
والعمل على تطويعها لكي تتجه نهجاً سويةً في حياة المرء وفي
أنشطته النفسية المتباينة .

ثانياً - خبرات الطفولة وما بعدها من مراحل عمرية :
فالإنسان في سلوكه وفيما يمكن أن يصاب به من مخاوف مرضية
أو غير مرضية يعتمد على ما يكتبه من خبرات . وكلما كانت
الخبرات التي يكتبها المرء قريبة من الطفولة ، كانت أبعد غوراً
وأكثر فاعلية في حياته وفيما يبيده من ألوان سلوكية متباينة . وكلما
كانت الخبرات بعيدة عن مجال الشعور وغائرة في لجة اللاشعور ،
كانت انعكاساتها السلوكية أشد وأعنف وأكثر خطورة وأثراً في حياة
المرء .

الخوف من الأماكن المرتفعة (Acro-phobia) - الخوف من
الأماكن المفتوحة أو الشوارع (Agora-phobia) - الخوف من
الزواجر الرعدية (Astra-phobia) - الخوف من الأماكن المغلقة
ومن السفر بالقطارات ونحوها (Flaustro-phobia) - الخوف
من العدوى بطريق مبرزات الجسم (Copro-phobia) - الخوف
من الدم (Haemato-phobia) - الخوف من الماء
(Hydro-phobia) - الخوف من القذارة (Miso-phobia) -
الخوف من الميت (Necro-phobia) - الخوف من الظلام
(Nycto-phobia) - الخوف من المرض (Noso-phobia or)
(Patho-phobia) - الخوف من سماع المرء لصوته وهو يتكلم

ثالثاً - الاشتراط أو الفعل المنعكس الشرطي : وهو ما سبق أن ذكرناه من أن ارتباط منير أصلي بمنير عارض يكسب المنير العارض نفس قوة المنير الأصلي . فننظر العصاب دون استخدامها في الضرب يمكن أن يؤثر بنفس تأثير الضرب . والخوف من الفأر أو الصرصور يكون قد نتج عن الارتباط شرطياً بالمنير الأصلي الذي سبب الخوف لمن يخاف من الفأر أو الصرصور . وقد يكون المنير الأصلي الذي سبب الخوف هو صراخ بعض الأطفال حول الشخص المصاب بالخوف من الفئران والصراصير وهو صغير . ومن المعروف أن الصوت المرتفع المفاجئ يسبب الخوف لدى الأطفال . فحدث ارتباط بين منظر الفأر أو الصرصور وبين الصوت المرتفع المتمثل في الصراخ . ومن ثم فإن مشاهدة الفأر أو الصرصور وحده دون سماع الصراخ يحدث نفس الأثر الخوفي .

رابعاً - المرور بخبرة سابقة مخيفة من نفس نوع الخبرة الحالية : فالشخص الذي يرتعد فرقاً إذا ما أُحيل إلى التحقيق ، فإن خوفه الشديد من المحقق مرده إلى ما عاناه من خوف في تحقيق سابق تعرض له . ومن يبدى ذعراً شديداً من مجرد مشاهدة الأسد في القفص بحديقة الحيوان ربما يكون سبب خوفه الشديد راجعاً إلى ما تعرض له من خطر الإقتراس وهو في الغاية وحده ولكن من حسن حظه أنه نجا بأعجوبة من مخالب وأسنان ذلك الوحش الضار .

خامساً - الإصابة ببعض الأمراض النفسية : فقد تعزى الإصابة ببعض المخاوف المرضية إلى ما يكون قد أصاب المرء من أمراض نفسية ، فتكون المخاوف المرضية بمثابة أعراض مصاحبة لتلك الأمراض النفسية . من ذلك مثلاً الإصابة بالهلوسات المرئية أو المسموعة أو الملموسة أو المشمومة أو المذاقة .

فالمريض بنوع ما من تلك الهلوسات قد يدرك بحاسة أو أكثر أشياء لا وجود لها في الواقع ، بل إن ما يدركه يكون من صنع خياله المريض . فإذا ما شاهد المريض شخصاً مخيفاً ممسكاً بسكين حادة يريد طعنه به في صدره ، فإن ما يراه بخياله عن طريق عينيه يحدث لديه خوفاً مرضياً هو الخوف من الموت برغم أن ما تقع عليه عيناه ليس له رصيد من الواقع المحسوس . فما يحسه بعينه ويدركه بالفعل لا يبدو أن يكون تياراً معكوساً . فيدل أن تستقبل العينان المرئيات الخارجية ثم ترسل بها إلى مراكز المخ لترجمتها إلى مدركات بصرية ، فإن العكس هو الذي يحدث ، إذ أن الشخص المريض بالهلوسات البصرية ينقل صوراً جاهزة من مخه إلى عينيه فيرى ما ليس له ركائز واقعية موضوعية .

المعنى النكوصي :

النكوص (Regression) معناه ارتداد المرء عن خصائص المرحلة العمرية التي بلغها إلى خصائص مرحلة عمرية سابقة قريبة منها أو بعيدة عنها ، كأن يتلبس شيخ في السبعين بما كان يتصرف به من خصائص سلوكية كانت تبدو في شخصيته عندما كان في مرحلة المراهقة أو في مرحلة الشباب . وثمة في الواقع أنواع متباينة من النكوص لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالي :

أولاً - النكوص الموقفي : وهو النكوص الذي يرتبط بموقف معين يمر به المرء . من ذلك مثلاً ما يمكن أن ينخرط فيه رجل في الأربعين من بكاء وصراخ بصوت مرتفع وقد سرقت منه حافظة نقوده بعد أن صرف مرتبه من مقر عمله وقتل عانداً إلى بيته . فهو يرتد بسلوكه إلى مرحلة الطفولة عندما كان يفقد ندية عزيزة إلى قلبه . فكما كان يبكي ويصرخ في طفولته ، فإنه في هذا الموقف الذي يمر فيه وهو في الأربعين يفعل نفس الشيء

ويبدى نفس الملامح السلوكية التي كان يتذرع بها وهو طفل صغير . ومن الطبيعي أن يعود هذا الشخص إلى سلوكه المعتاد المناسب لسنه ومكانته الاجتماعية بعد أن يمر الموقف وقد أخذ في هضمه بعض الهضم ويستوعبه بعض الاستيعاب .

ثانياً - النكوص الجنسي : وهو النكوص الذي يرتد إليه بعض الشيوخ وبعض الشيخات ، فيأتون بتصرفات قبالة الجنس الآخر لا تناسب ما بلغوه من سن لا تسمح لهم من حيث التكوين الجسمي والتكوين النفسي بالإقدام على أنشطة جنسية لا يأتيها سوى المراهقين . فالناكص جنسياً من الشيوخ يأخذ في مغازلة فتاة في سن بناته أو حتى في سن حفيداته ، والناكصة جنسياً من الشيخات تأخذ في التمايل والتدلل والكشف عما تظن خطأ أنه يفتن المراهقين والشباب وتأخذ في العزم واللمز لهم ، والإقبال والإدبار ، والتحدث بالكثير من الاستحياء معتقدة أنها في قمة الجاذبية الجنسية ، وقد خرجت من قوامها الذي صارت إليه مع تقدمها في السن متقمصة القوام نفسه الذي كانت تحمله أيام كانت في سن المراهقة ومتخذة نفس المواقف التي كانت تتخذها قبالة المراهقين الآخرين والشباب الذين كانت تخالطهم أو تقيم الصداقات معهم .

ثالثاً - النكوص الغضبى : فالشخص المشهود له بالرزانة والحكمة يمكن أن يفقد ما يتصف به من رزانة وحكمة ويبدى في علاقاته وتصرفاته من مظاهر الغضب ما كان عليه أيام طفولته أو مراهقته . فهو يستنار بشكل غير مقبول لأسباب تافهة ، فلا يبقى ولا ينز ، وتقلت منه أعصابه فيشتم أو يضرب أو يعمد إلى إهانة من يتخاصم معهم في شرفهم وبعابيرهم بما يخطر على باله من معابرات كما كان يفعل وهو طفل أو مراهق . فمثل هذا الشخص

يكون قد فقد القدرة على ضبط ما يحس به أو ما يعتمل في قوامه من خواطر فيقدمها فجأة وبشكل غير مناسب وقد انفجر غيظاً وحنقاً وحماسة .

رابعاً - النكوص الخوفى : وعلى النحو نفسه فإن بعض الأشخاص يفقدون ما كانوا قد اكتسبوه من شجاعة ورباطة جأش وجرأة وإقدام فيبدون في الإحساس بالخوف والرهبة والزرعدة من أشياء ومواقف لم يكونوا يخشون منها أو يخافون إذا ما اقتربوا منها أو اقتربت منهم . فما كان الواحد منهم يخشاه في طفولته ولكنه مع الخبرة في الحياة لم يعد يخشاه ، صار يخشاه من جديد . فيظن أن العفارت تقتربص به النواثر وأن عليه أن يخبئ وجهه تحت اللحاف حتى لا تصل يد العفريب إليه فتؤذيه ، كما أنه يخاف إذا وجد نفسه وحيداً في البيت أو الغرفة أو إذا سمع جرس التليفون أو جرس الباب أو إذا شاهد شخصاً غريباً لم يسبق له مشاهدته ، أو إذا مر شيء بسرعة أمام ناظره . وباختصار فإن بعض الشيوخ أو بعض من يصابون بالخور النفسى أو الضمور في بعض أجزاء المخ يصابون أيضاً بالنكوص الخوفى فقصير حياتهم غير محتملة سواء من جانبهم أم من جانب المحيطين بهم .

خامساً - النكوص الثقافى واللغوى : والنكوص قد يمتد إلى القوام الثقافى الذى كان المرء قد بلغه ، كما قد يمتد إلى لغة كلامه وإلى لغة كتابته إذا كان ممن يكتبون . فالواقع أن ثمة توازياً فيما بين حالة المخ وبين ما يتمتع به المرء من ثقافة ومن قدرة على الإبانة باللسان أو بالقلم أو بغير ذلك من وسائل الإبانة . فإذا ما أصيب المخ بالعطب أو بالضعف فإن المستوى الثقافى والكلامى المنطوق والمكتوب يتأثر بالتالى ، ويأخذ المرء فى التقهقر إلى ما كان عليه أيام طفولته أو مراهقته ، فهى تصير عاجلاً عن تحسس

(٣) الإصابات بشظية في قشرة المخ : وكذا فإن من أسباب تكوص الشخصية إصابة قشرة المخ بشظية نافذة تفسد مركزاً من مراكز النشاط الذهنى ، وبالتالي فإن المرء المصاب يقعد القدرة على الحفاظ على المستوى الثقافى والاجتماعى الذى بلغه ، مما يترد به إلى مستويات ثقافية واجتماعية سابقة قد تتعلق بالطفولة أو المراهقة .

(٤) الصدمات النفسية : فالمواقف المحيطة المفاجئة التى لم يكن المرء يتوقع حدوثها قد تفقد مخه القدرة على العمل بكفاءة . من ذلك مثلاً توجيه اتهام مفاجئ إلى أحد المسئولين الكبار (مدير أحد البنوك مثلاً) بالاختلاس وهو برىء تماماً وتمسك بأهداب الأمانة والشرف . فمن هول الصدمة المفاجئة ونظرات الموظفين إليه وهم الذين كانوا يضربون المثل به باستهجان واحتقار ، فإن ذلك المدير قد يصاب بالنكوص الذهنى فلا يكاد يعثر على الكلام الذى يدافع به عن موقفه ، بل يظل يهذى بكلام لا يرتفع إلى مستواه ، بل يهبط به إلى مستوى الطفولة أو المراهقة على أكثر تقدير .

(٥) فقد شخص عزيز بالموت أو بالهجران : فالواقع أن الكثير من الناس تكون حياتهم مستندة إلى شخص بالذات كما هو الحال فى حالة بعض الأزواج الذين يرتبطون بعضهم ببعض برباط لا فكاه منه فلا يستغنى أحدهما عن رفيق حياته . فإذا ما مات ذلك الرفيق أو هجره فإنه يجد أن الأرض تميد من تحت قدميه وأنه عاجز عن التواءم مع اتواق الحياتى المحيط به ، وبالتالي فإنه يجد نفسه لا شعورياً وقد هبط إلى مستوى الطفولة أو المراهقة . فهو يأتى بتصرفات حمقاء لا تناسبه ولا تماشى مستواه . ولقد يكون من مظاهر النكوص فى مثل هذه الحالات الانكباب على المخدرات أو لعب الميسر أو التردد على الأماكن المشبوهة التى لا يرتادها سوى بعض المراهقين أو الشبان المنحرفين .

المعانى التى يرغب فى أن يقصد إليها ، ثم هو يصير عاجزاً أيضاً عن العثور على الكلام الذى يتسنى بواسطته التعبير عما يدور بخله من أفكار . وباختصار فإن الشخص المصاب بهذا النوع من النكوص الثقافى واللغوى يهبط فى مستواه إلى الحضيض فلا يعتد به ولا ينظر إليه بأى نوع من التقدير والاحترام ، بل يعتبر من المتخلفين عقلياً مع أن الواقع أنه واقع تحت تأثير النكوص الثقافى واللغوى نتيجة انحطاط مستواه البيولوجى وهبوط مستوى عمل المخ وتخلف قدرته على المشاركة الثقافية والكلامية مع المحيطين به والمتعاملين معه .

وثمة فى الواقع مجموعة من العوامل التى تحدث النكوص وتحدث بالتالى انحراف الشخصية ، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى .

أولاً - العوامل البيولوجية والسيكولوجية : ويتضمن هذا العامل مجموعة من العوامل الفرعية هى :

(١) كيمياء الجسم : فما يحمله الدم من عناصر وهورمونات يؤثر بلا شك فى مدى توازن الشخصية ، ومن ثم فإن بعض التغيرات الكيميائية تعمل على تدهور القوام البيولوجى للمرء ، وبالتالي فإن المظاهر السلوكية النكوصية تبدى فى حياة المرء وفى علاقته الاجتماعية المتباينة .

(٢) أورام المخ : فلقد يصاب مخ المرء ببعض الأورام الحميدة أو ببعض الأورام السرطانية مما يترتب عليه العجز عن الحفاظ على المستوى الثقافى والاجتماعى الذى بلغه قبل إصابته بتلك الأورام ، وبالتالي فإنه يأخذ فى النكوص إلى مستويات ثقافية واجتماعية تتعلق بالطفولة أو المراهقة .

ثانياً - العامل الاجتماعي : فبعض الموظفين الذين يحاولون إلى المعاش ، أو بعض الآباء والأمهات الذين يتزوج أولادهم وبناتهم ويعدون عنهم ويصيرون بلا مسئولية اجتماعية يصابون بالتكوص ، فالموظف الكبير الذي يجد نفسه في الظل بعد إحالته إلى المعاش يأخذ في النزول بمستواه الاجتماعي شيئاً فشيئاً إلى أن يصل إلى مستوى اجتماعي لا يناسب سوى المراهقين أو الشباب . فهو لا يتصرف أو يسلك بنفس النهج الذي كان يسلك وفقه أيام كان متربعا في ست وظيفته المرموقة ، بل يتصرف في ضوء وضعه الاجتماعي الذي صار إليه ويكون قد نكص إلى ذلك الوضع الاجتماعي المتداني لأنه هبط إليه بالفعل وصار الناس يتعاملون معه على أساسه وفي ضوءه . وحتى ما كانوا يصفونه عليه من نعوت مثل « سعادة اليه » حلت محله نعوت أخرى مثل « الحاج فلان » . وأكثر من هذا فإن ما يرتديه من ملابس صار مناسباً لوضعه الاجتماعي الذي تندى إليه . فلم يعد يتأنق في ملبسه كما كان يفعل لدى توجهه إلى الديوان ، بل صار يرتدى الملابس التي لم يكن يرضى أن يرتديها بل كان يتخلص منها ويمنحها للفقراء . وباختصار فإن الموقف الاجتماعي الذي يتداني إليه المرء يكون متواكباً مع ما يصيب شخصيته من تكوص .

ثالثاً - العامل الاقتصادي : والواقع أن هذا العامل يرتبط ارتباطاً مكثفاً بالعامل السابق ، أعنى العامل الاجتماعي . فكما أن الوضع الاقتصادي يؤثر في الوضع الاجتماعي ، كذا فإن الوضع الاجتماعي يؤثر في الوضع الاقتصادي . فصاحب المصنع الذي شرب فيه حريق أدى إلى تدميرهِ والائتيان على كل ما فيه من الآلات وخامات ومنتجات ولم يكن قد أتم عليه لا ينحط وضعه الاقتصادي فحسب ، بل ينحط أيضاً وضعه الاجتماعي . وكما قلنا فإن من

ينحط وضعه الاجتماعي ينحط بالتالي وضعه الاقتصادي ، إذ أن من يحال إلى المعاش من الموظفين لا تكون ثمة أبواب جديدة من الرزق مفتحة أمامه ، بل إن ما بلغه من سن متقدمة لا يسمح له بترسوم أهداف اقتصادية أو اجتماعية لمستقبل بعيد المدى كما هو حال الشباب . وعلى أية حال فإن من تتدهور أوضاعه الاقتصادية تتدهور أيضاً معنوياته وغالباً ما يكون معرضاً للتكوص بالمعنيين الاقتصادي والاجتماعي معاً . فهو يقلص مصروفاته ويهبط في مستوى إنفاقه ، بل إنه يتجنب المواقف التي يضطر فيها إلى الإنفاق ببذخ كما كان يفعل في السابق . وأكثر من هذا فإنه يبحث عن أصدقائه القدامى الذين كان يجالسهم قبل أن تهبط عليه الثروة وقبل أن تعلق مكانته ويتسمم مقامه السامى . فهو ينكص إلى مقامهم ويهبط إلى ما هم هابطين فيه من مستوى دنى . فهو إذن ينكص إلى ما هم عليه أو قل إلى ما كان عليه هو في الزمن البعيد قبل أن يزدهر حاله ويعلو نجمه وتشرق شمس عزه .

رابعاً - العامل السياسي : وهذا العامل يتعلق بالسلطة والمكانة السياسية التي يحتلها أحد الأشخاص ثم يفقدها لسبب أو آخر . والواقع أن الكثير من السياسيين يحدث لهم تكوص بعد أن تتباعد عنهم الأضواء ويجلسون في الظل وقد صاروا من عامة الناس ولم يعد لهم صوت مسموع أو إرادة نافذة . والكثير منهم يتوارون بعيداً عن الأنتظار ويكون في ذلك التوارى ما يؤكد تكوصهم عما كانوا قد ارتفعوا إليه من مقام سام ومن مكانة مرموقة . فهم لا يعوون يقدرون أنفسهم بنفس المعايير التي كانوا يعايرون أنفسهم بها أيام كانوا ممسكين بزمام السلطة السياسية . فالتكوص الذي ينحدرون إليه هو تكوص في تقدير الذات . ذلك أن المرء يقدر شخصيته في

ضوء تقدير الناس لمكانته . فإذا ما فقد تلك المكانة وبالتالي هبط الناس بتقديرهم له ، فإنه يهبط هو أيضاً بتقدير ذاته . وهذا هو النكوص بعينه ، أعنى النكوص النفسى بعدم تقدير المرء لنفسه أو فقدان ما كان يقيمه لنفسه من اعتبارات ، وما كان يضيفه على شخصيته من هالة وبريق .

خامساً - العامل الدينى : وهذا العامل يتعلق بالشخصيات الدينية أو الزعماء الدينيين . فالواحد منهم يتبوأ مركزاً ومكانة ذات بال فى قلوب أتباعه . فإذا ما نزعَت السلطة الدينية من يد الزعيم الدينى كما يحدث إذا ما شلح أحد القساوسة أو إذا ما زج به فى أحد السجون أو إذا ما أُجبر على حلاقة لحيته وشاربه وخلع زيه الدينى ، فإنه بلا شك يصاب بهزة نفسية ، وبالتالي فإنه يصاب بالنكوص . فهو يهبط نفسياً من المستوى القيادى الذى كان يحتله إلى مستوى حضيضى خلو من الهيبة والوقار ، فلا يقرب منه من كانوا يجولونه فى الماضى ، ولا يبدون له من التوقير كما كانوا يبدونه فى السابق ، بل قد يعاملونه باحتقار أو قد يتجنبوه . وهذا يعمل بلا شك على إصابته بالنكوص النفسى وبالهبوط بمكانته أمام نفسه إلى ما كان عليه قبل أن يتبوأ مكانته الدينية ، بل وإلى ما هو أدنى من ذلك مكانة ومقاماً .

المعنى القهرى :

من المعروف أن الشخص السوى يتسم بالسيطرة على أفكاره ومشاعره الوجدانية ونصرفاته الإرادية . فمن الطبيعى أن يكون الشخص العاجز عن السيطرة على هذه القطاعات الثلاثة من شخصيته خارج دائرة السوية وواقعاً فى نطاق دائرة اللاسوية أو الانحراف النفسى . وعدم القدرة على السيطرة على قطاعات

الشخصية الثلاثة أو على واحد أو اثنين منها هو ما نطلق عليه قهر الشخصية ، أى أن الشخصية تكون مسيرة فيما تقوم بالتفكير فيه ، أو فيما تحبه أو فيما تكرهه ، أو فيما تضطلع بعمله أو فيما تمتع أو تعجز عن الإبتيان به .

ولعلنا نبدأ بقطاع الفكر بالشخصية المقهورة ، فنجد أن القهر الفكرى يتبدى فى الأعراض الذهنية التالية :

أولاً - الفكرة الثابتة (Fixed-idea) : فصاحب الشخصية المقهورة ذهنياً يجد أن ثمة فكرة بعينها لا تريم عن ذهنه ولا تخفف من وطأتها عليه أو من إلحاحها على مقدراته الفكرية . ولقد تكون الفكرة المسيطرة فكرة فارغة ليس لها مضمون تطبيقي ، أو قد تكون فكرة مفردة أو حتى لقد تكون اسماً لشيء أو لشخص أو قد تكون نكرى من النكريات التى لا ترتبط بالواقع الحالى للمرء ولا تكون بذات أهمية . ولقد تكون الفكرة الثابتة عبارة عن عملية حسابية بسيطة كجمع رقمين أو طرحهما أو ضربهما ، وقد تكون الفكرة الثابتة عبارة عن مدرك بصرى أو سمعى أو لمسى أو شمسى أو نوقى مر فى المدركات الحسية للمرء ، ولكنه يظل مسيطراً على ذهنه دون أن تكون لديه القدرة على التخلص منه . وقد تكون الفكرة الثابتة فكرة مستقبلية تتعلق بما يتوقع المرء وقوعه حتى ولو كان الشيء المتوقع وقوعه تافهاً ، ولكن المرء الذى تسيطر عليه هذه الفكرة المستقبلية لا يستطيع أن يتنبأ عنه أو أن يحل فكرة أخرى مكانها .

ثانياً - الوسواس (Obsession) : والفرق بين الوسواس والفكرة الثابتة هو أن الفكرة الثابتة ليس بصدها خيار أو خيارات أمام المرء . أما الوسواس فإنه يتبدى فى وجود خيارين أو أكثر

أمام المرء ولكنه يستمر في حالة تردد بين ما يتوافر من خيارات ذهنية تتمثل في الأفكار المطروحة أمامه ولكنه يعجز عن أن يرسو على أى منها . من ذلك مثلا الرجل الذى يقف حائرا أمام موقفين من فئة النساء : موقف يقول إنهن أقل قدرة من الرجال على التفكير الصائب ، وموقف آخر يقول بالمساواة بين النساء والرجال في هذا الشأن . فهذا الرجل يظل يفكر في هذه القضية متذبذبا بين هذين الموقفين إلى ما لا نهاية . وكذا الحال بإزاء الشخص الذى يقف متذبذبا بين الموقف الذى يقول بشرية الإنسان والموقف المضاد الذى يقول بخيرية الإنسان . فهو لا يضم صوته إلى أى من الطرفين ، بل يتذبذب بينهما إلى ما لا نهاية . فالموسوس لا يستطيع أن يقع على خيار من بين الخيارات الذهنية المتاحة ، بل يظل مترددا بين الخيارين أو الخيارات المتوافرة بالموقف إلى ما لا نهاية .

ثالثا - الوهم (Phantom) : وهو فكرة لا أساس لها من الصحة أو لا وجود لما تشير إليه في الواقع المحسوس ، أو أنها فكرة لا تقوم على أساس من مقدمات معقولة أو مدروسة أو أنها انتقال مفاجئ إلى نتائج مختلفة بغير أن تمر بالخطوات المنطقية المعقولة التى تؤدى إليها . أو أنها فكرة انبثقت على أساس إيجائى تشرب به المرء فصارت يقينا لا يدانيه الشك مع أن أساسها واو أو لا أساس له من الصحة ، بل ثبت في عقل الواهم تحت التأثير النفسى للشخص الذى أوحى بالفكرة الوهمية إليه .

أما بالنسبة للقهر الوجدانى لدى الشخصية المنحرفة عن السوية ، فإنه يتمثل فيما يلى :

أولا - التحيز والتعصب : فعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من الناس يتحيزون ويتعصبون بتجاه أشخاص معينين أو فئات معينة ، فإن المغالاة في التحيز والتعصب تعتبر انحرافا نفسيا

أو نوعا من القهر الوجدانى . والشأن هنا كالأشأن بإزاء الأمراض المتباينة التى يتعرض الإنسان للإصابة بها . فأى إنسان - كأننا من كان - لا بد أن يكون مصابا بمرض ما ولو بسيط جدا . فنحن نعتبر السوية الصحية نسبية . فالشخص الذى يحمل أمراضا يمكن الإغضاء عنها يعتبر صحيحا معافا . ولا نعتبره مريضا إلا إذا اشتدت حالته المرضية . وكذا الحال بإزاء المصاب بالتحيز أو التعصب . فإذا صار التحيز أو التعصب قهريين بحيث لا يستطيع المرء التخفيف من شدتهما وتأثيرهما في حياته وعلاقاته بالآخرين ، فإنه يعتبر شخصا مقهورا من الناحية الوجدانية .

ثانيا - التشاؤم والتطير : والشخص المقهور وجدانيا يجد نفسه خاضعا للتشاؤم والإحساس بأن ثمة أخطارا مبهمة تتهدده لا يستطيع استبانتها أو الوقوف على كنهها أو مصادرها . وهذه الحالة تعرف بالتطير . والواقع أن القهر الوجدانى من هذا النوع لا ينفع بإزائه الإقناع أو البرهنة على زيف المعتقد . فالشخص الواقع تحت وطأة التشاؤم والتطير يكون مسوقا إلى التخوف من الكثير من المواقف التى تصادفه في حياته ، كما أنه يتطير إذا ما وقعت له حادثة بسيطة فيقلب الدنيا ظهرا لبطن ، وقد يخشى الخروج من بيته أو الانتظام على ممارسة عمله أو القيام بنشاطه اليومي المعتاد بسبب تشاؤمه وتطيره .

ثالثا - الخوف من الحسد : والقهر الوجدانى في هذه الحالة يتمثل في الخوف من أن يحسد الناس المحيطون بالمرء بأعينهم ما تقع عليه أبصارهم سواء الشخص نفسه أم أولاده أم ممتلكاته . والخوف من الحسد هو في الواقع خوف من المستقبل الذى يؤثر

فيه حسد الحاسدين . وعلى الرغم من أن معظم الناس يعتقدون في وجود الحسد ، فإن هذه الظاهرة النفسية تشتد بوطأتها على بعض الناس بحيث تجدهم مقهورين بالخوف من الحسد مما يجعلهم في عداد المرضى النفسيين .

وعلينا في نهاية المطاف أن نتناول الجانب الثالث من شخصية المقهور نفسياً وهو جانب الإرادة ، فنجد أن هذا الجانب يتضمن ما يأتي :

أولاً - الأعمال القهرية : وهذا النوع من التصرفات يتبدى في قيام الشخص المنحرف قهرياً ونفسياً بأعمال يعجز عن الامتناع عن القيام بها . من ذلك مثلاً قيام بعض المرضى بهذا المرض القهري بعد أعمدة التليفونات في أثناء ركوبهم القطار ، أو قراءة لافتات المحلات التجارية التي يمرون كل يوم أمامها في طريقهم إلى العمل ، أو تمرير الأصابع على أسبجة الحوائق أو غير ذلك من أعمال قهرية .

ثانياً - السرقة المرضية : والشخص المصاب بهذا المرض لا يستطيع إلجام نفسه عن مد يده لسرقة أشياء بعينها كالمناديل أو الجوارب أو الملاعق أو غير ذلك من أشياء ليست بذات قيمة في الغالب . وحتى برغم معرفة المصاب بهذا المرض أنه قد يقع في أيدي الشرطة بالقبض عليه وإحالته إلى المحاكمة ، فإنه يعجز عن تقويم سلوكه والحيلولة دون ارتكاب المرققة . فهو مقهور ومجبر على ارتكابها .

ثالثاً - التحطيم أو إشعال الحرائق : ومن الأعمال القهرية الإرادية أيضاً ما كان متصلاً بالإقدام على تحطيم الممتلكات

أو إشعال الحرائق . والواقع أن المصاب بهذا المرض القهري لا يميز بين ممتلكاته وبين ممتلكات الآخرين . فهو يجد نفسه مدفوعاً نحو التحطيم أو نحو إشعال الحرائق دون أن تكون لديه القدرة على ضبط نفسه أو إلجامها وعدم القيام بذلك . والمقهور بهذا النوع من المرض لا يميز بين صديق وعدو ، أو بين غث وسمين ، كما أنه لا يستطيع أن يقدر ما يمكن أن يترتب على أفعاله القهرية من مسؤوليات أو من نتائج وخيمة له ولغيره معاً .



الفصل الخامس

خصائص الشخصية المنحرفة

فقدان الاتزان الوجداني :

حرى بنا أن نبدأ بإلقاء الضوء على ما يتضمنه الاتزان الوجداني من معان حتى يتسنى لنا بعد هذا أن نتناول فقدان ذلك الاتزان الذي يصيب الشخصية المنحرفة . وهناك في الواقع مجموعة من المعاني التي يتضمنها الاتزان الوجداني لعلنا نقدمها على النحو التالي .

أولاً - الاتزان الوجداني يعني تحقيق التوازن بين الطاقة الوجدانية المبذولة وبين الموقف الذي تبذل فيه تلك الطاقة :

والموقف هنا شبيه بالإقبال على شراء إحدى السلع . فلكي تنجح في شرائها يلزم أن تكون النقود التي تقدمها للبايع متوازنة مع قيمة تلك السلعة . فإذا أنت قدمت للبايع مبلغاً أقل من قيمتها ، أو إذا أعطيته أكثر من قيمتها ، فإنك في الحالتين تكون قد جانبت الصواب . فللسلعة قيمة نقدية معينة يجب ألا تزيد أو تنقص عند مقايضتها بالنقود . كذا الحال بإزاء البذل الوجداني في المواقف المتباينة . فالموقف الذي يبذل فيه جهد وجداني أقل أو أكثر مما يستحقه ، فإنه يكون إذن قد فقد شرط الإتيان الوجداني أو بتعبير آخر فإن المرء في هذه الحالة يكون قد خرج من نطاق الاتزان الوجداني إلى نطاق الإنحراف النفسي .

ثانياً - الاتزان الوجداني يعني التكيف المستمر في بذل الطاقة الوجدانية : فالواقع أن الحياة ليست ساكنة ثابتة ، بل هي متحركة متطورة . وبتعبير آخر فإن الحياة عبارة عن سلسلة متصلة من الأحداث المتلاحقة . ومن الطبيعي أن تكون تلك الأحداث في حاجة إلى كميات متفاوتة من الطاقة الوجدانية التي يجب بذلها في كل موقف من المواقف التي تتضمنها تلك السلسلة المتصلة والمستمرة أبداً طالما أن الحياة مستمرة . ويتبع هذا أن يتحرى المرء تقديم الكمية المناسبة من الطاقة الوجدانية في كل موقف من المواقف المتتابعة . وبالتالي فإنه يأخذ في التقليل أو في الزيادة من بذل الطاقة الوجدانية تبعاً لمطلوبات تلك المواقف . فإذا هو قدم نفس الكمية من الطاقة الوجدانية على نفس الوتيرة بغير تقليل وبغير زياده ، فإنه يكون بالتالي قد فقد اتزانه الوجداني وانخرط في نطاق الانحراف النفسي .

ثالثاً - الاتزان الوجداني يعني تكيف كمية الطاقة الوجدانية المبذولة لما يتوقع من أحداث أو مواقف تالية : وبتعبير آخر فإن الشخص المتمتع بالاتزان الوجداني لا يسجن نفسه في إطار الموقف الراهن ، وبالأحرى في نطاق الماضي ، بل إنه يلقي ببصيرته إلى المستقبل ، فيضع الخطة المتعلقة بإنفاق الطاقة في تلك المواقف المستقبلية المتوقعة بحيث يكون مُقسطاً في إنفاقها بلا زيادة أو نقصان . ومعنى هذا أن الشخص الذي لا يتمتع بالنظرة المستقبلية أو الذي يبالغ في وضعه لخبطه المستقبلية بالإفراط في إعداد الطاقة الوجدانية أو بالتفتير في إعدادها ، فإنه يكون قد خرج إذن من نطاق السوية إلى نطاق الانحراف النفسي الوجداني .

رابعاً - الاتزان الوجداني يعني إغاية المرء من الخبرات السابقة وما اكتسبه من دروس منها في المواقف التي يتعرض لها الشخص

المتزن وجدانيًا لا يقدم ردود فعل فجأة على المثيرات التي توجه إليه من الواقع الخارجي أو على ما يتذكره من تلك المثيرات وما يترتب على ذلك التذكر من ردود فعل ، بل هو يفيد من أخطائه السابقة كما يفيد من المواقف التي نجح في تقديم ردود الفعل الناجحة بإزائها . فهو يكون متحكمًا بواسطة ما أفاده من خبراته السابقة في تياره الوجداني بإزاء المواقف المتباينة . فلا يكون مجرد أداة تتحكم فيها المثيرات الحالية والمثيرات السابقة التي يتذكرها ، بل يكون سيد الموقف والمتحكم في إنفاق طاقته الوجدانية بحكمة وحُكْمَة . وعلى هذا فإن الشخص الذي لا يستفيد من خبراته السابقة فلا يحوز القدرة على التوجيه الحكيم لطاقته الوجدانية بحيث يحرز أفضل النتائج بأقل طاقة وجدانية مبدولة ، لا يكون بالتالي متمتعًا بالاتزان الوجداني ، بل يكون قد خرج من نطاق السوية إلى نطاق الانحراف النفسي .

خامسًا - إن الاتزان الوجداني يعنى التخلص من المكبوتات المتركمة في نطاق اللاشعور : ذلك أن ما يكبت من ركامات وجدانية في لا شعور المرء يُشكل ما يشبه القبلة التي يمكن أن تنفجر في أى وقت إذا ما توافرت الظروف المناسبة لانفجارها . والشخص المتمتع بالاتزان الوجداني يعتمد إلى التخلص من تلك الركامات المكبوتة أولاً بأول وذلك بالتريض أو بالإعلاء أو بالمرور في مواقف شبيهة بتلك المواقف التي أحدثت الكبت الوجداني أو بتأمل الذات واستخراج تلك المكبوتات بالتذكر والإفصاح عنها بالكتابة أو بالرسم أو بالموسيقى أو بغير ذلك من وسائل الإبانة التي تحمل في طياتها تلك الرواسب المكبوتة . وبذا فإن المرء يصير متمتعًا بالاتزان الوجداني .

وعلينا بعد أن قمنا بتقديم هذه المعانى الخمسة للاتزان الوجداني أن نقوم بتقديم المظاهر السلوكية التي تتوأكب مع فقدان الاتزان الوجداني على النحو التالي :

أولًا - إن فقدان الاتزان الوجداني قد يتوأكب مع التهور الإنفعالي : فالشخص الذي فقد اتزانه الوجداني يكون معرضًا للإصابة بالعجز عن إلجام عواطفه وانفعالاته . فهو يُقدم على اتخاذ المواقف الخرقاء المندفعة التي لا تبقى ولا تذر . من ذلك مثلًا تحطيم الأشياء والاعتداء بالضرب والتجريح أو القتل أو الإقدام على الانتحار أو على غير ذلك من أعمال تنسم بالتهور الانفعالي والعجز عن ضبط النفس وعن إلجام الوجدان وبالتالي العجز عن التحكم في التصرفات في المواقف التي تحتاج إلى انضباط وعمل حساب لكل كلمة أو لكل خطوة عملية أو لكل علاقة من العلاقات التي يتم إقامتها أو يتم القضاء عليها وفسخها .

ثانيًا - إن فقدان الاتزان الوجداني قد يتوأكب مع العجز الإنفعالي : فعلى نقيض الموقف السابق ، فإن الشخص الذي يفقد اتزانه الوجداني قد يتخذ موقفًا منسَمًا بالعجز عن التعبير عما يساوره من انفعالات . فهو يتخذ موقفًا قد يلتبس مع موقف الشخص المتزن وجدانيًا . ولكن الواقع أن ثمة فرقًا جوهريًا بين الاتزان الوجداني وبين البرود الانفعالي يتمثل في مدى قدرة المرء على التعبير عما يخامره من مشاعر . فالمتزن انفعاليًا لا يعجز عن التعبير عن انفعالاته ، بل يقوم بإلجامها إراديًا . أما الشخص المصاب بالعجز الانفعالي ، فإنه يجد نفسه غير قادر على التعبير عن انفعالاته برغم ما يبذل من محاولات للتعبير عنها . فلسانه يكون معقودًا ، ولا يستطيع الإتيان بلامح الوجه أو بحركات اليدين التي تشير إلى التعبير ولو جزئيًا عن انفعالاته العبيسة بنخيلته .

ثالثاً - إن فقدان الاتزان الوجداني قد يتوأكب مع التذبذب الانفعالي : فالشخص المصاب بالتذبذب الانفعالي يجد نفسه مثل بندول الساعة . فهو ينقلب بين الإقدام والإدبار ، أو بين السخط والرضا ، أو بين الغضب والغبطة . بيد أن ذلك التذبذب الانفعالي يختلف عن التناقض الانفعالي من حيث إن التذبذب الانفعالي لا يكون بإزاء الموقف الواحد في ذات الوقت ، بل يكون في الموقف المتكرر في أوقات متباعدة . فخذ مثلاً ذلك الأب الذي يُعَيِّل ابنه لأنه ضرب زميلاً له اعتدى عليه بالضرب . ولكنه يقوم بضرب ذلك الابن في يوم آخر لأنه أقدم على التصرف نفسه بإزاء زميل له اعتدى عليه بالضرب . فمثل هذا الأب يوصف بأنه فاقد لاتزانه الوجداني لأنه يتخذ موقفين متباينين بإزاء نفس الحالة المتكررة في أوقات متباعدة .

رابعاً - إن فقدان الاتزان الوجداني قد يتوأكب مع التناقض الإنفعالي : فالشخص المصاب بهذا التناقض الانفعالي يبدي انفعالين متناقضين بإزاء الموقف الواحد . فخذ مثلاً لذلك المرأة المصابة بالماسوكية أى الإلتذاذ بقفل الألم في أثناء الممارسة الجنسية . فمثل تلك المرأة تلتذذ وتتألم في الوقت نفسه . ومن المعروف أن الإلتذاذ هو انفعال مضاد لانفعال الألم . وهناك من الناس من يحيون القيم الدينية ويكرهونها في الوقت نفسه . وشاهد ذلك أنهم يمارسون الشعائر الدينية وينغمسون مخلصين في المشاعر الروحية ، ولكنهم في ذات الوقت يقترفون الجرائم الخطيرة ضد بني جنسهم من البشر . وهذا هو حال الشخص الإرهابي الذي لا يتمسح بالدين أو يتظاهر بالدين ، بل يكون صادقاً في دينه ولكنه تردى في التناقض الانفعالي . فبينما هو يؤمن

بالرحمة ويعلى شأن الرحماء ، فإنه يتخذ من السلاح وسيلة للقضاء على الناس الذين اعتقد أنهم أشرار زاعغون عن القيم الدينية التي يؤمن بها .

خامساً - إن فقدان الاتزان الوجداني قد يتوأكب مع العجز عن التحكم في الشهوات : فالشخص الذي يفقد اتزانه الوجداني يكون في الوقت نفسه عاجزاً عن التمييز بين الرغبة والحاجة ، أو بين الأنيانية والغيرية ، أو بين الاستئثار بالطيبات وبين التضحية من أجل الآخرين أو في سبيل قضية أو مبدأ ، أو بين ما يعلى من شأنه وبين أفرانه وبين ما يحط من قدره . فالمهم لدى الشخص الذي فقد اتزانه الوجداني أن ينهمك في الشهوات التي تتمثل أساساً في الشهوات الجنسية والشهوات المتعلقة بتناول الأطعمة والمشروبات والمكيفات المتباعدة . فهو لا يقيم وزناً لما يترتب على المبالغة في إشباع شهواته من نتائج اجتماعية أو صحية أو اقتصادية أو غير ذلك من نتائج .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن العوامل التي تؤدي إلى فقدان الاتزان الوجداني وبالتالي إلى فقدان السوية والانخراط في نطاق الانحراف النفسى . والعوامل هي :

أولاً - التربية التديلية : وهى التربية التى تدور حول محور أساسى هو تلبية رغبات الطفل أو المراهق أو الشاب مهما كانت تلك الرغبات . المهم أن المربي المؤمن بهذا النوع من التربية يعتقد أن إشباع رغبات الناشئ يجعل منه شخصاً غير محروم من طيبات الحياة ، بل ويجعل منه شخصية قوية وفعالة في مستقبل حياته . والواقع أن هذه التربية لا تساعد الناشئ على التمتع بالاتزان الوجداني . ذلك أن العالم لم يخلق لذلك الناشئ وحده ، بل هو قسمة بين الناس جميعاً . ناهيك عن أن الحياة لا تحمل الذائد وحدها

للناس ، بل تحمل لهم الآلام أيضًا . فمن لا يتمرس بالذائد والآلام ، ومن لا يستطيع أن يتكيف مع واقع الحياة بما يحمله من حلو ومر ، لا يستطيع أن يشب على السوية النفسية ، بل يشب على عدم الاتزان الوجداني . ناهيك أيضًا عن أن الحياة تستوجب من الناس أن يضحوا بالرخيص والغالي ، وأن يتنازلوا عن بعض الذائد في سبيل الحصول على بعض الحاجات الاجتماعية . فالتعب والحرمان من أشياء يحبها المرء قد يشكلان السبيل إلى التقدم في ركب الحياة ، وفي التفوق واحتلال مكانة مرموقة بين الناس . ولكن التربية التدليلية لا تعرف ذلك ومن ثم فإنها لا تنتج سوى أجيال من الأنايين غير المتزنين انفعاليًا ووجدانيًا ومن الفاشلين في حاضرهم ومستقبلهم جميعًا .

ثانيًا - التربية الحرمانية : وتعنى بها تلك التربية التي تعمد إلى حرمان الناشئة من الذائد أو تلك التربية التي تعجز عن إشباع رغبات الناشئة حتى الحد المناسب لتلك الإشباع . فالطفل أو المراهق أو الشاب قد يحس بالحرمان وأنه قد فاتته التمتع ببعض الذائد الهامة التي لا يستطيع تعويضها بعد فوات الأوان لأنه كبير ولكن إحساسه بالحرمان من إشباع تلك الذائد ما يزال ينغص عليه حياته . إن مثل ذلك الشخص المحروم خلال مراحل نموه المتباينة يكون خليقًا بأن يكون فاقداً لاتزانه الوجداني .

ثالثًا - الإصابة بعاهة أو بمرض مزمن أو مميت : فالشخص السوي صحيح البدن والمفعم بالصحة والعافية إذا ما أصيب في حادث بعاهة ، أو إذا ابتلى بمرض يقعه عن ممارسة ما دأب على القيام به من نشاط أو عمل ، أو إذا أصيب بمرض لا سبيل للتخلص منه ، بل سوف يُقضى في القريب العاجل أو في البعيد الأجل إلى الموت ، غالبًا ما يفقد اتزانه الانفعالي الوجداني ، وبالتالي فإنه يخرج من إطار السوية إلى إطار الانحراف النفسي .

التناقض العقلي :

علينا قبل أن نتناول ما نتصف به الشخصية المنحرفة عن السوية من تناقض عقلي أن نلقى الضوء على مفهوم التناقض العقلي لكي نلم بأبعاده وما يتضمنه من مفاهيم فرعية ، فنجد أن هذا المفهوم يتضمن الأبعاد والمفاهيم الفرعية التالية :

أولاً - عدم استبانة الفواصل القائمة بين الأفكار المتعارضة : فالشخص المنحرف عن السوية لا يتمكن له التمييز فيما بين الفكرة والفكرة المناقضة لها . فهو يجمع المتناقضات الذهنية في إطار واحد دون التفرة بينها ودون أن يدرك ما بينها من هوة سحيقة لا تسمح بالجمع بينها . وإذا كان هذا هو حال المنحرف عن السوية بإزاء المتناقضات الذهنية ، فهو أيضًا حاله بإزاء المتضادات . والتناقض كالوجود والعدم ، والتضاد كالأبيض والأسود . فالهوة التي تفصل بين الوجود والعدم هوة لا نهائية ، أي أنه لا يوجد تدرج بين الطرفين المتناقضين بحيث نجد حالات وسطى فيما بينهما . أما الهوة القائمة فيما بين الطرفين المتضادين مثل الأبيض والأسود ، فإنها هوة محدودة ومتدرجة ، بمعنى أن بين البياض والسواد درجات أو أخلاط فيما بينهما بحيث أستطيع أن أستبين درجات من البياض المختلط بالسواد ، أو من السواد المختلط بالبياض . وعلى أية حال فإن الشخصية المنحرفة عن السوية لا تستطيع أن تميز بين الأفكار المتضادة كما لا تستطيع أن تميز بين الأفكار المتناقضة .

ثانيًا - استخدام اللغة بطريقة متناقضة : وطالما أن الشخص المنحرف عن السوية لا يستطيع استبانة المتناقضات والمتضادات الذهنية ، فإنه بالتالي لا يستطيع أن يستخدم لغة الكلام أو لغة الكتابة بالطريقة السليمة ، بل يخلط فيما يعبر به من كلام بين اللفظ

ونقيضه أو بين اللفظ واللفظ المضاد له . من ذلك مثلًا ما يقع فيه بعض الكتاب من تناقض لدى استعمالهم للفظ « يستبدل » . فالواحد منهم يقول « نستبدل الباطل بالحق ، والكذب بالصدق » ، ومن الطبيعي أنه يقصد استبعاد الباطل والكذب والإبقاء على الحق والصدق ، ولكنه يقبل الآيه وكان أحرى به أن يقول « نستبدل الحق بالباطل ، والصدق بالكذب » . وذلك لأن ما بعد الباء هو المتروك والمستبعد . وواضح أن انحراف المرء عن السوية اللغوية يوقعه في مطب التناقض العقلي ، كما يتضح من المثال الذي سقناه هنا .

ثالثًا - إحلال ما ليس له أهمية محل ما له أهمية ، وإحلال الأقل أهمية محل الأكثر أهمية : فالشخص المنحرف عن السوية يقع في مطب آخر هو مطب الخلط التقييمي . فهو يضيف القيمة على ما ليس له قيمة ، كما يضيف قيمة كبيرة على ما لا يستحق سوى قيمة قليلة ، أو يضيف قيمة قليلة على ما يستحق قيمة كبيرة . والواقع أن عملية التقييم تشكل محورًا ذهنيًا أساسيًا بالرغم من ارتباط التقييم في كثير من الأحيان بالتذوق السلوكي أو بالتذوق الجمالي . فحتى هذين النوعين من التذوق يرتكزان على ركائز ذهنية . وتعبير آخر فإن المنطق يرتبط بوشائج مكينة بالمشاعر والأحاسيس الوجدانية . فصاحب التقييم الأخلاقي أو الجمالي لا بد أن يكون متمتعًا بالقدرة على التقييم المنطقي العقلاني ، ولكن العكس ليس صحيحًا ، بمعنى أن صاحب التقييم المنطقي العقلاني لا يكون بالحمم والقطع صاحب تقييم أخلاقي أو جمالي . ومعنى هذا أن الجذع في التقييم أيا كان هو جذع منطقي عقلاني ، ولكن الفروع والأغصان قد تكون فروعًا وأغصانًا أخلاقية أو جمالية وقد لا تكون . فلقد نجد صاحب فكر منطقي عقلاني على مستوى رفيع من المنطقية والعقلانية ، ولكننا لا نجد صاحب قيم أخلاقية أو جمالية على المستوى نفسه الذي بلغه من المنطقية والعقلانية .

وزبدة القول أن الشخص المنحرف عن السوية يكون متخلفًا في عمليات التقييم المتباينة سواء كانت عمليات تقييمية منطقية عقلانية أم كانت عمليات تقييمية أخلاقية أم كانت عمليات تقييمية جمالية .

رابعًا - انعكاس التناقض العقلي على التصرفات التي يأتيها المرء : فالواقع أن التصرفات الإرادية وغير الإرادية تعتبر مرآة تعكس الحالة العقلية التي يتصف بها المرء . فمن المستحيل أن يقدم صاحب الفكر المتناقض سلوكًا متسقًا غير مشوب بالتناقض . فالعقل هو المايسترو الذي يقوم بالإشراف على الأجهزة الجسمية المتباينة التي تتعاون بعضها مع بعض في تقديم السلوك بشكل متسق ومنسجم بعضه مع بعض ومؤيدًا للأغراض التي يبغى المرء تحقيقها . فإذا كان ذلك المايسترو مصابًا بالخلل ، فإنه لا يستطيع أن يوجه أجهزة الجسم المختلفة للإتيان بالسلوك المتسق والمنسجم بعضه مع بعض والمحقق للأهداف التي يرتئها المرء ويبغى التوصل إليها . ومن المؤكد أن الشخص الذي لا يتمتع بالاتساق العقلي أو المصاب بالتناقض الوجداني لا يقدم السلوك الذي يمكن أن يوصف بأنه سلوك سوى ، بل يوصف بأنه سلوك متناقض بعضه مع بعض . من ذلك مثلًا الجمع بين السلوك المعبر عن الحب وبين السلوك المعبر عن الكراهية . فالأب أو الأم التي تعانق طفلها وتشبعه تقبيلًا وحنانًا ولكنها ما تفتأ بعد لحظات قليلة توسعه ضربًا ولطمًا وقرصًا وعضًا ، لا يمكن نعتها بأنها سوية أو أنها متسقة في سلوكها البادي للعيان أو في سلوكها العقلي ، بل من المحتم نعتها بأنها متناقضة عقليًا ووجدانيًا ، بل ومتناقضة أيضًا فيما تبديه من سلوك بإزاء طفلها ، وهو السلوك الذي يعتبر عينه لجماع شخصيتها وسلوكها بصفة عامة .

خامساً - تبدؤ التناقض العقلي فيما يخطئه المرء من خطط مستقبلية : والتناقض العقلي لا يقتصر على المواقف الراهنة التي يمر بها المرء ، بل يمتد أيضاً إلى المستقبل بإزاء ما يعتزم صاحب الشخصية المنحرفة عن السوية اتخاذه من مواقف أو تنفيذ من خطط . فهو يضع الخطة ونيقضاها ، أو يصمم على الانتقام من عدوه في المستقبل كما يصمم في الوقت نفسه على الصفح عنه وعلى عقد عرى الصداقة معه من جديد . ذلك أنه يجمع في قلبه الكراهية والحب لذلك العدو الحبيب أو الحبيب العدو . ولقد يضع الطالب صاحب الشخصية المتناقضة عقلياً خطة للاستنكار تتسم بالجد والانكباب على الدرس والاستيعاب وتبشر بالتفوق ، ولكنه من جهة أخرى يضع خطة للهو مع الأصدقاء والصدقات بالنادى أو بالشارع والقيام بالرحلات والانخراط في سلسلة من المغامرات والأنشطة الكفيلة بابتلاع كل الوقت الذي رصده بخطة استنكاره . ولقد يقوم صاحب الشخصية المتناقضة عقلياً بوضع مشروع عملاق لا سبيل لتنفيذه لقلة الموارد أو لأنه مشروع خيالي قد وضع بناء على أحلام يقظة غير واقعية ، فيكون هناك تناقض عقلائي بين الخطة المهولة وبين الطاقة والإمكانات المتاحة أو التي سوف تتاح في المستقبل . فتكون الخطة الموضوعية شاهداً على التناقض العقلي الذي رزح تحت وطأته ذلك الشخص المخطط المصاب بالتناقض العقلي .

ولعلنا نقوم بعد هذا بمدارسة العوامل التي تؤدي إلى إصابة المرء بالتناقض العقلي فينبدي في مناحي سلوكه المتباينة التي عرضنا لها آنفاً . وهي التي يمكن تقديمها على النحو التالي :

أولاً - وجود خلل في نظام المدركات الحسية : فمن المعروف أن الحواس الخمس هي النوافذ التي نطل منها على الواقع الخارجي من حولنا . فنحن نستقبل صوراً حسية أو قل رموزاً حسية عن طريق الحواس الخمس يتم ترجمتها بمرکز الترجمة الخاصة بها

في المخ ، ثم يختزن بعضها بمخزن الذاكرة ، كما أن بعضها الآخر يخضع لنشاط المخيلة فتشكل منه صوراً ذهنية خيالية متباينة ، ثم يصعد النشاط الذهني عن طريق التجريد والتعميم إلى مستوى المفاهيم المجردة . فإذا كانت الركيزة الأولى لهذه العمليات العقلية المتباينة فاسدة ، فإن المرء يصاب إذن بالتناقض العقلي على اختلاف أنواعه وأشكاله .

ثانياً - الفقر الثقافي والترقيع الثقافي : فالشخص الذي ينشأ في بيئة ثقافية متخلفة فيصير محروماً من المقومات الثقافية التي يتسنى له عن طريقها تسيير حياته وإقامة علاقاته بالآخرين من حوله ، وكذا الشخص الذي لم تقدم إليه المقومات الثقافية بطريقة تدرجية من البسيط إلى المركب ، وبطريقة تراكمية تراعى فيها الأولويات في بناء المركب الثقافي للشخصية ، إنما يكون شخصاً خليقاً بالإصابة بالتناقض العقلي . وهذا النوع من التناقض العقلي يمكن أن يطلق عليه اسم « التناقض العقلي الوظيفي » وذلك لأنه لا يعود إلى خلل أصاب المخ أو إلى خلل موروث ، بل يعود إلى توظيف المقومات الثقافية توظيفاً رديئاً بسبب الفقر الثقافي والترقيع الثقافي .

ثالثاً - التأثير التربوي المتناقض : فالكثير من الأشخاص المصابين بالتناقض العقلي يعزى ما أصيبوا به من هذا الخلل العقلي إلى المؤثرات التربوية التي حاقت بهم من جانب الكبار الذين قاموا بتنشئتهم من آباء وأمهات ومعلمين ومعلمات . فالمرء الذي يكون مصاباً بالتناقض العقلي ينقل ما أصابه إلى من يقوم بتنشئتهم . ويكون هذا للنقل أو قل هذه العدوى بالتقليد والإيحاء ، أو يكون نتيجة إشاعة الخوف والتلق والاضطراب وعدم القدرة على التنبؤ

بسلوك المرء في اللحظة التالية مما يضرب الناشئ بعدم القدرة على تبين طريقه وما يجب أن يوجه سلوكه إليه ، فيصاب بالتالي بالتناقض العقلي في جميع الأحاء السلوكية التي عرضنا لها قبلاً .

رابعاً - الصدمات النفسية : ونقصد بالصدمات النفسية تلك الأحداث المفاجئة التي تقع للمرء دون أن يكون قد أعد نفسه لها أو توقع حدوثها . والصدمة النفسية قد تكون كارثة ، كما أنها قد تكون شيئاً مفرحاً للغاية بحيث لا يتسنى للمرء هضم الموقف فتشكل المفاجأة السارة صدمة نفسية . وثمره نتائج متباينة للصدمات النفسية ، ومن بين تلك النتائج ما يتلحق بالتناقض العقلي . فإذا فقدت إحدى الزوجات زوجها الذي كرس حياته له واعتمدت عليه نفسياً ، فإنها قد تصاب بالتناقض العقلي . والشئ نفسه قد يحدث للوالد الذي فقد ابنه الوحيد في الحرب وكان من بين المفقودين ، ولكنه فوجئ بابنه أمامه ذات يوم بغتة بغير تمهيد وهو في تمام الصحة والعافية . إن ذلك الأب قد يصاب بالتناقض العقلي بعد مروره في هذه الصدمة المفرحة للغاية والتي لم يتحملها جهازه العصبي فأصيب بخلل ما .

خامساً - المواقف الحرجة : فالشخص الذي يجد نفسه في موقف حرج قد يصاب بالتناقض العقلي ، ولكنه لا يكون تناقضاً عقلياً مزمناً ، بل تناقضاً عقلياً مؤقتاً . فالكثير من المقابلات الإذاعية والتلفزيونية تتضمن هذا النوع من التناقض العقلي فيما يقوم الضيوف بالإدلاء به من آراء أو ملاحظات . فلقد تجد أن الضيف يقدم الرأي ونقيضه في نفس البرنامج الذي استضافه . ذلك أن المتحدث يكون في حيرة بين نفسه وبين المتلقين عنه . فهو بينه وبين نفسه له رأى ، ولكنه بينه وبين المستمعين له رأى آخر متناقض مع رأيه الشخصي . فهو في أول اللقاء يجلى عما يدور

بخلده بغير مواربة أو مهادنة ، ولكنه بعد أن يفيق إلى الموقف الذي يكتنفه وأنه في مواجهة جماهير المستمعين الذين سوف يقاومون ما يدلي به من رأى مخالف أو شاذ ، فإنه يدلي بما يرضيه من رأى . فيكون تناقضه العقلي ناجماً عن خوفه من نقد النقاد ولأنه يخشى من عداء الفكر الذي قد تترتب عليه نتائج وخيمة في حاضره ومستقبله معاً .

التوظيف السيئ للغة :

سبق أن عرضنا لما يمكن أن يتصف به الشخص المنحرف عن السوية من تناقض فيما يبين به من كلام منطوق أو من كلام مكتوب . وهذا التناقض اللغوي لا يعدو أن يكون جانباً من جوانب أخرى للتوظيف السيئ للغة . ولعلنا فيما يلي نقوم بتقديم الجوانب الأخرى التي يتبدى فيها ذلك الاستخدام السيئ لأداة التعبير المنطوق أو المكتوب على النحو التالي .

أولاً - عدم مناسبة اللغة المستخدمة للمتلقى : فمن مظاهر سوء استخدام اللغة عدم انتقاء المناسب لقدرة المتلقى على فهم ما يقال . فلقد يحشو بعض المتحدثين لغة كلامهم ببعض المصطلحات الأجنبية أو العلمية أو الفلسفية التي لا قبل للمتلقين فهمها بسبب انخفاض مستواهم الثقافي . ومن تلك المظاهر أيضاً التحدث إلى العامة بلغة الخاصة وذلك بالتعثر فيما يوجه إليهم من كلام ، أو التحدث إلى الأطفال الصغار بما لا يتسنى لهم فهمه من أفكار أو معلومات صعبة أو غير مستساغة بالنسبة لهم . ومن مظاهر سوء استخدام اللغة ما يسمى بتحصيل الحاصل وذلك بعدم تقديم الجديد فيما يقال أو التحدث إلى الخاصة بمستوى العامة أو بتكرار ما سبق أن قيل أو ما هو معروف من قبل . ومن ذلك أيضاً إطالة الشرح والتبسيط لما ليس في حاجة إلى شرح أو تبسيط ،

أو التوجه بالحديث إلى شخص أو أشخاص لا يهمهم ما ينخرط فيه المتحدث من موضوعات . من ذلك مثلاً التحدث إلى مجموعة من النساء اجتمعن للغذاء في مأتم عن مباراة لكرة القدم أو عن مناظرة سوف تقام حول استخدام الفصحى والعامية . فأولئك النساء في ذلك الموقف لا يهمهن مثل هذه الموضوعات حتى يصغين إلى المتحدث فيها .

ثانياً - الاستخدام السيئ لطبقات الصوت : ومن مظاهر الاستخدام السيئ للغة عدم مراعاة مدى مناسبة طبقات الصوت المستخدمة للمتلقى أو للمتلقين . فالمناسب من طبقات الصوت للتحدث إلى شخص واحد غير مناسب للتحدث إلى مجموعة من الأفراد ، بل إن استخدام مكبرات الصوت للتحدث إلى جمهرة من الناس يجب أن تكون منضبطة بحيث لا تكون أعلى أو أخفض مما يجب أن تكون عليه طبقة الصوت . والحديث الخاص بين شخصين يجب ألا يكون بصوت مرتفع فيصل إلى أسماع من لا يهمهم سماع تلك الموضوعات الشخصية . والخطب التي تلقى في طابور الصباح بإحدى المدارس يجب ألا تخرج عن نطاق المدرسة إلى المساكن المجاورة للمدرسة . والمسائل الشخصية أو حتى الخلافات فيما بين الزوجين وما يتبادلانه من آراء أو ما يختلغان حوله من أمور يجب أن يكون منحصرًا فيما بينهما وألا يصل إلى الجيران وذلك باستخدام الصوت المنخفض بقدر الإمكان .

ثالثاً - الفضفضة وزيادة حجم الكلام عن حجم المعاني : فمن أعراض التوظيف السيئ للغة التعبير عن الأفكار بأكثر مما تستحقه من كلام . ويكون مرد هذا إلى فقر المتحدث فيما يسوقه من أفكار إلى المتلقى أو المتلقين لكلامه ، أو قد يكون مرده إلى تمكن

المتحدث من الفصاحة وسيطرته على لغة الكلام أكثر من خصوبة فكره وتعمقه . فهو قد يتحدث منطلقاً لا يلوى على شيء ولا يهمه ما يتحدث فيه مثلما يهمه أن يقدم قوالب كلامية رنانة إلى المستمعين إليه . والواقع أن هناك مفارقة بين الكلام وبين ما يتضمنه من معانٍ . وتعبير آخر فإن الكلام يمكن أن يدور حول بعض المعاني القليلة ويكون محشواً بالمترادفات وبالجمال الاعتراضية وباللف والدوران حول محاور معنوية قليلة . وهذا ما يتبدى بصفة خاصة في الخطابة التي تستهدف التصويب نحو العواطف أكثر من التصويب إلى العقول . فالخطيب يهمه هز المشاعر أكثر من تقديم معلومات جديدة إلى المستمعين . ولكن هل يقع الخطيب في الخطأ عندما يفعل ذلك ؟ إنه يقع في الخطأ إذا هو أحال خطبته إلى محاضرة . فمهمة المحاضر التأثير في العقول أكثر من التأثير في القلوب ، بينما مهمة الخطيب التأثير في القلوب أكثر من التأثير في العقول . ولكن المحاضر الذي يستحيل إلى خطيب أو الخطيب الذي يستحيل إلى محاضر يكون كلاهما قد وقع في الخطأ ويكون قد وظف اللغة توظيفاً سيئاً ، وتكون الفضفضة التي وقع فيها المحاضر هي فضفضة وجدانية ، بينما تكون الفضفضة التي وقع فيها الخطيب هي فضفضة معنوية ، أي أن المحاضر الذي يتزيد في الكلام المؤثر في القلوب يكون قد خرج عن حدود مهمته المعرفية ، كما أن الخطيب الذي يتزيد في الكلام الذي يحمل المعلومات إلى المستمعين يكون هو أيضاً قد خرج عن حدود مهمته الخطابية .

رابعا - ضغط المعاني في كلام أقل مما تستحقه من إبانة : فكما أن الفضفضة وزيادة حجم الكلام عن المعاني من أعراض التوظيف السيئ للغة ، كذا فإن الضغط الشديد للكلام حتى لا يكاد

على ذهن المتحدث أو الكاتب ويسبب له مشكلات نفسية معينة .
أضف إلى هذا ما قد يصاب به المتكلم أو الكاتب من لوازم كلامية
فيردد ألفاظاً أو عبارات بعينها دون ما داع لتربيتها والإكثار من
استخدامها .

ثانياً - الأسباب التربوية : فالمربون مسئولون إلى حد بعيد
عما قد يصيب الناشئة من توظيف سيئٍ للغة . فما يقدم من قوالب
لغوية أمام الناشئة يكتسبونها ويأخذون في استخدامها وفي صب
لغتهم فيها . ولا يخفى على أحد ما للمربين من تأثير نفسي فيمن
يقومون بتثنتهم وانعكاس ذلك التأثير على ما يستخدمونه من
كلام . فالأخطاء الكلامية التي تشيع بين الكبار تنتقل من جيل
لآخر ، كما أن المستوى الثقافي للمربين يؤثر تأثيراً بالغاً في
مستوى الكلام وفي مدى خصوبته ، بل وفي مدى صحة أو خطأ
ما يفوهون به من كلام أو ما يقومون بكتابته .

ثالثاً - الأسباب المعرفية : فمن العوامل التي تؤدي إلى
التوظيف السيئٍ للغة ضحالة المعرفة بإزاء المجال أو الموضوع
الذي يتعرض المرء للتحديث أو الكتابة فيه . فمن الطبيعي أن من
يجهل موضوعاً أو تكون معرفته به سطحية يكون كلامه فيه أو
كتابته عنه سطحية أو منحرفة عن الصواب . وهذا يبدو بصفة
خاصة في استخدام بعض المصطلحات العلمية إذا ما أقحم شخص
غير مختص في علم ما من العلوم نفسه فيه وأخذ يتحدث أو يكتب
في موضوعاته . ومن الطبيعي أن من يكون غير متمكن من لغة
التخاطب أو من لغة الكتابة ، فإن جهله بفنون الإبانة الكلامية أو
الكتابية يدفعه إلى التردى في أخطاء كثيرة سواء فيما يتعلق بصحة
ما يبين عنه لغوياً أو معنوياً .

ينقل المعاني إلى المتلقين يعد من أعراض التوظيف السيئٍ للغة
أيضاً . والموقف هنا شبيه بالأزياء التي يرتديها الناس . فالزى
المناسب هو الزى الذي لا يتصف بالانحسار أو بالضيق عندما يرتديه
المرء ، بل يكون على مقياسه وليس أوسع أو أضيق منه . كذا الكلام
بإزاء المعاني . فالمعاني تشبه كسم المرء أو مقياسه ، والكلام يشبه
الجسم الذي ترتديه تلك المعاني . فالكلام المضغوط يكون مبهماً أو
يكون متضمناً في طياته معاني غير مفصح عنها وهذا عيب في
قدرة المتحدث على الإبانة .

خامساً - الأخطاء اللغوية والإملائية في الكتابة : ومن
التوظيف السيئٍ للغة ما قد يعثور لغة الكاتب من أخطاء سواء كانت
أخطاء في النحو ، أم في استخدام المصطلحات الفنية أم في الإملاء
أم في التنسيق أم في الأصول المرعية في الكتابة حسب الموضوع
أو المجال أم في غير ذلك مما يتعلق بفنون التعبير الكتابي .

وهناك في الواقع مجموعة من الأسباب التي تؤدي إلى التوظيف
السيئٍ للغة ، لعنا نقوم بتقديمها على النحو التالي .

أولاً - الأسباب النفسية : فالكثير من مظاهر التوظيف السيئٍ
للغة التي نكرناها يرتكز على عوامل نفسية . فما يعمل لدى المرء
من قلق ومن اضطرابات نفسية متباينة ينعكس أثره فيما يبين به من
كلام . فالشخص المضطرب نفسياً لا يقتصر على الإصابة بعيوب
النطق كالتهته ونحوها ، بل إنه قد يصاب أيضاً بالفضفضة أو
بضغط المعاني في كلام يعجز عن إيصال المقصود إيصاله إلى
المستمع أو القارئ . ناهيك عن التكرار أو اللب والدوران حول
بعض المعاني أو التأكيد على موضوع أو مجال معين كالموضوع
أو المجال الجنسي إذا كان هذا الموضوع أو المجال مما يسيطر

رابعاً - الأسباب المصلحية : فلقد يعتمد أحد الأشخاص الماكرين إساءة استخدام اللغة لتحقيق مصلحة معينة خاصة به أو بغيره من أشخاص . من ذلك مثلاً ما قد يعمد إليه البعض في كتابة العقود أو إيصالات الأمانة أو عقود الزواج المزيفة أو غير ذلك من أوراق يمكن أن تؤدي إلى خسارة مادية لأحد الأطراف وإلى كسب مادي لطرف آخر .

خامساً - الأسباب الكيدية : ومن أسباب التوظيف السيئ للغة ما يحمله بعض الأشخاص من كيد لغيرهم فيعمدون إلى توريطهم في مآزق مادية أو جنائية أو استخدام لغة الكلام أو لغة الكتابة للنيل منهم أو إيذاء مشاعرهم أو التحقير من شأنهم أو الحط من كرامتهم أو التشهير بهم . فالواقع أن اللغة شأنها شأن السكن الذي يمكن استخدامه في شؤون الحياة العادية ، كما يمكن استخدامه في اقتراف جرائم القتل والاعتداء على الآخرين .

ولعلنا نقوم بإنهاء هذا الموضوع بالتحديث عن النتائج التي تترتب على التوظيف السيئ للغة فنحدد تلك النتائج في النقاط التالية .

أولاً - فيما يتعلق بالمكانة الاجتماعية للمرء : فمن الحقائق التي لا تحتاج إلى برهان أن التوظيف السيئ للغة يعمل على الحط من شأن المرء ويهز مكانته الاجتماعية . فمن يوظف لغة كلامه المنطوق أو كلامه المكتوب توظيفاً رديئاً أو مفسداً أو مؤذياً للآخرين يحط في الواقع من قدر نفسه وينزل بمكانته الاجتماعية التي يكون قد حازها إلى أسفل سافلين . فالتوظيف السيئ للغة على جانب كبير من الخطورة ، وذلك لأننا نحيا في إطار عالم تزجج فيه كفة الرموز على كفة الأشياء المحسوسة . ألا يؤدي إيصال الأمانة إلى مسئولية خطيرة قد تكون الزجج بالسجن ؟ وألا يؤدي الاستخدام الرديء للغة إلى الرسوب في الامتحان أو إلى ضياع المستقبل برمه بالطرد من المدرسة أو المعهد أو الكلية ؟

ثانياً - فيما يتعلق بالترويج للأخطاء المعرفية واللغوية : فالكثير من الأخطاء المعرفية واللغوية يرجع إلى ما يردده الكبار أمام الصغار من كلام محشو بتلك الأخطاء . فمسنولية المرء الكلامية لا تنحصر في نطاقه الذاتي ، بل تمتد لتشمل غيره ممن يحيطون به وبخاصة إذا كان الشخص المخطئ ممن يحظون بالثقة من جانب المحيطين بهم من أشخاص مما يسهل عملية نقل الأخطاء إلى الآخرين الواثقين فيهم والمؤمنين بأنهم لا يخطئون فيما يفوهون به أو فيما يقومون بكتابته .

ثالثاً - فيما يتعلق بما يصيب الآخرين من ضرر : فاللغة كما قلنا سيف ذو حدين أو سكين يمكن استخدامها للخير أو للشر . ومن الواضح أن من يستخدم اللغة أو يوظفها توظيفاً مأكراً أو شريفاً ، إنما يوقع الضرر على الآخرين . فمثيرو الشغب ومشعلو الفتن بين الناس ومن يقومون بتفريق الأصدقاء وإحالتهم إلى أعداء ، إنما هم في الواقع أشخاص دأبوا على استخدام اللغة استخداماً رديئاً وخبيثاً في الوقت نفسه .

العجز عن التكيف الاجتماعي :

بحسن بنا في مستهل هذا الموضوع أن نعرض لما يتضمنه مفهوم التكيف الاجتماعي من معان ، فنجد أن هذا المفهوم يتضمن عدة مفاهيم فرعية لعلنا نقدمها على النحو التالي .

أولاً - إن التكيف الاجتماعي يعني الإحساس بالانتماء إلى مجتمع معين : والإحساس بالانتماء عبارة عن انتحاء عاطفي ولعلق وحب لمجتمع ما وتفضيله على المجتمعات الأخرى التي تحيط به أو يتعامل معها . والانتماء إلى مجتمع معين يعني الشعور

« بالنحن » بمعنى أن المرء والمجتمع يصيران قوامًا روحيًا واحدًا ، فيحس المرء بما يحس به مجتمعه فيألم لآلامه ، ويسعد بسعادته ، ويتقدم بتقدمه ، وتزدهر حياته بازدهاره .

ثانيًا - إن التكيف الاجتماعي يعنى فهم المجتمع الذى يتكيف المرء معه : فإلى جانب الإحساس الوجدانى بالانتماء وحب المجتمع الذى يحيا المرء فى كنفه ، فلا بد أن يلم بأطرافه وأن يقف على قوامه وخصائصه . ولعل هذا الفهم يبدأ من الواقع الراهن لذلك المجتمع من جميع الزوايا الممكنة وبخاصة الزاوية التى تهتم المرء ، مع التقدم فى هذه المعرفة بنظرة تاريخية ، فيقف على التطورات التى مر المجتمع بها . أضف إلى هذا أن فهم المجتمع يبدأ من العام إلى الخاص ، بمعنى أن المرء يحرز نظرة عامة شاملة إلى المجتمع ، ثم هو يركز نظره فى قطاع معين منه . ذلك أن المجتمع ليس مجرد دائرة واحدة تضم جميع أفرادها ، بل هو عبارة عن دائرة كبيرة تضم فى رحابها عدة دوائر متباينة . ومن الطبيعى أن يهتم المرء بإحدى الدوائر مركزًا ذهنه فيها وجامعًا المعلومات حولها . ومن الطبيعى أيضًا أن يكون إحساسه بالانتماء إلى المجتمع الفرعى المتعلق بتلك الدائرة أكثر عمقًا من انتمائه إلى باقى المجتمعات الفرعية التى يضمها المجتمع الكبير الذى يشكل الدائرة الكبيرة التى تضم جميع الدوائر الصغيرة المتباينة .

ثالثًا - إن التكيف الاجتماعي يعنى المشاركة الإيجابية فى النشاط الاجتماعى : يبدأ أن الإحساس بالانتماء إلى المجتمع وتفهمه والوقوف على مقوماته يجب أن تتواكب مع اتخاذ موقف إيجابى بإزاء ذلك المجتمع وبخاصة بإزاء تلك الدائرة الفرعية التى يركز المرء فيها وجدانه وفكره . والموقف الإيجابى الذى نعنيه يتمثل فى

الأخذ والعطاء ، أى أن على المرء أن يأخذ عن المجتمع من جهة ، وأن يعطيه من جهة أخرى . وبعبير آخر فإن التكيف الاجتماعى يتطلب قيام المرء بعملية تفاعلية فيما بينه وبين المجتمع الذى ينخرط فيه وينتمى إليه ويتفهمه .

رابعًا - إن التكيف الاجتماعى يعنى ملاحقة التغيرات التى تقع لمجتمعه بحيث يطور نفسه وفقًا لتلك التغيرات : فالمجتمع أيًا كان لا يستمر على ونيرة واحدة ولا يظل جامدًا على هيئة واحدة لا تتغير أو تتعدل أو تتبدل ، بل إنه بمثابة سلسلة من الأحداث المتلاحقة والمستمرة - كما سبق أن قلنا - وبالتالي فإنه لكي يستمر المرء فى حالة تكيف معه ، فإن عليه أن يدأب على تطوير نفسه بحيث يلاحق تلك التغيرات أو التطورات التى تقع لمجتمعه وبصفة خاصة المجتمع الفرعى الذى يركز اهتمامه فيه ويكرس نشاطه للتفاعل معه .

خامسًا - إن التكيف الاجتماعى يعنى تقييم المرء لنفسه حتى يقف على مدى نجاحه فى التكيف لمجتمعه وحتى يتسنى له تعديل مسار سلوكه ليحقق تكيفًا أفضل : وأخيرًا فإن التكيف الاجتماعى الناجح يتطلب قيام المرء بتقييم سلوكه السابق حتى يتسنى له الوقوف على مدى ما حققه من تكيف مع مجتمعه وما شاب ذلك التكيف من نقائص أو تقصيرات وما كان يمكن تحقيقه من تكيف أفضل مما تحقق بالفعل ، وبالتالي فإن المرء يعترزم سد تلك النقائص وتلافى تلك التقصيرات فى المستقبل فيقوم بالخطىبط لمستقبل يبشر بتكيف اجتماعى أفضل مما تحقق فى حياته قبلاً .

وبعد أن عرضنا لمعنى التكيف الاجتماعي وما يتضمنه من معانٍ فرعية ، فإن علينا أن نقوم بالتعرض للأسباب التي تؤدي إلى عجز الشخصية المنحرفة عن السوية عن تحقيق التكيف الاجتماعي الناجح . والأسباب هي :

أولاً - القصور الانتمائي : فالشخصية غير السوية تكون مشتتة الوجدان بين انتماءات متباينة . فهي تنتمي بعواطفها إلى مجتمعات كثيرة متفرقة ، أو حتى لقد تكون كارهة للمجتمع الذي تعيش فيه وتتعامل معه . ولقد تكون نقطة البداية في كراهية المرء لمجتمعه ممثلة في كراهية الأسرة . فالطفل الذي لا يحب والديه وأخوته لا يحس بالانتماء إلى أسرته التي تشكل أول مجتمع يحيا في رحابه . وبعد الأسرة تأتي المدرسة بجميع مسمياتها ومستوياتها . فإذا كان التلميذ أو الطالب لا يحس بالحب لمدرسته أو معهده أو كليته ، فإنه يكون كارهاً لذلك المجتمع المتمثل في المدرسة أو المعهد أو الكلية . وقل الشيء نفسه بإزاء المؤسسة أو الشركة أو الوزارة التي يعمل فيها المرء بعد خروجه إلى الحياة العملية . إنه إذا كان يحس بالكراهية للمحيطين به في العمل وللعمل نفسه الذي يضطلع به ، فإنه لا يحس بالتالي بالانتماء إلى المؤسسة أو الشركة أو الوزارة التي يعمل بها . وهكذا تشيع الكراهية من الدائرة الأضيق إلى الدائرة الأوسع إلى أن تشيع الكراهية المعتدلة في قلب المرء تجاه مجتمعه ككل وتجاه المجتمع الفرعي الذي يدير حوله مشاعره مشكلاً المحور الوجداني للانتماء الوجداني سواء كان ذلك الانتماء إيجابياً أم كان سلبياً ، أعنى سواء كان الانتماء بالحب أم بالكراهية .

ثانياً - نقص الوعي الاجتماعي : ومن أسباب عجز الشخصية غير السوية عن التكيف الاجتماعي افتقارها إلى الوعي بمجتمعها الذي تعيش فيه . وقد يرجع هذا الافتقار إلى وجود انخفاض في

القدرة العقلية أو إلى التخلف الثقافي أو إلى الانعزال عن المجتمع أو إلى الأنانية والامتناع عن التفاعل مع الناس المحيطين بالمرء ، أو لأسباب وجدانية كالتخوف وعدم الثقة بالنفس أو لغير ذلك من أسباب تعمل على قصور المرء فيما يتعلق بمعرفة المجتمع الذي يعيش في إطاره .

ثالثاً - السلبية والانسحابية : ولقد يعزى العجز عن التكيف الاجتماعي إلى ما ينصف به الشخص غير السوي من سلبية وانسحابية . فتمتد بعض الناس يشبهون الاسفنج الذي يمتص ما حوله ولكنه لا يتفاعل مع ما يقوم بامتصاصه . فالشخص السلبى هو الشخص الذي لا يحدث تفاعلات فيما بين ما يستقبله من الخارج وبين مقوماته الذاتية وما سبق له التوصل إليه نتيجة التفاعلات والخبرات السابقة . فهو لا يترك بصمته الذاتية على الواقع المحيط به . إنه كالأخطبوط الذي يفترس ما حوله ويمتص دماء المجتمع الذي يحيا في إطاره على عكس الشخصية الإيجابية التي تأخذ عن المجتمع لكي تمده بخلاصات خبرية جديدة تعمل على النهوض به والتقدم بمساره إلى الأمام وتخليصه مما ران عليه من نقائص وما لحق به من أوصاب . ولكن الشخصية السلبية الانسحابية تتربص بالمجتمع كما يتربص الوحش بالفريسة . فما يحتمل في داخلها هو الرغبة في الحصول على أكبر قدر من المكاسب دون توفير الفرص للآخرين لإحراز أى كسب . فهي تعتبر أن أى ربح يجنيه الآخرون هو خسارة لحقت بها ، وبالتالي فإنها تعجز عن التكيف للمجتمع الذي تتعامل معه وتعيش في إطاره .

رابعاً - الجمود وعدم التطور : والشخصية المنحرفة عن السوية تتصف بالجمود وعدم التطور . فبينما يستمر المجتمع من حولها في التطور وبشكل - كما سبق أن قلنا - متسارعة من الأحداث

الملاحظة ، فإننا نجد أن الشخص المنحرف عن السوية غير قادر على تطوير أفكاره أو وسائله في الحياة أو علاقاته الاجتماعية ، بل يظل على وتيرة واحدة . وحتى الخبرات التي سبق له أن اكتسبها تأخذ في الضمور والخفوت والتقلص . ذلك أن الخبرات بجميع صنوفها قابلة للبلبلى شأنها شأن كل شيء . والطبيعى أن يكون هناك دخل ومنصرف فى الخبرات . ولكن الشخصية الجامدة تفقد جانباً مما سبق لها كسبه من خبرات ، بينما هي لا تجدد فى خبراتها ولا تتفاعل خبرياً مع ما يستجد فى المجتمع من أفكار أو اتجاهات أو مهارات أو قيم . وبالتالي فإن ثمة بوناً شاسعاً ينشأ فيما بين المجتمع المتطور وبين الشخص الراكد فى مكانه لا يقبل التطور أو تجديد مقومات شخصيته المتباينة .

خامساً - عدم تقييم الذات وبالتالي عدم التخطيط للمستقبل :
فالشخصية المتخلفة عن السوية لا تعتمد إلى تقييم ما سبق أن حققته من نجاح وما تعرضت له من فشل ، بل هي تعمي عن حياتها السابقة وعن ماضيها القريب والبعيد . وطالما أنها تبقى على هذا الحال من الجهل بما حققته وبما لم تحققه ، فإنها لا تستطيع أن تخطط للمستقبل بما يضمن لها التطور وملاحقة ما فاتها من مناحى التقدم المتباينة ، وبالتالي فإنها تعجز عن تحقيق التكيف الاجتماعى لما بلغه المجتمع من مستوى تطورى . وكيف يتسنى لها ذلك وهي لا تقف على واقعها الممتد إلى ما سبق لها أن مرت به فى الماضى القريب وفى الماضى البعيد على السواء . ذلك أن حياة المرء مثل حياة المجتمع هي سلسلة متصلة الحلقات . فإذا لم ينجح المرء فى الوقوف على تلك السلسلة الشخصية وتقييمها ، فإنه بالأولى لا ينجح فى التخطيط لمستقبله حتى يتكيف لما يستجد بمجتمعه من تغيرات فى شتى مناحى الحياة التى تتصل بأفكاره وممارساته وعلاقاته الاجتماعية .

انحرافات الإرادة :

إن السلوك يتشكل كما هو معروف من ثلاث خطوات أساسية هي : الإدراك والوجدان والنزوع . والشخصية المصابة بالانحراف عن السوية يمكن أن تكون مصابة بالعطب أو بالمرض فى جانب أو أكثر من هذه الجوانب الثلاثة التى يتضمنها السلوك . فمن الممكن أن تكون مصابة بالعطب أو بالمرض فى القدرة العقلية ، أو فى الطاقة الوجدانية وفى توظيفها فى مواقف الحياة المتباينة ، أو أخيراً فى النزوع أو الإرادة . وسوف نلقى بالضوء فى هذا المقام على ما قد يصيب الإرادة من انحرافات . ولعلنا نبدأ أولاً بالمقصود بانحرافات الإرادة على النحو التالى :

أولاً - نضوب الإرادة : ونقصد به عدم توافر الطاقة الحيوية الموجهة نحو الاضطلاع بالأنشطة المتباينة . فالواقع أن الطاقة الحيوية لدى المرء تتخذ لنفسها اتجاهات أو مسارات متباينة يمكن تحديدها فى ثلاثة اتجاهات أو مسارات هي الاتجاه أو المسار العقلى ، والاتجاه أو المسار الوجدانى ، والاتجاه أو المسار النزوعى أو الإرادى . ولا يكون توزيع الطاقة الحيوية على هذه الاتجاهات أو المسارات الثلاثة بالتساوى ، بل يتفاوت التوزيع حتى لقد يكون أحدها محظوظاً فينال نصيب الأسد من تلك الطاقة الحيوية ، بينما يكون أحدها الآخر مظلوماً فى هذا الصدد فلا يكاد يحصل على الكفاف منها . فمثلاً قد لا يحظى النزوع أو الإرادة إلا بالقدر الضئيل من تلك الطاقة الحيوية ، بينما يكون العقل والوجدان قد حازا نصيبهما الوافر منها .

ثانياً - الفوران الإرادى : وعلى عكس النضوب الإرادى ، فإن ثمة حالة أخرى يمكن أن نسميها بالفوران الإرادى ، وهي الحالة التى تكون فيها الإرادة أو النزوع قد انتعشت القدر الأكبر

من الطاقة الحيوية على حساب العقل والوجدان . وفي هذه الحالة فإن الشخص المنحرف عن الجادة يكون مصاباً بالاندفاع الإرادى . فهو لا يبقى ولا ينز ويذفد فى الأنشطة المتبائنة لا بلوى على شىء ولا يكاد يجد الطاقة لديه للتبصر أو إجاله الفكر فيما يقدم عليه من أعمال ، بل إنه لا يكاد يجد لديه الطاقة الوجدانية التى يمتنى له بلورتها حول الموضوعات التى يقدم على إعمال يديه فيها أو التأثير فى مقوماتها . فالغوران الإرادى يقابله نضوب فى مجال العقل والوجدان لدى الشخص المصاب بهذا الغوران الإرادى .

ثالثاً - عدم توافر الخبرة الإرادية : فالواقع أن توافر الطاقة الحيوية للنزوع أو الإرادة لا يكفيان للنهوض بالأعمال المتبائنة . فالمرء فى حاجة إلى إلباس نزوعه أو إرادته بما يناسبها من مهارات أدائية . وقد تكون تلك المهارات الأدائية يدوية ، وقد تكون علائقية ، وقد تكون تعبيرية . وبغير الخضوع للتدريبات اللازمة لتوظيف الطاقة الحيوية النزوعية أو الإرادية ، فإن تلك الطاقة تكون بلا عمل أو قد تكون طائشة وغير هادفة وغير موظفة فى مواقف الحياة المتبائنة .

رابعاً - التدريب الخاطئ للنزوع أو الإرادة : فلقد يرتد الانحراف الإرادى إلى الأخطاء التى حدثت فى العمليات التدريبية للنزوع أو الإرادة فتأتى الممارسات والاضطلاع بالأنشطة المتبائنة منحرفة عن الأصول التى يجب مراعاتها فى الأداء . فالكثير من الانحرافات السلوكية التى يعزوها الناس إلى الإرادة هى ثمار رديئة لتدريبات خاطئة على ممارسة الأعمال وعلى توجيه السلوك وإقامة العلاقات والإتيان بالانصرفات المتبائنة . فما يكتسبه المرء من عادات سلوكية خاطئة منذ طفولته يظل فى الغالب مسيطراً على مقود حياته ، فىكون من الصعب إعادة صياغة سلوكه من جديد واكتساب عادات سلوكية جديدة .

خامساً - العجز عن التطور الإرادى : فمن المعروف - كما سبق أن أكننا - أن الحياة ليست بمثابة خط مستقيم ثابت لا يتغير مساره ، بل إن الحياة متعرجة ، بل ومتطورة ومتغيرة ، بل وأحياناً متقلبة . فإذا لم يكن المرء قد اكتسب المرونة التطورية فى إرادته بل صارت تلك الإرادة جامدة لا تقبل التطوير والتعديل ، فإنه يكون عندئذ مصاباً بالانحراف الإرادى . فعلى المرء أن يميز بين المبادئ الإطلاقيه التى تتسم بالثبات وعدم التغير أو التطور ، وبين مواقف الحياة التى يجب أن يتكيف لها أو أن يكيفها لتحقيق أهدافه . فكلما كان المرء على مستوى من القدرة بإزاء هذا التمييز بين المطلق والنسبى ، أعنى بين ما لا يقبل التعديل وبين ما يجب تعديله ، فإنه يكون أكثر قدرة على مجابهة مواقف الحياة المتبائنة . أما الشخص الذى جمعت إرادته فإنه يكون مصاباً بالانحراف النزوعى أو الإرادى .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن العوامل التى تؤدى إلى الإصابة بانحرافات الإرادة فنجد أن تلك العوامل يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً - عوامل وراثية أو بنوية : فليس من أحد ينكر خطورة الوراثة . ولكن الذى نتكره هو الذهاب إلى أن الوراثة تفضى مباشرة إلى السلوك . فنحن نؤمن أن الوراثة بمثابة خامة تخضع للتصنيع والتصييف بواسطة العوامل والمؤثرات البيئية والتربوية المتبائنة . فالمقومات الوراثة الرديئة التى تشير إلى واحد أو أكثر من الحالات التى ذكرناها قبلاً لا تتجسد فى الواقع السلوكى للمرء إلا إذا توافرت لها الفرص التى تساعد على تفاعلها مع المقومات البيئية والتربوية التى تضغط عليه من الخارج . أما بالنسبة للعوامل البنوية فإنها قد تكون عوامل وراثية ، كما أنها قد تكون عوامل

حشوية أى أنها عوامل طرأت على مسار نمو الجنين فى بطن الأم ،
كتناول دواء ضار أو الإصابة فى حادثة أو بغير ذلك من مؤثرات
فى بنية الجنين مما يودى إلى تشكيله على نحو يكون بمقتضاه
مصائباً فى إرادته بإحدى الاعوجاجات النزوعية أو الإرادية .

ثانياً - عوامل مرضية جسمية أو نفسية : ومن العوامل التى
تعمل على إصابة المرء بالانحرافات النزوعية أو الإرادية ما قد
يصيب المرء من أمراض جسمية أو نفسية متباينة . والواقع أن
الاتجاه الحديث بإزاء الأمراض التى يمكن أن تصيب الإنسان هو
الاتجاه السيكوسوماتى (Psycho-somatic) ، أى الاتجاه الذى
يجمع بين التشخيص النفسى والتشخيص الجسمى لما يتعرض
المرء للإصابة به من أمراض . ومن الأمراض التى يتناولها
المهتمون بصحة الإنسان بهذا الاتجاه السيكوسوماتى تلك الأمراض
التي تتعلق بإرادة المرء أو نزوعه وما يتوكلب معها من أعراض
متباينة عرضنا لها من قبل .

ثالثاً - عوامل موقفية أو طارئة : فمن عوامل انحراف
الإرادة عن الجادة أو ضعفها وذبولها ما يمكن أن ينشأ من مواقف
مفاجئة تعمل على توقف الإرادة عن عملها ، أو تعمل على إضعافها
بصفة مؤقتة ، أو الانحراف بها عن مقاصدها ، فيأتى المرء
بتصرفات غير التصرفات التى كان يجب أن يتخذها أو بتصرفات
تؤدى إلى نتائج لم يكن يمتنى أن تقع . ولعل أهم ما يشيع فى نفس
المرء فى تلك المواقف المفاجئة الخوف والغضب وما يصاحبهما
من انفعالات يمكن أن تكون عارمة ومؤثرة بطريقة خطيرة فى قوة
الإرادة ، أو فى عملها ، وفيما يقدم المرء على اتخاذها من مواقف ،
وما يبيده من تصرفات ، وما يقيمه أو يشجبه من علاقات .

رابعاً - عوامل بيئية أو تربية : ومن العوامل التى تؤدى إلى
الانحرافات الإرادية أو النزوعية ما يضغط على المرء من الخارج
من مؤثرات بيئية ، وما يتلقاه من تربية ، وما يتفاعل معه من
مؤثرات اجتماعية متباينة . فالواقع أن للمرء مقومين أساسيين :
مقوم ذاتى ومقوم آخر اجتماعى . وليس المقوم الاجتماعى خارج
نطاقه ، بل هو من صميم وجوده الداخلى . فنحن نحمل ظل
المجتمع بدخاننا إلى جانب ما نحمله من إثنية ذاتية . فمعنى هذا أن
هذين المقومين القائمين بدخيلة المرء فى تفاعل مستمر فيما بينهما .
ناهيك عن تفاعل المرء باعتباره الكلى بما يحيط به من مؤثرات
اجتماعية ومن مقومات تربية فيتأتى عن ذلك التفاعل صياغة
لشخصيته قد تكون جيدة وقد تكون رديئة . ومن الجوانب التى يمكن
أن تكون رديئة فى شخصية المرء الانحرافات الإرادية .

خامساً - عوامل ثقافية : فمن المعروف أن الثقافة تشتمل على
جوانب متباينة . فثمة الجانب المعرفى ، والجانب التعبيرى ،
والجانب العلائقى ، والجانب المهارى ، والجانب الوجدانى
التقييمى . ومن الخطأ أن تقتصر فى تعريف الثقافة على الجانب
المعرفى فحسب مع إهمال الجوانب الأربعة الأخرى . ولا شك أن
الشخص الذى تتسع ثقافته بإزاء الجوانب الخمسة التى تتضمنها
الثقافة ، يكون خليقاً بأن تتسع قدرته على الإقدام على التعبير
عما يعتمل بدخيلته من ثقافة بإرادة بادية للعيان . ولا شك أن
الشخص الذى تنكمش ثقافته أو تلتوى يكون محروماً بالتالى من
التعبير عن ثقافته تلك الضحلة أو الملتوية بنزوع أو بإرادة ذات
بال .

الفصل السادس

العوامل الوراثية وسوية الشخصية

تكاملية الوراثة :

بحسن بنا أن نبدأ بتحديد معنى هذا المصطلح قبل أن نستمرس إلى إلقاء الضوء على ما تتضمنه تكاملية الوراثة من جوانب وأحاء متباينة . فبالنسبة لمعنى هذا المصطلح فإن من الممكن تقديمه على النحو التالي :

أولاً - تفاعل المقومات الوراثية بعضها ببعض : فالمقومات الوراثية التي تنتقل من جيل إلى آخر أو عبر الأجيال المتعاقبة القريبة بعضها من بعض ، والبعيدة بعضها عن بعض ، لا تكون كالسلع التي تنقل من مكان لآخر والتي تظل كما هي بغير أن تطرأ عليها أى تغيرات ، بل إنها تكون فى حالة من التفاعل المستمر الذى يشبه التفاعل الكيميائى ، بمعنى أن ثمة مركبات وراثية تتأتى عن تلك التفاعلات الوراثية التي تتم بين المقومات الوراثية المتباينة . فتكاملية الوراثة بهذا المعنى التفاعلى تتبدى فى اعتماد المقومات الوراثية بعضها على بعض حتى يمتسنى لها التوصل إلى تلك المركبات الوراثية الجديدة . فليست العلاقات القائمة فيما بين المقومات الوراثية المستمدة من الأب وبين المقومات الوراثية المستمدة من الأم علاقات استاتيكية ، بل هى علاقات ديناميكية . فثمة عمليات تفاعلية مفعمة بالحوية والتعاون تحدث فيما بينها ليبلوغ أعلى مستوى من التكامل والتضافر والتبلور .

ثانياً - إن تكاملية الوراثة تتبدى فى التمرکز حول المحور البيولوجى : فعلى الرغم من أن الوراثة تمتد إلى آفاق متعددة ، فتشمل الآفاق الوجدانية والآفاق العقلية والاستعدادات السلوكية المتباينة ، فإن جميع تلك الآفاق تتخذ لها مركزاً أو محوراً واحداً تلف حوله وتنبثق منه ، هو المركز أو المحور البيولوجى . فالإرثات (genes) التي توجد على الكروموزومات بالخلايا الجرثومية لا تعدو أن تكون مقومات بيولوجية تحمل تلك المقومات الوراثية . فمن المستوى البيولوجى تنبثق المستويات الأخرى من النتائج الوراثية المتباينة .

ثالثاً - إن تكاملية الوراثة تتبدى فى تفاعل المقومات الوراثية مع المقومات البيئية : فالمقومات الوراثية لا تتبدى فى الواقع السلوكى للمرء إلا عن طريق ما يتم بينها وبين المقومات والمؤثرات البيئية من تفاعلات ، فيتأتى عن تلك التفاعلات مركبات جديدة لا هى وراثية بحتة ، ولا هى بيئية بحتة ، بل هى قوام جديد يجمع بين الموروث والمكتسب . وحتى فى الحالات التي يغلب فيها المظهر الوراثى على المظهر المكتسب من البيئة مثل لون البشرة أو العينين ، فإن أثر البيئة يكون موجوداً أيضاً وإن كان بدرجات أقل شدة وبأقل تأثيراً .

رابعاً - إن تكاملية الوراثة تتبدى فى تكاملية الوراثة النوعية التي تجعل كل نوع من أنواع الكائنات الحية متميزاً من سواه وتمتصاً بخصائصه الثفريدة : فلكأن المقومات الوراثية الخاصة بكل نوع من أنواع الكائنات الحية تتنافح عن وجودها المستقل ، فتتضافر فيما بينها لكى تظل فى حالة استقلال وتمايز ، فيظل كل نوع من أنواع الكائنات الحية عالماً قائماً بذاته وغير مختلطاً أو مندمج مع أى نوع آخر .

خامساً - إن تكاملية الوراثة تتبدى فى تنحية الجينات الضعيفة وإبداء الجينات القوية : فالجينات تشكل ما يشبه أفراد أى مجتمع من المجتمعات حيث يتغلب الأفراد الأقوياء على من هم أضعف منهم . ويكون هذا بصفة عامة لفائدة واستمرار المجتمع باقياً . فلو أن البقاء كان للضعفاء ، ما كان للمجتمع إذن أن يظل باقياً ، وكان قد حكم عليه بالضعف والوهن والذبول . كذا الحال بالنسبة للمقومات الوراثية فى قوام المرء ، بل وفى قوام أى نوع من أنواع الكائنات الحية . فالمقومات الوراثية التى تحظى بقدر أكبر من القوة والحيوية يكون لها حظ البروز والتبدى والتفاعل مع المقومات أو المؤثرات الخارجية ، بينما تظل المقومات الوراثية الضعيفة فى الظل أو قُلْ فى حالة كمون وانزواء .

وثمة فى الواقع مجموعة من الجوانب التى تتبدى فيها تكاملية الوراثة لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى :

أولاً - فى لحظة تكوين الجنين : فعندما يلتقى المنى والبويضة وتحدث عملية الإخصاب ، فإن عمليات تفاعلية حيوية تنشأ فيما بين المقومات الوراثية المستمدة من الأب عن طريق المنى وبين المقومات الوراثية المستمدة من الأم عن طريق البويضة . ومعنى هذا فى الواقع أن قواماً جديداً ينشأ تتبدى فيه الوحدة والانسجام فيما بين مقوماته الوراثية التى لا يمكن الفصل فيها بينها بحيث يتحدد ما استمد من الأب وما استمد من الأم ، بل وأكثر من هذا فإن الجنين الجديد لا يقتصر فيما يحمله من مقومات وراثية على ما استمده مباشرة من الأب والأم ، بل إنه يحمل فى قوامه سلسلة طويلة من المقومات الوراثية التى تمتد إلى أجيال بعيدة وضاربة بأطنانها إلى أبعاد زمنية مُمَعنة فى القدم حتى لقد يحمل الجنين مقومات وراثية

يرجع تاريخها إلى آلاف السنين . وقد تنجح بعض تلك المقومات الوراثية فى التسلل إلى الواقع السلوكى لهذا الجنين وقد تبلورت فيه خصائص بعض القبائل البدائية فينشأ وفق ما كانت عليه حياتهم كالميل إلى التهام لحم البشر (cannibalism) أو نحو ذلك من خصائص كانت تشكل جانباً أساسياً فى حياتهم .

ثانياً - فى مراحل العمر المتباينة : ولا يقتصر نشاط المقومات الوراثية على المرحلة الجنينية ، بل يمتد ذلك النشاط طوال حياة المرء حتى الشيخوخة . فالواقع أن الكثير من المقومات الوراثية يظل فى حالة كمون ولكنه يكون على استعداد وقابلية للتفاعل مع المقومات البيئية التى تناسبه فيتبدى للعيان فى المظاهر السلوكية للمرء . وفى أى مرحلة عمرية يمكن أن تخرج بعض المقومات الوراثية الكامنة من الطيات التى تقبع بها إلى الحيز السلوكى للمرء . ومعنى هذا أن تكاملية المقومات الوراثية مع المؤثرات البيئية مستمرة فى حياة المرء منذ ميلاده حتى الشيخوخة - إذا ما تسنى له أن يظل على قيد الحياة حتى هذه المرحلة العمرية .

ثالثاً - فى الجوانب الاتيائية من الشخصية : فمن المعروف أن الأساس الذى تبنى عليه شخصية المرء هو الأساس البيولوجى . ومن هذا الأساس تنبثق مقومات الشخصية الأخرى . وتعتبر آخر فإن المقومات الوجدانية تنبثق من المقومات البيولوجية ، والمقومات العقلية تنبثق من المقومات الوجدانية والمقومات البيولوجية ، والمقومات التعبيرية الحركية والكلامية تنبثق من المقومات الثلاثة السابقة ، والمقومات الاجتماعية تنبثق من المقومات الأربعة السابقة . والوراثة تلعب أدواراً جوهرية فى جميع هذه العمليات

الانثاقية . فما الانثاق في أى ناحية من نواحي الشخصية سوى عمليات تفاعلية فيما بين ما يحمله المرء في قوامه من مقومات وراثية وبين المؤثرات البيئية المناسبة لحدوث الانثاق - كأننا ما يكون ذلك الانثاق .

رابعاً - فيما يحمله الكائن الحي من وسائل دفاعية بجهاز المناعة : وتكاملية الوراثة تتمثل أيضاً في العمليات الدفاعية التي يضطلع بها الكائن الحي بلزاء ما يشن عليه من هجوم من داخله ومن خارجيه بواسطة الميكروبات والفيروسات . فالواقع أن المناعة ما هي سوى تآزر المقومات الوراثية في الدفاع عن الكائن الحي إذا ما تعرض للخطر نتيجة ما قد تصيبه الميكروبات والفيروسات من أمراض متباينة . وما مرض الإيدز وهو مجموعة الأعراض المكتسبة لإبطال فاعلية المناعة سوى فقدان المقومات الوراثية لتكاملتها بسبب تغلب فيروس الإيدز عليها وقهرها وإخضاعها لسلطانها . ولكن هذا المرض وغيره من أمراض هو خروج عن القاعدة التكاملية فيما بين المقومات الوراثية التي تشكل جبلة الكائن الحي الأساسية . فتكاملية المقومات الوراثية هي الركيزة الأساسية في قوام وحياة الكائن الحي إنساناً كان أم حيواناً .

خامساً - فيما يضطلع به الكائن الحي من وسائل تعويضية : فتكاملية الوراثة تتمثل بجلاء فيما يقوم به الكائن الحي من تعويض لما فقده من وظائف حيوية أو أدائية . فإذا ما فقد المرء قدرته على الإبصار ، فإن قدرته على السمع واللمس والشم والذوق تشتد وتقوى بحيث تعوضه إلى حد بعيد عما فقده من قدرة بصرية ، وكذا الحال بالنسبة للكثير من الوظائف الحيوية والانثاقية التي إذا ما أصيبت بعبط ، فإن الكائن الحي يجد ما يعوضه عما فقده بما أهل به من مقومات وراثية تنشط لكي تساعد بعض مقوماته الأخرى

على التعاون مع باقى الجسم لكي لا يتعطل نشاطه ويستمر على قيد الحياة أو يثبت وجوده في المجال النشاطى الذى يبذل فيه طاقته .

وعلى الرغم من أن تكاملية الوراثة كما عرضناها هنا هي الواقع المقروض تحققه واستمراره في قوام وحياة ونشاط الكائن الحي وبخاصة الإنسان ، فإن هناك مجموعة من العوامل التي تعطل أو تفسد هذه التكاملية التي يجب أن تتمتع بها الوراثة . ولعلنا نقوم فيما يلي باستعراض تلك العوامل :

أولاً - التخلّف الوراثى : فعلى الرغم من أن المقومات الوراثية تتصف بالتكاملية ، فإن تلك المقومات ليست موزعة بالتساوى على أفراد الناس . فبعض الناس قد اختلفوا بما يمكن أن نسميه بالثراء الوراثى ، إذ أنهم يحملون منذ تكوّنهم أجنة في بطون أمهاتهم ثروة هائلة من المقومات الوراثية المتنوعة والممتازة في مستوياتها وفي قدرتها على التفاعل مع المؤثرات المناسبة لإخراجها من مكانها إلى الواقع السلوكى الحي . وفي المقابل فإن بعض الناس لم يحظوا إلا بقدر ضئيل من المقومات الوراثية ذات القيمة الهزيلة والغثة . فحتى إذا ما تفاعلت تلك المقومات الوراثية الضئيلة والهزيلة مع ما يناسبها للخروج بها إلى الواقع السلوكى لأصحابها ، فإن ذلك لا يرتفع بهم إلى مستوى مرموق في الحياة . ومعنى هذا في الواقع أن التخلّف الوراثى يعمل على إفساد تكاملية الوراثة مع واقع الحياة الاجتماعية الذى يتطلب مستويات ممتازة وخصبة من المقومات الوراثية .

ثانياً - حوادث الحمل والولادة : ومن العوامل التي تفسد تكاملية الوراثة ، ما يمكن أن يتعرض له الأم في أثناء الحمل من حوادث كأن تصاب بضرية في بطنها تصيب الجنين أو بأن



يحدث ضغط على رأس الوليد بالجفت في حالات الولادة بالقصرية أو بأن تعطى الأم حقنة لتحمية الطلق فتضرب بالمولود ، أو إذا تم إيلاد الأم قبل الموعد المناسب لأسباب اضطرارية خاصة بصحتها أو بغير ذلك من أسباب تعمل على إفساد تكاملية وراثية المولود . ناهيك عن العقاقير التي قد تتناولها الأم الحامل فتفسد عمل ونظام المقومات الوراثية وتفقد تكامليتها .

ثالثاً - المؤثرات البيئية والتربوية الرديئة : ومما يعمل على إفساد تكاملية الوراثة فقر المؤثرات البيئية أو التربوية أو فسادها . فالبيئة الرديئة والتربية المنحرفة عن الجادة لا تسمح بتفاعل المقومات الوراثية الجيدة بحيث تجسد في قوامات سلوكية جيدة . فلكم عملت المؤثرات البيئية والتربوية الرديئة على تعطيل عمل المقومات الوراثية الجيدة وتجريدها من تكاملتها التي فطرت عليها والتي ولد بها المرء .

رابعاً - انقطاع المدد الخبري : فمما يعمل على إفساد تكاملية الوراثة ما يمكن أن يتعرض له المرء من فطبعة بينه وبين المصادر الخبرية المتباينة . فالواقع أن المقومات الوراثية بحاجة إلى شحنات مستمرة من المؤثرات البيئية الخارجية لكي تظل ذات فاعلية في حياة المرء . فكما قلنا فإن هناك كنزاً هائلاً من المقومات الوراثية مغموراً في باطن كل إنسان . فإذا لم يستمر النيار الخبري بين الخارج والداخل مستمراً ومتدفقاً ، فإن المقومات الوراثية تنبل أو تظل في حالة كمون بغير أن يكون لها أية فاعلية أو فائدة في حياة المرء . ويتعبير آخر فإنها تفقد تكاملتها الوراثية .

خامساً - الإرهاق والتهكة : ومما يفسد تكاملية الوراثة التعب الشديد وإصابة المرء بالإرهاق والتهكة أو حتى الانهيار العصبي . فما تسنى للمرء إحرازه من تكامل في سلوكه نتيجة تفاعل المقومات

الوراثية مع المقومات البيئية يمكن أن يحكم عليه بالفساد والتحلل نتيجة عدم قدرة المرء على تحمل الضغوط الشديدة التي تفرض عليه من الخارج . ولقد يتبدى فساد وتحلل المقومات السلوكية المتكاملة فيما يبدو في سلوك المرء المصاب نتيجة كثرة الضغط عليه من الخارج وإصابته بالإرهاق والتهكة من عجز عن التكيف للواقع الخارجي والتدرى في الانحطاط السلوكي المتباين المتأني عن فقدان الوراثة لتكاملتها وعجزها عن تحقيق ما كان يجب أن تضطلع به من تفاعلات ناجحة مع المقومات البيئية المتوافرة حولها بالمجتمع الذي توجد به .

سادساً - الانحرافات الأخلاقية : ومما يعمل على فساد تكاملية الوراثة ما يمكن أن ينحرف إليه المرء من قيم أخلاقية فاسدة ومن ضرب في ألوان سلوكية بعيدة عن مجرى المقومات الوراثية الممتازة التي حملها في جبلته . فالكثير من المجرمين ومن الفاسدين أخلاقياً والمنحطين اجتماعياً يحملون في حقيقة أمرهم مقومات وراثية ممتازة ولكنهم عملوا في إفسادها بما انصرفوا إليه بإرادتهم فهبطوا إلى مهاوى الرذيلة . وبالتالي فإنهم فقدوا تكاملية الوراثة التي كانت مكفولة لهم وكانت من صميم جبلتهم الشخصية . فكما أن دخيلة المرء تؤثر في خارجيته ، كذا فإن خارجية المرء تؤثر في دخيلته .

تورث الاستعدادات :

علينا أن نبدأ أولاً بتبيان المقصود بتورث الاستعدادات . إننا نجد أن ثمة عدة معان لهذا النوع من التورث لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالي :

أولاً - إن تورث الاستعدادات يتضمن اعترافاً بأن الأجيال المتعاقبة تؤثر بعضها في بعض : فما حمله أحد الأجيال من

مقومات متباينة يمكن أن ينتقل جانب منه إلى الجيل التالي أو الأجيال التالية . وهذا يعنى أن ثمة استمرارية قائمة بين الأجيال وأن اندثار أحد الأجيال بالموت لا يعنى فناءه ، وذلك لأن قبساً منه يظل حياً ومعملاً فيما يتلوه من أجيال . أضف إلى هذا أن تأثير الأجيال بعضها فى بعض مع تتاليها لا يكون بالعلاقات الاجتماعية فيما بينها ، أو عن طريق ما يُخلفه كل منها من تراث مكتوب أو منقوش فحسب ، بل وأيضاً عن طريق استمرار الجبله البيولوجية بما تحمله من مقومات وراثية إلى ما يتلوه من أجيال .

ثانياً - إن توريث الاستعدادات لا يتم اختيارياً ، بل يتم جبرياً أو حتمياً : فالجيل التالي لا يقوم بانقضاء ما يرثه من مقومات وراثية من الجيل السابق عليه ، بل يتم نقل تلك المقومات بشكل تلقائى وجبرى حتمى . ومعنى هذا أن الحرية منتفية فيما يتعلق بانتقال المقومات الوراثية عبر الأجيال المتعاقبة . ولكن ذلك الانتقال لا يتم اعتباراً ، بل يخضع لقوانين تعرف بقوانين الوراثة ، ولكنها قوانين حتمية وإن كانت هندسة الوراثة قد أخذت فى تحطيم تلك الحتمية والجبرية ، بمعنى أن مقود القيادة سوف يسلم إلى أيدي علماء الوراثة الذين سوف يكونون مهيمين على مسار الإرثات فيختارون منها ما يشاءون ويدعون منها ما لا يجدونه مناسباً أو مفيداً أو خليفاً بانتقاله إلى الأجيال التالية .

ثالثاً - إن توريث الاستعدادات لا يعنى بزوغها على سطح الواقع ، بل يعنى فقط انتقالها فى حالة كمن إلى الجيل أو الأجيال التالية : فالنورث لا ينتقل من جيل إلى آخر فى شكله السلوكى البادى للعيان . فالكثير من الاستعدادات الموروثة يظل مخبوءاً ولا يتجسد فى واقع ولا يستحيل إلى خصيصه من خصائص الشخصية أو سمة من سماتها . فلقد يرث أحد الأشخاص

استعداداً لأن يكون من كبار المشغولين بالعلوم الرياضية ، ولكن ظروفه الاجتماعية لا تتيح له فرصة الالتحاق بالمدارس وتعلم الرياضيات ، وبالتالي فإن استعداده للتفوق فى الرياضيات يظل كامناً فيه لا يرى نور الواقع .

رابعاً - إن توريث الاستعدادات لا يعنى توريث الاستعدادات الجيدة فحسب ، بل يعنى أيضاً توريث الاستعدادات الرديئة : فمن الخطأ أن نذهب إلى الاعتقاد بأن المرء لا يرث سوى الاستعدادات للخير والنفع فحسب ، بل إنه يرث أيضاً الاستعدادات للشر والضرر . ولعلنا لا نخطئ إذا ما زعمنا أن القابلية لتوريث الاستعدادات الرديئة تتغلب على القابلية لتوريث الاستعدادات الجيدة . ولعل أن يكون السبب فى ذلك هو وجود عوامل مساعدة كثيرة وفعالة فى نقل الاستعدادات الوراثية الرديئة عبر الأجيال المتعاقبة ، وعدم وجود عوامل مساعدة وفعالة فى نقل الاستعدادات الجيدة . فلم نسمع عن ميكروبات أو فيروسات تنقل العبقرية من جيل إلى جيل تال ، ولكننا نعلم أن الميكروبات والفيروسات تنقل الكثير من الاستعدادات الوراثية الرديئة من الآباء والأمهات والأجداد والجدات إلى الأبناء والأحفاد .

خامساً - إن توريث الاستعدادات يضمن استمرار أنواع الكائنات الحية بحدود فاصلة فيما بين كل منها وسواه : فلو لم يكن هناك توريث للاستعدادات لكانت الأجيال التالية تختلط بعضها ببعض وتعم الفوضى الوجود . ولكن بفضل ذلك التوريث المقتن ، فإن كل نوع يحتفظ بقوامه المستقل عن غيره من أنواع . وحتى بالنسبة لأنواع الكائنات الحية التى يوجد بينها أوجه شبه كثيرة ، فإن ما يرثه كل منها من استعدادات وراثية يقيم الحد الفاصل فيما بينها بحيث لا تختلط بعضها ببعض ولا تصبح هوية كل منها التى يختص بها نوعه .

وعلينا بعد هذا أن نعرض للعلاقة القائمة بين توريث الاستعدادات وبين سوية الشخصية . إننا نجد أن هذه العلاقة يمكن أن نتحدد على النحو التالي .

أولاً - إن الاستعدادات الوراثية الرديئة لا تثمر شخصية سوية : فكما أن البذرة التي لا تحمل مقومات وراثية جيدة لا تستحيل إلى شجرة جيدة إذا تم زرعها وسقيها والعناية بها ، كذا فإن الشخص الذي ورث استعدادات رديئة عن أسلافه لا يتسنى تشكيل شخصيته على نحو سوي . والمسألة نسبية في الواقع . فليس من إنسان وجد أو سيوجد إلا ويحمل في قوامه بعض الاستعدادات الوراثية الرديئة ، لكن بعض الناس لا يحملون سوى القليل من تلك الاستعدادات الرديئة بحيث يكون من الممكن الإغضاء عنها . ناهيك عن أن بعض الاستعدادات الوراثية الرديئة يظل في حالة كمون فلا يتجسد سلوكاً واقعياً في حياة المرء وذلك بفضل ما تضطلع به التربية والمؤثرات البيئية الجيدة التي تعمل على انزواء تلك الاستعدادات الرديئة وعدم طّفوها على سطح السلوك البادئ للعيان الذي يصدر عن المرء . ولكن هل يتسنى للتربية والمؤثرات البيئية أن تتغلب على جميع الاستعدادات الوراثية الرديئة ؟ الإجابة بالنفي . فالتربية والمؤثرات البيئية الجيدة لا تفعل المعجزات . فتمّة حدود تقف عندها لا تتعداها وطاقة لا تستطيع أن تتخطاها . من هنا فإن الاستعدادات الرديئة الموروثة إذا كانت كثيرة وقوية وتمس صلب الشخصية وجورها ، فإن التربية والمؤثرات البيئية الجيدة تقفان مكتوفتي الأيدي حيالها . وبذا فإن ما تكون الشخصية قد ورثته من مقومات وراثية رديئة يقف عقبة كأداء أمام تمتعها بالسوية .

ثانياً - إن المقومات الوراثية الجيدة لا تفضى بالضرورة إلى تنشئة شخصية سوية : فمن الخطأ أن نعتقد أن مجرد توافر مقومات وراثية جيدة لدى المرء ، فإن ذلك يكفل بالتأكيد تنشئته على نحو جيد . فبينما نجد أن المقومات الرديئة تحول دون توافر السوية للمرء ، فإننا نجد من جهة أخرى أن توافر المقومات الوراثية الجيدة لا يكون كفيلاً بأن يشب المرء على نحو سوي . فالشخص الذي ورث مقومات جيدة تتعلق بالنمو السوي والصحة الجيدة ، قد يصاب بالأمراض التي تعوق مسار نموه وتحط من مستوى صحته . والشخص الذي تلقى عن أسلافه استعدادات وراثية جيدة فيما يتعلق بقواه العقلية وصحته النفسية ، قد تؤثر ظروف الحياة الرديئة في فساد قواه العقلية وتعمل على إصابته بالأمراض النفسية المتبانية . وقل الشيء نفسه بإزاء أنواع السلوك المتبانية التي يمكن أن تنلوث بالمؤثرات التربوية والبيئية الرديئة . ذلك أن الجيد من المقومات الوراثية يفسد إذا ما صوتت إليه سهام الشر أو حتى إذا حرمت تلك المقومات الوراثية الجيدة من الشروط اللازم توافرها لبزوغها وتوظيفها في مواقف الحياة المتبانية .

ثالثاً - إن المقومات الوراثية الجيدة والرديئة تتباين من حيث مدى نشاطها وقوة فاعليتها : فلقد يحمل المرء مقومات وراثية جيدة أو رديئة ولكنها لا تكون جميعاً على نفس المستوى من النشاط والفاعلية . وينبدي نشاط وفاعلية المقومات الوراثية في مدى قدرتها على التجسد في سلوك واقعي في حياة المرء . ولكن يجب أن نتذكر دائماً أن عدم توافر الظروف الملائمة لبزوغ واعمثال المقومات الوراثية - كائنتها ما تكون تلك المقومات - يبطل مفعولها سواء كانت جيدة أم رديئة . ولكن قد تكون الظروف

والمواقف الحياتية للمراء ملائمة لتفاعل وبزوغ ما لديه من استعدادات وراثية إلى حيز الواقع السلوكي ، ولكن تلك الاستعدادات تكون من الضعف بحيث لا يتسنى لها أن تتجسد في ذلك الواقع السلوكي ، بل تظل على حالها من الخفوت والضمور والكمون . ويتعبير آخر فإن ما يحمله المراء في جنباته من مقومات وراثية جيدة وريثة متباين من حيث مدى القدرة على التفاعل مع مواقف الحياة وبالتالي بزوغه إلى النور . فلا يتبدى في حياة المراء سوى تلك الاستعدادات التي استطاعت أن تتفاعل وتصير سلوكاً واقعياً ، بينما تظل الاستعدادات الوراثية الضعيفة أو الخافتة مخفية وكأنها غير موجودة على الإطلاق . وهذا من حظ الغالبية العظمى من الناس لأن الكثير مما يحملونه من استعدادات وراثية إجرامية وعدوانية وخبيثة يكون ضعيفاً بحيث لا يتسنى له الخروج من مكانه إلى أرض الواقع السلوكي في المجتمع الذي يعيشون في إطاره ويتعاملون مع أبنائه .

رابعاً - إن تجسد المقومات الوراثية في الواقع السلوكي للمراء قد يكون نفسياً فحسب كما أنه قد يكون نفسياً وأخلاقياً معاً ؛ ويتعبير آخر فإن السوية التي ننوطها بأحد الأشخاص قد تتقرر في ضوء ما يدور بينهم وبين أنفسهم فحسب دون أن يتخذ ما يدور في نطاقهم الداخلي دوراً سلوكياً خارجياً باديئاً للعيان ، كما أن السوية التي ننوطها بأحد الناس قد تتقرر في ضوء ما يصدر عنهم من ألوان سلوكية ، ومن تصرفات ومن علاقات يقيمونها مع غيرهم من أشخاص ، وأخرى يعمدون إلى تقويض أركانها والقضاء عليها . ومعنى هذا أن المقومات الوراثية التي يحملها المراء بين جنباته يمكن أن تتبلور وتتجسد سيكولوجياً فحسب ، كما يمكن أن تتبلور وتتجسد سيكولوجياً وأخلاقياً أيضاً .

خامساً - إن بزوغ الاستعدادات الموروثة إلى حيز الواقع السلوكي أو ضمورها وخفوتها لا ينحصر في نطاق لحظة عمرية معينة ؛ ونقصد بهذا أن المقومات الوراثية الكامنة يمكن أن تنشط في أية لحظة عمرية وتتلبس سلوكياً في الواقع الحياتي للمراء . وفي المقابل فإن بعضاً من المقومات الوراثية التي كانت نشيطة خلال فترة طويلة أو قصيرة من حياة المراء يمكن أن تضمّر وتخفت شدتها أو حتى لقد تنزوى بعيداً في جبلة المراء ، ولا يكون لها أي صدى في سلوكه وفي علاقاته الاجتماعية ، وفيما يضطلع به من أنشطة . ومعنى هذا في الواقع أن المقومات الوراثية تستمر في حركة دينامية دائية لا تتوقف . فمنها الكامن الذي يخرج إلى حيز الواقع ، ومنها ما يكون في حيز الواقع ثم ينزوى إلى نطاق الكمون . ولكن هل هناك محطات عمرية يتم فيها خروج المقومات الوراثية إلى حيز الواقع أو انزواؤها إلى نطاق الكمون ؟ من المؤكد أن ليس هناك مثل تلك المحطات العمرية ، بل إن المراء معرض للارتفاع وللهبوط بإزاء استثمار ما جبل عليه من مقومات وراثية متباينة . ونقصد بالارتفاع استثمار المقومات الوراثية الجيدة ، ونقصد بالهبوط سيطرة وهيمنة المقومات الوراثية الرديئة على ما يصدر عنه من تصرفات ومواقف وعلاقات . ونقصد أيضاً بالارتفاع والهبوط ما يبدو من نشاط وخفوت في حركة المقومات الوراثية نحو البزوغ إلى حيز الواقع عموماً سواء كانت مقومات وراثية جيدة أم مقومات وراثية رديئة .

التفسير التفاعلي للوراثة :

إننا نستطيع أن ننظر إلى هذا التفسير التفاعلي للوراثة من عدة زوايا لعلنا نختار من بينها ما يأتي :
أولاً - التفاعلات التي تحدث بين المقومات الوراثية والمقومات البيئية : فثمة تفاعلات تراكبية تحدث بين أجزء مستوى

تراكبي توصلت إليه التفاعلات السابقة ، سواء بين المقومات الوراثية والمقومات البيئية ، أم فيما بين المركب الذي تأتي نتيجة تلك التفاعلات وبين المؤثرات البيئية الجديدة . فسلسلة التفاعلات الخيرية متصلة ومستمرة ولكن كل تفاعل جديد لا يتم بدءاً من المقومات الوراثية ، بل يتم فيما بين آخر مستوى تركيبى تم التوصل إليه عبر سلسلة التفاعلات السابقة وبين المؤثرات البيئية الجديدة .

ثانياً - إن الحصائل التراكيبية التى تتأتى عن تلك السلاسل من التفاعلات التى تتم فيما بين المقومات الوراثية والمقومات البيئية تشكل بدورها نقط انطلاق وراثية جديدة : فمن الخطأ فى الواقع أن نقيم حاجزاً فيما بين الموروث والمكتسب . ذلك أن المكتسب لا يضاف إلى الموروث ، بل يتفاعل معه ويتأتى عن ذلك التفاعل مركبات جديدة . وهذه المركبات ذات الخصائص الجديدة تشكل نقط انطلاق أو ركائز وراثية جديدة . ولكن من الخطأ أن نزع أن من يتعلم فنّاً من الفنون يصير ما تعلمه من المقومات الوراثية ، ولكن من الصواب أن نقول إن استعداده الموروث لتعلم ذلك الفن قد صار بعد تعلمه والتمكن منه أقوى مما كان عليه ، وبالتالي فإن ذلك الاستعداد الوراثى الذى صار أقوى من ذى قبل يشكل مقوماً وراثياً على درجة أكبر من القوة ، فيمكن أن ينتقل إلى الجيل التالى أو إلى جيل لاحق فيما بعد على نحو أقوى مما كان عليه حاله فى الأجيال السابقة . وهذا يفسر أيضاً ما نلاحظه من ارتفاع مستويات الاستعدادات المتباينة فى الأجيال التالية عنها بالأجيال السابقة . وهذا يفسر أيضاً ما يحرزه الإنسان من تقدم عبر الأجيال المتعاقبة . فلا يمكن عزو ذلك التقدم إلى العوامل التكنولوجية وحدها ، بل يجب عزوه أيضاً إلى ما أحرزته المقومات الموروثة من قوة وفاعلية بفضل التفاعلات فيما بينها

وبين المقومات البيئية مما ينتهى بها إلى مركبات جديدة تجمع فى نطاقها المقومات الموروثة وخلاصات الخبرات الخارجية من حيث جوهرها لا من حيث مظهرها وثمارها الخارجية .

ثالثاً - إن المقومات الوراثية عبر الأجيال المتعاقبة ليست مقومات استاتيكية : فالواقع إن الإرثات التى لا يمكن حصرها والتى توالى فى النزول من الأسلاف إلى الأجيال المتعاقبة لم تهبط إليها على حالها ، بل إنها ظلت فى حالة من التفاعلات المستمرة فيما بينها كما قلنا ، فلم تعد كما كانت عليه وقت نزولها من جيل سابق إلى جيل لاحق ، بل استحالت إلى قوامات وراثية جديدة . ولعل أن يكون هذا هو العامل الرئيسى فيما يحدث من تطورات حيوية وما يمكن أن يفسر فى ضوءه ما يتم من تطور حيوى اهتم بمدارسه علماء التطور الحيوى .

رابعاً - وعلينا ألا ننسى ما يمكن أن تضطلع به هندسة الوراثة فى هذا المضمار : صحيح إن هندسة الوراثة تكنولوجيا حيوية جديدة ، بيد أنها تتقدم بشكل مذهل بحيث يتوقع لها أن تتدخل فى عمليات توريث الاستعدادات ، بل وفى العمليات المتعلقة بالتفاعلات الوراثية . وليس من العجيب أن نقول إن تلاحم المنى مع البويضة هو مجموعة كبيرة من التفاعلات الحيوية فيما بين المقومات الوراثية عند الأب وبين المقومات الوراثية عند الأم . فما دام هذا هو الحال ، أفلا نستطيع أن نزع أن هندسة الوراثة بما تتذرع به من فنون سوف تتحكم فى مسار التفاعلات الحيوية بين المقومات الوراثية المتباينة سواء كانت واردة من الأب ، أم كانت واردة من الأم ؟

خامساً - هندسة الوراثة ستكون مسنولة عن التفاعلات الوراثة فى أى مرحلة عمرية : على أن هندسة الوراثة سوف

لا تقتصر في جهودها على نقطة بداية انطلاق الكائن الحي ، أعلى لحظة تكوُّنه فحسب ، بل إنها سوف تمتد بنفوذها إلى جميع الأعمار ، بمعنى أنها سوف تسيطر على مسيرة التفاعلات الوراثية سواء كان المرء جنيناً أم طفلاً أم مراهقاً أم شاباً أم كهلاً أم شيخاً .
وتعتبر آخر فإن هندسة الوراثة سوف تحدد الأهداف كما سوف تحدد المؤثرات الخارجية التي تريد لها أن تتفاعل مع المقومات الوراثية أو أن تتفاعل مع المركبات السابقة التي تكونت فيما بين المقومات الوراثية والمؤثرات الخارجية السابقة ، كما تكون على بيئة بالنتائج التي سوف تتأتى عن تلك التفاعلات ، سواء كانت تلك النتائج المرجوة علاجية أم تصحيحية أم كانت بغرض إجراء تجارب علمية لتأكيد صحة فروض معينة أو لتأكيد بطلانها .

وعلينا بعد هذا أن نقوم بإلقاء الضوء على العلاقة بين التفاعلات التي تتم في نطاق المقومات الوراثية وبين سوية الشخصية . إننا نستطيع تحديد هذه العلاقة على النحو التالي :

أولاً - إن سوية الشخصية أو خروجها عن نطاق السوية
يحددان في ضوء الحصيلة المتأتبة نتيجة سلسلة التفاعلات التي تتم بين المقومات الوراثية وبين المؤثرات البيئية ، أو بين ما انتهى إليه الكائن الحي من مركبات خبرية وبين المؤثرات الخبرية الجديدة : فبالنسبة للشخص المتخلف عقلياً مثلاً ، فإن ما نزل إليه من مقومات وراثية لم يكن يسمح له بأن يتفاعل بنجاح مع المؤثرات البيئية التي تحيط به أو مع ما يراد له أن يكتسبه من معارف أو مهارات حركية أو اجتماعية ، أو ما يرغب الكبار حوله حمله على الأخذ به من مواقف وعلاقات اجتماعية شأنه شأن الأسوياء من أقرانه . وحتى بالنسبة للمركبات الخبرية التي تتأتى له بتفاعل مقوماته الوراثية مع المؤثرات البيئية المحيطة به ، فإنها

تكون مركبات خبرية غثة ولا ترتفع إلى المستوى الذي يسمح لها بأن تتفاعل مع مستويات أرقى من المؤثرات البيئية الجديدة ذات المستوى المرتفع نسبياً .

ثانياً - إن سوية الشخصية تعتمد على تكامل التفاعلات
الخبرية بين المقومات الوراثية وبين المؤثرات البيئية :
فالتفاعلات الخبرية التي تتم بين المقومات الوراثية وبين المؤثرات البيئية ليست من نوع واحد ، بل هي من أنواع متباينة كثيرة . ولكي تكون الشخصية سوية ، فإن من المحتم أن تتم التفاعلات الخبرية المتباينة والعديدة في توازٍ دقيق فيما بينها بحيث لا يشذ أحدها عن سواه . وبهذا المفهوم فإننا نستطيع أن نقول إن العبارة التي يتفوقون في بعض الجوانب من شخصياتهم بينما يتخلفون في جوانب أخرى ليسوا من الأسوياء ، بل هم شخصيات خارجة عن نطاق السوية . (انظر كتاب « العبقرية والجنون » للمؤلف)
والأحرى أن نقول إن المتخلف عقلياً هو أيضاً خارج عن نطاق السوية (انظر كتاب « تربية الموهوب والمتخلف » ترجمة المؤلف) .

ثالثاً - إن سوية الشخصية تعتمد على استمرارية التفاعلات
الخبرية بين المقومات الوراثية وبين المؤثرات البيئية : فمن الحقائق التي يجب ألا تعزب عن بالنا أن حياة المرء من جهة ، والعالم المحيط به من جهة أخرى - سواء كان عالم الأشياء المحسوسة أم عالم الرموز - عبارة عن سلسلة متصلة ومستمرة من الأحداث . ومعنى هذا أن ثمة تفاعلات مستمرة تقع في دخيلة المرء من جهة ، و ثمة تفاعلات مستمرة أخرى تحدث في عالم الواقع المحسوس وعالم الرموز من جهة أخرى . ولكن التفاعلات التي تقع في دخيلة المرء ليست في عزلة عن تلك التفاعلات التي

تقع في الخارج بعالم الأشياء المحسوسة وعالم الرموز ، بل إن ثمة تفاعلات مستمرة ودائبة تتم بين دخيلة المرء وخارجيته . ويتعير آخر فإن التفاعلات التي تتم فيما بين الموروث والمكتسب ، أو بين المركبات التي تأتت للمرء نتيجة تلك التفاعلات وبين المؤثرات الجديدة التي تضغط عليه من الواقع الخارجي المحسوس والرمزي هي التي تحدد مدى سويته في ضوء ما يترتب عليها من نتائج سلوكية متباينة .

رابعاً - إن للمرء دوراً إيجابياً في تسيير دفة تفاعلاته الخبرية فيما بين مقوماته الوراثية وبين المؤثرات البيئية : فمن الخطأ أن نتناول الإنسان كما نتناول أية ظاهرة طبيعية أو حتى أي كائن حي آخر لا ينطلق إلى المستقبل أو لا يخطط لحياته القادمة . فالواقع أن الإنسان كائن فريد يهيمن على واقعه ويحدد مسار مستقبله في ضوء وقوفه على ما مر في ماضيه من أحداث وما يمر في حاضره من مواقف . فهو كائن مستقبلي النظرة ومستقبلي التخطيط لما سوف يتجه إليه في مستقبله من غايات وما سوف يستهدفه من أهداف . ومن هنا فإن بمقدور الإنسان أن يقف على الكثير من المطور في بحيلته من إمكانيات موروثه لم تستثمر بعد ، وذلك في ضوء ما يحس به من ميول . فمن حسن حظ الإنسان أنه يحس باستعداداته الوراثية بواسطة ما يحسه من ميول . فهو يترجم عن تلك الميول بأن يستثمر ما تخبئه خلفها من مقومات وراثية . ثم إنه يستطيع أن يتصفحها ثم له التوصل إليه من مركبات خبرية نتيجة تفاعل جانب من مقوماته الوراثية مع المؤثرات البيئية المناسبة لها ، وبالتالي فإنه يستطيع أن يحدد أهدافه المستقبلية وأن يخطط لتحقيقها .

خامساً - توافر وسائل التفاعلات الخبرية بين المقومات الوراثية وبين المؤثرات البيئية : أخيراً فإن بمقدور الإنسان أن يوظف الوسائل المناسبة لاستثمار مقوماته الوراثية وأن يستخرج المخبوء لديه من تلك المقومات بما يتوافر له من وسائل وفنون وتكنولوجيات . ومن حسن الحظ أننا نعيش عصر هندسة الوراثة التي سوف تتيح للإنسان الفرص للسيطرة على مسارات التفاعلات الخبرية بين استعداداته الوراثية وبين المؤثرات البيئية المتباينة . ناهيك عن فنون وتقنيات علم النفس والطب النفسي التي يتسنى بواسطتها تعديل السلوك أو إصلاح ما اعوج منه ، بل وتحويل مسارات التفاعلات الخبرية التي انحرفت عن الجادة وتوجيهها وجهات سديدة وسوية . وبذا ينخلص الإنسان من الكثير من الانحرافات السلوكية التي حدثت نتيجة التفاعلات المنحرفة أو غير السديدة بين الموروث لديه وبين المؤثرات البيئية المتباينة بدءاً بالمؤثرات البيئية الحشوية إلى آخر بيئة طبيعية واجتماعية ينخرط فيها .

تأخر البزوغ الوراثي :

علينا أن نبدأ أولاً بإلقاء الضوء على ما يتضمنه تأخر البزوغ الوراثي من معان ، فنجد أن هذه المعاني يمكن أن تتحدد على النحو التالي :

أولاً - تخلف المرء في نموه عن أترابه : فمن الحقائق التي يجب ألا تعزب عن البال أن النمو لا يعدو أن يكون انبثاقاً من دخيلة الكائن الحي نتيجة ما يحدث من تفاعلات فيما بين المقومات الوراثية والمؤثرات البيئية المتباينة . فإذا ما لاحظنا أن أحد الأشخاص لم يصل في مستوى نموه إلى المستوى الذي بلغه غالبية أترابه ، فإن ذلك يكون شاهداً على تخلف مقوماته الوراثية عن القيام

بالتفاعلات المناسبة مع المؤثرات البيئية المحيطة بها ، إما بسبب نقصها أم عدم كفاءتها لإتمام التفاعل ، وإما بسبب نقص أو عدم توافر المؤثرات البيئية الملائمة لإحداث التفاعلات المناسبة فيما بين المقومات الوراثية وبين المقومات البيئية المتوافرة لدى الكائن الحي .

ثانياً - عدم توافر التوازن النمائي : ففي بعض الحالات تكون هناك مفارقات ظاهرة للعيان بين جوانب النمو المتباينة . فإذا نحن انفطنا على أن هناك خمسة أنواع من النمو هي :

النمو الجسمي ، والنمو الوجداني ، والنمو العقلي ، والنمو اللغوي التعبيري ، والنمو الاجتماعي .

فإننا نجد أن بعض الأشخاص لا يكون النمو لديهم في هذه القطاعات الخمسة متلائماً بعضه مع بعض ، أو متسقاً بعضه مع بعض . فنجد مثلاً أن النمو الجسمي يبادى التخلف عن النمو الوجداني ، أو عن النمو العقلي ، أو عن النمو اللغوي ، أو عن النمو الاجتماعي . وقل الشيء نفسه بإزاء تخلف أى قطاع من القطاعات الأربعة الأخرى عن واحد أو أكثر من القطاعات الأخرى . على أن التخلف النمائي فى قطاع أو أكثر من هذه القطاعات الخمسة لا يعنى إمتناع البروغ النمائي طوال المراحل النمائية التالية . فالواقع أن تأخر البروغ النمائي قد يكون تأخراً مؤقتاً ، كما أنه قد يكون تخلفاً مستمراً عن مستوى النمو المفروض ، فيظل المرء فى حالة تخلف نمائي فى ذلك القطاع الذى تأخر البروغ النمائي فيه .

ثالثاً - قد يكون تأخر البروغ النمائي فى بنية أو وظيفة من وظائف أحد القطاعات النمائية الخمسة التى ذكرناها فى البند السابق : فمثلاً قد لا يستمر إحدى اليدين أو إحدى الرجلين فى النمو ، بل تتخلف عن المستوى النمائي الذى يقبض لباقي الجسم ،

فيكون للشباب أو الكهل أو الشيخ يد أو رجل لم تزد فيما حظيت به من نمو عما تحظى به يد أو رجل طفل فى الثالثة من عمره ، ولقد تتخلف الأعضاء التناسلية عند الولد أو عند البنت عن النمو عما يقبض لباقي الجسم فيشب الولد مراهقاً وشاباً وكهلاً وشيخاً ، بينما لا يكون له سوى أعضاء تناسلية لطفل صغير . وكذا بالنسبة للبنت التى لم يتحقق لها النمو السوى فى أعضائها التناسلية فنتمو مراهقة ثم شابة ثم كهلة ثم شيخية ، بينما لا تكون لها أعضاء تناسلية تتناسب مع المراحل العمرية التى بلغتتها . وما يقال عن البنات والوظائف الجسمية ينسحب أيضاً بإزاء بنيات ووظائف القطاعات الأربعة الأخرى من قطاعات شخصية المرء ، أعنى القطاع الوجداني ، والقطاع العقلي ، والقطاع اللغوي التعبيري ، والقطاع الاجتماعي .

رابعاً - تخلف الاستعداد الوراثي عن اكتساب المهارات المناسبة له : فمن الحقائق التى يجب التأكيد عليها أن المهارات الحركية والعلائقية التى يمكن أن يكتسبها الإنسان أو بعض الحيوانات ، إنما هى فى الواقع مقومات موروثية فى جيلة الإنسان أو فى جيلة تلك الحيوانات التى بمقدورها اكتسابها . فهى إذن موجودة بالقوة ولكنها ليست موجودة بالفعل . فلكى يتسنى لها أن تنتقل من مجال القوة إلى مجال الفعل فلا بد من حملها على التفاعل مع المؤثرات أو التدريبات المناسبة لإخراجها من مكانها الموروثية إلى الواقع السلوكي للمرء أو للحيوان . فإذا لم يخطر المرء أو الحيوان فى المجال النشاطي التدريبي الخاص بتلك المهارات الحركية أو العلائقية ، فإنه يكون بالتالى قد حكم على ما لديه من مقومات وراثية تتعلق بها بأن تظل حبيسة نطاقه الداخلى ، ويكون تأخرها عن البروغ إلى عالم الواقع السلوكي مستمراً نوقت بصر

أو يطول ، أو حتى لقد تنتهي حياة المرء دون استثمار تلك المقومات الوراثية فيكون تأخرها عن البرزوغ مؤبداً .

خامساً - قد يأتي بعد تأخر البرزوغ الوراثي طفرات نمائية تعويضية : ففي بعض الحالات يكون تأخر البرزوغ النمائي مؤقتاً لسبب أو آخر . ولكن ما يفنأ الكائن الحي يقوم بالتعويض عما فاته من نمو في القطاع من شخصيته الذي تخلف عن النمو السوي . فمثلاً تجد طفلاً في الثامنة لا يزيد طوله عن طول طفل في الخامسة . ولكنك تجد ذلك الطفل نفسه بعد انخراطه في المراقبة وقد أخذ طوله يقفز بنسب سريعة وكبيرة بحيث يصير طوله وقد بلغ الثامنة عشرة كطول أترابه الذين يعتبرون من الفارعين في الطول . وما يقال عن الطول ينسحب بإزاء باقي الجوانب الجسمية ، بل وإزاء القطاعات الأربعة الأخرى من شخصية المرء ، أعنى القطاع الوجداني ، والقطاع العقلي ، والقطاع اللغوي التعبيري ، والقطاع العلائقي الاجتماعي .

ولعلنا نتناول بعد هذا العوامل التي تؤدي إلى تأخر بزوغ المقومات الوراثية أو تعطيل تفاعلها مع المؤثرات البيئية المتباينة على النحو التالي :

أولاً - البرمجة الموروثة : فثمة ما يمكن أن نسميه بالبرمجة الموروثة . فلنأخذ الخطة النمائية التي سوف ينفذها الكائن الحي عبر مراحل نموه - إنساناً كان أم حيواناً أم حتى نباتاً - تتحدد قبلياً منذ اللحظة الأولى لتكونه . فهو لا يخرج عن الخط النمائي الذي حدد له في جميع القطاعات النمائية المتاحة له . بيد أن هندسة الوراثة قد أخذت تشكك في هذا المفهوم القبلي الجبري أو الحتمي . ذلك أن ما تأخذ به هندسة الوراثة نفسها وفنونها هو الانقضاء على هيمنة وجبروت الوراثة والتدخل بما يمكن أن نسميه بالاكْتساب

الوراثي ، بمعنى أن الاكْتساب - وهو المفهوم المناهض للوراثة - قد أخذ في اقتحام مملكة الوراثة وزعزعة مكانتها ، وذلك بخلط المكتسب بالموروث لكي ينشأ عن اختلاطهما مركب جديد لا هو بوراثة ولا هو باكْتساب ، وذلك لأن ما يقمحه الاكْتساب في هذه الحالة هو تعديل في صميم المجرى الوراثي . ولكن على أية حال فإن البرمجة الموروثة - سواء كانت برمجة طبيعية أم برمجة تتدخل فيها هندسة الوراثة - فإنها بمثابة خطة قبلية سوف ينفذها الكائن الحي عبر مراحل عمره المتعاقبة . فإذا كانت تلك البرمجة - كائنة ما تكون - متضمنة تأخر البرزوغ الوراثي لقطاع أو جانب أو وظيفة من قطاعات أو جوانب أو وظائف نمو أو نشاط الكائن الحي ، فإن المحصلة النمائية عن ذلك هي تخلف الكائن الحي عن أترابه من نوعه .

ثانياً - العوامل البيئية والتربوية : فمن المؤكد أن تخلف المؤثرات البيئية التلقائية أو المقصودة عن طريق التربية - سواء كانت تربية أسرية أم تربية مدرسية أم تربية في مجالات العمل المتباينة - عن نهوضها بالتفاعلات المناسبة والفعالة مع المقومات الوراثية ، أو نهوضها بتفاعلات رديئة وزائغة عن الأهداف السليمة التي ينبغي أن تتوخاها ، فإن النتيجة الحتمية التي تتأتى عن ذلك هو تأخر البرزوغ الوراثي أو بزوغ ثمار رديئة نتيجة حدوث التفاعلات الخيرية الرديئة . وليس يخاف أن الحضارة التي تُظَلِّنا تسير أو قل تجرى بخطى واسعة وسريعة وذلك بواسطة التكنولوجيات المتدفقة حولنا . فإذا لم نلاحق ما يحدث حولنا من تطورات ، فإن ما يتسنى تفاعله من مقومات وراثية نحملها بين أعضائنا لا يكون ذا قيمة ، وبالتالي فإن ما يبرزغ من تلك المقومات الوراثية يعتبر متأخراً ومتخلفاً إذا ما قيس بما كان يجب أن يتبدى في حياتنا . ولننكر بهذه المناسبة الوسائل التعليمية التي تتفرع بها

مدارسنا ومعاهدنا وكنياتنا وما نتصف به من تخلف عن ركب التكنولوجيا التعليمية المتقدمة والمتدفقة معاً . من الطبيعي أن تلك الوسائل العتيقة التي تنتزع بها في التعليم لا تسمح بزوغ المقومات الموروثة اللانهائية التي تنتظر في مكانها للخروج إلى حيز الواقع السلوكي والحياتي لناشئتنا .

ثالثاً - القيم والاتجاهات الرجعية : فمن عوامل تأخر بزوغ المقومات الموروثة أو تعطيل عملها وتشكيل عائق أمام توظيفها في الحياة تلك القيم والاتجاهات الرجعية التي تعمل على تضيق نطاق التفاعلات الخيرية وسجن المرء في نطاق ضيق يتفاعل في إطاره غير المتجدد ، وحصر نشاطه في نمطية متكررة لا يحيد عنها ، ولا يخرج عن نطاقها ، بل يجبر أصحاب مواهب التجديد والإبداع على مقاومة مواهبهم ومقوماتهم التي فطروا عليها والعمل على دفنها والأخذ بالعننة المستمرة ، أي نقل القوالب الجاهزة وتكرار نقلها بغير هودة أو ملل .

رابعاً - عدم تجديد الأهداف : فمن عوامل تأخر بزوغ المقومات الموروثة أو تعطيل عملها توقف المرء عن ترسم أهداف جديدة يرغب تحقيقها في مستقبل حياته . والواقع أن الكثير من الناس ينكصون عن تجديد أهدافهم ويحسون بالرضا لأنهم استطاعوا أن يحققوا الأهداف القديمة التي سبق أن حددوها لأنفسهم لتحقيقها ، ولكن الواقع أن ما في طي قوامهم من مقومات موروثة أكثر بكثير من أن يحصى أو أن ينضب . فكلمًا ترسم المرء أهدافاً جديدة ، فإنه بالتالي يكون خليقاً بأن يجد لها في الغالب مقومات وراثية مناسبة للتفاعل معها . وكلمًا تخلف المرء عن تجديد أهدافه ، فإنه يكون بالتالي معرضاً لتأخير بزوغ مقوماته الوراثية إلى حيز الواقع السلوكي .

خامساً - الجرى وراء أنشطة ليس للمرء باع وراثي بإزائها : فطالما أن المرء يضرب في خط لا يرتبط بمقوماته الوراثية ، فإنه لا ينجح في ذلك المجال الذي يضرب فيه . وبالتالي فإنه يعمل بطريقة غير مباشر على تعطيل بزوغ المقومات الوراثية التي فطر عليها ، والتي كان بمستطاعه استثمارها لو أنه ضرب في أثرها وصرف نظره عن الطريق الذي يصير على انتهاجه برغم فقر مقوماته الوراثية المتعلقة به .

تسارع البزوغ الوراثي :

يحسن بنا أن نبدأ في مدارسة هذا الموضوع بإلقاء الضوء على ما يتضمنه تسارع البزوغ الوراثي من معان حتى ينسئ لنا بعد هذا أن نعرض لما يترتب على هذا التسارع من نتائج متباينة . والمعاني التي يتضمنها تسارع البزوغ الوراثي يمكن أن تتحدد على النحو التالي :

أولاً - تخطي العمر النمائي للعمر الزمني : فبعد أن قام علماء النفس بإدخال مفهوم جديد للعمر غير العمر الزمني ، وهو العمر العقلي ، فقد صار من الجائز للباحث أن يضيف نوعاً جديداً من العمر نسميه « العمر النمائي » . والمقصود بالعمر النمائي إما أن يكون عمراً نمائياً شاملاً لجميع جوانب النمو وهي الجانب الجسمي ، والجانب الوجداني ، والجانب العقلي ، والجانب اللغوي التعبيري ، وأخيراً الجانب الاجتماعي ، وإما أن يكون عمراً نمائياً مجتزئاً بجانب واحد من هذه الجوانب النمائية الخمسة . وعندما نعرض لتسارع البزوغ الوراثي في علاقته بالعمر النمائي ، فإننا سوف نجد أن طفلاً ما عمره خمس سنوات على سبيل المثال وقد تسارع نموه في جميع الجوانب الخمسة التي ذكرناها بحيث بلغ عمره النمائي في تلك الجوانب جميعاً ما يبلغه الطفل السوي البالغ

مرض أصاب العينين ، بل لأنه ورث ضعف البصر من أحد أبويه أو من أبويه جميعاً أو من جد أو أجداد لأبيه أو لأمه . ويكون ذلك الطفل قد أصيب بتسارع البزوغ الوراثي العيبي المتمثل في ضعف بصره . وقس على هذا جميع العيوب الوراثية التي يمكن أن تنبئ في سن صغيرة في واحد أو أكثر من الأنسال المباشرة ، أعنى الأولاد من الجنسين ، أو في واحد أو أكثر من الأنسال غير المباشرة ، أعنى الأحفاد من الجنسين .

رابعاً - تسارع بزوغ العيوب الوراثية في بعض حالات الزيجات من الأقارب : ومن المؤكد طبيياً أن احتمال بزوغ الأمراض الوراثية في حالات الزواج من الأقرباء أكبر من احتمال بزوغها في حالات الزواج من الغرباء . ولقد عملت إحصاءات كثيرة بهذا الصدد ووجد أن الزواج فيما بين أبناء وبنات العم أو العمة ، وفيما بين أبناء وبنات الخال أو الخالة يعمل على تسارع بزوغ العيوب الوراثية إذا كانت ثمة عيوب وراثية موجودة في أصول الأسرة التي انحدر منها الأقرباء . ولكن الآمال معقودة على هندسة الوراثة في التغلب على هذه المشكلة بتدخلها في المقومات الوراثية وتصحيح مسارها فتعمل على إبطال مفعول الاستعدادات الوراثية للأمراض الجسمية والوجدانية والعقلية جميعاً .

خامساً - تسارع البزوغ الوراثي العتيق : فالمقومات الوراثية تشبه الخيول في حلبة سباق حيث يحاول كل فارس من الفرسان الذين يمتطون صهوة تلك الجياد الحوز على قصب السبق . والمتوقع أن تكون للمقومات الوراثية الحديثة النازلة من أصلاب الأبوين أو الجدين المباشرين الأسبقية في الفوز على المقومات الوراثية القديمة النازلة من أصلاب الأسلاف البعيدين أو البعيدين جداً . ولكن قد يحدث في بعض الحالات النادرة أن تتغلب بعض

من العمر ثمانى سنوات مثلاً . ولكن قد ينحصر تسارع البزوغ الوراثي في جانب واحد من هذه الجوانب الخمسة ، فنجد أن طفلاً عمره الزمنى سبع سنوات ولكن نموه الجسمي يوازي نمو جسم مراهق في الثالثة عشرة من عمره . أما بقية الجوانب النمائية لديه فإنها لا تكون متسارعة ، بل تكون ملتزمة حدود السوية المعتادة وفي نطاق متوسط نمو أطفال السابعة ، أو ربما تقل عن تلك الحدود قليلاً أو كثيراً .

ثانياً - بزوغ موهبة ما في سن مبكرة : ومن مظاهر تسارع البزوغ الوراثي ما يبدو من تفوق خارق لدى أحد الأطفال أو المراهقين في مجال تفوق فيه أحد الوالدين أو أحد الأجداد أو إحدى الجدات . وتاريخ العباقرة مشحون بالأمثلة التي تشهد بذلك . وقد يختلط التفسير بالتربية مع التفسير بالوراثة ، ولكن الذى يؤكد ويرجح كفة الوراثة على كفة التربية هو بزوغ الموهبة في سن مبكرة مما يدل على تسارع البزوغ الوراثي لدى فئة الموهوبين من الأطفال والمراهقين (انظر كتاب « تربية الموهوب والمتخلف » ترجمة المؤلف) .

ثالثاً - بزوغ أحد العيوب الوراثية في سن مبكرة : والعيوب الوراثية الجسمية أو الوجدانية أو العقلية أو التعبيرية الكلامية أو العلائقية يمكن أن تظل مخبوءة في قوام جيل أو أكثر من الأنسال التالية ، كما أنها قد لا تظهر كلها في مراحل عمر واحد أو أكثر من الأولاد من الجنسين ، كما أنها قد تظهر في سن متأخرة فيما بعد الشباب أو حتى في الشيخوخة ، كما أنها قد تبدأ في الظهور في الطفولة ، فتكون متسارعة في البزوغ في حياة المرء منذ طفولته . من تلك العيوب الوراثية ما يتعلق بضعف البصر . فلقد تجد طفلاً لم يجاوز الخامسة ولكنه مصاب بضعف البصر لا بسبب

المقومات الوراثية العتيقة أو العتيقة جداً والتي تردت في أصولها إلى القبائل البدائية أو ما قبلها على المقومات الوراثية الحديثة . فالصحف تطالعنا من حين لآخر بميلاد طفل له ملامح البدائيين أو طفل أو طفلة أقرب ما يكون إلى الشمبانزي وقد نزل من بطن أمه بأسنان حادة ويحاول التهام ثدى أمه . ولا يكون من تصير لهذه الظواهر الشاذة سوى القول بتسارع البزوغ الوراثي العتيق إلى حيز الوجود متغلباً على البزوغ الوراثي المباشر من الأيوين أو الجدين القريبين .

وعلينا أن نعرض بعد هذا للنتائج التي يمكن أن تترتب على تسارع البزوغ الوراثي ، فنجد أن تلك النتائج يمكن أن تتحدد على النحو التالي :

أولاً - الخروج عن نطاق السوية : فالواقع أن ثمة ما يمكن أن نسميه بالتوازن الوظيفي ، أعنى التوازن بين الوظائف المتباينة التي تضطلع بها أجهزة الشخصية المتباينة . فثمة توازن وظيفي يجب أن يتوافر فيما بين الوظائف الجسمية ، والوظائف الوجدانية ، والوظائف العقلية ، والوظائف اللغوية التعبيرية ، وأخيراً الوظائف الاجتماعية . وأكثر من هذا فإن كل قطاع من هذه القطاعات الخمسة يتضمن وظائف فرعية يجب أن تكون متوازنة فيما بينها . فمثلاً بالنسبة للقطاع العقلي فإن من الواجب أن يكون هناك توازن فيما بين الإدراك الحسي والتذكر والتخيل والتصور . وقل الشيء نفسه بإزاء جميع قطاعات الشخصية الأخرى من حيث الوظائف الفرعية التي يضطلع بها كل قطاع منها . فإذا ما حدث تسارع في بزوغ إحدى الوظائف الأساسية أو الفرعية وتبدى ذلك التسارع في سلوك المرء ، فإن هذا يخرج من إطار السوية . وحتى بالنسبة لما يحظى بالثناء والمديح كما نفعل بإزاء العبقرية -

وهي بالطبع لا تخرج عن حدود هذا التسارع البزوغى الوراثي في الجانب العقلي وبخاصة النكاه - فإننا لا نستطيع إلا وصفها بأنها خروج عن حدود السوية وإن كان خروجها إلى ما هو أعلى من السوية (Super-normality) .

ثانياً - صعوبة التكيف للمجتمع : ومن الواضح أن الكثير من الحالات التي يتبدى فيها تسارع البزوغ الوراثي تكون محفوفة بالصعاب فيما يتعلق بالتواؤم مع البيئة الاجتماعية التي ينخرط فيها أصحابها . وهذا ليس شأن ضعاف العقل وحدهم ، بل إنه شأن المنفوقين عقلياً وعلى رأسهم العاقرة أيضاً وهم الذين كثيراً ما يتعدون بسبب عبقريتهم ووجود بؤن شاسع بينهم وبين المحيطين بهم من الأشخاص الأسوياء العاديين . وقل الشيء نفسه بإزاء جميع الحالات الأخرى التي تتسارع فيها المقومات الوراثية إلى البزوغ سواء كانت مقومات جيدة أم مقومات رديئة . وليس من شك في أن المجتمع باعتباره محصلة أفراد ، وبالتالي فإن عقليته هي محصلة عقليات أفراد ، فإنه لا يكون على مستوى مرتفع من النكاه ، ومن ثم فإن المتعامل معه يجب أن يوائم بين عقليته وعقليته تلك المجتمع . ولسنا نبالغ إذا ما قلنا إن معظم الناجحين بالمجتمع ليسوا من الانتكاه ، وليسوا بالطبع من منحطى النكاه ، بل هم من متوسطى النكاه . ونحن لا نغنى هنا النجاح الاقتصادي فحسب ، بل نغنى النجاح في التواؤم مع المتطلبات والقيم الاجتماعية المتباينة أيضاً .

ثالثاً - تشكيل عبء جديد على المجتمع : أضف إلى هذا أن ظهور هذا التسارع في البزوغ الوراثي لدى بعض الأطفال يعنى في الوقت نفسه ضرورة مجابهة ما يتربى على هذا من مشكلات يجب مجابتهها . فيتحمم إعداد كوادر من المتخصصين الذين عليهم

رعاية الفئات المتباينة ممن تبدي لديهم تصارع البزوغ الوراثي والقيام بدراساتهم ورعايتهم وتوفير فرص الحياة المناسبة لهم ، ومحاولة حملهم على التواؤم مع المتطلبات الاجتماعية المحيطة بهم والتي سوف تحيط بهم في مستقبل حياتهم . وهذا بالطبع بشكلٍ عيّن لا بُدّ أن يتحمل المجتمع نفقاته وما يبذل فيه من جهود ليست قليلة . وكلما ازدادت الرقعة السكانية على المستوى العالمي ، فإن مشكلة رعاية الفئات المتباينة التي يتبدي لديها هذا التصارع في بزوغ المقومات الوراثية في مراحل العمر المتباينة تتزايد تفاقماً واحتداماً فتزداد النفقات التي يجب أن تنفق ، كما تتضاعف الجهود التي يجب أن تبذل حتى ينسنى مجابهة المشكلات المرتبطة بها أو المترتبة عليها .

رابعاً - صعوبة الإفادة ممن يتسارع لديهم البزوغ الوراثي الممتاز : فالواقع أن التكنولوجيا الحديثة بما في ذلك تكنولوجيا الطب وما تتضمنه من وسائل طبية تعمل على تقليل نسبة الوفيات على مستوى العالم ، بالإضافة إلى التكنولوجيات المتباينة المستخدمة في مجالات العمل المتباينة ، تعمل جميعاً في تضافر على الاستغناء عن الأيدي العاملة . ناهيك عن أن الروبوتس أعنى الأناسى الآليين في الطريق وسوف يقومون بكل الأعمال التي يضطلع بها الإنسان . ومن ثم فإن عصر العبقرة الفرديين قد أوشك على أن يسدل الستار عليه . فلقد بدأت بالفعل الأفرقة في العمل سويّاً في مراكز البحوث والمعامل ولم يعد العبقري يعمل وحده حتى في كثير من المجالات الثقافية والأدبية . ومعنى هذا أن مدى الإفادة من تصارع البزوغ الوراثي العبقري سوف تقل أو قل إن العبقريات سوف تذوب في المجموعات التي تضم مجموعة من العاملين بغير تمييز أو تفريد لأحدهم من سواه .

★ ★ ★

الفصل السابع كيمياء الجسم وسوية الشخصية

الاتزان الهرموني وسوية الشخصية :

في الجسم نوعان من الغدد : غدد مقنّاة تفرز ما تفرزه إلى خارج الجسم كالغدد العرقية والغدد الدمعية ، وغدد صماء تفرز سوائل تسمى الهرمونات في الدم مباشرة . ومن أمثلة هذا النوع الأخير من الغدد المقنّاة الغدد التناسلية والغدة الدرقية والغدة النخامية . ولكل هرمون من الهرمونات التي تفرزها الغدد الصماء وظيفة حيوية بالنسبة لجسم الإنسان وبالنسبة لما يضطلع به من أنشطة متباينة . فالهرمونات الجنسية لدى الذكر والأنثى مسؤولة عن تحديد هوية المرء من حيث كونه ذكرًا أم أنثى ، ثم هي التي تهينه لممارسة الأنشطة الجنسية التي يترتب عليها الإنجاب . وثمة علاقات متشابكة وتفاعلات حيوية بين ما تفرزه الغدد المتباينة من هرمونات ، ويترتب على الكميات التي تفرزها الغدد المتباينة مدى سوية الشخصية . فمن المفروض أن تقوم كل غدة من الغدد الصماء بإفراز كمية محددة من الهرمون الخاص بها بغير زيادة أو نقصان حتى يتحقق الاتزان الهرموني للمرء . ذلك أن الزيادة أو النقصان في كمية الهرمون المفرز يعمل على حدوث خلل فيما يسمى بالاتزان الهرموني ، الأمر الذي يترك صداه في قوام الشخصية من حيث الصحة الجسمية والصحة النفسية على السواء .

وعلينا أن نتناول مصطلح الاتزان الهرموني ، بالمدارسه وإلقاء الضوء عليه حتى نتبين ما يتضمنه من معانٍ متباينة . فنجد

أن المعانى التى يتضمنها الاتزان الهرمونى يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً - إن الاتزان الهرمونى يعنى عدم تشكى الجسم من زيادة أو نقص أحد الهرمونات : ذلك أن حدوث الخلل فى النسب الهرمونية التى يتم إفرازها يودى إلى تصدع الشخصية أو انحرافها عن السوية . والواقع أن الغدة النخامية الموجودة بالرأس بمثابة المايسترو الذى يقوم بتنظيم إفراز هرمونات الغدد الصماء المتباينة . فإذا حدث خلل فى هذه الغدة القائدة ، أو إذا لم تقم بوظيفتها على الوجه الأكمل ، فإن الفوضى تعم الغدد ، فيقوم بعضها بإفراز مقادير من هرموناتها أكثر مما يجب ، بينما يقوم بعضها الآخر بإفراز مقادير من هرموناتها أقل مما يجب ، وبالتالي فإن أعراضاً غير سوية تتبدى فى القوام الجسمى الكلى للمرء ، كما قد تتبدى لديه حالات نفسية تنصف بعدم السوية وما يترتب على ذلك من اضطراب فى العلاقات الاجتماعية بين المرء والمحيطين به والمتعاملين معه وما يحسه من فقدان للثقة بالنفس أو بالضيق والتبرم بالحياة .

ثانياً - إن الاتزان الهرمونى يعنى تحقيق التأثير المتبادل بين جسم المرء وأحواله النفسية : فمن المعروف أن ثمة علاقات تأثيرية تأثرية بين بيولوجية المرء وبين سيكولوجيته . فكما أن الجسم يترك صداه على الجهاز النفسى للمرء ، كذا فإن جهازه النفسى يترك صداه على قوامه البيولوجى وعلى الوظائف الفسيولوجية التى يضطلع بها جسمه . وبالنسبة للاتزان الهرمونى ، فإن الغدد الصماء إذا كانت تقوم كل منها بوظيفتها على خير وجه ، ففقرز المقدار المناسب من الهرمون الخاص بها ، فإن الاتزان الهرمونى المتأتى عن ذلك يترك صداه

فى حياة المرء انثسية ، فيكون متمتعاً بالصحة النفسية الجيدة . وفى المقابل فإن ما يتمتع به الشخص المتزن نفسياً والمتمتع بصحة نفسية جيدة ، يترك أثره فى مدى سلامة غدده الصماء وفيما تقوم كل منها بإفرازه من هرمون .

ثالثاً - إن الاتزان الهرمونى يعكس تأثيره على العلاقات الاجتماعية للمرء : فما يحدث فى دخيلته شىء ، وما يتبدى فى علاقاته الاجتماعية من تصرفات ومواقف شىء آخر . ومن المؤكد أن الكثير من العلاقات والتصرفات السيئة أو غير المرغوبة تنأتى عن حدوث اضطراب فيما تقوم بعض الغدد الصماء بإفرازه بكثرة أو بقله عن النسب التى يجب أن تقوم بإفرازها . ومن جهة أخرى فإن العلاقات الاجتماعية التى تحيط بالمرء والظروف التى يمر بها تنعكس هى الأخرى على مدى تمتعه بالاتزان الهرمونى وعلى مدى سلامة غدده الصماء وقيامها بوظائفها على نحو سليم . وبعبير آخر فإن العلاقات الاجتماعية التى ينخرط المرء فى إطارها ذات تأثير تبادلى مع ما تقوم الغدد الصماء بإفرازه ، بمعنى أنها تؤثر فيها وتتأثر بها فى الوقت نفسه .

رابعاً - إن الاتزان الهرمونى يمكن أن يتحقق بالوسائل الطبية إذا لم يكن متوافراً بالفعل : فمن المعروف أن الغدد الصماء - شأنها شأن باقى أعضاء الجسم - يمكن أن تتعرض للعطب سواء بسبب ما قد تصاب به من مرض أو بسبب الضمور والضعف . من هنا فإن للطب العلاجى دوراً يمكن أن يلعبه فى الحالات التى يختل فيها الاتزان الهرمونى . فطبيب الغدد بمقدوره أن يقلل من إفراز إحدى الغدد الصماء ، كما أن بمقدوره أن يزيد من إفرازها حسبما تقتضى حالة المريض الصحية . وكذا فإن المعالج النفسى قد يقوم فى بعض الحالات بالتدخل لزيادة أو لتناقص الهرمونات

التي تضطلع إحدى الغدد بإفرازها حتى يصل بالمريض إلى بر الصحة النفسية السوية .

خامساً - سوف يكون لهندسة الوراثة دور في تحقيق الاتزان الهرموني : فهندسة الوراثة - كما سبق أن قلنا - سوف لا يقتصر مهما على نقطة بداية تكوين الجنين ، بل إنها سوف تمتد بأفاق اهتماماتها عبر مراحل العمر المتباينة . فبدلاً من معالجة الغدة التي تفرز كمية أكبر أو أقل من الهرمون الخاص بها ، فإن مهندس الوراثة سوف يقوم في المستقبل بمعالجة جينات بعض الخلايا الجرثومية وإيلاجها بالجسم بفنون دقيقة قد لا يكون النقب قد كشف عنها بعد أو لم يتم للعلماء الكشف عن أسرارها حالياً ، فيتأتى عن تلك المعالجة والإيلاج انتظام إفراز الهرمونات بالجسم وبالتالي يتحقق الاتزان الهرموني للشخص الذي يتم علاجه بفنون هندسة الوراثة .

ولعلنا نتناول بعد هذا العلاقات التي يمكن أن تنشأ فيما بين الاتزان الهرموني وبين سوية الشخصية . إننا نستطيع تحديد تلك العلاقات على النحو التالي :

أولاً - فيما يتعلق بالهدم (Katabolism) والبناء (Anabolism) الحيويين : فإذا ما كان الاتزان الهرموني غير سوى ، فإن عمليتي الهدم والبناء لا تكونان بالتالي سويتين ، فيكون المرء معرضاً لانتهيار الحيوى . وعلى العكس من هذا فإذا كان الاتزان الهرموني متوازناً ، فإن العلاقة بين هاتين العمليتين تكون في حالة اتزان ، وبالتالي فإن الحالة الصحية الجسمية والنفسية والاجتماعية للمرء تكون متصفة بالسوية .

ثانياً - فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية : فإذا كان الاتزان الهرموني متوازناً لدى المرء ، فإن علاقاته الجنسية تكون سوية ،

أو على الأقل تكون هناك ركيزة هامة من ركائز السوية الجنسية متوافرة له . ذلك أن من عوامل الانحرافات الجنسية أو عدم النجاح في إقامة علاقات جنسية سوية في الزواج اختلال الاتزان الهرموني سواء بزيادة إفراز الهرمونات الجنسية أو بنقصها وما يتبع ذلك من حالات نفسية وعلاقات جنسية غير سوية .

ثالثاً - فيما يتعلق بالسادية والماسوكية : فالواقع أن الشخص المتمتع بالاتزان الهرموني ، يكون حاصلاً بالتالي على ركيزة بيولوجية لا تدفع به نحو الانخراط في السلوك السادى أو فى السلوك الماسوكى . والسادية هي الالتذاذ جنسياً بإيقاع الألم على الطرف الآخر المشترك معه فى النشاط الجنسي . أما الماسوكية فهى الالتذاذ جنسياً بتقبل الألم من الطرف المشترك معه فى النشاط الجنسي . صحيح إن السادية والماسوكية يمكن أن يتأتيا عن عوامل نفسية ، ولكن مما لا شك فيه أن عدم توافر الاتزان الهرموني يشكل عاملاً مساعداً على الإصابة بالسادية أو بالماسوكية أو بالاثنتين معاً .

رابعاً - فيما يتعلق بالإصابة ببعض الأمراض النفسية : فالكثير من الأمراض النفسية التي يصاب بها بعض الناس ترجع فى أساسها إلى الإصابة بفقدان الاتزان الهرموني ، ويتم علاجهم بواسطة الهرمونات . بيد أن من الواجب أن نميز فيما بين الأمراض النفسية الوظيفية كالوساوس والأفعال القهرية والهوسات ، وبين الأمراض النفسية التي تنجم عن فقدان الاتزان الهرموني سواء بسبب زيادة الهرمونات التي يجب إفرازها أو نقصها . فلكي تختفى أعراض هذه الأنواع الأخيرة من الأمراض النفسية ، فإن من الواجب العمل على تحقيق الاتزان الهرموني للمرء .

خامساً - فيما يتعلق بالإصابة بالشيخوخة المبكرة : فالواقع أن الشيخوخة بصفة عامة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنضوب معين بعض الغدد وبضمنها أو على رأسها الغدد التناسلية . ولكن الشيخوخة لا ترتبط بالسن بالضرورة والحنم ، بل إنها من الممكن أن تصيب المرء في أى سن لدرجة أن بعض الأطفال يمكن أن يصابوا بالشيخوخة . وهناك في الواقع بحوث جادة ومستمرة تحاول كشف النقاب عن مدى إمكان استمرار الاتزان الهرموني حتى الشيخوخة بحيث يتمتع الشيخ أو الشيخة بالاتزان الهرموني فتظل الغدد الجنسية وغيرها من غدد في حالة من السوية فلا تصاب بالضمور ، وبالتالي فإن المرء لا يصاب بالهَرَم . وعلى أية حال فإن العلاقة قائمة فيما بين مدى تمتع المرء بالاتزان الهرموني وبين ظهور أعراض الشيخوخة على محياه وفيما بيديه من نشاط جسمي ووجداني وعقلي واجتماعي (أنظر كتاب « رعاية الشيخوخة » للمؤلف) .

وعلىنا في نهاية المطاف أن نعرض للعوامل التي تقصد الاتزان الهرموني وتفسد بالتالي سوية الشخصية . والعوامل هي :

أولاً - التلبس بمجموعة من العادات الوجدانية المهمة : فالأشخاص الذين يكتبون عادات تتعلق بالغضب أو بالخوف أو بالجنس مما يدفع بهم إلى الاستثارة الغضبية أو الخوفية أو الجنسية بسرعة وشدة ، يكونون معرضين لفقدان اتزانهم الهرموني . ذلك أن العادات الوجدانية لا تقتصر على نطاق اللحظة التي يستثار فيها المرء ، بل تتعدى ذلك إلى اكتساب الغدد المسئولة عن إفراز الهرمونات المصاحبة للأنفعالات المتباينة عادات فسيولوجية هي الأخرى . وبالتالي فإن تلك الغدد تعتاد إفراز هورمونات أكثر من الواجب إفرازه حتى يغير أن يكون المرء معرضاً للمثيرات التي

تدفع به إلى الانخراط في تلك الانفعالات الغضبية أو الخوفية أو الجنسية .

ثانياً - الصدمات النفسية المفاجئة : فالواقع أن المرء إذا لم يكن مستعداً أو مترقباً المواقف التي سوف يجابهها ، فإنه يكون مهدداً بفقدان اتزانه الهرموني . ذلك أن الإنسان يعد بطاقة دفاعية لمجابهة المواقف المثيرة التي يتوقها . ولكن إذا لم يكن قد أعد مثل تلك الطاقة الدفاعية ، فإن الصدمة النفسية تكون ذات أثر خطير في فقدانه لاتزانه الغددي .

ثالثاً - إصابة الجهاز العصبي المركزي والجهاز العصبي السمبتاوي ببعض الاضطرابات أو الأعطاب : فمن المعروف أن الجهاز العصبي المركزي المكون من المخ والمخيخ والنخاع الشوكي والجهاز العصبي السمبتاوي يشرفان على عمل أجهزة الجسم المتباينة وبضمنها الغدد الصماء وما تقوم بإفرازه من هورمونات . فإذا لم يكن هذان الجهازان الأساسيان يعملان على خير وجه وأتمه ، فإن الاتزان الغددي يكون معرضاً للاضطراب . فتزيد بعض الغدد الصماء من إفرازها بينما تنقص غدد صماء أخرى فيما تقوم بإفرازه وبالتالي فإن المرء يفقد اتزانه الهرموني .

العلاج النفسي بالمخدرات :

لا بد أن نبدأ أولاً بإلقاء الضوء على مفهوم العلاج النفسي لكي نستبين ما يتضمنه من جوانب متباينة ، وذلك قبل أن نعرض لاستخدام المخدرات في هذا النوع من العلاج . فنقع على الجوانب التالية :

أولاً - إعادة المريض نفسياً إلى ما كان عليه من سوية قبل إصابته بالمرض النفسي : فالواقع أن أي إنسان يمكن أن يصاب

مرضى أو أكثر من الأمراض النفسية التي تنقسم إلى أنواع ثلاثة أساسية هي :

الأمراض العقلية التي تتعلق بالأنشطة الذهنية المنطقية ، والأمراض العصبية التي تتعلق بخلل أو إصابة أو عدوى تكون قد أصابت المخ أو بعض أجزائه . والأمراض العصبية أو الوظيفية التي لا تستند إلى وجود مقومات بيولوجية في نشوئها وبزوغها إلى حيز السلوك الشخصي .

والعلاج النفسى بجزء هذه الحالات جميعاً يستهدف تخليص المريض مما أصابه من مرض أو أكثر من هذه الأمراض النفسية .

ثانياً - تنشيط بعض المقومات البيولوجية لتعديل السلوك :
فتمه بعض الحالات الخارجة عن حدود السوية والمندرجة في إطار الأمراض النفسية ترجع أسبابها إلى خمول أو كمون بعض المقومات البيولوجية بالمخ وعدم توظيفها أو الخروج بها من حيز الكمون إلى حيز الواقع السلوكى . فالمعالج النفسى فى هذه الحالات يستعين إما بالوسائل الكيميائية ، وإما بالكهرباء أو بالليزر لتنشيط مناطق معينة بالمخ تشتمل على تلك المقومات البيولوجية الراكدة والتي إذا ما استنهضت ، فإن المريض ينشط ذهنياً ويصح وجدانياً ويتوافق اجتماعياً ، ويسلك فى حياته على نحو سوى .

ثالثاً - قمع بعض المقومات البيولوجية لتعديل السلوك :
وفى مقابل الحالات التي يكون على المعالج النفسى العمل على تنشيط بعض المقومات البيولوجية حتى يتعدل السلوك ويصير سوياً ، فإننا نجد حالات أخرى تتسم بالهياج الشديد فيندفع المريض إلى تحطيم ما يحيط به أو إلى مهاجمة من يصادفه من أشخاص ، فيكون من المحتم قيامه بالعمل على قمع بعض المقومات التي يترتب عليها ذلك الهياج الذى يجعل المريض مندفعاً فلا يبقى ولا يذر .

رابعاً - إضافة إرثات جديدة أو حذف إرثات موجودة بواسطة هندسة الوراثة : فكما سبق أن قلنا فإن هندسة الوراثة لا تحصر نطاق نشاطها فى اللحظات الأولى لتكوين الجنين أو قبل تكوينه بالحذف والإضافة بجزء الإرثات الموجودة بالمخ أو بالبويضة قبل التلاقح ، بل إنها تمتد بمجال نشاطها إلى الأعمار المتباينة ، وذلك بإضافة إرثات جديدة أو حذف إرثات موجودة بالفعل فى قوام المرء وذلك بالتحكم فى مقومات بعض الخلايا الجرثومية وإللاجها فى قوام المريض ، فتتعديل جميع خلايا جسمه بالعدوى التي تشبه العدوى بالأمراض المعدية . وبالتالي فإن الإضافة والحذف بجزء الإرثات يعمل على تعديل سلوك المرء ويحملة إلى بر الشفاء النفسى . بيد أن الطريق ما يزال طويلاً أمام هندسة الوراثة لكى تدخل فى ميدان العلاج النفسى . فهى حتى وقتنا هذا ما تزال منحصرة فى نطاق المقومات الجسمية ولم تتطرق بعد إلى نطاق الوظائف السيكلوجية وإلى فنون العلاج النفسى والتخلص من الأمراض النفسية المتباينة .

خامساً - تصحيح السلوك الجنسى المنحرف أو الشاذ : فتمه مجموعة كبيرة من الانحرافات الجنسية التي يمكن أن تدرج فى نطاق الانحرافات النفسية أو حتى الجنون الجنسى (أنظر كتاب « جنون الجنس » ترجمة المؤلف) .

والانحرافات الجنسية يمكن أن تكون مرتكزة على ركائز أخلاقية ، كما يمكن أن تكون مرتكزة على ركائز بنوية أو بيولوجية عصبية وهورمونية . من هنا فإن العلاج النفسى إما أن يصب اهتمامه على العلاج النفسى ، وإما أن يصب اهتمامه على العلاج البيولوجى .

وعلينا بعد أن استعرضنا أهم ما يتضمنه مفهوم العلاج النفسى

من مجالات أن تقوم بمدارسة استخدامات المخدرات في هذا الصدد ، فنجد أن تلك الاستخدامات يمكن أن تتحدد على النحو التالي :

أولاً - التخدير قبل إجراء العمليات الجراحية بالمخ :
فالحالات التي تكون بحاجة إلى إجراء عملية جراحية ببعض أجزاء المخ بقصد تعديل سلوك المريض عقلياً ، يكون من الضروري بلزائها تخديره قبل إجراء العملية الجراحية ، ويكون التخدير في هذه الحالات تخديراً شاملاً في العادة . وقد يستدعي الأمر استمرار المريض في حالة تخدير شامل ومستمر حتى بعد الانتهاء من إجراء العملية الجراحية لبضعة أيام لأن العمل على استمرار المريض تحت تأثير المخدر يساعد على تحقيق استقرار حالته وتخليصه مما أصابه من مرض عقلي .

ثانياً - الانتظام على تعاطي المهنات حتى يظل المريض عقلياً هادئاً ولا تعاوده التشنجات أو النوبات العصبية العارمة :
فقد يستلزم الأمر استمرار المريض في تعاطي أنواع معينة من المخدرات التي تسمى بالمهنات حتى يظل في حالة من الهدوء . ولكن العلاج بالمهنات يكون مشروطاً بإخضاع المريض لنظام معين في تناول الأقرص أو الحقن المهدئة حتى يضمن الطبيب عدم استحاله إلى مدمن وذلك بإعطائه عقاقير مصاحبة تحول دون وقوعه في هوة الإدمان .

ثالثاً - الانتظام على تعاطي عقاقير منشطة حتى لا يركن المريض إلى الكسل العقلي وخمول وظائف المخ المتباينة :
ففي بعض الحالات يكون المرض العقلي متمثلاً في تعطل بعض وظائف المخ ، أو إبطاء عملها ، أو عدم ترابطها بعضها ببعض ، أو فقد القدرة على التركيز الذهني ، أو العجز عن التفكير ، أو نحو ذلك

من أعطاب ذهنية . فتكون مهمة العلاج النفسي باستخدام العقاقير المنشطة . وبالمناسبة فإن إطلاق لفظ « مخدرات » على العقاقير المنشطة ينطوي على تناقض لفظي لأن التخدير عكس التنشيط ، ولكن ما باليد حيلة وقد طغى مصطلح « مخدرات » على كل مادة تؤثر في سلوك المرء سواء بالتخدير أم بالتنشيط . فجرياً وراء ما اعتاده الناس فلبننا نقول إن الطبيب النفسي قد يستخدم نوعاً من المخدرات له خصائص تنشيط القوى الذهنية لمعالجة ما ألم به من كسل وخمول وضمور ووهن ذهني .

رابعاً - علاج الإدمان بالمخدرات : فالمدمن - سواء كان إدمانه على الخمر أم كان على أنواع المخدرات المتباينة كالكهروين وغيره من مخدرات - لا بد أن يخضع للعلاج بالمصحات المتخصصة في هذا النوع من العلاج بواسطة المخدرات ، وذلك إما بتقليل الجرعات التي اعتاد المدمن على الخمر أو على المخدر تناولها تدريجياً ووفق جدول زمني محدد ، وإما بإعطائه أنواعاً معينة من المخدرات مضادة أو مبطلة للرغبة في التعاطي .

خامساً - في علاج بعض حالات الشيخوخة : ففي بعض حالات الشيخوخة فإن تدخل المعالج يكون محتماً ولازماً . فلقد يصاب الشيخ بالتخلف العقلي أو بعدم التركيز الذهني أو بالنسيان أو حتى لقد يصاب ببعض الأمراض النفسية كالهوسات والوسوس والأعمال القهرية وغيرها ، فيستعين الطبيب النفسي ببعض العقاقير المنشطة لبعض مناطق المخ فيستعيد الشيخ ما كان قد فقد من قدرات ووظائف عقلية ، كما يتخلص مما ران عليه من أعراض نفسية غير سوية .

ومع اعترافنا بأهمية الوسائل العلاجية بالمخدرات فإن ثمة

مجموعة من المخاطر التي يجب أخذ الحذر منها لما تحمله من نتائج وخيمة . والمخاطر التي نحذر منها هي :

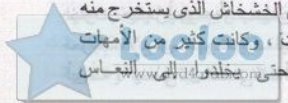
أولاً - شيوخ بعض العقاقير الطبية المخدرة أو المنشطة أو التي لها تأثير نفسي بالصيديات دون رقابة على تداولها : فلقد يقدم شخص سوى تمامًا على شراء تلك العقاقير التي تساعده على الهضم أو على الانخراط في النوم (ليبراكس مثلًا) ولكنه ما يفأ يجد نفسه وقد صار مدمناً على استخدامها . ناهيك عن أن بعض المدمنين الذين لا يتسنى لهم شراء المخدرات من الأوكار التي تروجها يتوجهون إلى الصيدلية ويشتررون عقاقير معينة مسموحًا بتناولها ويناولونها بكميات كبيرة فيصلون إلى حالة من النشوة التي اعتادوا الحصول عليها بتعاطي نوع المخدر التي انتظموا على تعاطيه .

ثانياً - بعض المخدرات بالمعنى العام للفظ لا يندرج رسمياً في قائمة المخدرات برغم خطورتها : فالتنغ والشاي والقهوة تعتبر ضمن المخدرات طالما أننا نعرف المخدر بأنه كل ما له تأثير منشط أو مهدئ للجهاز العصبي . فهل سوف يأتي اليوم تشن فيه حملة على التدخين وتناول الشاي والقهوة كما تشن على تعاطي الحشيش والهيروين وغيرهما من مخدرات محرمة قانوناً .

ثالثاً - اعتياد المرضى الذين يعالجون بالمخدرات على تعاطيها ووقوعهم في براثن الإدمان : فمن يستمر في تعاطي بعض العقاقير المنشطة أو المهدئة يكون معرضاً للاستزادة منها ، أو على الأقل لعدم الاستغناء عن تعاطيها . فهل هناك إجراء طبي يضمن عدم الاعتیاد على التعاطي أو عدم الوقوع في مطب الإدمان نتيجة العلاج بالمخدرات ؟ الواقع أن الإنسان ليس مجرد كائن حي يمكن التحكم في سلوكه . إنه كائن مريد ومخطط لمستقبله وكثيراً

ما يكون التخطيط للمستقبل مرتبطاً بما يلذ ويمتع . وما تحمله المخدرات من إحساس بالنشوة والارتياح برغم ما تحمله معها من أضرار خطيرة تحيق بشخصية المتعاطي ، قد تدفع المريض بعد ارتفاع الرقابة الطبية عنه إلى التعاطي والوقوع في هوة الإدمان . رابعاً - إن لبعض المخدرات أثراً في النشاط الجنسي مما يفرى بتعاطيها : فمن غير شك فإن الرغبة الجنسية تلعب دوراً بارزاً في حياة المرء . فالكثير من الرجال يقبلون على تعاطي الأعشاب والمواد التي لها تأثير مقو أو منشط للجنس حتى يتسنى لهم النجاح في حياتهم الزوجية . وإنك لتجد بعض تلك الأعشاب والثمار تروج عند العطارين وعلى قارعة الطريق ، فيقبل الرجال على شرائها وتعاطيها بينما قد تكون لتلك الأعشاب والثمار أضرار جسيمة خطيرة لم يكشف النقاب طبيًا عنها بعد ، ولكن المهم في نظر الرجال هو ما يحرزون من نتائج منشطة أو مقوية يحسون بها لدى ممارستهم للجنس مع زوجاتهم . فهل سوف يأتي اليوم لمدارسة تلك الأعشاب والثمار وما تحمله في طياتها من أضرار جسيمة متباينة .

خامساً - دخول المركبات الكيميائية في تصنيع المخدرات : فالواقع أن مكافحة زراعة الحشيش وغيره من نباتات مخدرة أسهل بكثير من مكافحة القيام بعمل تركيبات كيميائية مخدرة . ولعلنا لا نخشى إذا ما قلنا إن المخدرات الكيميائية يمكن أن يتم إنتاجها حتى بالمنازل كما هو حادث بالنسبة لإنتاج التبغ بسهولة في البيت . ومما ييسر إنتاج المخدرات أو انتشار تعاطيها أنها لم تكن محرمة منذ أوقات ليست بعيدة جداً . فلقد كان الخشخاش الذي يستخرج منه الأفيون يباع بالشوارع على العربات ، وكانت كثير من الأميات يقمن بغليه وإعطائه لأطفالهن حتى يخلدن إلى النوم .



ولا يستيقظوا أثناء الليل ويزعجون . وما يزال كثير من الناس يعتقدون أن تعاطي الحشيش لا يحدث الإدمان كما يحدث بإزاء الأفيون أو الهيروين . ناهيك عن أن الكثير من النساء يشجعن أزواجهن على تعاطي العقاقير التي تنشطهن وتحافظ على قوتهم الجنسية ظناً منهن أن ما يقوى وينشط الجنس يقوى وينشط الجسم كله . فإذا جاء اليوم الذي يكون التركيب الكيميائي للمخدرات مسوراً بالبيت ، فإن الإدمان سوف يكون آفة ويكون من الصعوبة جداً القيام بمقاومته أو علاج المرتمين في أحضانه .

الإدمان وأثره في سوية الشخصية :

على الرغم من أن لفظ « إدمان » من الألفاظ الشائعة على الألسنة والأقلام ، فإنه مشوب بالعموض والإبهام ، الأمر الذي يجعلنا على محاولة استجلاء معناه حتى يكون استخدامنا له واستييان أثره في سوية الشخصية دقيقين وقائمين على أرض صلبة . وثمة عدد من التعريفات التي يمكن أن نجول بالخاطر لعلنا نقتمها ونقوم بمناقشتها على النحو التالي .

أولاً - ينصب مفهوم الإدمان على تناول المواد التي لها تأثير ممتع في مزاج المرء أو تفكيره أو إرادته : ولكن الواقع أن فهم الإدمان على هذا النحو تشويه بعض الالتباسات . فقلنا نساءل : أليس تناول الطعام العادي وشرب الماء ومن ثم الإحساس بالشبع والارتواء يؤثران في مزاج المرء وتفكيره وإرادته ؟ ألا يحس المرء بأن مزاجه قد انحرف وأن تفكيره قد نضب ، وأن إرادته قد خارت عندما يجوع أو يعطش ؟ إذن فهذا المفهوم قاصر بإزاء تعريف الإدمان . فهو تعريف ليس جامعاً مانعاً كما يقول المناطقة ، أي أنه لا يغطي كل المعنى كما أنه يسمح بتداخل معانٍ أخرى معه .

ثانياً - إن الإدمان يعنى تعلق المرء بتعاطي مواد معينة لا يستغنى عن تعاطيها : وعلى الرغم من أن هذا التعريف ينصب بالفعل على معنى الإدمان ، فإنه ليس مانعاً لإدراج أشياء أخرى غير المخدرات في نطاقه فيتعلق المرء بتناولها ولا يستغنى عنها ومع ذلك لا تعتبر من المخدرات . فالطفل الصغير الذي يتعلق بثنثي أمه ويمتص لبنانها ولا يستغنى عن تناوله لهما لا يعتبر مدمناً مهما كان كلفه بالرضاعة .

ثالثاً - إن الإدمان يتحدد في ضوء النتائج السلوكية السيئة التي تترتب على تعاطي المخدرات : وهذا التعريف بالرغم من أن له وجهته ، فإنه ليس جامعاً . ذلك أن بعض المدمنين لا يبدون سلوكاً سيئاً ، بل إن بعضهم يبدون سلوكاً جيداً وهم تحت تأثير التعاطي . فبعض الفنانين الذين يشار إليهم بالبنان في مجال التلحين أو الغناء كانوا يتعاطون ويدمنون في التعاطي . وبعض المؤلفين الكوميديين لا يتسنى لهم تأليف النواذر والمواقف المضحكة إلا إذا كانوا في حالة فقد الوعي والوقوع تحت تأثير المخدر . فهل نحكم على السلوك بأنه سيئ بالرغم من أنه يسعد المشاهدين له أو المتابعين لنتائجه ؟ إننا لا نستطيع أن نحكم على السلوك الذي يسعد الآخرين ولا يؤذيهم من قريب أو من بعيد بأنه سلوك سيئ أو بأن نتائجه سيئة برغم تأكيدنا على ضرره الذي يصيب المتعاطي نفسه ، بل لقد نزع من سلوك الفنان أو المؤلف المدمن له نتائج حسنة إذا نحن اعتبرنا أن ما يسعد الآخرين من سلوك يكون حسناً وليس رديئاً . إذن فهذا التعريف ليس جامعاً مانعاً بدوره .

رابعاً - إن الإدمان يتحدد في ضوء ما يمكن أن يترتب عليه من أضرار اجتماعية : فهذا التعريف اقتصادي بالمعنى العام لكلمة اقتصاد . فالإدمان يعمل على تبديد طاقاته الشخصية العادية والثقافية

والحضارية . فالأموال التي تنفق على ما يتعاطاه المدمن من مخدرات كثيراً ما تدفع به إلى حافة الفقر والفاقة ، كما أن المدمن لا يستطيع أن يرتقى ثقافياً أو حضارياً ، بل إنه يهجر عمله وأسرته في الغالب ويرتمى في أحضان الرذيلة بكافة أنواعها ويتسكع في الشوارع أو يقضى البقية الباقية من عمره بالسجون . وعلى الرغم من أن هذا التعريف صحيح إلى حد بعيد ، فإنه ليس جامعاً مانعاً . فبعض المدمنين لا يصلون في مدى إيمانهم إلى حد الفاقة . فلقد تجد من بين تجار المخدرات مدمنين ، ولكنهم يربحون من تجارتهم الأثمة أكثر بكثير مما ينفقونه على ما يتعاطونه من مخدرات . ناهيك عن تجار الرقيق الأبيض والسامسة والمهربين والمرتشين وأصحاب الملاهي الليلية وأصحاب الملايين الذين مهما أنفقوا على ما يتعاطونه من مخدرات فإن دخولهم وزعمس أموالهم الباهظة لا تهتز ولا تتأثر قيد أنملة . وأكثر من هذا فإن بعض المدمنين يعتبرون أن إيمانهم واستمرار تعاطيهم للمخدرات من صميم عملهم . من هؤلاء الراقصات بالملاهي والقوادون .

خامساً - إن الإدمان يتحدد في ضوء ما يترتب على مداومة تعاطي مخدر أو أكثر من نتائج تتعلق بجسم المرء ووجدانه وعقله وعلاقاته الاجتماعية ومستقبله : وهذا التعريف للإدمان هو الذي نأخذ به ونعتبره جامعاً مانعاً . فليس هناك من يعترض على أن كمية المخدر التي يتعاطاها المدمن وعدد المرات التي يتعاطى خلالها ونوع المخدر الذي يتعاطاه تؤثر جميعاً في قوامه البيولوجي ، وفي مدى اعتياد جسمه على التعاطى ، وفي مدى تعلقه وجدانياً بالمخدر الذي اعتاد على تعاطيه ، وما يترتب على حرمانه من تناوله من تقلبات مزاجية ، وأيضاً ما يترتب على تعاطيه من تغير في سلوكه الوجداني والاجتماعي ، فلا يحس

بالارتباطات الوجدانية بأسرته وأقربائه ، وما يتأثر به فكره من عجز عن التركيز الذهني ، بل وانحطاط قدرته على التعبير عن أفكاره . وباختصار فإنه ينحط صحياً ووجدانياً وعقلياً ولغوياً وعلائقياً ، كما يفقد قدرته على التقييم الصحيح ، كما أن ضميره ينطفئ فلا يكاد يحس بالندم حتى ولو أبدى ما يخدع به الآخرين من شعور بالأسى بازاء ما انحط إليه من وضع نفسي واجتماعي مهين . وباختصار فإن المدمن هو شخص فقد هويته الإنسانية السوية التي كان يتمتع بها قبل ترديه في هوة الإدمان .

وظالما أننا أخذنا بهذا التعريف الأخير وقد كشفنا النقاب عن قصور باقى التعريفات الأربعة التي سبقته ، فإن علينا أن نلقى الضوء على أثر الإدمان في سوية شخصية المدمن . على أن مظاهر الخروج عن اسوية تبدو على النحو التالي :

أولاً - إصابة أجزاء معينة بالمخ بالعطب : فالمدمن بتعاطيه للمخدرات بكثرة وباستمرار يفقد مخه بعض وظائفه وذلك بسبب الأعطاب التي تصيبه . فتأثير المخدرات في الجسم يختلف عن تأثير الكثير من المواد الأخرى التي تتفاعل معه وتؤثر فيه . فبعض ما يتناوله الإنسان من أطعمة أو مشروبات يمكن أن يؤثر بالضرر في الكبد أو المعدة أو غيرهما من الجهاز الهضمي . ولكن المخدرات وإن كانت تؤثر أيضاً في الجهاز الهضمي للمدمن ، فإن أثرها الأخطر يتعلق بما تحدثه من هدم وعطب في بعض مناطق المخ مما لا يمكن إعادة بنائه أو إصلاحه من جديد . فحتى إذا تسنى معالجة المدمن من مرض الإدمان ، فإن من المستحيل تعويضه عما فقده مخه من قدرة على العمل كما كان حاله قبل الوقوع في هوة الإدمان .



ثانياً - فقدان التكامل النفسي : ونعنى بالتكامل النفسى الاتساق الداخلى بين المشاعر الوجدانية بعضها وبعض ، وبين الأفكار بعضها وبعض ، وبين النزوعات وما يعنى المرء القيام به من أنشطة بعضها وبعض ، ثم الاتساق الداخلى بين المشاعر الوجدانية والأفكار ، ثم بين المشاعر الوجدانية والنزوعات ، ثم بين الأفكار والنزوعات . وبالنسبة للمدمن فإن هذه الأنواع من الاتساقات الداخلية تكون مفقودة ، بل إن الصراعات تسود الحياة الداخلية للمرء ، فيصير مشتتاً فى حياته الداخلية ويفقد الانسجام بين مقوماته الوجدانية والعقلية والنزوعية .

ثالثاً - فقدان الثقة بالنفس : ويترتب على فقدان المدمن التكامل النفسى فقدانه ثقته بنفسه . ومن المعروف أن الثقة بالنفس تتأتى للمرء نتيجة توافر مجموعة من المقومات من أهمها اتساقه الداخلى ، وتقديره لمنجزاته السابقة ، وتقديره لوضعه الراهن ، وتوقعاته المتفائلة بما سوف يسفر عنه المستقبل بإزاء خططه ومشروعاته وما يتوقع لها من نجاح وسداد ، واعتداده بقدرته على التفكير والتنفيذ ، وإحساسه بثقة الآخرين فيه وفى قدرته على التصرف ومجابة ما يمكن أن يعترضه من مشكلات . ومما لا شك فيه أن المدمن يفقد ثقته فى نفسه نتيجة فقدانه لتلك المقومات التى ذكرناها والتى تعتبر الركائز الرئيسية التى تقوم بالثقة بالنفس على أساسها وتترتب عليها .

رابعاً - فقدان التكامل الاجتماعى : ونعنى بالتكامل الاجتماعى قدرة المرء على إقامة وشائج أو علاقات اجتماعية جديدة بغيره من الأفراد والجماعات ، وقدرته أيضاً على هدم الوشائج الاجتماعية التى كان قد أقامها ثم صارت غير مناسبة أو غير ملائمة لوضعه أو مكانته أو ظروفه الاجتماعية ، ثم إن

التكامل الاجتماعى يعنى أيضاً القدرة على التعاون مع الآخرين فى النهوض بأعمال أو أنشطة مشتركة . والتعاون لا يعنى القيام بالدور الخاص بالمرء فحسب بل يعنى أيضاً عدم النكوص عن سد الفراغات التى تحدث فى النهوض بالعمل ككل والحلول محل من يتخلف عن الحضور أو من يحجز عن القيام بدوره أو يهمل فى أدائه ، كما أن التعاون يعنى مراعاة ظروف المؤسسة التى يعمل بها المرء . فلقد تحتم الظروف عدم منح الأجر الإضافى أو العلاوة الدورية فيكون على الشخص المتكامل اجتماعياً التعاون مع مؤسسته فى اجتياز الأزمة التى تمر بها . والتكامل الاجتماعى يعنى الانسجام مع المؤسسات الاجتماعية المتباينة التى ينخرط المرء فى نطاقها وينتمى إليها بحيث يميز بين الأهم منها فالهم فالأقل أهمية . وعلى رأس تلك المؤسسات أسرته ثم المصلحة أو الشركة التى يعمل بها إلى غير ذلك من مؤسسات اجتماعية متباينة . ومن المؤكد أن المدمن يفقد قدرته على التكامل الاجتماعى فلا يستطيع أن يحقق كل ما عرضنا له من مقومات تتعلق بهذا التكامل .

خامساً - فقدان القدرة على التقييم : والمدمن يقع فى هوة فوضى القيم . فهو يحمل فى قوامه الكثير من القيم المتناقضة التى لا تتسجم بعضها مع بعض ولا تتساقط بعضها مع بعض . فهو لا يكاد يحس بالقيم الإطلاقيه المقدسة ولا يكاد يتحمس لها . قيمة الأمانة مثلاً لا تجد لها صدى فى قلبه ، فهو إذ يقدم على السرقة أو الاختلاس لا يحس بأن للأمانة قيمة مطلقة يجب الحفاظ عليها . ويتعبير آخر فإن ضميره لا يحاسبه إذا ما أقدم على السرقة أو الاختلاس . وكذا الحال بإزاء جميع القيم كالشرف والعفة والطهارة

والسمعة الطيبة والإخلاص والوفاء والاعتراف بالجميل وغير ذلك من قيم أخلاقية . ناهيك عن ضربه صفحاً بالقيم الدينية . فهو ينظر بلا مبالاة إلى الصلاة والصوم وممارسة الشعائر الدينية التي ينص عليها دينه .

أثر الضغوط الخارجية في كيمياء الجسم :

علينا بادئ ذي بدء أن نقوم بتحديد ما نقصده بالضغوط الخارجية حتى يتسنى بعد ذلك إلقاء الضوء على ما تؤثر به تلك الضغوط في كيمياء الجسم ، فتؤثر بالتالي في سوية الشخصية . والضغوط الخارجية تتمثل فيما يلي :

أولاً - الضغوط الذهنية : فقيام المرء بتركيز ذهنه سواء عن طريق المدركات الحسية ، أم عن طريق الحفظ والاستظهار ، أم عن طريق الاسترجاع والتذكر ، أم عن طريق الإمعان في تصنيع صور تخيلية مبتدعة ، أم عن طريق التجريد والتعميم المتعمقين والمستمرين لمدة طويلة ، يشكل ضغطاً نفسياً على المرء . وعلى الرغم من أن هذه العمليات جميعاً تتم بدخيلة ذهن المرء ، فإن الركيزة الأولى فيها أو نقطة الانطلاق تتمثل في العمليات الإدراكية التي تنصب على الواقع الخارجي المحسوس ، بينما تعتبر سلسلة العمليات التالية المتمثلة في الحفظ والاستظهار ، والاسترجاع والتذكر ، وتصنيع الصور التخيلية ، والعمليات التجريدية التعميمية ، بمثابة ثمار للركيزة الإدراكية المستمدة من الواقع الخارجي المحسوس .

ثانياً - ضغوط التوقعات المستقبلية : فالطالب الذي يتكب على الاستدكار طوال العام الدراسي ترقباً لاجتياز امتحان آخر العام يتفوق ، إنما يبذل جهداً ذهنياً كبيراً في عملية التوقع والترقب لما سوف تسفر عنه جهوده المبذولة في الاستدكار وفي الانظام

على حضور الدروس بالمدرسة أو المعهد أو الكلية . ومما يعمل على ثقل الضغوط الخارجية على الطالب أنه لا يرقب أو يتوقع وحده ما يسفر عنه جهده في الاستدكار في امتحان آخر العام ، بل إن أسرته وجيرانه وزملاءه يشتركون معه في ذلك الترقب والتوقع . فهو يستشعر مشاعر متناقضة تتعلق بالمستقبل . فثمة مشاعر الزهو والفرح أمام الآخرين إذا ما قبض له النجاح والتفوق ، وثمة من جهة أخرى مشاعر الخزي والغم إذا ما ابتلى بالسرب والتخلف عن زملائه الناجحين والمنفوقين . وعلى الرغم من أن موعد الامتحان لا يحل إلا آخر العام الدراسي ، فإن ضغط الترقب والتوقع لما سوف يحمله ذلك المستقبل الذي سيحل فيه وقت الامتحان يشكل ضغطاً خارجياً مستمرًا طوال العام الدراسي ، أي أن المستقبل المرتقب والمتوقع يؤثر في الحاضر ويشكل ضغطاً على المرء لا يقل في شدته وتأثيره عن الضغوط الخارجية الأخرى .

ثالثاً - ضغوط العمل : فالوظائف والأعمال المتباينة بمثابة قوالب أدائية يجب على الموظف أو العامل أن يصب جهده فيها ، وأن يلتزم بالأداءات المقررة والروتين الذي يجب أن يتبع في التنفيذ . والواقع أن الوظائف والأعمال المتباينة تتسم في غالبيتها بالتمطية التي لا حيدة عنها في الأداء . ولعل من أكثر الأشياء ضغطاً على الموظف أو العامل تلك النمطية أو الروتين على الرغم من أن العمل النمطي أو الروتيني يوفر الكثير من الجهد الذهني . ذلك أن الإنسان بحاجة إلى تحقيق ذاته والتميز بالنفردية والأصالة فيما يضطلع به من نشاط . فإذا هو حرم من تحقيق ذاته ومن التميز والتفرد والأصالة ، فإنه يحس إنز بالتبرم بحياته ، أو هو يحس أنه قد صار بمثابة آلة أو أداة عليها أن تنفذ ما جعل لها وحُدِّد مسبقاً ، ومصادرة ما يختص به كإنسان مفكر ومبدع . ومن ثم فإنه يحس بتقلص المصطح الخارجي على أعصابه .

ثالثاً - ضغوط المشكلات الاقتصادية : وهذا النوع من الضغوط لا يخضع له الفقراء والمعوزون وحدهم ، بل يخضع له الأغنياء والموسرون أيضاً . فبينما يحس من لا يكفيه دخله لسداد مطالبه ومطالب أسرته أن عوزه يشكل ضغطاً عليه ، كذا فإن الغنى صاحب المؤسسات أو الأطيان والأرصدة الكبيرة يحس بأن مشكلات كثيرة تطارده في يقظته ومنامه ، وأن عليه أن يضع الحلول لتلك المشكلات التي تتداخل وتتشابك مع مشكلات غيره من الأغنياء وأصحاب الممتلكات أو المؤسسات أو الأطيان . ذلك أن الواقع الاقتصادي يتسم بتشابك المصالح ، بل وأيضاً يتسم بالتنافس الذي يشكل ما يشبه الحرب التي ينهزم فيها طرف بعد انتصار طرف آخر منافس . وباختصار فإن المشكلات الاقتصادية التي تحيق بالمرء سواء كان معوزاً أم ثرياً تشكل بلا شك ضغوطاً خارجية تنقل عليه .

رابعاً - ضغوط الذكريات والأحداث السابقة المؤلمة أو المكدره : فما يمر في حياة المرء من مواقف مؤلمة أو مكدره أو مزعجة يظل معتملاً في قوامه الشعوري واللاشعوري . وقد تطارده تلك الذكريات والأحداث السابقة المنعصه والضاغطة عليه من الداخل حتى في أثناء نعاسه فتتبدى له في أشكال كائنات مخيفة رهيبه تنقض عليه أو تحاول الفتك به . إذن فالماضي يشكل واقعاً خارجياً ضاغطاً لأنه صورة أو رمز لواقع حدث بالفعل . وليس هناك فرق بين الأصل والصورة إلا من حيث احتلال حيز في الزمان ، ولكن ما يتركه الواقع المؤلم من أثر نفسي لا يختلف عما تتركه الذكريات المتعلقة به ، ولعلنا لا نبالغ إذا ما زعمنا أن الذكريات قد تخضع للتكثيف بحيث ينضغط الكثير من آثار الواقع المؤلمة والمؤثرة في هيئة ذكريات مركزة كأنها صارت تجسداً

للكثير مما سبق أن وقع بالفعل . ناهيك عن الدور الخطير الذي تضطلع به المخيلة في التكبير والتضخيم والإضافة وخلق مركبات تخيلية جديدة من تلك الخامات التنكرية التي تراكمت في اللاشعور أو من تلك التي تطفو على سطح الشعور . فهذه كلها تشكل ضغطاً خارجياً وإن كان الخارج قد ترسب نفسياً في دخيلة المرء وصار يعمل من خلال القوام النفسي للمرء .

خامساً - الضغوط الأخلاقية : فتمه في كل مجتمع مجموعة من القواعد السلوكية التي ينبغي على المرء أن يتبعها ولا يخالف عنها . وتختلف تلك القواعد من سن لأخرى ، كما تختلف باختلاف المناسبات ، بل وباختلاف الموقع الاجتماعي أو الوظيفي الذي يحتله المرء ، كما تختلف باختلاف الجنس (نكر أو أنثى) . والقواعد السلوكية قد تكون منصبة على تحديد الخير والشر ، أو على تحديد المفيد والضار ، أو على تحديد المناسب وغير المناسب . ومن المجتمعات ما تكون ضغوطه الأخلاقية متممة بالتشدد والتدقيق ، ومنها ما تكون ضغوطه الأخلاقية متممة بالتساهل والإغضاء . ومهما يكن فإن الضغوط الأخلاقية تكتنف حياة المرء منذ طفولته حتى نهاية عمره . وتختلف النتائج النفسية التي تترتب على تلك الضغوط الأخلاقية باختلاف الأشخاص في ضوء مدى الحساسية النفسية لدى كل منهم .

وبعد أن استعرضنا هذه الأنواع الخمسة من الضغوط الخارجية ، فإن علينا أن نتدارس آثارها في كيمياء الجسم ولعلنا نحدد تلك الآثار في النقاط التالية :

أولاً - ما يتعلق بالعصارات المعدية والمعوية : فلقد أكدت البحوث الفسيولوجية وجود صلة تفاعلية حميمة فيما بين ما يتعرض له المرء من ضغوط خارجية كذلك التي عرضنا لها في

البند الخمسة السابقة وبين الاضطرابات الهضمية التي تنجم عن الزيادة في إفراز بعض العصارات الهضمية بالمعدة أو الأمعاء أو ما قد يصيب الكبد والمرارة من أعطاب بسبب ما ينجم من اضطرابات في كيمياء الجسم مما يؤثر بالضرر في جميع أجهزة الجسم المسؤولة عن الهضم .

ثانياً - ما يتعلق بخلايا الجسم والإصابة بالأمراض السرطانية : والضغط الخارجية التي نكرناها قد تؤثر في كيمياء بعض خلايا الجسم فتصاب بالاضطراب في علاقاتها بعضها ببعض ، وبالتالي فإن الأورام السرطانية تبدأ في الظهور على سطح الجسم ، أو قد تكون مستخفية في أحد أجهزة الجسم الداخلية ، ولقد وجد بالفعل أن ثمة علاقة بين الضغوط الخارجية وبين الكثير من حالات الإصابة بالأمراض السرطانية وبضمنها سرطان الدم .

ثالثاً - ما يتعلق بوظائف بعض مناطق المخ : فالضغوط الخارجية قد تؤثر في كيمياء المخ ، أعنى في خلايا أو مراكز المخ المتباينة ، فتعمل بعض الضغوط على إحداث أنواع من التفكير المركبات الوظيفية القائمة بين مراكز المخ المتباينة التي تتعاون بعضها مع بعض ، أو تعتمد بعضها على بعض ، فيتأثر عن ذلك فقدان المرء القدرة على التفكير المنطقي السديد ، أو قد يفقد القدرة على الحركة أو على الكلام والاتصال بالآخرين من حوله والمهتمين بشئونه .

رابعاً - ما يتعلق بالهدم والبناء الحيويين : ولقد يتأثر عن الضغوط الخارجية حدوث اضطراب في كيمياء الجسم يتأثر عنه حدوث اضطراب في نظام الهدم والبناء الحيويين . وقد سبق أن عرضنا لهما ، ولكن ما نؤكد في هذا المقام أن الضغوط الخارجية قد يترتب عليها حدوث اضطراب في هاتين العمليتين اللتين تتسمان

في الحالات السوية بنظام معين تبعاً للسن التي يبلغها المرء . ففي الطفولة تكون عملية البناء أقوى من عملية الهدم ، وفي الشباب تكون عملية البناء مساوية لعملية الهدم . وفي الشيخوخة تغلب عملية الهدم على عملية البناء ولكن بشكل تدريجي وليس بشكل طفرى . على أنه في حالة زيادة الضغوط الخارجية وعضفها وعدم قدرة المرء على تحملها ، فإن عملية الهدم تزيد في قوتها عن عملية البناء . فما كان يتوقع حدوثه في الشيخوخة يحدث في الشباب أو في الكهولة (فيما بين ٣٠ ، ٥٠) .

خامساً - فيما يتعلق بالإصابة بالإيدز : فالواقع أن مرض الإيدز عبارة عن تلف يصيب جهاز المناعة نتيجة تأثير من الخارج متمثلاً في تسلسل فيروس الإيدز إلى الجسم . فهنا نضيف نوعاً جديداً من الضغوط الخارجية إلى الأنواع الخمسة التي نكرناها قبلاً ، وهو نوع يتعلق بضغط متأينة عن كائنات دقيقة هي الفيروسات ومن أشهرها وأخطرها حالياً فيروس الإيدز . وهذا الفيروس يحدث تلقاً في كيمياء الجسم نتيجة انهيار جهاز المناعة ، فيصاب المريض بالإيدز بمجموعة كبيرة من الأعراض المرضية . ولا غرو فإن لفظ إيدز (Aids) هو اختصار لعبارة (Acquired Immunity deficiency syndrome) وترجمة هذه العبارة هي « مجموعة الأعراض المكتسبة بسبب انهيار جهاز المناعة ، وهذا الانهيار هو في الواقع نتيجة ما يحدث من فوضى في كيمياء جسم المريض بالإيدز .

ولنا أن نقول في نهاية هذا الموضوع إن ثمة تأثيراً متبادلاً فيما بين خارجية الجسم وداخليته . فكما أن الضغوط الخارجية ذات أثر كبير في كيمياء الجسم ، كذا فإن كيمياء الجسم ذات أثر كبير في مظهر المرء وفي الأنشطة التي يضطلع بها . ولعلنا لا نحصى إذا

أثر العوامل اللاشعورية في كيمياء الجسم :

لا بد لنا من تحديد المقصود بالعوامل اللاشعورية قبل استبانة أثرها في كيمياء الجسم . والواقع أن تلك العوامل تتضمن ما يأتي :

أولاً - العوامل اللاشعورية العامة : وهي العوامل أو الأنشطة الجسمية الفسيولوجية التي تتعاون فيما بينها لأداء وظائف حيوية متباينة للجسم . ولقد كان الاعتقاد المسائد قديماً أن أجهزة الجسم المتباينة لا تكتسب خبرات وأنها تعمل بصفة مستمرة كما قدر لها قبل أن تعمل بغير زيادة أو نقصان ، وبغير سرعة أو إبطاء . ولكن الدراسات الفسيولوجية الحديثة نسبياً قد كشفت النقاب عما تكتسبه أجهزة الجسم المختلفة من خبرات . وأكثر من هذا فقد صار هناك ما يعرف بالنكاه الفسيولوجي . فالمعدة والأمعاء مثلاً تتعلمان هضم أطعمة معينة موجودة بالبيئة لا تستطيع المعداد والأمعاء اللتان لم تتعلما هضمها أن تقوم بهضمها . فالمصريون الذين لم يقضوا مدة طويلة ببعض الدول العربية لا يتسنى لهم هضم لحم الأغنام التي تغذت على أنواع معينة من الحشائش هناك ، والكثير من الأجانب الذين يفنون إلى مصر يصابون بالميل إلى التقيؤ إذا ما شربوا الماء العادي من الصنبور ، فيضطرون لشرب الماء المقطر المعبأ بزجاجات . والشخص الذي لم يعتد معاقرة الخمر إذا ما شرب القليل منه فإنه يحس بالدوار أو الغثيان بينما تجد بعض المدمنين يشرب الواحد منهم زجاجة خمر كاملة دون أن يحس بالأعراض نفسها التي يحس بها الشخص الذي يشرب القليل من الخمر . وما يقال عن المعدة والأمعاء ينسحب على جميع أجهزة الجسم المتباينة ، وما تقوم به تلك الأجهزة من وظائف أو ما تتخذ من مواقف بجزء الظروف المتباينة هو ما يخرط في نطاق تلك

ما قررنا أن تأثير الخارج في الداخل وتأثير الداخل في الخارج لا يخرجان عن حدود التفاعلات فيما بين المقومات الخارجية والمقومات الداخلية ، وليس هناك فاصل أو اتجاه واحد للمؤثرات التي تترك بصمتها على حياة المرء أو على مجرى نشاطه . فلنكن هناك نزاماً فيما بين الخارج والداخل . فيغير وجود استعدادات مسبقة لإصابة المرء بنوع أو آخر من أنواع التأثيرات الداخلية ، فإن الخارج لا يستطيع أن يؤثر من قريب أو من بعيد في قوام المرء ونشاطه . وكذا فإنه ما لم تحدث الضغوط الخارجية الفعالة في تفاعل مع المقومات الداخلية ، فإن تلك المقومات الداخلية تظل في حالة كمون . وعلى هذا فإننا لا نستطيع أن نرجح كفة الخارج على كفة الداخل ، أو كفة الداخل على كفة الخارج . وحتى بالنسبة لمرض الإيدز فإننا نقول إنه لولا أن الجسم البشري قابل لتقبل فيروس الإيدز ، ما كان له إذن سلطان على الإنسان ، ولما وجنا شخصاً واحداً مصاباً بهذا المرض الوبيل . وهناك من الأمراض ما لا يصيب بعض الأشخاص بينما يصيب غيرهم وذلك لأن أجسامهم لا تقبل الإصابة بها . فكما أن الأوكسجين والأيدروجين يشتركان بالتفاعل بعرضهما مع بعض في إنتاج مركب هو الماء ، ولا نستطيع أن نقول إن واحداً منهما يسبق الآخر في التفاعل ، وكذا فإننا لا نستطيع أن نقول إن الضغوط الخارجية سابقة على الاستعدادات الداخلية ، أو أن الاستعدادات الداخلية سابقة على الضغوط الخارجية من حيث لحظة بداية التفاعل فيما بينهما أو التقاتلها ، وإن كنا نحكم بأسبقية الضغوط الخارجية من حيث الظاهر لأننا كملاحظين خارجيين ندرك الخارج قبل أن ندرك الداخل .

العوامل اللاشعورية العامة ، وهى العوامل التى تتباين عن العوامل اللاشعورية التى ركز فرويد على أهميتها فى الحياة السيكولوجية والأخلاقية والاجتماعية وما لها من أثر فى مستوى الصحة النفسية للمرء .

ثانياً - العوامل اللاشعورية الخيرية : ونعنى بها تلك العوامل المتعلقة بالخبرات التى يكتسبها المرء وتشكل لديه مجموعة من العادات الحركية والنوجدانية والعقلانية والتعبيرية اللغوية والعلائقية . فتلك العادات الخمس تشكل مجموعة من العوامل اللاشعورية الخيرية التى يأتيها المرء بطريقة لا شعورية أو تحت شعورية . وبالمناسبة فإن العلاقة فيما بين الشعور واللاشعور علاقة نسبية أو علاقة تضاد كالعلاقة بين البياض والسواد . فكما أن هناك تدرجاً فيما بين البياض والسواد بحيث نجد فى أشد الأشياء بياضاً بعض السواد ، وفى أشد الأشياء سواداً بعض البياض ، كذا فإننا نجد أنه فى أشد حالات الوعى أو الشعور بعض فقدان الوعى أو اللاشعور ، كما أننا نجد فى أشد حالات فقدان الوعى أو اللاشعور بعض الوعى أو الشعور .

ثالثاً - العوامل اللاشعورية الخيرية الفردية والجمعية : فمن الممكن أن نميز فيما بين نوعين من العوامل اللاشعورية الخيرية : أحدهما فردى خاص بكل فرد قائم برأسه ، والآخر جمعى خاص بكل مجموعة من مجموعات الناس ، سواء كانت مجموعة صغيرة أم كانت مجموعة كبيرة . فجماعة الموسيقى أو التمثيل بإحدى المدارس لا شعور جمعى ، كما أن للشعب المصرى ككل لا شعوره الجمعى . وبناء على هذا فإنه بالنسبة للشعب الواحد تكون هناك دائرة لاشعورية كبيرة تضم فى داخلها دوائر صغيرة تمثل كل منها اللاشعور الخاص بكل مجموعة فرعية تقع فى

نطاقه ، بالإضافة إلى اللاشعور الجمعى العام المتعلق بالشعب ككل وهو الذى يحتل الدائرة اللاشعورية الكبيرة .

رابعاً - العوامل اللاشعورية الانفعالية : وهذا النوع من العوامل اللاشعورية هو الذى أبرزه فرويد للعيان وأعلن عن أهمية الدور الذى يلعبه فى الحياة السيكولوجية والسلوكية للمرء ، ويعزى إليه قطاع كبير من المواقف التى يتخذها المرء فى حياته ، سواء تلك المواقف التى يتخذها بتجاه نفسه أم بتجاه الآخرين الذين يتعامل معهم ، وسواء تلك المواقف الزاهنة أم المواقف التى يخطط لاتخاذها فى المستقبل . ولقد أكد فرويد أن المكبوتات الانفعالية التى تتراكم فيما أسماه باللاشعور تعمل من وراء الستار وبشكل مستخف فى حياة المرء . ولكن إذا ما اشدت ضغطها على جدار الشخصية فإنها قد تنفجر ويبدو من السلوك ما هو غريب وشاذ ويعيد عن السوية تماماً .

خامساً - اللاشعور التهويمى : والتهويم drowsiness حالة تقع فيما بين اليقظة والنعاس . والكثير من الفلاسفة والفنانين والأدباء يمرون فى حالة التهويم اللاشعورى أو اللاشعور التهويمى . ونذكر بهذه المناسبة ما كان سقراط الفيلسوف مشهوراً به من تهويم ، إذ كان يقضى الساعات المتتالية وهو واقف لا يتحرك بينما يكون غائصاً فى أعماقه يجيل بصيرته الإلهامية فى المسائل الفلسفية التى كان مهتماً بها . ويقال أيضاً إن بعض المتصوفة والزهبان والنسك عمومًا يمرون فى هذه الحالة اللاشعورية التهويمية (أنظر كتاب «الاعتكاف» : عودة إلى الذات ، ترجمة المؤلف) .

وعلينا بعد استعراضنا لما تتضمنه العوامل اللاشعورية من أنواع متباينة أن نقوم بمحاولة كشف النقاب عن فاعلية تلك العوامل بشكل عام فى كيمياء الجسم ، فنجد أن من الممكن تحديد تلك الفاعلية على النحو التالى :

تحت تأثير المعاناة النفسية التي يخترط فيها في أثناء مروره بتلك الحالات اللاشعورية المتباعدة . وبالنسبة لكثير من الأطفال وبعض الكبار الذين يعانون من البوال الليلي ، فإن ما يخترطون فيه من أحلام يخيلون أنفسهم في أثناءها أنهم في دورة المياه بينما يكونون في الواقع سادرين في نومهم على أسرتهم فيتبولون في الفراش بينما يكون الاعتقاد الذي خيم عليهم في أثناء تبولهم أنهم في دورة المياه . وبذا فإن ما يكونون تحت سلطانه وهم في حالة لاشعورية في أثناء نومهم قد تحكّم في كيمياء أجسامهم ووجهها كما يشاء دون اعتمال إرادتهم .

★ ★ ★

أولاً - فيما يتعلق بكيمياء الهضم : فالواقع إن للعوامل اللاشعورية الأثر الكبير في تزايد أحماض المعدة عن الحد الذي يجب أن تقف عنده . فالكثير من الأشخاص الذين يشكون من سوء الهضم ، إنما يكونون معرضين للإصابة بقرحة المعدة أو القولون نتيجة ما يعانونه من تغيرات كيميائية هضمية وهم غائصين في لجة الحالات اللاشعورية . فما يعانون منه من تغيرات كيميائية في أثناء نومهم أكثر بكثير مما يعانون منه وهم في حال اليقظة . ومما يزيد الطين بلة أن المرء وهو سادر في نومه لا يستطيع أن يتناول الدواء الذي يخفف من شدة ما يعاني منه . فهو يكون تحت رحمة ما يعاني منه إلى أن تشتد الحالة ويحس بالألم فعندئذ فقط يقوم من نعاسه ويتخلص من الحالة اللاشعورية التي كان فيها في أثناء نومه .

ثانياً - فيما يتعلق بالدورة الدموية : فللعوامل اللاشعورية الخمسة التي عرضنا لها قبلاً الأثر في مدى تنظيم الدورة الدموية من حيث نظام ضخ القلب للدم واستقباله له والمتمثل في انتظام دقاته وفي شدة تلك الدقات مما يشير إلى مدى قدرة القلب على إيصال الدم إلى أطراف الجسم جميعاً ، إلى غير ذلك من وظائف الدورة الدموية من حيث سويتها أو خروجها عن إطار السوية . ناهيك عن مستوى ضغط الدم الذي قد يرتفع إلى حد يندر بالخطر في أثناء الانخراط في الحالات اللاشعورية المتباعدة .

ثالثاً - أثر العوامل اللاشعورية في إفراز الغدد الدمعية والغدد العرقية والمثانة : ولتلك العوامل اللاشعورية الأثر أيضاً فيما يمكن أن يعانيه المرء من حالات لاشعورية تحمله على الانفعال والانخراط في البكاء أو في تهيج الغدد العرقية فيتصبب عرقاً وهو

كل الفروق المظهرية والفسولوجية والسلوكية للكائنات الحية ، بما في ذلك الإنسان ، سيد هذه الكائنات .

وبعد عقد واحد تم « فك الشفرة الوراثية » تفصيلياً ، وأمكن ترجمة كلماتها ذات الحروف الثلاثية إلى مكونات بنائية في خلايانا . وبعد عقدين فقط ، أدى الفهم الأوسع لوظائف مادة الوراثة وكيفية بنائها أعنى التوصل إلى المسح الوراثي ، إلى أن تستحدث البشرية أول جزيئات وراثية مؤلفة من أكثر من كائن ومن هذا المنطلق بدأت الهندسة الوراثية .

وحرى بنا أن نحدد مفهوم « المسح الوراثي » فنقوم باستبطان واستجلاء ما يتضمنه من جوانب متباينة على النحو التالي .

أولاً - ما تتضمنه الشفرة الوراثية : فالعلماء في تناولهم لتلك الشفرة الوراثية ، فإن مهمم الأول كان منصباً على محتوياتها . والواقع أن هذا هو دأب العلماء بجزء أي كائن أو أية ظاهرة أو أي عَرَض من الأعراض السلوكية السوية أو المرضية . ولعل الإنسان منذ أن بدأ في اكتشاف الوجود من حوله قد بدأ أول ما بدأ بمحاولة الوقوف على المكونات أو المصامين التي يحتويها سواء كان شيئاً جامداً أم نباتاً أم كائناً حياً . وبالنسبة للكائنات الحية ، فإن الإنسان ظل رحباً من الزمن وهو يقيم جدراً شامخاً ومنيعاً فيما بين جميع مراتب الكائنات الحية وبين الإنسان . فعلى الرغم من أوجه الشبه الكثيرة التي تجتمع للعديد من الحيوانات والإنسان ، فإن النظرة الإعلانية أو التنزيهية للإنسان قد حالت بين الباحثين عبر أجيال كثيرة متعاقبة وبين تناوله بالتحليل والتشريح . ولا غرو فإن تشريح الجنث البشرية ما يزال يلقي الكثير من الاعتراضات من جانب الذين ما يزالون ينزّهون الإنسان عن أن يكون كائناً حياً على قدم المساواة مع الكثير من الكائنات الحية في بعض النواحي

الفصل الثامن هندسة الوراثة وسوية الشخصية

المسح الوراثي :

في مقال هام للدكتور أحمد شوقي بجريدة الأهرام بتاريخ ١٤ أغسطس ١٩٩٣ بعنوان « ميلاد المستقبل » أنه منذ أربعة عقود تم اكتشاف التركيب البنائي لحمض النيوكسي ريبوز النووي (DNA) الذي يمثل مادة الوراثة في كل أشكال الحياة ، وهي المادة المسئولة عن استمراريتها وتطورها وتنوعها ، والتي استطاعت القيام بذلك عن طريق الإمكانات العبقرية وأدخلت البشرية في عصر الهندسة الوراثية . ففي مارس ١٩٥٣ أعلن البيولوجي الأمريكي واطسون والفيزيائي الإنجليزي كريك توصلهما إلى أن مادة الوراثة المنكورة توجد في أنوية خلايا الكائنات الحية على شكل حلزون مزدوج ، يلتف خيطاه حول بعضهما البعض ، ويرتبطان بواسطة روابط كيميائية بين وحدات محددة في الخيطين . ويعد هذا « التكامل » بين الخيطين من أهم ملامح عبقرية تركيب جزيئات مادة الوراثة ، لأنه يسمح بتكرارها الدقيق ، وبالتالي انتقالها من خلية إلى أخرى ومن جيل إلى آخر . وهي تحمل الشفرة الكاملة للكائن المعين . هذه الشفرة مكونة من أربعة حروف لا غير ، تنتظم في كلمات ثلاثية ، توجد في العوامل الوراثية المختلفة (الجينات) في تتابعات متباينة على طول الخيطين . وهذا البناء البسيط « للنص » الوراثي هو المسئول عن

كما هو الحال بإزاء الحواس الخمس . ولكن الحال قد تغير في مراكز البحوث في العصر الحالي وصرنا نجد أن العلماء لا يتورعون عن إجراء التجارب أو على الأقل الدخول في أعماق الإنسان متخطين نطاق الأجهزة الجسمية التي يمكن تناولها ولمسها إلى نطاق الأنوية الحية وقد صمموا على فحص محتوياتها الدقيقة التي تدق على المشاهدة بالميكروسكوبات العادية ، وتخضع للمشاهدة بالميكروسكوبات الإلكترونية .

ثانياً - ترجمة مضامين الشفرة الوراثية : وبعد الوقوف على ما تتضمنه الشفرة الوراثية من مقومات تبعاً للمنهج العلمي الذي اتفق عليه العلماء فيما يتعلق بمدارسة الظواهر المتباينة ، فإن الخطوة التالية التي اتبعها العلماء كانت تتلخص في القيام بافتراض الفروض التفسيرية لتلك المضامين التي توصلوا إليها ووقفوا عليها . وبعد تقديم الفروض الممكنة من جانب المجموعة البحثية التي تضم صفوفه من العلماء في مجال الوراثة ، فإن كل فرض من تلك الفروض المقترحة قد أخضع للمدارسة أو قل للترجمة التجريبية . وكلما ثبت أن الفرض المقترح لم يقدم الترجمة الصحيحة التي تتفق مع النظام الشامل الذي تتبعه الشفرة الوراثية في عملها ، فإنه كان يستبعد . وإذا وجد أن هناك فرضان يقتربان من الصحة والقبول ، عندئذ تعقد مقارنة فيما بينهما للأخذ بأكثرهما قبولاً وأقربهما إلى الترجمة الصحيحة . وبالمناسبة فإن العلماء لا يؤمنون بالإطلاق أو بالصحة المطلقة المنافية للخطأ المطلق ، بل يؤمنون بالنسبية وبالاقتراب من الصحة المطلقة التي لا يمكن التوصل إليها في ضوء ما يمكن إدخاله من تعديلات في التفسير أو الترجمة . المهم أن العلماء قد انتهوا بالفعل إلى الترجمة القريبة من الصحة أو التي تحملهم على اتخاذ الخطوة التالية في المسح الوراثي .

ثالثاً - عمل التوافيق والتباديل بين مقومات الشفرة الوراثية : وبعد ترجمة الشفرة الوراثية ، فإن العلماء أخذوا في القيام بعمل جميع التوافيق والتباديل الممكنة ورصد النتائج التي تتأتى عن كل محاولة في هذا الصدد . ولا شك أن استخدامهم للحاسبات الإلكترونية قد ساعدهم على التوصل إلى نتائج دقيقة . ناهيك عن استخدام أجهزة وأدوات ووسائل تجريب متقدمة ، وهي الوسائل التي تتقدم بشكل مذهل مما يساعد على إحراز تقدم علمي خطير في هذا المجال وفي غيره من مجالات متباينة .

رابعاً - التدرع بالنظرة المقارنة : ولا شك أن التدرع بالنظرة المقارنة فيما بين المملكة البشرية والممالك الحيوانية بل والنباتية المتباينة يلعب دوراً خطيراً في هذا الصدد . على أن هذه النظرة المقارنة لا تقف عند حد الوقوف على الحقائق المتعلقة بكل مملكة من هذه الممالك الثلاث ، بل إنها تتعدى النطاق التأملی المقارن إلى النطاق التجريبي . ففعل العلماء قد تساءلوا : ماذا يحدث لو زواجنا بين مقومات حيوانية معينة مع مقومات نباتية معينة ؟ ذلك أن من الحقائق العلمية التي كشفت عنها العلماء منذ وقت بعيد أن هناك مراحل تطورية بينية فيما بين المملكة النباتية والمملكة الحيوانية . وبعبارة أخرى فإن العلماء يقفون حيارى أمام بعض الكائنات الحية وقد عجزوا عن حسم موقفهم بإزائها من حيث إنها كائنات نباتية أو من حيث كونها كائنات حيوانية . ثم إن النظرة المقارنة التجريبية قد تجاوزت حدود التجريب على مملكتي النبات والحيوان إلى تجريب خطير آخر هو المزاوجة بين المقومات الوراثية الحيوانية والمقومات الوراثية البشرية . وهذا من الاهتمامات التي تحظى باهتمام كبير في أنظار علماء الهندسة الوراثية .

خامساً - عمليات الحذف والإضافة : وبينما نجد أن التوافق والتبادل لا تعدو نطاق الموجود بالفعل ، فإن العلماء أخذوا يتقدمون أشواطاً بعيدة في تقنيات الهندسة الوراثية بعد أن استطاعوا أن يفكوا الشفرة الوراثية . ولعل من أخطر ما يقومون بعمله الآن هو عمليتا الحذف والإضافة . فهل من الممكن الارتفاع بمستوى الذكاء بإضافة جين ذكاء أو أكثر إلى الجين الموجود بالفعل ؟ وهل من الممكن استبعاد أو إزالة جين أو أكثر من الجينات التي تحمل خصائص غير مواتية أو خصائص ضارة ؟ وتعبير آخر : هل سوف يتسنى لمهندسي الوراثة أن يقوموا بالخطيط الوراثي ؟ هذا ما سوف نتناوله في الموضوع التالي .

ولكن قبل أن نتناول موضوع الخطيط الوراثي علينا أن نقوم باستعراض المشكلات والصعاب التي تعترض طريق عملية المسح الوراثي . ولعلنا نسأل : لماذا لا يساهم علماءنا العرب في هذا المضمار ؟ إننا نستطيع أن نستعرض هذه المشكلات والصعاب التي تعترض هذا السبيل وتحول بين علمائنا وبين التقدم في هذا المضمار على النحو التالي :

أولاً - العقبات المتعلقة بالقيم الدينية والخلقية : فمهما ادعى العلماء والتكنولوجيون المشتغلون في مجال الوراثة أنهم لا يناهضون القيم الدينية والأخلاقية ، فإنهم يتذرعون بمنهج عقلاني تجريدي أو حيادي عقلاني وتجريدية وحيادية تامة بحيث إنهم يغلقون أذانهم ويغمضون أعينهم عن القيم والمعتقدات ، ولا يهتمهم سوى الكشف عن الغامض واستحداث الجديد بغض النظر عما يترتب على الكشف أو الاستحداث من زعزعة للقيم الدينية أو القيم الأخلاقية . فبينما نحو المتمسكون بالقيم الدينية والأخلاقية إلى اعتبار الإنسان كائناً فريداً متميزاً يعلو عن مستوى

الكائنات النباتية والحيوانية جميعاً ، وأن تلك الكائنات الحية ليست سوى وسائل يستفيد بها الإنسان ، فإننا نجد أن علماء الوراثة في مسجعهم الوراثي يضعون الكائنات الحية جميعاً على قدم المساواة ، وقد طرحوها جميعاً أمامهم للمدارسة النظرية والتجارب العملية على السواء بما في ذلك الكائنات البشرية . ناهيك عن الضرب صفحاً عن النظرة الغيبية إلى الوراثة التي تأخذ بها . فعلماء الوراثة لا يهتمهم الأخذ بتلك النظرة وتكتيف أيديهم أمام ما يخبئه الغيب من مناح وراثية لا دخل لإرادة الإيمان فيها . فهم يتجرعون فيغيرون مجرى الوراثة طالما أنهم استطاعوا أن يفكوا شفرتها السرية .

ثانياً - قصور المعلومات المتوافرة لدينا : ومن العقبات التي تحول بين العلماء المهمين بهندسة الوراثة وبين التقدم في هذا المضمار بخطي واسعة وسريعة عدم الكشف عن الأسرار العلمية التي تهتم بها الجامعات ومراكز البحوث بالدول المتقدمة إلا لأفراد العلماء الملتزمين في تلك الجامعات ومراكز البحوث . فهم لا يعلنون إلا عن نتائج البحوث بينما يعمدون إلى إخفاء الوسائل أو الأسرار العلمية . ففلك البحوث المتقدمة حكر لهم وما يعلنون عنه أو ما يقدمونه للغرباء عنهم لا يشكل سوى الفتات المساقط من مواندهم العلمية . ولعلنا لا نغالي إذا ما قلنا إن الدول المتقدمة لا ترغب في التنازل عن أسرار تقنيتها للدول التي تلهث خلفها ، بل إنها قد تعمد إلى تشجيع من يقاومون تلك الاتجاهات والبحوث مؤكدين تعارضها مع القيم حتى يظلوا هم في المقدمة ، بينما تظل الشعوب بالعالم الثالث ذبياً لا تسير وراءها وبينها وبينهم أشواط بعيدة . فالأسرار العلمية الخاصة بهندسة الوراثة وبغيرها من مجالات بحثية وعلمية وتقنية متقدمة جداً لا تكاد نعرف عنها سوى النذر اليسير . ولعل سائلاً يتساءل : متى سيكون في مصر على سبيل المثال قيادات علمية مبدعة إبداعاً غير مسبوق في هندسة الوراثة بحيث تلهث دول الغرب وراءنا لكي يتأخروا عنها ؟

عقود ، كانت هناك الشركات المتنافسة في مجال إنتاج الكائنات المهندسة وراثياً ، التي تنتج مواد شديدة الحيوية والأهمية ، لعل أشهرها وأسرعها استحضاراً في الذهن ، هندسة بكتريا القولون بنقل الجين البشري الخاص بإنتاج الأنسولين إليها ، ليحصل مرضى السكر على ما يلزمهم منه من هذه البكتريا .

ومعنى هذا في الواقع أن البشرية قد بدأت بالفعل في التخطيط التوريثي . وهذا النوع من التخطيط يشتمل على جوانب متعددة نلعلنا نقوم بذكر أهمها على النحو التالي :

أولاً - التعديل الخُلقي : فهنسة الوراثة تركز في تخطيطاتها التوريثية المستقبلية على مجال التعديل الخُلقي بإزاء الحالات التي يكون تكوين الجنين فيها على نحو غير سوى . وهنا تلعب النظرة التوقعية دوراً هاماً في رصد ما سوف يكون عليه تكوين الجنين قبيل تكوينه بالفعل أو في ضوء دراسة المنى والبويضة قبيل التلقيح الصناعي خارج رحم الأم . وأكثر من هذا فإن التعديل الخُلقي قد يصبو إلى تعديل المعوج في بنية الطفل المولود بعيوب خلّقية معينة ، وذلك بالمعالجة الوراثة لبعض الخلايا الجرثومية ثم إيلاجها في النخاع الشوكي للطفل ، فتحدث تفاعلات توريثية معينة في بنينه تحمل معها التعديلات الجسمية من نطاق العيوب الخُلّقية إلى نطاق السويّة .

ثانياً - تقوية جهاز المناعة : ومن المخططات التي تضعها هندسة الوراثة في حساباتها العمل على تقوية جهاز المناعة بجسم الإنسان بحيث يكون في مأمن من الإصابة بغالبية الأمراض أو من الإصابة بأي مرض معد بما في ذلك مرض الإيدز الذي يستهدف جهاز المناعة ويهزمه . فلا تكون تقوية المناعة بالعقاقير التي تدعم الجسم وتقويه ، بل تكون تلك التقوية بواسطة عرس جينات معينة

ثالثاً - النفقات الباهظة : وحتى إذا ما توافرت بين أيدينا القدرات والمصادر العلمية الكافية للدخول في هذا المضمار العلمي بخطى ثابتة بحيث يكون لنا قصب السبق فيه ، أو تكون لنا بإزائه مساهمات إبداعية غير مسبوقه ، فإن المشكلة الاقتصادية تقف عقبة كأداء في هذا السبيل . فالشعب الذي يستورد القمح برغم أنه بلد اشتهر بأنه بلد زراعي ، والذي ين من زيادة حجم السكان عن طاقته وقد ضربت البطالة بأطنابها في أرجائه وهبط التعليم فيها أو قل إنه لا يستطيع أن يلاحق التقدم التربوي والتعليمي بالبلاد المتقدمة ، لا يستطيع بالتالي أن يخصص جانباً ضخماً من دخله القليل نسبياً للإنفاق على بحوث هندسة الوراثة أو على غيرها من البحوث الخطيرة . ناهيك عن أن العادم من النفقات - إذا صح التعبير - في المجالات البحثية لا يستهان به . ففي البلاد المتقدمة تفتح الخزائن أمام الباحثين لكي يجربوا دون أن يحاسبوا على ما يفشلون في التوصل إليه . فليست هناك علاقة بين ما ينفق وما يتم بلوغه من أهداف . فالعلم يقوم على الفروض التي يمكن أن يثبت بطلانها كما يمكن أن يثبت صحتها . أما نحن في الدول العربية فإننا إذا قدمنا المال فإننا نحاسب من يقوم بتبيده في فروض علمية لم يكن واثقاً مسبقاً من صحتها .

التخطيط التوريثي :

يقول الدكتور أحمد شوقي في مقاله المذكور آنفاً إنه بعد عقدين فقط منذ عام ١٩٥٣ أدى الفهم الأوسع لوظائف مادة الوراثة وكيفية بنائها ، إلى أن تمسّحت البشرية أول جزئيات وراثية مؤلفة من أكثر من كائن حيث إن ذلك فجر الهندسة الوراثةية . وبعد ثلاثة

خامساً - التخطيط التوريثي المزاجي : ومن الآفاق التي سوف يغزوها التخطيط التوريثي المزاج الذي سوف يكون عليه المرء بعد أن يخرج إلى الحياة ويأخذ في المرور في مراحل النمو المتتالية . وسوف يمتد التخطيط التوريثي في هذا المجال إلى الاستعدادات الوراثية لاكتساب الخبرات المتباينة ، كما سوف يمتد إلى نوعيات الأمزجة جميعاً . فبينما نفسر اليوم الأمزجة بأنها مفطورة في الإنسان ولا دخل للعوامل البيئية أو التربوية فيها ، فإن المستقبل سوف يطلعننا على أن تحديد الأمزجة سوف يخضع للهندسة الوراثية . فلسوف يتحدد مسبقاً ما إذا كان الشخص الذي سوف يتم إنجابها سيكون انطوائياً أم انبساطياً ، وهل سيكون له مزاج العالم أم مزاج الأديب أم مزاج الفنان أم مزاج الزعيم الاجتماعي أم الزعيم السياسي أم الزعيم الديني أم غير ذلك من أمزجة تحدد نوع النشاط الذي يمكن أن يستثمر بتفاعل المزاج الذي يتم التخطيط التوريثي له مع المقومات والعناصر البيئية والتربوية المتباينة التي سوف تحدد دورها حتى يتسنى إخراج ما تم التخطيط توريثياً له إلى حيز الواقع الحياتي .

على أن هناك مجموعة من العقبات التي سوف تعترض طريق التخطيط التوريثي لعننا بتحسينها وتعرضها على النحو التالي :

أولاً - مهندسو الوراثة ليسوا علماء نفس أو علماء اجتماع : فنحن نعيش في ظل التخصصات الضيقة التي لا تتسع لاستيعاب غيرها من تخصصات . فمهندس الوراثة قد ركز جهده ونشاطه كله في نطاق تخصصه الهندسي الوراثي بحيث لا يستطيع أن يتناول الإنسان من كافة الجوانب ، ولا يستطيع أن يقيم الاعتبار للجوانب السيكولوجية والاجتماعية المتباينة . فهو من جهة لا يستطيع أن يحدد الأهداف التي يجب البحث عن وسائل تحقيقها ،

في قوام المرء فلا يحصل وحده على تقوية جهاز المناعة لديه ، بل يحصل نسله أيضاً عليها . وبذا فإن البشرية يمكن أن تتخلص من غالبية أو من جميع الأمراض المعدية التي تقحم جهاز المناعة وتحمله على الاستسلام والانهيار أمامها .

ثالثاً - المعمار الجسمي : فكما يقوم المهندس المعماري بوضع رسم تخطيطي للعمارة قبل تشييدها ، فإن مهندس الوراثة سوف يقوم بوضع مخطط للبناء الجسمي للمرء قبل الشروع في تكوينه وذلك بتحديد المواصفات الجسمية المطلوب تحقيقها وتهيئة المقومات الوراثية التي يمكن أن تترجم بالفعل إلى تلك المواصفات الجسمية بعد عملية الإخصاب وعبر مراحل النمو التالية منذ المرحلة الجنينية ومروراً بالطفولة والمراهقة والشباب . وتعبير آخر فإن الأتصال البشرية سوف لا تخضع للمصادفات ، بل ستكون محكومة بالتخطيط التوريثي لجميع الأشكال والنسب والأحجام وكل ما يتعلق بالشكل الخارجي لجسم المرء .

رابعاً - الارتفاع بمستوى الذكاء والقدرات الخاصة : ولسوف يستهدف التخطيط التوريثي العمل على الارتفاع بمستوى الذكاء سواء بطريقة قلبية أم بطريقة بديعية . ونقصد بالطريقة القلبية التدخل التوريثي قبل حدوث الحمل ، أعنى زيادة جينات الذكاء والقدرات الخاصة في المعنى والبويضة قبيل القيام بعملية التلقيح الصناعي . ونقصد بالطريقة البديعية التدخل بهندسة الوراثة في أية مرحلة عمرية . وهذا يتسنى بعد أن حلت الشفرة الوراثية وعلى أساس أن معالجة الجزء يكون طريقاً نحو معالجة الكل بواسطة ما يمكن أن نسميه كما سبق أن قلنا بالعنود التوريثية التي تتم فيما بين الأتوية المعدلة وبين الأتوية التي لم يتم تعديلها ، وذلك لأن الأتوية المعدلة سوف يكون لها الغلبة على الأتوية غير المعدلة .

كما أنه لا يستطيع أن يلم بالمجالات المتنوعة سواء كانت مجالات نفسية أم مجالات اجتماعية لكي يدلي بدلوه فيها ولكي يوظف هندسة الوراثة في سبيل خدمتها . من هنا فإننا نستطيع أن نوكد عجز مهندس الوراثة عن التخطيط التوريثي فيما يتعلق بالمجالات التي ذكرناها آنفاً . فهو لا يستطيع أن يتوسع فيما ليس له باع فيه أو ليست لديه خبرة لسبر أغواره وتحديد ملامح المستقبل فيه . فما يستطيع أن يفعله مهندس الوراثة هو الدوران في الحلقة العلمية التي تخصص فيها فحسب .

ثانياً - عامل الخوف من نتائج التخطيط التوريثي :
فالخضوع للتجريب بحاجة إلى جراءة وإقدام على مغامرة غير محسوبة بدقة . فالقليل جداً من الناس هم الذين يتجرعون على تعريض أنفسهم وأولادهم لما يمكن أن يتأتى عن إجراء التجارب المتعلقة بالتخطيط التوريثي عليهم . فسير القارة المجهولة والقنف بالنفس إلى هوة لا تحمد مغبتها يصيب الناس بالذعر لمجرد نكر التلاعب في مقدراتهم التي جبلوا عليها . ناهيك عن الخوف من التعدي على المقدر على المرء وما خلق عليه وما سوف يناله من عقوبة في الدنيا والآخرة بسبب التعدي على ما جبل عليه هو وأسلافه القريبون والبعيدون . أليس هذا التعدي على الجبلة شبيهاً بالخطيئة الأصلية بالأكل من الشجرة المحرمة ؟ والشجرة المحرمة هنا هي الجبلة البشرية والأسرار المحفوظة في السجل المحظور ، أعنى القوام الوراثي للسلالة البشرية .

ثالثاً - مخاطر التجريب : فالطريق إلى الجنة المفقودة أو الجنة المنشودة محفوف بالأشواك والأخطار المحدقة من كل جانب . فالواقع أن هندسة الوراثة وإن كانت قد صارت حقيقة فعلية واقعية ، فإنها ما تزال في مهدها ، كما أن طموحاتها بعيدة المدى

ومتنوعة الآفاق . وكل خطوة مستقبلية تخطوها هذه الهندسة سوف يحسب لها كل حساب ، ولكن مهما كانت الاحتياطات دقيقة ، فإن ما يحيق التجريب على الإنسان من مخاطر أكثر مما تستطيع البشرية تحمل عواقبه . فمهما احتاط المجرّبون فيما يقومون بإجرائه من تجارب ، فإنهم يتعرضون للوقوع في أخطاء لم يحسبوا لها الحساب ، ولم يتحرزوا من الوقوع فيها ، وتكون ثمارها مَرّة ومؤسفة للغاية . فبدلاً من الحصول على النتائج المرجوة والتي تم التخطيط لها ، فإن نتائج أخرى تحدث على عكس ما كان مرجوياً أو متوقفاً . ومن يدري فلربما ينتهي بعض ما يقوم علماء الهندسة الوراثية بإجرائه من تجارب إلى بزوغ مسوخ بشرية خطيرة لا تبقى ولا تذر أو ربما تُفضى التجارب إلى نشوء أنواع جديدة من الأمراض الفتاكة التي ربما تقضى على غالبية البشر أو حتى على جميع الكائنات الحية على اختلاف مراتبها وأنواعها .

رابعاً - نقص الاعتمادات المالية : فمهما قيل عن أن الدول الغنية تقوم بتمويل البحوث العلمية والتكنولوجية ، فمما لا شك فيه أن البحوث المتعلقة بشئون التسليح وأيضاً البحوث المتعلقة بزيادة الموارد والتي تعوّض عما ينفق عليها بأضعاف الإنفاق هي التي تحظى بنصيب الأسد بالمقارنة بالاعتمادات الخاصة بالبحوث العلمية والتكنولوجية . صحيح إن الاعتمادات المالية التي أنفقت على بحوث الهندسة الوراثية بالدول الغنية المتقدمة أكثر بكثير جداً مما ينفق على البحوث البيولوجية عموماً بأقطار العالم الثالث ، ولكن مع هذا فإنها لا تقاس بالمقارنة بما ينفق على بحوث التسليح والبحوث التي تعود بأرباح أو وفر مما ينفق بالفعل عليها .

خامساً - معارضة الجهات الدينية للتخطيط التوريثي : فالقيم الدينية تتعارض تعارضاً صارخاً مع القيام بمثل تلك التجارب . ذلك

هندسة الوراثة والسوية النفسية :

من المعروف أن ثمة تأثيراً وتأثيراً متبادلين فيما بين الحالة الجسمية للمرء وبين حالته النفسية . وأبسط مثال ندلل به على ذلك العلاقة بين الجوع والحالة النفسية للمرء . فالجوع وهو حرمان المعدة من الطعام ينعكس على الحالة النفسية للجائع ، كما أن الحالة النفسية غير المتوازنة كالخوف أو الغضب تؤثر في عملية الهضم وما قد يترتب على هذا من أمراض تصيب المعدة مثل قرحة المعدة . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للشخص الذي لم تحدث في قوامه الجسمي تغيرات كذلك التي سوف تحدثها هندسة الوراثة ، فما بالك بما يمكن أن تتأثر به الحالة النفسية للإنسان بعد تدخل هندسة الوراثة في تغيير طبيعته واستحداث حالات جسمية جديدة على غير ما فطر عليه بالطبيعة والوراثة ؟

ولعلنا نحاول قبل أن نكشف النقاب عن مدى ما يتوقع من تأثير سوف تحدثه هندسة الوراثة في السوية النفسية للمرء ، أن نستعرض ما يمكن أن تحمله معها هندسة الوراثة من تغيرات في القوام الجسمي للإنسان على النحو التالي :

أولاً - التغيرات المتعلقة بعملية الهدم والبناء الحيويتين :
فمن الآفاق التي سوف تقوم هندسة الوراثة بغزوها ما كان متعلقاً بهاتين العمليتين . فمن المتوقع أن ينجح مهندسو الوراثة في تغليب عملية البناء على عملية الهدم عبر مراحل العمر المتباينة . فمن المعروف أن عملية البناء تكون متفوقة على عملية الهدم في مرحلة الطفولة ، وبالأحرى في المرحلة الجنينية . ثم إن عملية الهدم تتزايد قوة كلما تقدم المرء في مسيرته العمرية ، فهذه العملية الهدمية تزيد في شدتها نوعاً في المراهقة ، وتتزايد أكثر فأكثر في الشباب ، ثم تقترب في شدتها من شدة عملية البناء في الكهولة حتى

أن التدخل في النظام الوراثي المستقبلي يعتبر تعدياً على القيم المقدسة . فالأجيال التالية يجب أن تترك لما تحمله من مقومات وراثية بغير أدنى تدخل في مسارها أو في مقوماتها . ذلك أن القيم الدينية تحظر التدخل في الصياغة البنيوية التي سوف يكون عليها المرء الذي لم يتشكل ولم يخرج إلى حيز الواقع الحياتي بعد . ناهيك عن أن القيم الدينية تؤمن بحرية الإنسان في شق طريقه في الحياة ، وأنه خليق بأن يعدل من سلوكه . فكيف والحال هذه يسمح بأن يخطط لبنية المرء المزاجية أو العقلية أو الإرادية قبل وجوده بالفعل . أليس في هذا مصادرة للحرية والمسئولية على السواء ؟ وألا يجعل هذا من الإنسان مجرد خامة كالصمغ يتم صبها في قوالب معدة لها من قبل ؟ فالجهات الدينية إذ تناهض ما يعتزم مهندسو الوراثة القيام به من تخطيط توريثي ، إنما يدافعون عن صميم الدين وعن جوهر القيم المقدسة .

ولعلنا نتساءل في نهاية المطاف عما يتوقع حدوثه في المستقبل ؟ فهل من المتوقع أن يتوقف مهندسو الوراثة عن المضى قدماً في سبيل التخطيط التوريثي ، أم أنهم سوف يسيرون بخطى سريعة في هذا المضمار ؟ إننا إذا ما تصفحنا الإيقاع التقني الذي تسير به البحوث البيولوجية عموماً ، والبحوث المتعلقة بهندسة الوراثة خصوصاً ، فإننا نجد أن هذا الإيقاع يتضاعف في سرعته وفق متتالية هندسية . ومعنى هذا أن ما سوف تشهده العقود القليلة القادمة سوف يكون مذهلاً فيما يتعلق بالتخطيط التوريثي . فلقد شاهدنا خلال العقود القليلة الماضية تطورات خطيرة خاصة بنقل الأعضاء مثلاً . فما بالك بهندسة الوراثة وما تشتمل عليه من آفاق مغرية وخصبة وشاملة لجميع مناحي البنية البشرية سواء كانت بنية جسمية ، أم بنية وجدانية ، أم بنية عقلية ، أم بنية إرادية ؟

وما تتمتع به بعض الطيور والأسماك من وجود ما يشبه الرادار أو البوصلة الدقيقة لديها مما يسمح لها بمعرفة المكان الذي تهاجر إليه فلا تخطئه ، والمكان الذي هاجرت منه منذ عام فتعود إليه . فهل سيأتي الوقت الذي يتمتع فيه الإنسان بالميزات التي تختص بها بعض الكائنات الحية دونه ؟ وهل يفكر مهندسو الوراثة في التخطيط لتخليق أناس بخياشيم ليغوصوا في أعماق البحار والمحيطات ، أو بأجنحة لكي يطيروا في الهواء مثل العصافير والحمام والغربان ؟

رابعاً - استنساخ البكتريا والميكروبات والفيروسات : فكما أن هناك بكتيريا ضارة وبكتيريا مفيدة ، أفلا يطمح مهندسو الوراثة نحو العمل على استنساخ جميع أنواع البكتريا والميكروبات والفيروسات التي تضر بصحة الإنسان وتهاجمه وتبيده بحيث تحول ما تؤثر به من جانب الإضرار إلى جانب الإفادة ؟ هل سوف يستفيد مهندسو الوراثة في المستقبل من الميكروبات والفيروسات في تصنيع الأطعمة أو المضروبات أو في تصنيع العقاقير الطبية ؟ إن هذه التساؤلات قد تثير الاشمئزاز أو التهكم حالياً ، ولكن مهندسي الوراثة قد يحاولون ما يثير الاشمئزاز أو التهكم حالياً إلى واقع ممارس بالفعل في المستقبل القريب أو في المستقبل البعيد .

خامساً - تأليب الميكروبات والفيروسات بعضها على بعض وإشعال رحي الحرب بينها : ومن المتوقع أن يقوم مهندسو الوراثة بحمل الكائنات الحية الضارة على مهاجمة بعضها بعضاً كما يتم حالياً بالنسبة لبعض الكائنات الحية الضارة . من ذلك مثلاً ما حدث في أستراليا من الاستعانة بالكلاب في مهاجمة الأرناب والتهامها . صحيح إن تلك الكلاب صارت خطراً على المواطنين هناك . ولكن مما لا شك فيه أن المبدأ الذي نشأت الفكرة على أساسه صحيح .

تتطابق معها في الشدة في منتصف هذه المرحلة ، أي في حوالي سن الأربعين . ثم إنها بعد ذلك تأخذ في التغلب من حيث شدتها على شدة عملية البناء في الشيخوخة إلى أن يتسنى لها أن تقهر هذه العملية البنائية وتمسك بزمام الموقف فيلقى الشيخ حقه وتنتهي حياته . فإذا استطاعت هندسة الوراثة أن تبطل أو على الأقل أن تعوق مسيرة عملية انهدم منذ اللحظة الأولى التي يتكون فيها الجنين ، فإن نتائج بنوية خطيرة سوف يتم الحصول عليها ، لا بالنسبة للإنسان فحسب ، بل وبالنسبة للنباتات وللكائنات الحية المتباينة على السواء .

ثانياً - التغيرات المتعلقة بحجم الجسم وطوله ونسب أطرافه : فمن المتوقع أن تعدد هندسة الوراثة في المستقبل البعيد إلى تحديد قوالب معينة تنصب فيها بنيت أجسام الأجيال التالية ، وذلك وفق مواصفات معينة تستلزمها الحياة الحضارية في المستقبل . ولقد نتج تلك التغيرات الهندسية الوراثة إلى إلغاء الفروق الجسمية بين الناس جميعاً ، فلا يكون هناك أشخاص أطول أو أقصر من غيرهم ، كما لا يكون هناك أشخاص نحيفون وآخرون بدينون ، بل يكون هناك تطابق في الوزن في الأعمار المتباينة بالنسبة لجميع الناس بغض النظر عن اختلاف النوع . فالذكور والإناث سيكونون سواسية من حيث الطول والوزن . وسوف يهتم مهندس الوراثة بكمال الجسم بحيث يكون جسم الرجل مكتمل الرجولة ، وجسم المرأة مكتمل الأنوثة .

ثالثاً - التغيرات المتعلقة بتفاعل المقومات البنوية البشرية بمقومات بنوية حيوانية : فلقد تستهدف هندسة الوراثة الإفادة من خصائص بعض الكائنات الحية التي لا يتمتع بها الإنسان . من ذلك مثلاً ما يتمتع به الكلب من قوة أكثر وأدق في حاستي السمع والشم ،

النباتات فيأتي اليوم الذي تموت فيه الغزلان جوعاً . وحتى بالنسبة للإنسان فإنك تجد أن ما قام به الطب وقامت به الحضارة عموماً من حماية بنى البشر من الهلاك سواء من مهاجمة الوحوش أم من مخاطر العوامل الطبيعية أم من الإصابة بالأمراض المتبانية ، فإن زيادة رهبة في عدد السكان قد تأتي عنها قلة الموارد الغذائية على مستوى العالم بالنسبة للأفواه البشرية التي تطلب الطعام . وهكذا الحال بالنسبة لما تستهدفه هندسة الوراثة من تغيرات في البنية الجسمية البشرية . فتلك التغيرات المرتقبة إذا ما وقعت بالفعل ، فإن الإئتران النفسى للإنسان سوف يتزلزل . ويتعبير آخر فإن السوية النفسية سوف تتعرض للانهايار كما هو الحال بإزاء الإئتران البيئى الذى يتعرض هو أيضاً للانهايار وبخاصة بعد التفجيرات النووية وتلويث البيئة بالمخلفات الصناعية وغير ذلك من عوامل عملت على تزلزله .

ثانياً - ذبول الطموح وانطفاء التنافس بين الناس : ومن العوامل التي تساعد على تحقيق السوية النفسية إحساس المرء بالنقص . وعلينا بهذه المناسبة أن نميز بين الإحساس بالنقص وبين مركب النقص . فمركب النقص مرض نفسى قد يصيب حتى المتفوقين والممتازين عن سواهم . إنه مرض يعجز المرء المصاب به عن مواصلة بذل الجهد للتغلب عما يحس به من نقص . ولكن الشخص الذى يحس بالنقص ، يقوم بالتخطيط للتقدم فى المجال الذى يحس بالنقص فيه ، ثم يبذل الجهد الخليلق بأن يعرضه عما فاته فى ذلك المجال ، فيأتى عن ذلك تفوقه كما حدث لبيتهوفن على سبيل المثال الذى أحس بالنقص فى قدرته على السمع فاجتهد ونبغ فى التأليف الموسيقى . فإذا صار الناس فى المستقبل خاضعين للتتميط الجسمى والنفسى ، وصاروا مختلين وفق قالب واحد ، فإنهم سوف لا يحسون بالتالى بأن شيئاً ينقصهم لأنهم تسخ من بين

فبدلاً من هجوم الإنسان على الكائن الحى الخطر أو الضار ، فإن الإنسان يقوم بتأليب كائن حى على كائن حى آخر لافتراسه . فهل سوف يقوم مهندسو الوراثة بالعمل على تأليب الميكروبات بعضها على بعض ، والفيروسات بعضها على بعض ، وذلك بعد إحداث تغييرات هندسية وراثية فى قوام مجموعة منها ، ثم العمل بعد ذلك على تعميم تلك التغييرات . وبذا فإن الإنسان يريح نفسه من التريص بتلك الميكروبات والفيروسات القاتلة وقد أناب عنه من يحاربها من داخل صفوفها ؟ فإذا تم هذا فإن العديد من الأمراض التي تصيب الإنسان بواسطة الميكروبات والفيروسات سوف تختفى ويصير فى مأمن من الإصابة بها .

وبعد أن عرضنا لهذه الاحتمالات الخمسة التي يمكن أن تحققها هندسة الوراثة فيما يتعلق بالبنية الجسمية الإنسانية أو ببنية الكائنات الدقيقة التي تؤثر فى صحة الإنسان ، فإن علينا بعد هذا أن نتناول الآثار التي يمكن أن تترتب على تلك التغيرات فيما يتعلق بالسوية النفسية لمن سوف يخضعون لتلك التغيرات من الأجيال البشرية القادمة إذا ما قبض لها أن تتحقق . ولعلنا نقدم تلك التغيرات النفسية على النحو التالى :

أولاً - تهديد الإئتران النفسى بالخطر : فئمة فى الطبيعة البيئية والطبيعة البشرية ما يعرف بالإئتران . فبالنسبة للطبيعة البيئية هناك ما يعرف بالإئتران البيئى ، وبالنسبة للطبيعة البشرية هناك ما يعرف بالإئتران النفسى . فكل تغير أحدثه الإنسان فى الطبيعة البيئية كان يتبعه أو يتوأكب معه اهتزاز أو اضطراب فى الإئتران البيئى . فالطبيعة مترابطة بعضها فوق بعض . فالأسود والنمور تعيش على لحم الغزلان ، والغزلان تعيش على النباتات . فإذا أنت أبدت الأسود والنمور ، فإنك تعمل بطريق غير مباشر على إبادة

هندسة الوراثة والسوية الاجتماعية :

لا بد لنا قبل أن نلقى الضوء على العلاقة بين هندسة الوراثة والسوية الاجتماعية أن نحدد مفهوم هذا النوع من السوية . ولعلنا نحدد هذا المفهوم في نقاط على النحو التالي :

أولاً - إحساس المرء بالانتماء : والانتماء هو الإحساس بالتعلق الوجداني بمجموعات متباينة بدرجات متفاوتة من التعلق . وثمة انتماء عام من جهة ، وانتماء خاص من جهة أخرى . والانتماء العام يعنى التعلق وجدائياً بكيان اجتماعي ضخم كانتماء المصرى إلى جمهورية مصر العربية ، أو كانتمائه إلى الأمة العربية ، أو إلى إفريقيا ، أو إلى العالم ككل . أما الانتماء الخاص فإنه يكون تعلقاً بمجموعة صغيرة نسبياً ، من ذلك مثلاً انتماء المرء إلى أسرته ، أو انتماء التلميذ إلى مدرسته ، أو انتماء الموظف إلى المصلحة أو الشركة التي يعمل بها . والعمومية والخصوصية في الانتماء نسبية في الواقع . ذلك أن التعلق الوجداني نسبي في شدته وديمومته . فتعلق التلميذ أو انتماؤه إلى مدرسته يضعف أو حتى لقد يتلاشى بعد تركه لها وانتقاله إلى مدرسة أخرى . وتعلقه بأسرته يكون في العادة أقوى من تعلقه بالمدرسة التي يتردد عليها . وتعلق المصرى بوطنه وانتماؤه إليه أقوى من تعلقه وانتماؤه إلى إفريقيا . وتعلقه بإفريقيا وانتماؤه إليها أقوى من تعلقه وانتماؤه إلى المجتمع العالمي ككل . وعلى أية حال فإن الشخصية السوية تتمتع بانتماءات وتعلقات سوية إلى المجتمعات المتباينة التي تحيط بها أو التي تحس بالانتماء إليها . فالشخص الذي يتعلق بأسرة الجيران ويحس بانتماؤه إليها أكثر مما يحسه بإزاء أسرته من تعلق وانتماء ، وإنما يكون بذلك قد خرج عن حدود السوية .

ملايين النسخ التي تحيط بهم ، وبالتالي فإنهم سوف لا يبذلون الجهد ما يعرضهم عما فاتهم ، ولا تكون بهم حاجة بالتالي إلى التفوق على غيرهم . ونذكر بأن التنميط المرتقب الذي سوف تضطلع به هندسة الوراثة بإزاء الإنسان سوف لا يقتصر على الجانب الجسمي البيولوجي ، بل سوف يشمل الكائن الإنساني ككل دون التمييز فيما بين الجانب الجسمي والجانب النفسي على السواء .

ثالثاً - فقدان الإنسان لكبريائه وإيئته البشرية : فما سوف تقوم به هندسة الوراثة أو ما تؤمل الاضطلاع به من دمج لبعض الإراثات البشرية مع بعض الإراثات الحيوانية يحتمل أن يؤدي إلى الخلط بين إحساسه بإنسانيته وبين إحساسه بحيوانيته . فالواقع أن الإنسان ظل عبر العصور المتعاقبة حتى وقتنا الراهن يحس بأنه كائن فريد في نوعه وممتاز عن سائر المخلوقات ، وأن اليون شاسع للغاية بينه وبين المملكة الحيوانية . ولكن إذا ما عمدت هندسة الوراثة إلى ذلك الدمج الإراثي المزعج ، فإن الجدار القائم فيما بين المملكة البشرية والمملكة الحيوانية سوف ينهار ويتربط على هذا إحساس المرء بأن ما كان يزعمه لنفسه من مكانة مرموقة إنما هو خدعة خدع بها نفسه . فيحل الاحتطاط النفسي محل الاعتداد بالجنس الذي ينتمي إليه . وبالتالي فإنه يفقد الكثير من تقديره لذاته ككائن متميز وفريد . وهل بعد الرغبة في اكتساب الميزات التي يتمتع بها الكلب أو الطير أو السمك المهاجر يستطيع الإنسان أن يحس بالزهو والنبوغ والتفوق على الكائنات الحية الأخرى ؟ ألا يحس الإنسان عندئذ بأنه أدنى من تلك الكائنات التي استعار إراثاتها لكي يتمتع بما تتمتع به ؟ ويتعبير آخر : ألا يفقد الإنسان عندئذ إيئته ويخلط بين قوامه وقوام الحيوانات ، فيبدل أن يرتفع ويسمو ينحط ويتدهور نفسياً ومعنوياً حتى وإن اكتسب مقومات جديدة هي المقومات التي اقتبسها من بعض الكائنات الأخرى التي كان يحس بأفضليته عليها ؟

عنى المرء نفسه . فالشخص السوى يعرف كيف يقود علاقاته الاجتماعية القائمة بالفعل ، وهل هي خليقة بأن تظل على حالها أم من الواجب تقويتها أو إضعافها ؟

رابعا - القدرة على فصم علاقات اجتماعية قائمة بالفعل :
ومن خصائص السوية الاجتماعية القدرة على فصم عرى بعض العلاقات الاجتماعية القائمة بين المرء وبين غيره من أفراد أو مجموعات . فكما أن الشخصية السوية تكون قادرة على إقامة علاقات وشائج اجتماعية جديدة لم تكن قائمة من قبل ، كذا فإنها تكون قادرة على هدم صرح علاقات وشائج اجتماعية قائمة ولكنه يرى ضرورة فصم عراها والقضاء عليها . وتلك الضرورة تتمثل في اكتشاف المرء أن تلك العلاقات سوف تجر عليه مشاكل هو في غنى عن التصدي لها ، أو أن تلك العلاقات سوف تسمى إلى سمعته أو تهدد مستقبله إلى آخر الاعتبارات التي تحمل المرء على التصميم على القضاء على علاقات كانت قائمة بالفعل بينه وبين شخص أو جماعة أو جمعية أو مؤسسة .

خامسا - القدرة على إقامة علاقات بين مجموعتين أو جماعتين : فالشخص السوى لا يكفي بأن تكون لديه القدرة على إقامة علاقات جديدة بينه وبين أفراد لم يسبق له التعرف عليهم ، بل إنه يمتد في قدرته على إقامة علاقات اجتماعية جديدة لا تقتصر على النطاق الفردي بل تمتد إلى النطاق الجمعي . فهو يتعلم كيف يقيم علاقات اجتماعية بينه شخصياً وبين مجموعة أو جماعة أو جمعية أو مؤسسة ، ثم إنه يتعلم كيف يقيم علاقات اجتماعية بين جماعتين أو جمعيتين أو مؤسستين لم تكن هناك علاقات سابقة بينهما . والواقع أن هذه القدرة تعتبر من الميزات التي لا تتوافر لكثير من الناس ، بيد أن المتمتعين بالسوية الاجتماعية في نهمها

ثانياً - القدرة على إقامة علاقات اجتماعية جديدة : وتتبدى السوية الاجتماعية أيضاً في مدى قدرة المرء على إقامة علاقات بأناس لم يكن له سابق معرفة بهم . وتمتثل هذه القدرة في الوقوف على اهتمامات مشتركة بينه وبين من ليس بينه وبينهم سابق عهد أو ارتباط . ولكن اكتشاف تلك الاهتمامات المشتركة لا يكفي لإقامة علاقة جديدة مع شخص لم يسبق التعامل معه ، بل يجب اكتشاف الطريقة التي يتحدث بها إليه والتوقيت المناسب لذلك . فمن الرعونة ومن دواعي التنفير والتباعد التصرع في التحدث إلى الغرباء الذين لم يسبق التعامل معهم . فلا بد من الإحساس بالطمأنينة وتوافر وشائج وجدانية بين المرء وبين الشخص الغريب الذي يرغب في إقامة علاقة معه . ولقد تكون تلك الوشائج تلقائية ولقد تكون قائمة على أساس من الواقع أو من المشاركة في عمل مشترك أو التواجد اليومي في مكان واحد كما هو الحال إذا ما عين شاب في وظيفة جديدة مع زملاء لم يسبق له التعامل معهم أو التعرف على شخصياتهم أو أخلاقهم أو اتجاهاتهم . والسوية الاجتماعية تتطلب من المرء أن يتحرز في إقامة العلاقات الاجتماعية الجديدة ، فلا يندفع من جهة ، ولا يتعاص عن إقامة العلاقات مع غيره من جهة أخرى .

ثالثاً - القدرة على تقوية أو إضعاف العلاقات الاجتماعية القائمة مع الآخرين بالفعل : وبعد إقامة العلاقات بالآخرين ، فإن الشخصية السوية اجتماعياً تعلم جيدا أن العلاقات الاجتماعية علاقات دينامية وليست علاقات استاتيكية . فهي قابلة للانتعاش والضمور ، وللقوة والضعف . ولكن المسؤولية في انتعاش أو تقوية تلك العلاقات القائمة أو العمل على جعلها ضامرة وضعيفة تقع في

يتسنى لهم التمتع بهذه الميزة . فهم يتمتعون بالحُكمة في إقامة العلاقات والشائج التي لم تكن موجودة من قبل بين المجموعات المتباينة ، وهي العلاقات والشائج التي تُثمر ثمارًا إيجابية ومفيدة في الوقت نفسه .

وبعد أن عرضنا لهذه المعاني الخمسة للسوية الاجتماعية ، فإن علينا أن نعرض لما يمكن أن يتأتى عن هندسة الوراثة من نتائج تؤثر في مدى التمتع بهذه السوية الاجتماعية . وهذه النتائج يمكن أن نتحدث على النحو التالي :

أولاً - تهديد الإحساس بالانتماء : فهندسة الوراثة إذا ما امتدت في مطامحها إلى أبعد مدى ، فإنها سوف تعمل على تمييط الجنس البشري بحيث تعد قالبًا واحدًا ينصب فيه الأفراد جميعًا . ولكن من المحتمل أن تنحصر جهود مهندسي الوراثة في تطوير أبناء الشعوب الغنية دون تطوير الشعوب الفقيرة ، فتعمل هندسة الوراثة على الارتفاع بمستوى ذكائهم وقدراتهم الخاصة وإدخال المقومات الممتازة في قوامهم ، سواء كانت مقومات جسمية ، أم مقومات وجدانية ، أم مقومات عقلية أم غير ذلك من مقومات ، بينما تترك أبناء الشعوب الفقيرة على حالهم . وبذا فإن الإحساس بالانتماء إلى الجنس البشري ينقلب إلى إحساس بالعداء . ولسنا نغالي إذا ما قررنا أن الإحساس بالمفارقة الحالية بين العالم الثالث والعالم الغني المتقدم والذي تفصلنا عنه آلاف الأميال من الثراء والعلم والتقدم - إذا جاز هذا التشبيه - يعمل في الواقع على إحساس أبناء العالم الثالث بعدم التجاوب مع أبناء العالم الغني المتقدم ، وبالتالي روح الانتماء بيننا وبينهم كأننا لسنا جنسًا بشريًا واحدًا . فإذا كان هذا هو الحال قبل دخول هندسة الوراثة في نطاق التطبيق العملي ، فما بالك بعد أن تطبق تلك الهندسة على نطاق واسع ويتأتى عن

تطبيقها بزوغ جنس بشري جديد يتمتع بمستوى من الذكاء الخارق والقدرات العقلية المرفعة للغاية .

ثانيًا - تهديد الرغبة في إقامة علاقات اجتماعية وجدانية : وهندسة الوراثة التي سوف تعمل على الارتفاع بمستوى الذكاء والقدرات العقلية الخاصة سوف تُفضي إلى الانقراض من الرغبة في الارتباط بالآخرين لمجرد حبهم والتعلق بهم والتناغم الوجداني معهم . فمن الملاحظ أن ثمة تناسبًا عكسيًا فيما بين الذكاء وبين التوجه الوجداني والتعلق بالآخرين والإحساس بالحب لهم لذات الحب . فكلما صعد المرء في معارج الذكاء ، كان بالتالي أقل قدرة على الحب ، وبالتالي فإنه يزهد في إقامة وشائج وجدانية مع غيره ، كما أنه لا يميل إلى تقوية الشواجح الوجدانية القائمة بالفعل بينه وبين الآخرين ، بل أكثر من هذا فإنه يكون ميالًا إلى فصم عرى العلاقات والشواجح الوجدانية القائمة بينه وبين من حوله .

ثالثًا - ضعف العلاقات الأسرية : ومن النتائج المتوقعة بعد التطبيقات التي سوف تتحو نحوها هندسة الوراثة ضعف العلاقات الوجدانية بين الجنسين ، بل إن من المتوقع أيضًا اشتعال الصراع بين الرجال والنساء ، وذلك لأن من الأسباب التي جعلت المرأة تخضع للرجل عبر الأجيال الكثيرة الماضية هو عدم ارتفاع ذكائها بصفة عامة إلى مستوى ذكاء الرجل . فإذا ما تقدمت هندسة الوراثة واتسع نطاق عملها في الارتفاع بمستوى ذكاء الذكور والإناث على السواء ، فإن الخضوع الذي كانت تبديه الزوجة لزوجها سوف يتلاشى ويحل محله الإحساس بالمساواة التامة بينهما ، أو لقد تحس الزوجة بتفوق ذكائها ومواهبها عما يتمتع به الرجل . وكما قلنا فإنه كلما ارتفع مستوى الذكاء هبطت جذوة الوجدان والتعلق بالآخرين ، ومن ثم فإن المرأة الذكية بفضل تطبيقات هندسة الوراثة سوف

لا تحس بالتعلق بزوجها ، بل إنها سوف تزهد أيضًا في أبنائها
ولا تحس بالتعلق بهم بنفس القدر الذي تحس به المرأة حاليًا . ومن
ثم فإن الرباطات الأسرية سوف تتفكك وتصير الأسرة مهددة
بالانهيار ، أو قل إن نسبة قليلة من الأسر سوف تستمر مترابطة ،
وذلك مع تزايد نسبة الطلاق إلى حد كبير للغاية .

رابعًا - تجرد لغة الكلام والكتابة من العواطف : ومن المتوقع
أيضًا بعد شيوع تطبيقات الهندسة الوراثية أن تجرد لغة الحديث
بين الناس من الشحنات العاطفية التي تجعل لعلاقاتهم مذاقًا لذيذًا
ممتعًا . وما يقال عن لغة اللسان ينسحب بإزاء لغة القلم . وما نحن
نشاهد مع التقدم التكنولوجي ومع الطفرات الحضارية التي تعتبر
ثمارًا للذكاء البشرى كيف أن الناس صاروا لا يعكفون على كتابة
الخطابات التي كانت الأجيال السابقة تعتبرها فنطرة تمر عليها
عواطفهم لتصل إلى قلوب أحبائهم البعيدين عنهم . فاليوم تجد أن
التليفون قد حل محل تلك الخطابات الرومانسية ، ولم يعد المتحدث
بالتليفون يعبر عن عواطفه الجياشة كما كان الحال في الخطابات
السابقة ، بل صار يسرد عليهم أخباره التي لا تخرج عن حدود
الواقع الفعلي وما يشتمل عليه من أحداث . ناهيك عن أن الناس
صاروا مشغولين عن قلوبهم فيما يتحدثون فيه إذ تنصب الأحاديث
المتبادلة على أمور الواقع . وحتى الخطيبين اليوم صارت
أحاديثهما تتركز حول المسائل العملية والمشكلات المادية ، وقلما
يتطرقان إلى أحاديث الحب ، وصار من المضحكات أن يكتب
الحبیب شعراً يناجى فيه حبيبته ، بل انحصرت الاهتمامات بين
الناس في المسائل المادية والمصالح والمشكلات التي تحيق
بِحاضرهم ومستقبلهم أو التي تهدد أمالهم وأحلامهم .

خامسًا - الإحسان والتضحية وعمل الخير تصير في خير
كان : وبعد التطبيقات الواسعة التي سوف تضطلع بها هندسة
الوراثة عبر الأجيال القادمة ، فإن الأحاسيس الروحية والمشاعر
الدينية سوف تخفت إلى حد بعيد ، فلا يكون بين الناس شيء من
التراحم والشفقة . وما نحن اليوم وحتى قبل القيام بتطبيق هندسة
الوراثة نرى أن إحساس الأغنياء بحاجة الفقراء قد فترت . فبينما
ترى المليونير يركب سيارة يزيد ثمنها عن المليون جنيه ، فإنك
ترى الفقير يتسكع في الطرقات لعل أحدًا يشفق عليه فيعطيه ما يسد
جوعه أو يستر عورته . والسبب هو ارتفاع مستوى الذكاء
وانخفاض مستوى العاطفة . فالمليونير بنكائه استحوذ على الأموال
الطائلة ولكنه صار جاف العاطفة ، فلا يحس بحاجة الآخرين إلى
ما يفضل عنده من غذاء أو كساء أو يلقى به في سلة المهملات . فإذا
كان هذا هو الحال قبل التطبيقات الهندسية الوراثية ، فما بالك
بما سوف نشاهده الأجيال القادمة من جفاف العاطفة وعدم الإقبال
على الإحسان إلى الفقراء والتضحية من أجل الآخرين والإقدام
على عمل الخير دون انتظار لتظير عما يقدمه المزمع من أعمال
طيبة .

هندسة الوراثة والإبداعية :

يعتقد البعض أن الإبداعية من الخصائص النادرة التي لا يتمتع
بها سوى قلة نادرة من الناس . وأكثر من هذا فإن البعض يعتقدون
أن الإبداعية تتعارض تعارضًا جوهريًا مع السوية . فالشخص
المبدع في نظرهم هو شخص شاذ وخارج عن نطاق السوية
لا محالة . والواقع أن الإبداعية من المقومات الجوهرية بالشخصية
الإنسانية السوية ، وأن اختفاء أو بالأحرى اختناق هذا المقوم
بالشخصية شاهد على خروج المزمع من نطاق السوية . فجميع

الناس الأسوياء يتمتعون بالاستعداد الإبداعي ، ولكن تختلف
حظوظ الأفراد بإزاء الظروف التربوية والبيئية التي تساعد على
إخراج المكون الإبداعي النفسى إلى ظاهرية السلوك وإلى ما يتبدى
فى ذلك السلوك من ثمار إبداعية .

وعلىنا أن نبدأ بإلقاء الضوء على ما تتضمنه الإبداعية من
مقومات متباينة قبل أن نعرض لما يمكن أن تؤثر به هندسة الوراثة
فى هذا الاستعداد الذى تجبل عليه جميع الشخصيات السوية من بنى
الإنسان . والمقومات هى :

أولاً - احتدام الشوق إلى الجديد المجهول : فالإنسان السوى
يحب بحنين عارم نحو مجهول لا يتبين ملامحه بوضوح يعتمل فى
عقله ووجدانه لعله يستطيع كشف النقاب عنه ، والوقوف عليه ،
وإحالتها إلى واقع . فثأن المبدع كشأن القناص الذى يصطحب
بندقيته إلى الغابة دون أن يكون قد حدد الفرائس التى سوف يقوم
بافتناصها . فهو يحمل بين جنباته رغبة عارمة فى القيام بعملية
التقص ذاتها دون أن يحدد ما سوف يصوب إليه بندقيته . والواقع
أن هذا الشوق المحتدم إلى الجديد المجهول يبدأ فى البروغ فى
الطفولة ويتبدى فيما يقوم به الطفل من لهو ولعب . فالرغبة فى
اكتشاف الجديد المخبئ ، تلعب دوراً أساسياً فى أنشطة الطفل .
ومن المفروض أن هذا الشوق المحتدم نحو الجديد المجهول
يستمر ، بل ويزيد فى احتداده كلما ضرب المرء فى سياق النمو
لولا ما يفرضه الكبار من قوالب معرفية جاهزة يرغمون الأطفال
على امتيعابها والعكوف على حفظها ، فيقتلون بهذا المنهج التربوى
التقنى ذلك الشوق المعتمل فى عقول وقلوب الناشئة نحو الجديد
المجهول . وبذا فإنهم يقوضون الركيزة الأولى التى تنبنى عليها
الإبداعية التى جبلوا عليها ، والتى تعتبر سمة رئيسية من سمات
كل شخصية سوية .

ثانياً - التحليل والتركيب : أما المقوم الثانى فى الإبداعية فهو
الرغبة القوية فى تقسيم الأشياء إلى أجزاء أو إحالتها إلى وحدات ،
ثم إحالة الأجزاء أو الوحدات إلى وحدات أصغر ، والاستمرار فى
التقسيم أو التجزئة إلى أن يجد أن الشيء الذى يقوم بتحليله
غير قابل لتحليل أكثر وأن الأجزاء الدقيقة لا تقبل القسمة ، أو أن
الوسائل المتاحة للمرء لا تسمح له بالاستمرار فى عملية التحليل .
وفى مقابل هذه العملية التحليلية ، نجد أن الشخص السوى يمارس
عملية أخرى هى للمعنية التركيبية . فهو يقوم بتناول الأجزاء أو
الوحدات التى حصل عليها بالتحليل فيركبها من جديد . وكلما
احتدمت الإبداعية لديه ، فإنه يحاول التوصل إلى مركبات جديدة
مغايرة لما كانت عليه الأجزاء أو الوحدات قبل أن تتحلل وتتجزأ ،
أى عندما كانت من صميم المركب قبل القيام بتحليله وتجزئته . ولقد
يستبعد المرء بعض العناصر التى انتهى إليها التحليل ، كما أنه قد
يضيف عناصر جديدة مما يستطيع الحصول عليه من غير مقومات
المركب الأصلي الذى قام بتقسيمه وفك أوصاله وتحليله .

ثالثاً - التفاعلات الخبيرة : وكلما قام المرء بالاحتكاك بالواقع
الخارجى ومارس عمليتى التحليل والتركيب ، فإنه يكتسب حصيلة
خبيرة تتفاعل بعضها مع بعض من جهة ، كما تتفاعل مع العناصر
الخبيرة الجديدة التى تتأتى له من جهة أخرى . ويتعبير آخر فلن
مركباً شبيهاً بالمركب الكيمائى نسميه بالمركب الخبيرة يتأنى
للمرء وبشكل نواة أو محوراً تلتف حوله وتندمج فيه وتتفاعل معه
جميع المقومات الخبيرة الجديدة التى يكتسبها من الواقع
الخارجى . ومعنى هذا فى الواقع أن عالماً داخلياً يتشكل لدى المرء
يسمى بالعالم الداخلى يقابل العالم الخارجى ، وتقوم بين هذين
العالمين اتصالات مستمرة وتفاعلات تراكبية تعمل على تضخيم

العالم الداخلي بصفة مستمرة إلى أن يتسنى له أن يصير في يده عصا القيادة ، فلا يصير المرء خاضعاً للعالم الخارجى ، بل يكون مسيطراً عليه بواسطة عالمه الداخلى . وبذا فإن هذا العالم الداخلى يبدأ فى تقديم إفرزاته أو ثماره الإبداعية التى تتمثل أول ما تتمثل فى تلك التركيبات الذهنية غير المسبوقة التى لا تكون مجرد نسخ من الواقع الخارجى ، بل يكون لها قوامها الذاتى الخاص بها المتأتى عن تلك التفاعلات الخيرية التى نكرناها .

رابعاً - تجسيد ثمار التفاعلات الخيرية فى كلام أو رموز أو صور أو تماثيل أو أنغام أو تكنولوجيايات : والإبداعية التى تبرز ثمارها الأولى بدخيلة المرء السوى فى هيئة مركبات عقلانية ووجدانية ، لا تقف عند حدود دخيلة المرء ، بل تتعدى ذلك النطاق الداخلى إلى الواقع الخارجى . فالإنسان كما يقال دائماً كائن حى ناطق . والناطق لا يقصد به نطق الكلام فحسب ، بل يقصد به الإبانة أو تجسيد ما يعتمل بالداخل فى الواقع الخارجى . فجميع الإبداعات على اختلاف أنواعها ومراتبها ، إنما هى فى الواقع عبارة عن لباس الصور الذهنية الإبداعية الأبواب المناسبة لها ، أو قل إن الثمار الإبداعية الخارجية هى تمثيل للثمار الإبداعية الداخلية .

خامساً - النقد وتعديل المسار وتنقيح الثمار الإبداعية : والإبداعية - وهى كما قلنا من ملامح الشخصية السوية - لا تقف عند حدود التجسيد فى الواقع الخارجى ، بل إنها تهتم بمراجعة ما تم تجسيده والتعبير عنه . فالمبدع يعمد إلى مدارسة الخطوات التى مرَّ بها فى تفكيره وفى تنفيذ ذلك التفكير لكى يفاضل بين المنهج الفكرى والتنفيذى الذى اتبعه وبين المناهج الفكرية والتنفيذية الأخرى التى كان من الممكن الوقوع على واحد

منها ، ثم إنه يفاضل فيما بين ما انتهى إليه وبين الصور الذهنية الإبداعية الجديدة التى واثته بعد إخراج صورته الذهنية السابقة إلى حيز التنفيذ . ذلك أن الحياة الذهنية والوجدانية بمثابة تيار جارٍ لا يتوقف . فما يكاد المبدع ينشئ صوراً ذهنية ووجدانية إبداعية ويبدأ فى تجسيدها فى الواقع الخارجى حتى تنشأ لديه صور ذهنية ووجدانية جديدة . وهكذا فإن عملية النقد وتعديل المسار الفكرى والتنفيذى وتنقيح المناهج الفكرية والتنفيذية تظل من سمات الشخصية السوية الإبداعية بغض النظر عن المجال الذى يساهم فيه المبدع بإبداعاته . فالجوهر هو الإبداع نفسه الذى يعتبر سمة جوهرية من سمات الشخصية السوية . أما عدم بزوغ الإبداعية فى حياة الإنسان فهو يكون بسبب المعوقات التى حالت بينه وبين التعبير عن سويته النفسية .

وإذا نحن تناولنا ما يمكن أن تؤثر به هندسة الوراثة فى الإبداعية ، فإننا نستطيع أن نتوقع ما سوف يترتب على الأخذ بها وما سوف تضطلع به من تطبيقات على النحو التالى :

أولاً - مضاعفة الذكاء البشرى : وهذا معناه أن إنسان المستقبل سوف يتمتع بقدرة عظيمة على التوصل إلى مركبات خيرية فائقة التصور فى الوقت الحالى . فلسوف يكون بمقدور إنسان المستقبل إقامة علاقات مبتكرة بين المقومات الدقيقة ، كما سوف يكون بإمكانه القيام بتحليلات شنيئة وذهنية على أكبر جانب من الدقة .

ثانياً - ضمور الوجدان بالمقارنة بمضاعفة الذكاء : وفى المستقبل فإن اهتمام هندسة الوراثة بالذكاء سوف يكون على حساب الاهتمام بالوجدان . ومن ثم فإن إنسان المستقبل سوف يكون بارد

المشاعر الوجدانية ، الأمر الذى سوف يهدد الكثير من القيم الإنسانية التى تعتمد على انتعاش الوجدان وتوجهه واحتداه فى قلب المرء .

ثالثاً - الإبداعية الشريرة سوف تتغلب على الإبداعية الخيرة : وطالما أن الوجدان سوف يضمم قياساً إلى ما سوف يحزره النكاه البشرى من تفوق ، وما سوف يترتب على ذلك من ضمور وانهايار الكثير من القيم التى نعتز بها ، فإن ما تتمخض عنه الإبداعية البشرية فى المستقبل سوف يميل إلى كفة الشر أكثر من ميله إلى كفة الخير . وبالتالي فإن الشرور الإجرامية والإرهابية سوف تستشرى ، فتنتج الإبداعية المستقبلية إلى التخريب والتدمير أكثر من اتجاهها إلى البناء والتعمير .

الفصل التاسع

العوامل البيئية المؤدية إلى انحراف الشخصية

العوامل الأسرية :

على الرغم من أن الطفل الوليد يحمل فى قوامه المقومات البيولوجية والنفسية التى ورثها عن أسلافه القريبين والبعيدى ، فإن تلك المقومات لا يتسنى لها أن تتجسد فى الواقع الحياتى له إلا بالتفاعل مع البيئة التى تتلقفه وتأخذها فى حضنها وتضغط عليه بالمؤثرات المتباينة التى تؤثر بها فيه . فنحن فى الواقع لا نستطيع أن ننحيز للورثة ، كما لا نستطيع أن ننحيز للبيئة ، وإنما ننحيز للعمليات التفاعلية التى تتم فيما بين الاستعدادات الموروثة وبين المؤثرات البيئية ، مما يتأتى عنها شخصية المرء بجميع جوانبها وملامحها . فالبيئة بمؤثراتها المتباينة لا تخلق فى قوامه شيئاً من العدم ، كما أن الاستعدادات الموروثة لا يتسنى لها أن تخرج من مكانها فى جبلة المرء إلا إذا هى تفاعلت مع تلك المؤثرات البيئية المتباينة .

ومن الطبيعى أن أول بيئة يتفاعل معها الوليد هى بيئة الأسرة التى يولد بها . فإذا كانت تلك البيئة الأسرية فاسدة ، فإنها تعمل على إفساد الاستعدادات الحسنة التى ورثها الطفل عن أسلافه ، كما أنها تعمل على تشجيع الاستعدادات الرديئة على البروغ . ولكن يجب ألا يفهم من كلامنا هذا أن الاستعدادات الحسنة والرديئة تبرغ إلى الوجود الواقعى على حالها ، بل إنها تتفاعل مع المؤثرات البيئية فيتأتى عن ذلك التفاعل ما يبدو من سلوك طيب فى حالة تفاعل



الاستعدادات الجيدة مع المؤثرات البيئية الجيدة ، وما يبدو من سلوك ردىء فى حالة تفاعل الاستعدادات الرديئة مع المؤثرات البيئية الرديئة . ناهيك عن أن تفاعل الاستعدادات الجيدة مع المؤثرات البيئية الرديئة يعمل على إفسادها ، بل وقد يعمل على أن يكون ناتج التفاعل بزوغ سلوك ردىء .

وإذا نحن تناولنا العوامل الأسرية الرديئة التى إذا ما تفاعلت مع الاستعدادات التى يحملها الطفل فى جنباوته ، فإنها تفسدها ، وبالتالي فإن ذلك التفاعل يودى إلى انحراف الشخصية ، فإننا نجد أن تلك التفاعلات تتلخص فيما يلى :

أولاً - عدم مراعاة الخصائص الثمانية للطفل والمراهق والشباب : فمن أهم العوامل التى تودى إلى انحراف الشخصية عدم تفهم الآباء والأمهات لطبيعة الطفولة والمراهقة والشباب ، وبالتالي تقديم مؤثرات تربوية غير مناسبة لمن يقومون بتربيتهم . فمن المفروض أن يقدم الكبار المؤثرات التربوية المناسبة حتى لا تحدث تفاعلات خيرية غير مناسبة للمرحلة الثمانية التى يمر بها الناشئة من الأطفال والمراهقين والشباب من الجنسين . ولعلنا نشبه الناشئة بالأجهزة الإلكترونية الدقيقة التى يجب أن يكون المتعامل معها أو الذى يقوم بتشغيلها على علم بها ومدرب على تشغيلها وإلا فإنه يعمل على إفسادها طالما أنه جاهل بخصائصها وكيفية إدارتها . والواقع أن الإنسان على جانب أكبر من الدقة من أية آلة الكترونية ، ومن ثم فإن ما يصح بالنسبة للآلة الإلكترونية يصح بالأولى بإزاء الناشئة . ولعلنا نخلص من هذا إلى أن جهل الكبار بخصائص الصغار وعدم تدريبهم على أصول التعامل معهم يودى إلى إفساد ما حملوه بين أضلعهم من استعدادات طيبة كان يمكن أن تنجد فى حياتهم سلوكاً طيباً لو أنها تفاعلت مع مؤثرات طيبة يقدمها إليهم الكبار المسئولون عن تربيتهم وتنشئتهم .

ثانياً - التحيز لرغبات الناشئة على حساب حاجاتهم : فليس كل ما يرغب فيه الطفل أو المراهق أو الشاب لصالحه أو لتحقيق النمو البيولوجى والوجدانى والعقلى والتعبيرى والعلائقى له . فقد تتعارض الرغبة مع الحاجة ، ولقد تمشى وتتسجم معها . فالطفل أو المراهق أو الشاب الذى يرغب فى اللعب ، فإن اللعب قد يماشى حاجته إلى الترفيه عن نفسه ، ولكن إذا تعارض اللعب مع ما يجب أن يقوم به من جلوس إلى المكتب للاستنكار ، عندئذ يكون اللعب متعارضاً مع مصلحته أو تكون رغبته فى اللعب متعارضة مع حاجته إلى الاستنكار واستيعاب الدروس . وكذا فإن الطفل أو المراهق أو الشاب الذى أصيب بمرض ما وأمر الطبيب بضرورة تناوله لدواء مر المذاق أو أخذ حقن معينة ولكنه أبدى نفوراً من تناول الدواء أو من أخذ الحقن ، فإن نفوره هذا يتعارض مع حاجته الصحية . فإذا ما انحاز الوالدان إلى رغبات أولادهما من الجنسين ولم يربحاً كفة الحاجات على كفة الرغبات ، فإنهما يعملان بهذا على الانحراف بشخصيات أولئك الأولاد .

ثالثاً - انتحاء الوالدين إلى التذليل أو إلى القسوة : ومن العيوب التربوية الشائعة عدم قدرة الآباء والأمهات على استبانة الموقف الوسيط فيما بين التذليل والقسوة . فنجد أن البعض منهم ينحازون إلى التذليل ، بينما ينحاز بعضهم الآخر إلى القسوة . ولعل من أخطر الحالات التى توجد بين بعض الآباء والأمهات هى تلك التى يختلط فيها التذليل مع القسوة ، فتكون معاملتهم لأولادهم متسمة بالتناقض . فالسلوك الواحد الذى يصدر عن الصغار يقابل باللامبالاة أو حتى بالرضا والسرور فى بعض الأحيان ، بينما يقابل بالسخط والغضب والعقوبات الصارمة فى أحيان أخرى . فيتأذى عن ذلك التناقض التربوى انحراف شخصيات الناشئة من الأولاد من الجنسين على السواء .

رابعاً - تقديم القدوة السنية من جانب الوالدين : فالتربية ترتكز على عدة ركائز من أهمها الإحياء والتقليد . والإحياء هو ترسيخ بعض الأفكار والاتجاهات في الشخصيات التي يوحى إليها دون تقديم البراهين أو المستندات المنطقية التي ترتكز عليها تلك الأفكار والاتجاهات . أما التقليد فإنه عبارة عن مطابقة حركية ونفسية بين المقلد والشخص الذي ينقل عنه السلوك الذي يتم تقليده . والواقع أن ثمة تداخلاً كبيراً فيما بين الإحياء والتقليد ، فالإحياء وإن كان ينصب على الأفكار والاتجاهات ، فإن ثماره تتجسد في سلوك عملي يمارس بالحركات والتصرفات والعلاقات المتباينة . وكذا يمكن أن يقال إن التقليد يشتمل على ركيزة إيحائية . فبغير وجود تلك الركيزة الإيحائية في التقليد فإنه لا يتم ولا يستحيل إلى واقع سلوكي بالفعل . ولعلنا نعبر عن ذلك أيضاً بالقول بأن الإحياء هو تقليد يبدأ بالفكر ، وأن التقليد هو إحياء يبدأ بالعمل والممارسة .

خامساً - التفكك الأسرى : ومن العوامل الأسرية الفاسدة التي تؤدي إلى انحراف شخصيات الناشئة من الجنسين ما يمكن أن يصيب الأسرة من تفكك . والتفكك قد يكون صريحاً بالطلاق ، وقد يكون ضمنياً بعدم توافر الوشائج الوجدانية بين الوالدين بعضهما وبعض من جهة ، وبينهما وبين أولادهما من جهة أخرى . وقد يكون التفكك الأسرى متديباً في النزاعات والشجارات المستمرة بين أفراد الأسرة ، فتكون الكراهية هي السائدة والمهيمنة على العلاقات بين أفراد الأسرة . فالناشئة الذين يفتحون أعينهم على أسرة مفككة لا ينشأون أمسياء الشخصية ، بل إن حالتهم النفسية تكون ملتوية وبالتالي فإن تصرفاتهم وعلاقاتهم تكون غير سوية .

وعلياً أن نتساءل بعد هذا عن النتائج التي يمكن أن تترتب على العوامل الأسرية الرديئة الخمسة التي عرضناها وتنبؤ في سلوك الأولاد من الجنسين . إننا نستطيع أن نستعرض تلك النتائج على النحو التالي :

أولاً - الإصايب بالأمراض النفسية : لقد يترتب على العوامل الأسرية السيئة إصابة أبناء الأسرة بالأمراض النفسية التي تدل على الخروج من نطاق السوية إلى نطاق المرض النفسي . فالأولاد من الجنسين الذين يلاقون العنف والقسوة والمبالغة في أخذهم بالحزم واتباع قواعد صارمة لا يحدون عنها ، والحرمان من الحرية ومن التعبير عن نواتهم ، يكونون معرضين بالتالي للإصابة بالمشاغب المرضية . من ذلك مثلاً الخوف من الأماكن المغلقة ، والخوف من الأماكن الفسيحة ، والخوف من الحيوانات الأليفة . ولقد يصاب الأولاد من الجنسين الذين يخضعون لتربية الأسر المنحلة التي تكثرت فيها المنازعات بالوسوسة والأعمال القهرية وبغير ذلك من أمراض نفسية متباينة وعديدة .

ثانياً - عدم اكتساب القدرة على التكيف لمتغيرات الحياة : فالشخصيات التي تتربى في أسر غير سوية لا يتسنى لها أن تتواءم مع التغيرات التي تحيط بهم . فهم ينشأون على أنماط ضيقة الأفق وجامدة ، ولا تتكون في شخصياتهم دينامية التطور . ذلك أن الحياة بمثابة سلسلة من العمليات المتدفقة . فالحياة بالأمس غير الحياة اليوم . وحياة اليوم غير الحياة في الغد . والتدفقات الحضارية لا تتوقف عند حد معين . فالشخص الذي تقول في قالب جامد لا يتسنى له أن يتعمق بالقدرة على المواجهة بينه وبين التدفقات الحضارية التي لا تثنى ولا تقف بأى حال من الأحوال عند حد معين . ولا شك أن شخصاً هذا شأنه لا يستطيع أن يكون ناجحاً في

حياته الراهنة ، كما لا يكون مباشرًا بالنجاح في المستقبل . فهو يكون فاشلاً في حاضره وفي مستقبله على السواء .

ثالثاً - الجمود الفكري والفقر الثقافي : ومن النتائج التي يمكن أن تترتب على العوامل الأسرية الرديئة التي ذكرنا خمساً منها ، تركيز ذهن الناشئة في ظل تلك الأسر الرديئة في جانب ضيق من الحياة . فهم لا يتسنى لهم إعمال أفكارهم في رحابة الحياة كما لا تتسنى لهم القدرة على التفكير في حل المشكلات التي تجابههم . ناهيك عن أنهم لا يستطيعون الانفتاح على المجالات الثقافية المتباينة أو المشاركة في أى منها . والثقافة كما نعنيها هي المعرفة والتذوق الجمالي والروحي واكتساب المهارات الحركية واكتساب المهارات العلائقية الاجتماعية والانفتاح على المستقبل والتخطيط للخطوات القادمة وترسم أهداف مستقبلية متجددة . وهكذا نجد أن الناشئة الذين تتم تربيتهم في ظل أسر رديئة يغلغون ثقافياً ويكونون مسطحى التفكير ولا يتسنى لهم إعمال فكائهم في الأمور التي تكتنفهم أو تصادفهم في حياتهم .

رابعاً - تقشى روح الأثانية والأثرة : فالمؤثرات التربوية الرديئة التي عرضنا لها تؤدي إلى انتشار روح الأثانية بين الأبناء والبنات على السواء . وتظل هذه الأثانية معتملة في قلوبهم وعقولهم طوال حياتهم . فهم لا يحبون إلا أنفسهم ، ولا يؤثرون غيرهم بشيء ، بل إن الغيرية لا تجد إلى سلوكهم سبيلاً ، ناهيك عن عدم قدرتهم على التعاون مع غيرهم في أداء أى عمل يجب أن يعتمد على تعاون شخصين أو أكثر في أدائه ، وناهيك أيضاً وبالأولى عن عجزهم عن التضحية أو التنازل عن بعض من حقوقهم للآخرين ممن يحتاجون إلى تضحياتهم . فالواقع أن الأسرة المفككة والتي لا ينتشر الحب بين قلوب أبنائها لا تستطيع موى أن تقوم بتنشئة أبناء وبنات لا يعرفون إلى التضحية سبيلاً .

خامساً - اقتراف الجرائم : فالعوامل الأسرية التي ذكرنا أهمها تؤدي لا محالة إلى عدم الإحساس بالانتماء الأسرى ، وبالتالي فإن التصدع الانتمائى الأسرى - إذا صح التعبير - يتسع مداه إلى الدوائر الأوسع بالمجتمع كالمدرسة أو المعهد أو الكلية أو مقر العمل ، إلى أن يشمل المجتمع ككل . فيحس الناشئة بكرهياتهم للناس جميعاً ، سواء كانوا في نطاق أسرهم أم خارج ذلك النطاق . وإنك لتجد الكثيرين من مقترفي الجرائم قد خضعوا للمؤثرات الأسرية الرديئة بالأسر غير السوية التي تربوا في ربوعها ، فنشأوا غير أسوياء بالتالى . ومما لا شك فيه أن ظاهرة العنف والارهاب التي صارت متفشية في أنحاء كثيرة بالعالم ، إنما هي من الثمار الرديئة التي تآتت عن انحلال الأسر وعن عجزها عن النهوض بمسئولياتها التربوية تجاه أبنائها وبناتها منذ الطفولة ومروراً بالمراهقة والشباب . فالكثير من الأزواج والزوجات لا يصلحون للنهوض بمسئولياتهم كآباء وأمهات . وحتى الكثير من الراشدين الذين يصلحون كأزواج وزوجات لا يصلحون كمربين للناشئة . ولعلنا لا نخطئ إذا ما زعمنا أن الكثير من الجرائم التي يقترفها الشباب هي تعبير عن سخطهم على الأسر التي نشأوا فيها ، ولكنهم بذل أن يوجهوا سهام سخطهم إلى والدين ، فإنهم صاروا يوجهونها إلى المجتمع الخارجى بعيداً عن نطاق الأسرة التي نشأوا فيها . ولعل أن تكون الحياة الحديثة المعقدة بحاجة إلى تدريب المقبلين على الزواج من الجنسين على فنون التربية حتى يتسنى تخليص المجتمع من أجيال قادمة سوف تستشري فيها الميول العدوانية ، والنزعات الإجرامية .

العوامل المدرسية :

تعتبر المدرسة البيئة الاجتماعية التي تحفل المرتبة الثانية في تشكيل شخصية الطفل ، بل إن المدرسة تنازع الأسرة في احتلال المكانة الأولى في التأثير وذلك بما لديها من وسائل تأثيرية أكثر خصوصية ، وبما تتمتع به من علاقات اجتماعية غزيرة ومتنوعة ومتدفقة . وإلى جانب هذا فإن المدرسة تعتبر التجمع الذي يضم في نطاقه الكثير من المؤثرات الأسرية المتعددة . فثمة تأثيرات أسرية عديدة بعدد التلاميذ الذين يفدون من أسر متعددة ، ويحمل كل منهم ما يشيع في أسرته من أفكار واتجاهات وقيم ويصحبها في المدرسة .

ومما لا شك فيه أن ما يشيع في المدرسة من مؤثرات يترك صداه في تلاميذها . فإذا كانت المؤثرات الشائعة بها جيدة ، فإنها تترك آثارًا جيدة فيهم . وعلى العكس من هذا فإذا كانت المؤثرات الشائعة بها رديئة ، فإنها تترك آثارًا رديئة تنبدي في سلوكهم . ولعلنا نتساءل عن المؤثرات الرديئة التي تشيع عادة في المدرسة فننتقل بالتالي إلى تلاميذها . إننا نستطيع تحديد أهم تلك المؤثرات على النحو التالي :

أولاً - الانحرافات الخلقية عند بعض التلاميذ : فكما أن الأمراض المعدية تنتشر من المرضى بها إلى الأصحاء ، كذا فإن الأخلاق الرديئة المتمكنة من شخصيات بعض التلاميذ تنتشر من أولئك التلاميذ المنحطين أخلاقيًا إلى سائر زملائهم . ومن المعروف أن قدرة الأخلاق الحسنة على الانتشار من أصحابها إلى غيرهم أضعف من قدرة الأخلاق الرديئة على غزو شخصيات أصحاب الأخلاق الجيدة . وحيث إن المدرسة مكان للالتقاء والتعامل بكثير من الحرية والتلقائية ، لذا فإن المناخ يكون مهينًا

لنشر الأخلاق الرديئة على نطاق واسع . والخطير في المسألة أن انتشار الأخلاق الرديئة يسير وفق متتالية هندسية ، بمعنى أن الأخلاق الرديئة التي يحملها تلميذ واحد تنتشر إلى اثنين على الأقل ، ثم إلى أربعة ، ثم إلى ثمانية ، ثم إلى ستة عشر . وهكذا دو اليك تمامًا كما يحدث بالنسبة للمرض المعدى الذي يكون انتشاره وفق متتالية هندسية أيضًا .

ثانيًا - الضغط النفسي الذي يحمله معه اليوم المدرسي : فالنظام المدرسي يقضى بتكديس التلاميذ في حجرات دراسية ، فيجلس كل تلميذ عدة ساعات متتالية لا يفصل فيما بينها سوى دقائق معدودات على مقعد خشبي مما يعمل على إرهاقه وإصابته بالسأم . وأكثر من هذا فإن بعض التلاميذ يصابون بالانحرافات النفسية نتيجة الإرهاق النفسي الذي ينجم عن المعاناة النفسية التي تفرض عليهم كل يوم مدرسي . ناهيك عن الإرهاق الذهني الذي يعاني منه الكثير من التلاميذ نتيجة ما يفرض عليهم من متابعة شرح المدرسين للدروس وحملهم على حفظ المعلومات وكأنهم قد صاروا بمثابة أجهزة تسجيل أو قطع من الإسفنج التي لا يكون عليها سوى امتصاص ما يحيط بها من سوائل دون أن تلعب أي دور سوى الامتصاص والاستيعاب . فالمناهج المدرسية بمثابة قوالب جاهزة على التلاميذ أن يصبوا عقولهم فيها دون أن يكون لهم دور إيجابي بإزائها . فليس في مقدورهم أن ينتقوا ما يرغبون في تعلمه أو ما يميلون إليه أو ما يتمشى مع ما لديهم من مواهب في تحصيله أو التمكن منه . ناهيك عن أن المناهج الدراسية تقدس ما هو عقلي وتنبو غالبًا عما يمارس باليدين . وحتى ما يرتبط بالعمل ، فإن التجريد يغلب عليه ، فمادة الكيمياء مثلاً - وهي مادة تعتمد أساسًا على التجارب بالعمل - لا يتم تدريسها بالتجريب في المعمل ، بل

بم ذلك بما سبق أن انتهت إليه تجارب العلماء . فلا يكون على التلميذ سوى حفظ واستيعاب النتائج التي توصل إليها أولئك العلماء . ومعنى هذا أن ما يقوم المدرس أو التلميذ بممارسته في المعمل لا يخرج عن كونه وسيلة إيضاح لتسهيل عملية الحفظ والاستيعاب ولا يتعلق بالتجريب من قريب أو من بعيد ، اللهم إلا بالإسفس . فهذا مما يعمل بلا شك على إرهاب التلاميذ كما يجعل اليوم المدرسى مرهقاً أيماً إرهاب . وبالتالي فإنه يعمل على الانحراف بشخصيات التلاميذ .

ثالثاً - القسر والقمع والتهديد بتوقيع العقوبات : ومن العوامل التي تعمل على الانحراف بشخصيات التلاميذ ما تتسم به الحياة المدرسية من قسر ومصادرة للحرية الشخصية ، وما يستعين به المدرسون والمشرّفون من قمع وتهديد بتوقيع العقوبات على من يخرجون على النظام المدرسى أو من يعبرون عن فرديتهم ويؤكدونها ويعصون الأوامر الصادرة عن الكبار ، أو من يخرجون عن الصف أو لا يذويون في المجموعة التي يوضعون بها . ويتعبير آخر فإن ما تحاوله المدرسة باستمرار العمل على ملامشة الفردية وتأكيد الجماعية . فالمدرس بالفصل يخاطب المجموعة كما لو أنها شخص واحد ، والمشرّف في الطابور يخاطب المدرسة كما لو أنها وحدة غير مركبة من أفراد عديدين . فالتباين بين التلاميذ هو العدو اللدود الذي تعلن المدرسة بكل قانتها بدءاً بالناظر وانتهاء إلى المدرس محاربتة بكل ما لديهم من قوة . وكلما نجحت المدرسة في معركتها ضد الفردية وأدمجت العديد من أفراد تلاميذها في وحدات هي الصفوف أو الفرق كما لو أن كل صف أو فرقة عبارة عن شخص واحد ، فإنها تكون قد استطاعت أن تؤدي رسالتها على خير وجه وأتمه . وهذا بالطبع

مما يحرم التلاميذ من التعبير عما حازه كل منهم من قدرات خاصة ، ومن خصائص فردية يتميز بها ، وبالتالي فإنه ينحرف عن السوية وينخرط في نطاق الانحراف النفسى الذى يُفرض انحرافات سلوكية متباينة .

رابعاً - الإحساس بالهامشية والعيالة على الأسرة والمجتمع : فعلى الرغم من أن المراهق والشاب يكونان قد نضجا جسمياً ونفسياً ، فإن ما ينخرطان فيه من مؤسسات تعليمية حتى الجامعة يشعرهما بأنهما من الشخصيات الهامشية التي لا تمارس الحياة . فهما متفرجان على الحياة وليسا مشاركين في ركبها . فمهمة الطالب في أى مرحلة تعليمية الأخذ دون العطاء ، ومشاهدة واستعراض ما سبق للأخزين من العلماء والأدباء والفلاسفة إنجازة دون ترك بصمة شخصية على تلك المنجزات . فما على الطالب سوى أن يستعرض ما هو جاهز أمامه من تلك المنجزات الثقافية . فهو عالة من الناحية الثقافية على ما اضطلع به الآخرون ، بينما لا يكون له دور إيجابى بأى حال من الأحوال . ناهيك عن إحساس المراهق أو الشاب أنه لا يختلف عن أى طفل صغير تنفق عليه أسرته ، ولا عن أى رضيع يمتص ثدى أمه . والفرق بينه وبين الرضيع يتبدى في المصدر الذى يمتص منه غذاءه . فهو يمتص دخل أسرته وكان ذلك الدخل هو إبان ثدى أسرته . فثمة إذن تناقض بين إحساس المراهق أو الشاب بنضجه النفسى وبين ما يقسر عليه بأن يظل عالة على غيره ولا يشارك في مسيرة الحياة ، ولا يترك بصمته على الواقع من حوله . وهذا بالطبع ما يعمل على إخراجة من نطاق السوية إلى نطاق انحراف الشخصية .

خامساً - تخلف المؤسسات التعليمية عن الإيقاع الحضارى : لقد كانت المدرسة قديماً أسرع من المجتمع حولها

في التطور والتقدم ، بل إنها كانت هي الممسكة بعضا القيادة . فهي التي كانت في المقدمة وهي التي كانت تبصر أبناء المجتمع بالعلم والمعرفة والممارسات العملية . بيد أنه مع التدفقات الحضارية السريعة في إيقاعها ، ومع التكنولوجيات المتطورة والمتدفقة في الواقع خارج المدرسة ، فإن هذه الأخيرة صارت متخلفة عن الواقع . وكيف يتسنى للمعلمين أن يلاحقوا التطورات التي تقع على مستوى العالم ، ونقول على مستوى العالم وقد صار العالم بمثابة قرية صغيرة بعد أن صارت وسائل الإعلام تجمع العالم كله في قبضة الإذاعة والتلفزيون وأشرطة الفيديو والصحافة المتطورة . فالمعلمون والتجهيزات التعليمية بداخل المدرسة - مهما ادعت أنها متقدمة - تعتبر متخلفة إذا ما قيست بما يدور خارجها . خذ مثالا بسيطا لذلك . كم عدد المدرسين الذين يجيدون استخدام الكمبيوتر ويمارسون استخدامه في إعداد دروسهم ؟ نخشى أن نقول إن صغار التلاميذ يتعلمون اليوم الكتابة على الكمبيوتر في بيوتهم وليس بالمدرسة . والكمبيوتر مثال واحد من بين العديد من الأمثلة التي يمكن إيرادها وتدل على أن ما هو خارج المدرسة أسرع في التطور والأخذ بالجديد من المدرسة . وهذا بالطبع لا يحمل التلاميذ والطلاب على النظر بالاحترام والتقدير إلى مدرستهم ، بل العكس هو الصحيح . فهم يتكلمون على المؤسسة التعليمية التي ينخرطون فيها ويعتبرونها من مخلفات الماضي التي لا مناص من الاستمرار فيها حتى التخرج والتخلص منها . وهذا الشعور العدائي أو الاحتقاري المعتدل في قلوب التلاميذ والطلاب تجاه مدارسهم ومعاهدهم وكنياتهم يؤدي بهم إلى الانحراف بشخصياتهم عن السوية النفسية والسوية الاجتماعية على السواء .

والواقع أن الإيديولوجيا التربوية التي تهيمن على أذهان وقلوب

المسؤولين عن التربية والتعليم بالمدارس بغض النظر عن مسمياتها تلعب دورا بارزا في انحراف شخصيات الأطفال والمراهقين والشباب من الجنسين المنخرطين في مراحل التعليم المتباينة . ولعلنا نقدم أهم خصائص تلك الإيديولوجيا وما تؤثر به في شخصيات الناشئة وتدفع بهم إلى الانحراف عن السوية على النحو التالي :

أولاً - الانحياز إلى الأحادية ونبيذ الفارقية : والأحادية تنظر - كما قلنا - إلى تلاميذ الصف الواحد كما لو أنهم تلميذ واحد . وباعتبار آخر فإن الاهتمام ينصب على المتوسطين باعتبارهم ممثلي الأغلبية ، أو أنهم نتيجة المحصلة أو المعبرين عن متوسط مستوى مجموع تلاميذ الصف الواحد . وفي ضوء الإحصاءات التي تعمل بإزاء متوسطات القدرة التحصيلية للصفوف الدراسية المتباينة توضع المناهج الدراسية وتعدّد الامتحانات . فالمدرس الذي لا يعتبر سوى أداة منفذة للمقررات الدراسية يخاطب في تدريسه المتوسطين ، بينما هو يهمل المتفوقين والضعفاء والمتخلفين على السواء . وبذا فإن المؤسسات التعليمية لا تخرج سوى المتوسطين ، وبالتالي فإن هذا يكون حكما مضمرا على جعل الشعب في المستقبل شعبا متوسطا في المستوى الثقافي . وهذا الانحياز إلى الأحادية دون الفارقية يؤدي بالطبع إلى التوترات النفسية تصيب الأذكى ومنخفضي الذكاء على السواء ، أو تصيب من لديهم مواهب عبقرية ومن لم يوهبوا تلك المواهب بغير استثناء .

ثانياً - النظرة الضيقة إلى الثقافة وحصرها في نطاق المعرفة : فقد شاع في الأذهان للأسف أن الثقافة هي المعرفة ، وأن ما عدا المعرفة لا يدخل في نطاق الثقافة . والواقع أن الثقافة

تتضمن خمسة مقومات أساسية هي المقوم المعرفي ، والمفهوم المهارى الحركى ، والمفهوم المهارى العلائقى أو الاجتماعى ، والمفهوم التدقى القيمى الدينى والخلقى والجمالى ، وأخيراً المفهوم التخطيطى المستقبلى . وعلى الرغم من أن الواجب على التربية أن تأخذ فى اعتبارها هذه المقومات الخمسة للثقافة ، فإن تركيزها الرئيسى ينصب على المقوم المعرفى ، ولا تعطى سوى الحثالة للمقومات الأربعة الأخرى . ومن ثم فإن المتفوقين فى المقومات الأربعة الأخرى التى تهملها المؤسسات التعليمية ، إنما يتفوقون اعتماداً على أنفسهم فى إتماء ما وهبوه من استعدادات وإزائها . ولا شك أن قصر الاهتمام الثقافى على المقوم المعرفى يودى بالكثير من الموهوبين فى مقوم أو أكثر من المقومات الأربعة الباقية والمتخلفين أو المتوسطين فى الوقت نفسه فى التحصيل المعرفى إلى فقدان الثقة فى أنفسهم ، وبالتالي فإنهم يرتمون فى أحضان الانحراف النفسى والخروج عن نطاق السوية النفسية .

ثالثاً - الاعتقاد فى أن من يفهم يستطيع التعبير عما يفهمه :

وهذه العقيدة المسيطرة على أذهان كثير من المعلمين تؤدى إلى رسوب أو عدم تفوق الكثير من التلاميذ والطلاب . والحقيقة أن الفهم والحفظ والاستيعاب هى عمليات استقبالية ، بينما التعبير عنها مهارة أدائية . فالكتابة التى يعبر بها المرء عما يعرفه شأنها شأن اكتساب مهارة قيادة السيارة أو العزف على إحدى الآلات الموسيقية . وبعبارة أخرى فإن ما يتم تحصيله بالعقل وترجمته بالذاكرة يختلف عما يتم التدريب عليه . فالإبانة بالقلم أو بالآلة الكاتبة أو بالكومبيوتر أو حتى بالنطق باللسان هى مهارة أدائية . ولكن الإيديولوجيا التربوية المسيطرة على أذهان المربين تقول إن من

يعرف يستطيع أن يبين عما يعرفه . ومن الطبيعى أن التلميذ أو الطالب الذى يصدم بأن يكتشف فشله فى امتحان آخر العام بالرغم من حفظه لكل المقرر ، يصاب بخيبة الأمل وبالأس ، وبالتالي فإنه ينحرف نفسياً ويخرج من إطار السوية إلى إطار الانحراف النفسى .

العوامل الوظيفية :

بعد الانتهاء من الانتظام فى الدراسة يبدأ الشاب أو الشابة فى الانخراط فى الحياة العملية ، سواء فى الأعمال الحرة أم فى إحدى المؤسسات الحكومية أو الخاصة . والحياة العملية لا تقتصر على تطبيق ما سبق أن تعلمه المرء بالمدرسة أو المعهد أو الكلية ، بل إنها تعتبر فى الواقع مصدراً لاكتساب الخبرات الجديدة المتباينة . وطالما أن الحياة متدفقة ومستمرة فى التقدم بما تنتزع به من تكنولوجيات جديدة ووسائل أداء متقدمة ومحسنة ، فإن على العاملين أن يطوروا أنفسهم ، سواء بالمعلومات الجديدة ، أم بالمهارات التى تستجد فيما يوكل إليهم من أعمال ، وإزاء ما يدخل إلى الحياة العملية من تكنولوجيات جديدة .

يبدأ الحياة العملية وما ينخرط فيه المرء من وظائف متباينة كثيراً ما تعمل على انحراف شخصية الموظف أو العامل وتخرجه من إطار السوية النفسية والخلقية وتدفع به إلى المعاناة من مشكلات نفسية أو إلى ألوان سلوكية ملتوية مجانبية للأخلاق الكريمة والمثل العليا السامية . ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض أهم العوامل التى تعمل على الانحراف بشخصية العامل أو الموظف .

أولاً - الانحسار فى دائرة الوظيفة : فيعد أن كانت الآفاق رحبة أمام الشاب أو الشابة بحيث يمكن أن يقضى الواحد منهما الوقت الطويل فى الاطلاع على الجديد الذى يشهرونه ويحدث نفسه

فيه أيام كان طالبًا ، فإن المتطلبات الوظيفية تفرض عليه بعد التوظيف أن يحضر اهتمامه فيما يتعلق بالواجبات المنوطة به . وحتى بالنسبة للمستجدات الخيرية المتعلقة بالوظيفة ، فإن الموظف غالبًا ما لا يجد الوقت أو الرغبة في اكتساب تلك المستجدات . ذلك أن الجهد الذي يبذله في الوظيفة والروتابة التي تتصف بها ، والروتين الذي عليه أن يلتزم به ، تعمل جميعًا في الغالب على تعطيل استعداده لاكتساب الخبرات الجديدة . ناهيك عن أن كل ما يتعلق بالتعليم يكون قد انطفأ بريقه وعلاه الصداً بسبب الوسائل المنفرة التي كانت المؤسسات التعليمية تتبعها معه أيام كان تلميذًا وطالبًا ، وبخاصة ما يتعلق بالامتحانات وما يرتبط بها في لاشعوره من خوف وبغضاء . من هنا فإن الوظيفة غالبًا ما تعمل على انطفاء بريق كل جديد في المجال الوظيفي الذي يعمل به .

ثانيًا - مصادر القدرات الإبداعية : ومن العوامل التي تؤثر في سلامة الصحة النفسية للموظف تكبيله بنظام مرسوم بحذافيره لأداء العمل وعدم إطلاق يده للتصرف بوسائل جديدة يقوم بابتداعها . فالواقع أن المؤسسات على اختلافها فإن شأنها شأن الأفراد من حيث إنها تكتسب مجموعة من العادات التي تسيطر عليها ولا يكون ثمة مناص من اتباعها والالتزام بها . فالموظف الذي يحاول تحقيق شخصيته والتعبير عن قدرته الإبداعية يجد المقاومة الشديدة من جانب مؤسسته . فالجديد مرفوض والقديم له قدسيته وسيطرته . وطبيعي أن الموظف الجديد يرغب في التعبير عن أصالته الفكرية والأدائية ، وذلك لأن من شروط السوية النفسية - كما سبق أن قلنا - قيام المرء بإبداع الجديد . ولكن المؤسسة التي يعمل بها قد اكتسبت مجموعة من العادات التي تتجسد في الروتين واللوائح وترفض ذلك الجديد الذي يزيد الموظف الجديد أن

يسيطر به على مقاليد العمل . وهكذا نجد أن تلك المقاومة التي يلقاها الموظف والتي تعمل على قمع طاقاته الإبداعية تعمل على الانحراف به عن نطاق السوية إلى نطاق التوتر النفسي .

ثالثًا - الإرهاق الجسمي والعقلي : ومن العوامل التي تسبب الانحراف النفسي لدى كثير من الموظفين والعمال إحساسهم بالإرهاق الجسمي والعقلي بسبب المجهود الكبير الذي يبذله في أداء العمل . والعجيب أن الموظف الزائد عن حاجة العمل والمضطر في الوقت نفسه للالتزام بمواعيد الحضور والانصراف فيظل طوال ساعات العمل المقررة متواجداً دون أن يفعل شيئاً ، يحس هو الآخر بالإرهاق الجسمي والعقلي لا لأنه بذل طاقته الجسمية والعقلية في أي نشاط وظيفي ، بل لأنه عمل على سجن طاقته الجسمية والعقلية ولم يستثمرها . فالواقع أن التبذير في استهلاك الطاقة الجسمية والطاقة النفسية شأنه شأن العمل على سجنهما وعدم استخدامهما واستثمارهما . فالإنسان بحاجة في الواقع إلى بذل طاقته ، وعدم المبالغة في ذلك البذل ، كما أنه بحاجة إلى تجديد طاقته لتعويض ما بذله منها . فإذا لم يتخذ الموقف الوسط بين انفاق الطاقة بالقدر المناسب وبين تجديدها ، فإنه يصاب إذن بالإرهاق الجسمي والعقلي على السواء .

رابعًا - احتدام التنافس والتسليقة : ومن العوامل التي تؤثر في الصحة النفسية لكثير من الموظفين ما يستعر في نطاق المؤسسات التي يعملون بها من تنافس على المناصب الأرقى وعلى الترقيات والعلوات الاستثنائية والتقرب من الرؤساء ، وما يشيع من وسائل غير مستقيمة للحصول على الميزات المادية والأدبية بغير استحقاق لها . فثمة الرشاوى والهدايا واللقاءات في السهرات الحمراء وعلى موائد القمار ، والوساطات المؤثرة إيجابيًا

في مستقبل الموظف إلى غير ذلك من وسائل غير شريفة كثيرًا ما يستعان بها في تسلق المراقى العليا بالوظائف . ومن ثم فإن الموظف الكفاء الذي يجد أن من لا يستحق الترقية قد ترقى ، وأن الدور في الترقية يفوته وهو لا يعرف شيئًا عن الوسائل الدنيئة التي يتبعها من يحصلون على تلك الترفقيات بغير حق ، لا تكون ثمة نتيجة لمشاعره بالضيق والتوتر سوى الإحساس باليأس والقنوط ، ولا يكون أمامه سوى كبت مشاعره ، وبالتالي إصابته بالانحرافات المزاجية والخروج عن نطاق السوية النفسية .

خامسا - ضالة المرتبات : ومن العوامل التي تسبب انحراف شخصية الموظف وخروجها من نطاق السوية النفسية ضالة مرتبه قياسًا إلى مستلزمات المعيشة وارتفاع الأسعار بغير توقف . والواقع أن إحساس الموظف بالورطة التي يجد نفسه فيها إذ تزداد مصاريف معيشته ومطالب أسرته بينما لا يفي المرتب الذي يتقاضاه من المؤسسة التي يعمل بها بتلك المطالب المتزايدة باستمرار قد يؤرقه في فراشه فيرتمي في أحضان أحلام اليقظة التي قد تدفع به إلى الاختلاس أو الرشوة كخيال يرتسم في مخيلته في أثناء ارتمائه في أحلام اليقظة ، ولكن تلك الأحلام قد تتجسد إلى واقع سلوكي بعد إلحاحها عليه وسيطرتها على قوامه النفسي ، فلا يصير معتل النفس فحسب ، بل ينحرف سلوكيًا ووظيفيًا أيضًا ، وقد ينتهي به المآل إلى الإلقاء به في السجن بعد التزوير أو الاختلاس أو الرشوة .

وثمة في الواقع مجموعة من أعراض انحراف الشخصية الذي قد يصيب الموظف بعد وقوعه تحت تأثير العوامل الخمسة التي عرضنا لها لعلنا نقدمها فيما يلي :

أولاً - ضيق الأفق وتصلب الفكر : فالكثير من الموظفين الذين كانوا يتمتعون في السابق بالمرونة ، وأخذ آراء وأفكار الآخرين

في الاعتبار ، والتنازل عن وجهة النظر التي يتأكدون من بطلانها ، والأخذ بوجهة نظر مبانة يعرضها عليهم غيرهم ، يتغيرون بعد خضوعهم لفترة من الزمن تحت تأثير الحدود الضيقة والروتين الصارم لوظائفهم ، ويصيرون ضيق الأفق ولا يستمعون للجديد من الآراء والاتجاهات ووسائل تنفيذ العمل ، بل يصرون على الالتزام بما تقول به اللاتحة أو ما يمارس بالروتين . ولا يقتصر ضيق الأفق وتصلب الفكر اللذان يتبديان في سلوكهم على نطاق العمل أو الوظيفة التي يضطلعون بمسئولياتها ، بل يتعدى ذلك إلى نطاق الأسرة وإلى جميع المواقف والعلاقات التي يجدون أنفسهم فيها خارج نطاق العمل .

ثانيًا - الانفعال الغضبي السريع والمشاجرات : ومن أعراض انحراف الشخصية التي تتبدى في شخصيات وعلاقات الموظفين سرعة الغضب والانحراط في انفعالات ومشاحنات ومجادلات لا طائل تحتها ولأسباب تافهة لا تستحق ما يندفع إليه الموظف من شجار حتى لقد يؤرل الكلام العادي أو الاستفسارات التي يوجهها إليه صاحب مصلحة ما من الجمهور بأنه شتيمة أو تعد مرفوض تمامًا ، فيقيم الدنيا ويقعدها ، مدعيًا أن ذلك الشخص قد اعتدى عليه في مقر عمله ، وهكذا فإن ذلك الموظف يصير مشهورًا بين زملائه والمتعاملين معه من الجمهور بأنه ضيق الصدر سريع الغضب ويتصف بالحماسة وسوء الخلق .

ثالثًا - تسويف الأعمال وتعطيلها والالتذاذ بتعذيب أصحاب المصالح : ومن أعراض انحراف الشخصية التي يصاب بها بعض الموظفين العمل على تسويف الأعمال وتأجيل إنجازها وتعطيلها مع أنها لا تأخذ من وقتهم سوى بضع دقائق معدودات ، ولا تكلفهم جهدًا كبيرًا . ولكن الموظف الذي خضع للعوامل التي عرضنا لها

قبلاً وأثرت في قوام شخصيته ، يصاب بالالتذاذ بتعذيب أصحاب المصالح بتأجيل إنجاز أعمالهم . فهو يصير شخصية سادية ، ولكن ساديته تتمثل في الإلتذاذ بما يبذله له المواطنون من استعطاف ، بل لقد يصاب أيضاً بالماسوكية فيجد لذته فيما يوجهه إليه بعض أصحاب المصالح من إهانات أو شتمات .

رابعا - المظاهر السلوكية الإسقاطية : ومن أعراض انحراف شخصيات بعض الموظفين نتيجة الضغوط النفسية التي يلاقونها في عملهم تلك المظاهر السلوكية الإسقاطية . فبدلاً من أن يرد الموظف على توبيخ رئيسه له لإهماله وتقصيره في عمله ، فإنه يعتمد لا شعورياً إلى توبيخ زوجته بعد رجوعه إلى البيت لإهمالها وتقصيرها في إدارة شؤون المنزل . فهو ينقل ما كان يرغب في الرد به على رئيسه القاسي أو المتزمت إلى بيته فيحل زوجته لاشعورياً محل رئيسه الذي لا يجروء على الرد على إهاناته له وقسوته عليه ، بل يتملقه ويتزلف إليه ويبدى له كل حب واحترام على عكس ما يعتمد بدخيلته تجاهه من كراهية واحتقار .

خامساً - السرحان وعدم الرغبة في الكلام والانسحاب من الواقع الخارجي : وقد يتبدى انحراف شخصية الموظف في هروبه من الواقع الخارجي إلى واقعه النفسي الداخلي . بيد أن هروبه ذلك لا يكون للتأمل أو الاستبطان أو للاستعداد للقيام بنشاط إبداعي جديد غير مسبوق، أو للتفكير في معضلة ، أو للبحث عن حل لمشكلة قابلته في العمل ، بل يكون هروبه إلى دخيلته لأنه كاره لكل ما حوله ولكل من حوله . فكراهيته للعمل وللمن يبدون له الكراهية من الرؤساء والمزلاء والمرءوسين تدفع به إلى مخاصمة الواقع الخارجي كله بما فيه من أشخاص وأشياء ووقائع

وعلاقات ، والارتقاء في نطاقه الداخلي . فهو يكون عازفاً حتى عن تناول الطعام أو التسامر مع أصدقائه أو الإفشاء بما يعتمل في قلبه لهم بالشكوى ، بل يظل مرتعياً في أغواره الداخلية ، فلا ينطق إلا بالقليل الضروري من الكلام ، ولا يتصل بأحد إلا إذا حتمت الظروف ذلك .

العوامل السياسية :

من الخطأ أن نعتقد أن السياسة لا تضم تحت عباؤها سوى المشتغلين بها وذلك بالانضمام إلى الأحزاب السياسية ، أو الذين يساهمون في نشاطها بالفكر والكتابة وتولى المناصب السياسية المتباينة . فالواقع أن جميع أبناء أي مجتمع - كائناً ما كان - يتأثرون ويؤثرون في سياسته على نحو مباشر أو على نحو غير مباشر . فالمصدر للمؤثرات السياسية والمتلقى لها مشاركان في السياسة المؤثرة والمتأثرة . وهذه العلاقة بين المؤثر والمتأثر تعرف في المنطق بالتضاد . فهي كعلاقة الأب بالابن ، أو كعلاقة المدرس بالتلميذ ، أو كعلاقة الطبيب بالمرضى . فلولا وجود الابن والتلميذ والمرضى ، ما كان هناك وجود بالتالي للأب والمدرس والطبيب . وبالمثل فلولا وجود الشعب الذي يخضع لما يضطلع به الممسكون بدفة سياسة البلاد ، ما كان إذن هناك وجود لأولئك الزعماء السياسيين الذين يلعبون على المسرح السياسي أمام المتفرجين ، أعنى الشعب المتلقى والمتأثر بتلك الأنشطة السياسية التي يلعبها هؤلاء الزعماء .

ولكن الفرق بين المسرح السياسي والمسرح الذي يلعب عليه الممثلون والمطربون هو أن المتفرجين في المسرح السياسي ، أعنى الشعب ، ليسوا أحراراً في حضور العرض المسرحي السياسي أو التغيب عنه . فالشعب لا بد أن يحضر ذلك العرض

المسرحى السياسى ، ولا بد أن يتخذ موقفاً منه . فهو قد يرضى عما يشاهده عليه ، وقد يبغى سخطه عليه وتبرمه به ، بل إنه قد يطالب بنزول الممثلين السياسيين من فوق خشبة المسرح وإحلال غيرهم محلهم . ولكن قد يكون الممثلون السياسيون على خشبة المسرح السياسى من التزمت بحيث يصرون على بقائهم واستمرارهم فى لعب أدوارهم السياسية ، ويتذرعون فى سبيل بقائهم واستمرارهم فيما ينفذونه من سياسة بالقوة والصرامة والإلزام . فلا يكون أمام الشعب سوى الرضوخ والانصياع . ولكن ذلك الرضوخ وهذا الانصياع يتركان آثارهما السيئة فى نفوس وسلوك الشعب الراضخ والمنصاع لما يأمره به الممسكون بأزمنة السياسة والقاهرون لإرادته . ومن جهة أخرى ، فقد نعم الفوضى الشعب الذى يمثل الجمهور المشاهد لما يعرض على خشبة المسرح ، فلا يكون هناك انضباط والتزام بالنظام . وهذا الوضع يفسد العلاقة بين الممثلين وجمهور الشعب . ولعلنا نقوم بتقديم جانب من تلك الآثار السيئة فى الحالتين على النحو التالى :

أولاً - عدم الاستفادة من القادرين على العمل والعجز عن تحقيق التوازن بين العمالة والقادرين على العمل : فمن أهم ما يجب أن تهتم به السياسة تحقيق الإيجابية والإنتاجية فى حياة أبناء الشعب جميعاً . فحتى المدرسة أو المعهد أو الكلية يجب أن تكون تجهيزاً حقيقياً للمنخرطين فيها للحياة ، وألا تكون منعزلة عن مجراها فى الحاضر والمستقبل على السواء . والواقع أن البلاد المتقدمة قد صارت تعد تلاميذها وطلابها للمستقبل . فهى لا ترمى فى أحضان الماضى أو الحاضر ، بل تهتم بما سوف يكون عليه المستقبل من أوضاع ومن مستويات حضارية . فهى تأخذ فى اعتبارها أن تلاميذ اليوم هم موظفو الغد . كما أنها تعلم أن الحياة

التي سوف يشارك فيها تلاميذ اليوم ستكون متباينة عن الحياة التي يجاها كبار اليوم . وهى بهذه النظرة المستقبلية تقف على ما سوف تكون جهات العمل المتباينة فى حاجة إليه . ومن هنا فإنها تقوم بتجهيز العدد المطلوب مستقبلاً من كل نوعية من العاملين بلا زيادة أو نقصان . وتعبير آخر فإن سياسة التعليم يجب ألا تنفصل عن سياسة التشغيل ، وأن المدرسة يجب أن تكون جهازاً لتخريج من سيتولون أمور المجتمع فى المستقبل . ولكن إذا أغضت السياسة عن هذه النظرة المستقبلية إلى التعليم ، فإنها تكون بذلك قد حكمت بإشاعة الفوضى فى الأرجاء ، وبالبطالة الصريحة والبطالة المقنعة فى مستقبل تلاميذ اليوم . وهذا هو الذى حدث فى كثير من الأقطار التي أغضت أعينها عن العلاقة بين المدرسة ومجالات العمل ، فكانت النتيجة التي تفرقت مجتمعنا اليوم ، انتشار البطالة بين الشباب على نطاق واسع ، وما يتأتى عن ذلك من انحرافات نفسية وأخلاقية وسياسية ، ومن ارتداء فى أحضان الرذيلة والإجرام والإرهاب ، ومن إيمان تعاطى المخدرات ، وممارسة الانحرافات الجنسية ، والخروج على القيم والتقاليد والمبادئ التي تكفل للمجتمع الاستقرار وللمواطنين الأمن والطمأنينة .

ثانياً - عدم إشباع الحاجات الأساسية والكماليات التي تستحيل إلى ضروريات : فالسياسة الرشيدة هى تلك السياسة التي تعمل على إشباع الحاجات الأساسية التي تعتمد عليها حياة الإنسان من جهة ، والتي تعتمد عليها رفاهيته وسعادته من جهة أخرى . والنوع الأول من الحاجات ينصب على الطعام والكساء والسكن . ولكن الطعام والكساء والسكن يجب أن تناسب أنواق الشعب وقيمه . فليس كل طعام يناسب كل شعب . فالخنزير مثلاً يناسب شعوباً كمصدر لطعامهم ولا يناسب شعوباً أخرى ، وكذا يقال عن الملابس والسكن . والكثير مما كان يعتبر من الكماليات فى سنوات

سابقة ، صار اليوم من الضروريات . فالتليفزيون كان من الكماليات ولكنه اليوم صار من الضروريات التي لا يستغنى عنها بيت . وإذا وجدت إحدى الأسر نفسها عاجزة عن شراء جهاز تليفزيون ، فإنها تحسر بالحرمان ، وبالتالي فإن أبناءها يتعرضون للانحراف النفسى . والموظف الذى يجد أن مرتبه لا يكفيه لسد نفقات معيشته ومصاريف أولاده ، يكون معرضاً للانحراف النفسى هو وأسرته . والواقع أن المسكين بمفهوم السياسة يجب أن يمشوا التطور الحضارى وأن يتذرعوا بالنظرة المستقبلية إلى ما سوف يتدفق فى السوق العالمى والسوق المحلى من تكنولوجيات ، وأن يخططوا لما سوف يستحيل إلى ضروريات فى المستقبل القريب حتى يضعوه فى حساباتهم بحيث يتوافر لأبناء الشعب ، فلا يحسون بالتخلف الحضارى وبالتالي فإنهم لا يتعرضون للانحرافات النفسية والخلقية .

ثالثاً - قمع الحرية فى التعبير عن الرأى والتصرف : فالشعب الذى يلزم بالتفكير بالطريقة التى يفكر بها حكامه ، وبالتعبير عن الآراء التى يحبونها ، وبالتصرفات التى يرضون عنها ، يفقد مقوماً هاماً من مقومات الشخصية المستقلة ، وبالتالي فإنه يعيش فى صراع بين ما يعتمل بخيلته من فكر ووجدان وإرادة وبين ما يراد له أن يفكر وفقه ويشعر به ويريد . ويتعبير آخر فإن المواطن فى النظام المتبند يفقد فريديته ويقصر على أن يذوب فى المجموع ، أو أن يصب نفسه بكل قوامه فيما أعدد له مسبقاً من فكر وعاطفة وإرادة . ومن الحقائق المؤكدة أن للمرء إنبيته الفردية فى مقابل الإنبيته الجماعية التى يختص بها المجتمع الذى ينتمى إليه . وكما ذهب كارل يونج فإن لدى المرء لا شعورين : لا شعور فردى ، وآخر جمعى . ومن المفروض أن يكفل للقوام الفردى

رابعاً - التنمية والإبداعية : فالسياسة تمثل الجماعة ككل . ومن المعروف أن المجتمع ينحو إلى الالتزام بأنماط سلوكية وقيم ثابتة ومطلقة لا يريم عنها إلا ببطء شديد وتحت تأثير ما يقوم الأفراد المدعون بتقدميه من إبداعات مخيانية . بيد أن ما يتقبله المجتمع من إبداعات لا يكون من السهولة بمكان بإزاء القيم ولكنه

فردى ، وآخر جمعى . ومن المفروض أن يكفل للقوام الفردى

خامساً - التمييز بين فئات الشعب : فالسياسة التي لا تعطى كل فئة من فئات الشعب حقوقها التي تلائمها ، إنما تكون سياسة ذات فاعلية في انتشار الانحرافات النفسية والخلقية بين أبنائه . وهنا نتذكر مبدأ العدالة في الحصول على الحقوق . وثمة نوعان من العدالة : نوع حسابي وآخر هندسي . والنوع الحسابي ينصب على المساواة في الكم الذي يحصل عليه كل فرد أو كل فئة من فئات المجتمع بغض النظر عن حاجته . والنوع الهندسي ينصب على حاجة كل فرد وكل فئة من الأشياء أو الحقوق التي يتم الحصول عليها . فبالنسبة لفئة الأطفال فإن حقوقهم تختلف عن حقوق المراهقين ، كما تختلف حقوق المراهقين عن حقوق الشباب ، وتختلف حقوق الشباب عن حقوق الكهول ، وتختلف حقوق الكهول عن حقوق الشيوخ . وكذا يقال عن حقوق المرأة وحقوق الرجل ، وحقوق الفئات المتباينة والكثيرة في نطاق الشعب الواحد . والمهم هو إحساس المرء بأنه غير محروم من الحقوق التي كان ينبغي إحراره لها وعدم حرمانه منها . والواقع أن الناس بمختلف فئاتهم لا يظلمون على وتيرة واحدة وعلى وضع ثابت لا يتغير . فالأطفال يكبرون ، والطلاب يستحيلون إلى عمال وموظفين ، وفئات الشعب المتباينة تختلف من حيث مشاعرهما تجاه حقوقها . لذا فإن السياسة يجب أن تكون متطورة فتعمل على تطوير ما يمنح من حقوق لكل فئة من فئات الشعب المتباينة . ولكن إذا هي لم تفعل ذلك ولم تأخذ بمبدأ تطوير ما تمنحه من حقوق للمواطنين في ضوء ما يتطورون إليه ، فإنها تكون بذلك عاملاً فعالاً في إصابتهم بالانحرافات النفسية والسلوكية بصفة عامة .

يكون من السهولة بمكان بإزاء الإبداعات المادية أو النفعية . فهو ينبذ القديم إذا تأكدت له صلاحية الجديد وأنه أكثر جدوى من ذلك القديم . ولكن بالنسبة للمجتمع بوجه عام فإنه أقل سرعة من الأفراد المبدعين . ويتعبير آخر فإننا نستطيع أن نقول إن المجتمع يلتفت إلى الوراء حيث التراث ويتشبث بالحاضر حيث الواقع المستند إلى ما حشده من خبرات تمتد إلى الماضي القريب والماضي البعيد على السواء . أما الأفراد المبدعون فإنهم يهتمون بالمستقبل ويهتمون كلاً من الماضي والحاضر . فهم يعتبرون الماضي عاملاً معطلاً للمسيرة المستقبلية ، كما يعتبرون الحاضر ثمرة رديئة لقيود الماضي . فهم يتحيزون للمجهول المستقبلي ويهفون إلى إحالته إلى واقع . ولكن ما أن ينجحوا في إحالة المستقبل المجهول إلى حاضر حتى يغضوا النظر عنه متطلعين إلى ما لم يتحقق بعد وما يزال في طيات المستقبل المجهول (انظر كتاب « البشرية والمستقبل المجهول » للمؤلف) . ولقد سبق أن قلنا إن الشخصية السوية هي شخصية إبداعية ، وأن تعطيل النزعة الإبداعية التي تريد أن تبرز في حياة الفرد يصيبه بالانحراف النفسي . وعلى هذا فإننا نعتقد أن الوضع السياسي الذي لا يشجع الإبداعية لدى جميع أبناء الشعب وخلال مراحل النمو المتباينة بدءاً بالطفولة ، إنما يكون في الوقت نفسه من عوامل إشاعة الاغوجاجات النفسية بينهم . ويتعبير آخر فإن المجتمع الذي يرجح كفة النمطية على كفة الإبداعية يكون قد حكم بالتالي على أبنائه بالانحرافات النفسية . ولسنا بهذا نحارب النمطية . فنحن نعترف للنمطية بقيمتها في حياة الفرد والمجتمع على السواء (انظر كتاب « سيكولوجية النمطية والإبداعية » للمؤلف) . ولكننا نعتقد أن تحقيق التوازن بين هذين القطبين هو الكفيل بتحقيق السوية النفسية لدى أبناء المجتمع في جميع الأعمار وفي جميع المواقع الاجتماعية التي يحتلونها .

المآزق الأخلاقية :

نقصد « بالمآزق الأخلاقية » مجموعة من المعاني التي نستطيع

تحديد أهمها على النحو التالي :

أولاً - حيرة المرء فيما بين الإطلاق والنسبية : فلقد يسأل المرء نفسه ومن حوله قائلاً ، هل أعمد إلى الالتزام بالمبادئ الخلقية كالصدق مثلاً في كل مكان وفي كل زمان ، أعنى في أي موقف أوجد به ، أم أعمد إلى مدارس النتائج التي تترتب على ما أفصح عنه أو ما أقوله فلا أقرر ما أعرفه حرفياً ، بل أكيفه لمتطلبات الموقف ؟ ، فالنهج الأول هو النهج الإطلاقي ، أما النهج الثاني فهو النهج النسبي .

أما المتحمسون للنهج الإطلاقي فإنهم يلخصون برأيهم المؤيدة لنهجهم فيما يلي :

(١) إن الأديان والشرائع الدينية والقيم الخلقية تأمرنا بالالتزام بالصدق في القول وتأمرنا بتجنب الكذب .

(٢) إن الصدق في القول شاهد على استقامة شخصية المرء ، بينما الكذب في القول شاهد على التواء الشخصية وانحرافها عن الأخلاق الحميدة .

(٣) إن الصدق يعتبر سمة من سمات الصحة النفسية ، بينما يعتبر الكذب سمة من سمات الانحراف النفسي .

(٤) إن الشخص الصادق يكتسب ثقة الناس المتعاملين معه والمحتكين به ويحظى بتقديرهم واحترامهم .

(٥) إن الشخص الصادق ينجح في حياته العملية ويكون جديراً بالتترقى إذا كان موظفاً ، وبالرواج إذا كان تاجراً ، كما أن الصدق هو الطريق إلى النمو الثقافي والنفوق العلمي ، وذلك لأن الثقافة والعلوم تعتمد على الالتزام بالحقيقة التي يعتبر الصدق التعبير عنها والتجسيد لروحها . فالصدق صنو للصواب ، والكذب صنو للخطأ .

وفي مقابل هذه البراهين الخمسة التي يسوقها المتحمسون لصدق حرفياً بمعنى مطابقة الكلام المنطوق أو المكتوب لما حدث أو يحدث أو سيحدث ، فإن هناك براهين خمسة أخرى يسوقها المتحمسون للنسبية ، أي تفصيل الكلام على قَدِّ متطلبات المواقف في ضوء النتائج التي يمكن أن تترتب على ما يقال أو يكتب . والبراهين هي :

(١) إن هناك نوعين من الصدق ونوعين من الكذب . فثمة الصدق اللفظي من جهة والصدق السلوكي من جهة أخرى ، كما أن ثمة كذباً لفظياً من جهة وكذباً سلوكياً من جهة أخرى . وأصحاب الاتجاه النسبي يرجحون كفة الصدق السلوكي على كفة الصدق اللفظي ، كما يرجحون كفة الكذب اللفظي الذي يتطلبه الصدق السلوكي على كفة الكذب السلوكي الذي يترتب على الالتزام بقول الصدق اللفظي . فمعظم ما يقوله الكبار لتشجيع الصغار وعدم جرح شعور الآخرين والمجاملات الاجتماعية إنما هي تعبير عن الصدق السلوكي برغم أنها تنم عن الكذب اللفظي . وهل النعمة تخرج عن كونها تعبيراً صادقاً عما حدث أو يحدث أو سيحدث ؟ وألا يتدرع من يقوم بالإيقاع بين الناس وإثارة الفتن بحجة أنه يقول الصدق .

(٢) إن التكيف للواقع الاجتماعي يتطلب الالتزام بالصدق السلوكي لا بالصدق اللفظي . فالحكيم في عمله والأمين على مصلحة المؤسسة التي يعمل بها لا يعمد إلى إقضاء أسرارها وإذا سئل عن شيء أو إذا استفهم منه عن أمر فإنه لا يقول كل ما يعرفه . بل إنه الشخص الذي يعرف ما يصح أن يفصح عنه وما يصح أن يكتمه ، إنه الشخص الذي يكيف معرفته للموقف . وهل هناك سياسي مسئول عن سياسة بلده يلتزم بالصدق الحرفي ويكون في الوقت نفسه من السياسة في شيء .

(٣) إن إخفاء بعض الحقائق أو إنكارها وإن كان يعتبر كذباً لفظياً ، فإنه يعتبر صدقاً سلوكياً وأجب الاتباع . ليس من حصافة الطبيب الذي يكون متأكداً من أن المرض الذي أصاب مريضه ميؤوس منه أن يطمئنه بأن مرضه ليس قاتلاً ، بل يستمر في بث الأمل في قلبه حتى لا يتسرب اليأس إلى قلبه ؟

(٤) إن الالتزام بالصدق الحرفي شاهد على فجاجة الشخصية وعدم نموها وفتح الأفاق الثقافية حولها . فنحن نلزم الأطفال والعامّة بقول الصدق الحرفي ، ولكن بالنسبة للراشدين والمثقفين فإننا نبصرهم بالجوانب المتباعدة والخصبة للواقع ، ونحثهم على تأمل الزوايا المتباعدة التي يشملها الموقف ، ولا نجعل من مطابقة الكلام للواقع المعيار الوحيد للصدق . فذلك المطابقة لا تشمل جميع الحالات . فالواقع الاجتماعي خصب كأشد ما تكون الخصوبة ، فلا بد من الإلمام بجوانبه المتباعدة وتكييف السلوك وفقاً .

(٥) إن الانتحاء إلى مطابقة الصدق للصواب ، والكذب للخطأ هو انتحاء خاطئ ، وقد ورثنا هذه المطابقة بسبب الاعتقاد الذي ساد من قديم الزمان ، وهو أن ما يصح في مجال الرياضيات والعلوم الطبيعية يجب أن يصح بإزاء العلاقات الاجتماعية . وهذا الاعتقاد زائف لأن عالم النفس ديناميكي متحرك . فهو بمثابة تيارات مستمرة في تدفقها . فمن لا يكيف نفسه لتلك التيارات ، فإن مصيره يكون الغرق اجتماعياً . إذا صح التعبير .

ثانياً - الخبرة بإزاء المواقف البيئية : فتمّة بعض المواقف التي يحار فيها المرء إلى أين يتجه ولأي يعطى صوته . خذ مثلاً ذلك المدير الذي يحال إليه أحد الصيارفة بإدارته يعرفه جيداً منذ مدة طويلة وقد اشتهر بين زملائه بالنزاهة والأمانة . ولكنه في هذه المرة يحال إليه متهماً بأنه قد مديده إلى الخزينة وسرق مبلغاً ضئيلاً

قل خمسين جنيهاً . فلما سأله المدير أجاب بأنه اضطر لأخذ هذا المبلغ في الليلة السابقة على ضبطه في الصباح وقد فاجأه المفتشون بجرد الخزينة فوجدوا المبلغ المذكور ناقصاً . والحقيقة أنه لم يكن ينوى سرقة ، بل كان يعتزم رده في اليوم نفسه الذي ضبط فيه وذلك بعد أن يبيع مصاغ زوجته التي فوجئت بنزيف حاد في مساء اليوم السابق ، فقلتها إلى المستشفى المجاور لمتزله فطلبوا منه ذلك المبلغ نظير نقل الدم إليها . وأخذ المسكين يبكي ويتضرع أمام المدير . فكان من الطبيعي أن يقف ذلك المدير في موقف بنيني ومحير . فهو إما أن يطبق القانون ويحيل صاحبنا إلى النيابة الإدارية التي سوف تقوم بدورها بإحالاته إلى النيابة العامة ، وفي نهاية المطاف يفصل من عمله ويحكم عليه بالسجن ، وإما أن يطبق قانون الشفقة والتناغم الوجداني مع ذلك الصراف فيعيده مبرأً إلى عمله أو حتى لقد يأمر له بسلفة أو بمنحة . ولكنه باتخاذ هذا القرار الأخير فإنه يخشى أن يقال إنه يشجع المختلسين ولا يتخذ الموقف الحازم بإزائهم ، كما يخشى أن يتهم بالقسوة والتحجر القلبي إذا هو اتخذ الموقف الأول . فهو في الحالتين يجد نفسه في مأزق أخلاقي .

ثالثاً - الحيرة بإزاء موقفين لا ثالث لهما كلاهما خطأ ولا مناص من الوقوع على واحد منهما : فليست جميع المواقف التي يجد المرء نفسه فيها ذات جانبيين أحدهما يمثل للخير والآخر يمثل للشر ، بل هناك مواقف تعترض حياة المرء يكون كلا الجانبين فيها شر ، بل إن الشر في كل جانب من الجانبين الوجوديين بالموقف مساو للشر الموجود بالجانب الآخر . خذ مثلاً لذلك بوقوع امرأة شريفة هي وإبنتها الشابة في يد سفاك في مكان ناهٍ أجبرهما تحت تهديد السلاح على ركوب سيارته مصطحباً إياهما إلى شقته

الأشخاص ونحبهم ، بينما ننبو عن أشخاص آخرين ونكرههم ، فإذا كانت الزوجة أو كان الزوج ممن يكرههم المرء بسبب ما جبل عليه من مقومات كيميائية حيوية جسمية ، فإنه لا يستطيع بالتالى أن يقيم معه علاقات زوجية أو أسرية سليمة . وما يقال عن العلاقة بين الزوج وزوجته ينسحب بنفس القدر من الصدق بلزاء العلاقة بين الأولاد والوالدين . فما يرثه الأبناء من مقومات كيميائية قد لا يكون منسجماً مع ما لدى الوالدين من تلك المقومات ، بل يكون الموروث مستمداً من الأسلاف ، أعنى الأجداد القريبين أو البعيدين نسبياً .

(٢) عوامل لا شعورية : فالمرء منذ طفولته الباكرة وهو يتلقى من الخبرات ما يشكل دفة لحياته العاطفية . فمن تلك الخبرات ما يحملنا على الانجذاب نحو أنماط معينة من الشخصيات التى نقابلها فى مجريات حياتنا ، ومنها ما يحملنا على النفور من أنماط أخرى . فالشخصيات التى تركت فىنا انطباعات مواتية تنجذب إلى ما بناظرها فى مراحل حياتنا التالية ، أما الشخصيات التى تركت فىنا انطباعات غير مواتية أو مؤلمة أو منفرة ، فإننا ننبو عنمن يناظرها من شخصيات نقابلها فى مراحل أعمارنا التالية . فثمة ركامات نفسية يكون الزوج أو الزوجة قد اكتسبها تؤثر فى مواقفه وعلاقاته وتصرفاته مما يحدث قلقلة فى العلاقات بينه وبين زوجته أو بين أحدهما وبين أولادهما . فما يكرهه الزوج بسبب تلك الركامات النفسية اللاشعورية قد تحبه الزوجة أو يحبه الأبناء . وبذا تنشأ الخلافات الأسرية أو التفكك العلائقى بين أفراد الأسرة .

(٣) عوامل تتعلق بصحة المرء النفسية : فثمة دور خطير تلعبه الصحة النفسية للمرء فيما يتعلق بالتفكك الأسرى وما ينشأ بينه وبين أفراد أسرته من خلافات أو نزاعات . فمن يتعرض للصدمات النفسية أو لما قد يصيب المرء من أمراض نفسية نتيجة عطب قد أصاب بعض مناطق المخ ، أو ما ينجم عن التوترات

النفسية أو الانهيارات العصبية أو نتيجة الاضطرابات الهورمونية أو عن غير ذلك من أسباب تفضى إلى المرض النفسى ، فإنه يؤثر تأثيراً بعيد المدى فى العلاقات الأسرية وفى مدى الونام والانسجام بين أفراد الأسرة ، وبالتالى فإنه يؤثر فى السوية النفسية والاجتماعية على السواء لبعضهم أو لهم جميعاً .

(٤) عوامل موقفية آتية : فنحن فى حينا وكراهيتنا للآخرين لا نستند إلى ما اكتسبناه فى لا شعورنا خلال طفولتنا فحسب ، بل إننا نستند أيضاً إلى ما نُخبره فى كل موقف مؤثر فى الحياة مع من قامت بيننا وبينهم علاقات . وتلك الخبرات المتتالية إما أن تعمل على دعم الحب لمن نحبههم ، وإما أن تعمل على دعم الكراهية لمن نكرههم ، وإما أن تحل الحب محل الكراهية ، وإما أن تحل الكراهية محل الحب . فمن نحبههم يمكن أن يزيد حينا لهم ، ومن نكرههم يمكن أن تزيد كراهيتنا لهم ، ومن نكرههم يمكن أن نحبهم ، ومن نحبههم يمكن أن نكرههم حسبما يصدر عنهم من تصرفات أو مواقف أو ألوان سلوكية متباينة تترك فىنا أثراً نفسياً يعمل على تصيينغ عواطفنا تجاههم . ومما لا شك فيه أن الكثير من الأسر تبدأ بالزواج السعيد ويكون الحب مظللاً للعلاقات بين الزوجين ، ولكن ما يصدر عن الزوج أو الزوجة من تصرفات عدوانية أو من مواقف منفرة يكون عاملاً على هدم صرح الحب الذى كان قائماً بينهما ويحل محله البغض والكراهية ، وبالتالى فإن علاقتهما ببعضهما ببعض تصير علاقة غير سوية .

(٥) عوامل تتعلق بالمرحلة العمرية التى يمر بها المرء : فالكثير من المشكلات النفسية التى تتبدى فى العلاقات الأسرية ترد إلى انتقال المرء من مرحلة عمرية إلى مرحلة عمرية تالية ، وما يستتبعه ذلك الانتقال من تباين فى الحالة النفسية للمرء . فالطفل

لدى تقدمه نحو المراهقة يرفض ما كان ينظر به الوالدان إليه والطرائق التي كانا يتعاملان بها معه . وكذا فإن المراهق لدى انخراطه في مرحلة الشباب ، فإنه ينبذ ما كان يعامل به في المراهقة ، وقس على ذلك مراحل العمر المتتالية . ولدى انخراط المرء في الشيخوخة فإنه يكون حساساً بإزاء معاملة الآخرين من حوله له ، وقد يحس بانصراف أولاده وزوجته عنه أو إهمالهم له أو حتى رغبتهم في التخلص منه وما يستتبع ذلك من آثار في مدى تماسك الأسرة وفي الصحة النفسية للمرء .

ثانياً - التفكك الأسرى الناتج عن القيم المتباينة أو المتضاربة : وهذا النوع من التفكك الأسرى يتبدى في مجموعة من الحالات التي نستطيع أن نقدمها على النحو التالي :

(١) تباين العقيدة الدينية : فلقد تنشأ الخلافات الزوجية نتيجة التباين في العقيدة الدينية بين الزوجين ، كأن يكون الزوج مسلماً والزوجة مسيحية ، أو كأن يكون الزوج كاثوليكياً والزوجة بروتستانتية . وفي بعض الحالات يحدث التباين في العقيدة الدينية في أثناء الزواج كأن يغير الزوج أو تغير الزوجة معتقدها الذي كانت تعتقه قبل وبعد الزواج لأسباب متباينة . ولقد يكون تغيير العقيدة في نطاق الدين الواحد أو المذهب الديني الواحد . وهذا ما يحدث في حالات بعض الناس الذين ينضمون إلى فرق دينية منطرفة فيكون نتيجة ذلك إتهيار صرح الأسرة التي كانت متمتعاً بالوثام والانسجام قبل انخراط الزوج أو الزوجة في صفوف الفئة الدينية المتطرفة . وهذا ما يشاهد حالياً في حالات بعض المتطرفين الإزهابيين الذين يخرجون عن طرائق الحياة المألوفة ويبعدون عن المعتقد الذي يأخذ به الطرف الآخر برغم عدم تغيير العقيدة الدينية بصفة رسمية والبقاء تحت راية الدين نفسه الذي تدين به الأسرة .

وقد يكون المتطرف أحد الأبناء أو إحدى البنات ، فتنشق عن الأسرة وترى فيهم أعداء لمعتقدها وتخلفاً عن ركب العقيدة السديدة التي يجب اعتناقها والأخذ بتعاليمها . ومعنى هذا أن الأسرة تتفكك وأوصالها وتخرج من نطاق السوية إلى نطاق الانحراف والتفكك .

(٢) تباين العقيدة السياسية : فلقد يكون التباين في العقيدة السياسية سبباً في التفكك الأسرى . فإذا كان الزوج مؤمناً بالديكتاتورية بينما تؤمن الزوجة بالديموقراطية ، فإن هذه العقيدة السياسية يمكن أن تترك أثرها في التعامل . فبينما تريد الزوجة من زوجها أن يكون ديموقراطياً معها ومع الأولاد ، فإنه يرفض ذلك لأنه يؤمن بأن رأس الأسرة والمدير والوزير ورئيس الدولة يجب أن يتدعوا بالديكتاتورية . ومن الطبيعي أن العلاقة بين الزوجين تزداد سوءاً كلما تعددت المواقف التي تصطدم فيها معتقداتهما السياسية ، وبالتالي فإنهما يفقدان السوية النفسية والعقلانية جميعاً .

(٣) التباين في تقييم الناس : فثمة من الناس من يعتقدون في المساواة المطلقة بين الناس . فالطفل مساو في قيمته للمراهق والشاب والكهل والشيخ ، والمرأة مساوية للرجل ، والفقير مساو للغنى ، والأمى مساو للعالم وهلم جرا . ولكن في المقابل فإننا نجد أن بعض الناس يعتقدون في التمييز بين الناس بمعنى أن ترتبط قيمة المرء بالاعتبارات المتباينة كالسن والجنس (تكرر أو أنتهى) والملكية والعلم وما إلى ذلك من اعتبارات . فإذا كان الزوج من النوع الأول من الناس ، بينما كانت الزوجة من النوع الثاني ، فإنهما يصطدمان إذن في مواقف كثيرة ويكون تباينهما في تقييم الناس مثاراً للجدل بينهما والشقاق فتنقوض أركان علاقتهما التي كانت تتسم بالحب قبل بزوغ تلك التقييمات على سطح الواقع . وبالتالي فإنهما يفقدان سويتهم التي ترتكز بصفة أساسية على التقامم والانسجام في تقييم الناس المحيطين بهما والمتعاملين معهما .

ثالثاً - التفكك الأسرى الناجم عن التباينات الأخلاقية : ولعلنا نقوم باستعراض أهم الحالات التي تتباين فيها أخلاق شريكي الحياة أو تتباين أخلاق الوالدين عن أخلاق أبنائهما وبناتهما وما يترتب على ذلك التباين من تصدع يصيب الأسرة ومن تفكك لأوصالها على النحو التالي :

(١) مدى التمسك بالصدق ومفهوم الصدق هل هو الصدق اللفظي أم الصدق السلوكي : فإذا كان الزوج يتمسك بالصدق اللفظي ، بينما تتسكك زوجته بالصدق السلوكي وهما مفهومان متباينان للصدق كما سبق أن أوضحنا ، فإن العلاقة بينهما تكون عرضة للتصدع والانهايار .

(٢) موقف كل من الزوجين بإزاء المسائل الجنسية : فلقد يكون الزوج ممن يعتبرون أن مجرد تحدث المرأة مع رجل من غير المحارم ، فإنها تكون قد اقترفت خطيئة وفرطت في عفتها ، بينما تكون الزوجة متحررة ولا ترى أي جريرة في أن تحدث أو أن تتناقش مع أي من الرجال في أمر من الأمور العامة . لا شك أن التناقض بين الموقفين يؤدي إلى تصدع العلاقة بينهما وبخرجهما من إطار السوية إلى إطار التمزق والتفسخ .

(٣) مسألة تعليم الفتاة واشتغالها : فإذا كان الزوج ممن يعتقدون أن تعليم الفتاة يدفع بها إلى الاحتمك بالثقافات التي تفسد أخلاقها ، وأن الاشتغال في حرفة أو مهنة يعمل على خروجها عن أصول الأخلاق الكريمة ، وأن من الممكن تعليم الفتاة القراءة والكتابة وشئون المنزل بالبيت ولا لزوم لالتحاقها بالمدرسة ، وبالتالي لا لزوم لخروجها إلى الحياة العملية ، بينما تناهضه زوجته وتناقضه وتسفء آراءه الرجعية ، فإن العلاقة بينهما تتصدع وتخرج عن إطار السوية إلى نطاق التشقق والتفسخ .

رابعاً - التفكك الأسرى الناجم عن الظروف الاجتماعية والعلائقية : فالواقع أن هناك مجموعة من الحالات الاجتماعية التي تؤدي إلى التفكك الأسرى وبالتالي إلى خروج العلاقات الأسرية من نطاق السوية إلى نطاق الانحراف عن الجادة لعلنا نحدد أهمها على النحو التالي :

(١) المنازعات بين أسرتي الزوجين : ففي كثير من الأحيان يكون الزوجان متحابين ، لكن حينها يأخذ في التصدع بسبب النزاعات والخلافات والمشاكل التي تنشأ فيما بين أسرتيهما . فيتأني عن تدخل كل أسرة في حياة الزوجين والشكوى من تصرفات أسرة الطرف الآخر نشوء الخلافات بينهما ، ولا تظل الأسرة التي كانت متحابية على ما كانت عليه من حب ووداد بسبب تدخل أسرتيهما في حياتهما .

(٢) العلاقة بالجيران أو بالأصدقاء : فتلك العلاقة قد تكون قوية مع أحد الزوجين وضعيفة أو حتى منهارة مع الطرف الآخر . فيكون الزوج صديقاً للجيران ، بينما تكون الزوجة عدوة لهم . وقد تكون الزوجة في علاقة صداقة حميمة مع إحدى الصديقات ، بينما لا يطيق الزوج سماع إسمها أو أي شيء يخصها . فتنشأ نتيجة ذلك النزاعات بين الزوجين وقد أخذ كل منهما يتمسك باستقلال عواطفه عن عواطف الطرف الآخر خشية أن يتهم بضعف شخصيته . وبذا فإن الأسرة تتمزق وتفقد سويتها .

(٣) الزيارات والرحلات والنزهات والمصايف : ومن الظروف الاجتماعية التي تسبب الخلاف أو التفكك الأسرى عدم رغبة أحد الزوجين في الزيارات والرحلات والنزهات والمصايف بينما يتعشق الطرف الآخر القيام بذلك معتقداً أن الحياة تكون مملعة إذا خلت من التغيير والتجديد . وطبيعي أن اختلاف موقف

الزوجين من هذا الأمر يفضى إلى فقد الكثير من الانسجام والتوافق بين الزوجين .

خامساً - التفكك الأسرى الناجم عن الظروف الاقتصادية :
وهذا النوع الأخير من التفكك المتعلق بالظروف الاقتصادية يتبدى في مجموعة من الحالات نكتفي بذكر أهمها على النحو التالي :

(١) ضيق ذات اليد والعوز وتبرم الزوج من عطف بعض الأغنياء على أسرته : فلقد يتهم الزوج المعوز زوجته بأنها لا تتال من الأسرة المحسنة إليها بلا نظير ، فيتهمها في شرفها ، بينما هي تكيل له الصاع صاعين ويتهمه بالتواكل والفشل في الحياة وتذكر له الناجحين من أقربائه الذين يصدقون على زوجاتهم المال الوفير ولكنه الحظ السيئ الذي رماها بين يديه .

(٢) البذخ ووفرة المال بغير حدود : وعلى نقيض الحالة السابقة فإننا نجد أن وفرة المال في أيدى الزوجين وأولادهما مدعاة للخروج عن نطاق السوية النفسية والخلقية والاجتماعية أيضاً . فالكثير من المشكلات التي تعمل على تصدع العلاقات الزوجية ، وأيضاً العلاقات بين الوالدين وأولادهما كثرة المال والسفة في الإنفاق .

(٣) **الثراء المفاجئ أو الفقر المفاجئ :** ومن العوامل التي تعمل على زلزلة العلاقات الأسرية الفجأة التي تنتقل الأسرة من الفقر المدقع إلى الثراء الفاحش ، أو من الثراء إلى الجاه إلى الفقر المدقع . فتلك الهزة التي تحدث للأسرة تصيبها بتزلزل أحوال أفرادها وبعدم القدرة على التواؤم مع الوضع الاقتصادي الجديد الذي صاروا إليه ، وبالتالي فإنهم يفقدون سويتهم النفسية والخلقية والاجتماعية .

استقلال الأولاد ونزوحهم عن الأسرة :

علينا أن نبدأ باستعراض الحالات التي يستقل فيها الأولاد عن أسرة الوالدين وينزحون بعيداً عن محل إقامتها على النحو التالي :

أولاً - الالتحاق بمعهد دراسي بعيد عن مقر الأسرة : لقد تحتم الظروف ابتعاد الولد أو البنت عن الأسرة لأن البلدة التي تقطنها خلو من المعاهد أو الكليات التي يرغب الالتحاق بإحداها . فيكون عليه أن ينزح بعيداً عن أسرته وأن يسكن مع زملاء له في بيت من بيوت الطلبة أو أن يستأجر هو وبعض زملائه شقة مستقلة قريبة من المعهد أو الكلية التي يلتحق بها . وقد يكون له بعض الأصدقاء بالمدينة التي بها معهده أو كليته فتمتضيفه لديها .

ثانياً - التجنيد والإقامة بالمعسكرات : وهذه فترة تصل إلى ثلاثة أعوام يتردد الشاب خلالها على أسرته إذا لم يكن من المتعذر قضاء الأجازات التي تكون في العادة قصيرة بين أفرادها . وفي حالة التجنيد فإن الشاب يكون مجبراً على مشاركة بعض زملائه في جميع أنحاء الحياة ، وفي جميع أوجه النشاط المتباينة التي ينخرط فيها المجندون عادة .

ثالثاً - تعيين الإبن أو البنت في بلد بعيد عن البلد الذي تقيم به أسرته : فبعد التخرج في المعهد أو الكلية ، فإن التعيين بإحدى الوظائف لا يكون بنفس بلدة أسرته ، بل يكون في الغالب بعيداً عنها ، فينزع الإبن أو البنت بعيداً عن مقر أسرتهما .

رابعاً - العمل لعدة سنوات في بلد عربي أو الهجرة إلى قطر أجنبي بعيد : فلقد تحتم الظروف قيام أبناء الأسرة بالعمل في بلد عربي لعدد من السنوات أو قد يطمح الأبناء إلى الهجرة إلى بلاد أجنبية بعيدة وتكون هجرتهم نهائية . والكثير من الذين هاجروا لم

يعودوا إلى القطر الذي هاجروا منه على الإطلاق ، بل استمرت هجرتهم وغربتهم مؤبدة هناك . فينشأ أولادهم لا يعرفون عن مسقط رأس أسلافهم شيئاً ، ولا يعرفون من لغتهم الأصلية حرفاً واحداً .

خامساً - الزواج وإنشاء أسرة جديدة مستقلة بشقتها
وبحياتها الخاصة : فمن المعتاد أن يرتبط الزواج - سواء بالنسبة للشباب أم بالنسبة للشابة - بالاستقلال بشقة قائمة برأسها . فالأسرة الجديدة بمثابة شجيرة تخرج من قوام الشجرة الأصلية الكبيرة وتسنقل عنها . ولكن تحت ضغط الظروف الاقتصادية وأزمة الإسكان ، فإن الكثير من الشباب والشابات يسكنون بصفة مؤقتة مع ذويهم ، وقد تكون السكنى مع الأهل لأن الأسرة الأم لم يعد متقبلاً منها سوى الأم والأب ، فيكون الاستمرار في شقة الأسرة الأم لورانتها والاستمرار بها مع القيام برعاية الأب الباقي والأم الباقية على قيد الحياة .

وبعد أن عرضنا هذه الحالات الخمس التي تتضمن استقلال الأولاد من الجنسين عن أسرهم الأصلية ونزوحهم عنها وعدم الاستمرار في الأخذ والعطاء معها أو التأثر بها والتأثير فيها ، فإن علينا أن نتدارس ما يؤثر به ذلك في سوية شخصية أولئك الأولاد على النحو التالي :

أولاً - احتدام الحنين إلى الأسرة الأم : فالوشائج الوجدانية التي تربط الأولاد بالوالدين قد تكون من المتانة بحيث لا يكون الفراق عنهما من الأمور السهلة . فهناك من الناشئة من تظل روابطهم العاطفية بالوالدين كما كانت في الطفولة . ويتعبير آخر فإنهم لا يكونون قد بلغوا مرحلة الفطام العاطفي الذي يشتمل بواسطته إقامة روابط عاطفية جديدة مع أشخاص جدد ، فيكون هناك وأرد ومنصرف من العواطف . فثمة عواطف وتعلقات تنشأ

من جهة ، وثمة عواطف وتعلقات تنبل وتذوى من جهة أخرى . ولكن الشخص الذي لم يحرز الفطام العاطفي يظل مرتبطاً بالديه وباقي أفراد أسرته ولا يتسنى له أن يجد بديلاً يعوضه عن حرمانه من مشاهدتهم وامتصاص العاطفة منهم . فهو يكون قد ركز كل مشاعره فيهم ولا يستطيع أن ينتشر بتلك المشاعر إلى دوائر أوسع من دائرتهم الضيقة . ومن ثم فإن الانتقال من نطاق الأسرة الأم إلى نطاق آخر جديد يكون محفوفاً بذلك الاحتدام الوجداني ، فيحس الشاب أو الشابة كما لو أنه مشرف على الغرق في لجة لا يعرف لها قراراً . وبذا فإنه يخرج من نطاق السوية إلى نطاق الانحراف النفسي الذي قد يتطور بزيادة مطردة إلى مرض نفسي يكون بحاجة إلى العرض على المعالج النفسي .

ثانياً - التعلقات الوجدانية الجديدة : من الأوضاع الطبيعية أن تتحول الارتباطات الوجدانية الحميمة بالأسرة الأم إلى الأسرة الجديدة التي يقوم المرء بإنشائها . فيرتبط الزوجان الشابان ببعضهما ببعض وتتوثق علاقتهما . وبعد أن ينبجا يزداد الارتباط العاطفي قوة وتلتئم الأسرة الجديدة حول بؤرة ووجدانية مشتركة . ونحن لا نقصد بالطبع أن يصير الزوجان الجديان عاقين للوالدين ، ولكن نقصد أن يكون المركز العاطفي هو الأسرة الجديدة . ولكن إذا استمر المحور العاطفي مركزاً في نطاق الأسرة الأم لأي من الزوجين الجديين ، فإن هذا يكون خارج نطاق السوية . وما يقال عن الأسرة الجديدة وارتباط العروسين ببعضهما ببعض ، ينسحب أيضاً بإزاء جميع حالات النزوح عن الأسرة الأم والاستقلال عنها . فلا بد من بديل يوجه المرء إلى عواطفه حتى يظل متواجداً في نطاق السوية . فمن لا يجدد في علاقته الوجدانية تصير عواطفه كالبركة الآسنة ، أو بتعبير آخر فإن من لا يجدد في تلك العلاقات

يصاب بالانحرافات النفسية المتعددة . فإذا فُترت علاقته العاطفية بأسرته الأم من جهة ، ولم يتم بإنشاء بؤر وجدانية جديدة تنصب فيها عواطفه من جهة أخرى ، فإنه يكون خليقاً إنن بأن ينضب وجدانياً أو لقد يصاب بأحلام اليقظة المرضية أو بالهلوسات والمخاوف المرضية أو بغير ذلك من أمراض نفسية .

ثالثاً - اهتزاز القيم وتغيير العادات والاتجاهات : ولقد يكون من تأثير استقلال الأولاد ونزوحهم عن الأسرة زلزلة لبعض القيم الدينية والأخلاقية والاجتماعية التي سبق أن تشرّبوها في نطاق أسرته الأم . ويتبع ذلك أو يتوكلب معه إحلال عادات سلوكية جديدة محل العادات السلوكية القديمة . ونعني بالعادات خمسة أنواع سلوكية ، هي : العادات الحركية ، والعادات الوجدانية ، والعادات العقلية ، والعادات التعبيرية ، والعادات العلنية . وكذا فإنه مع زلزلة القيم تتغير اتجاهات المرء . ونقصد بالاتجاهات جماع العواطف تجاه معنى تجرّدي كالأمومة والأبوة والحنان والمساواة أو تجاه فئة برمتها مثل فئة الإناث وفئة الذكور ، وفئة الأطفال ، وفئة المعوقين إلى آخر تلك الفئات التي تتصف بالتجريد والتعميم أيضاً . فالشاب الذي ينسلخ عن أسرته التي تربي فيها وكذا الشابة يمكن أن يحدث تغيير فيما سبق أن اكتسبها من اتجاهات نحو المعاني أو الفئات المجردة والمعممة في نطاق الأسرة التي تربيها فيها وترعرعا . من ذلك مثلاً اكتساب اتجاه جديد من فئة النساء . فيبعد أن كان يحترم المرأة لأن أمه كانت تمثل له مثلاً طينياً للمرأة ، فإنه بتغيير نظرته إلى النساء في بيته الجديد ، يغير اتجاهه من هذه الفئة فيحتقر جميع النساء ويتهمون بأنهن أقل مرتبة في الفكر والعاطفة والإرادة من مرتبة الرجال . وطبيعي أن اهتزاز القيم وتغيير العادات والاتجاهات في البيئة الجديدة بعد النزوح عن بيئة

الأسرة الأم قد يتوكلب مع الاهتزاز في سوية الشخصية . ولكن علينا أن نتحرز من التعميم . فلقد يكون تغيير البيئة الأسرية بالنزوح عن بيئة الأسرة الأم إلى بيئة أو بيئات جديدة عاملاً على صقل القيم القديمة والتلبس بعادات واتجاهات أفضل من العادات والاتجاهات التي سبق اكتسابها من بيئة الأسرة الأم .

رابعاً - التحرر والانفكاك من الرقابة الأسرية : فالواقع أن الكثير من الشباب يظنون متلبسين بالتهيب من آباءهم وأمهاتهم ، فتنقل الخشية منهم مترتبة على قلوبهم ويعملون الحساب كل الحساب لكل كلمة ولكن تصرف يصدر عنهم في حضرتهم . فما كانوا يلتزمون به في طفولتهم يظنون ملتزمين به بعد أن يشبوا عن الطوق ويصيرون في المراهقة ثم في الشباب . فإذا ما حانت الفرصة أمامهم للتحرر والانفكاك من القيود التي ظلوا مكبلين بها وهم تحت وصاية الوالدين ، فإنهم ينخرطون في ألوان سلوكية لم يكن لهم سابق عهد بها ، ولقد يتأثرون بغيرهم ممن يختلطون بهم ويتعاملون معهم أو يسكنون بنفس المسكن الواحد الذي يضمهم وإياهم ، فيأخذون عنهم من الكلام ومن التصرفات ما لم يكونوا يجرعون على اتخاذه أو التلبس به وهم في نطاق أسرته الأصلية . فكم من شباب تدهورت مستوياتهم الأخلاقية بعد ترك أسرته الأم والبعد عنها لسبب أو آخر من الأسباب التي عرضناها قبلاً . إننا نخشى أن نقول إن الكثير من الشباب الذين انصرفوا إلى تعاطي المخدرات أو الانحرافات الجنسية قد تأثروا بالبيئات الجديدة التي افتقدوا فيها ما كانوا يخضعون له من رقابة أسرهم بعد هجرانهم لها ونزوحهم عن نطاقها .

خامساً - حرمان الأولاد مما كان الوالدان يقدمانه من توجيهات وإرشادات حكيمة : فيبعد استقلال الأولاد ونزوحهم عن

الأسرة الأم ، فإنهم يعتقدون أنهم صاروا في غير حاجة إلى النصائح والتوجيهات التي كان الوالدان يقدمانها إليهم في كل موقف كانوا بحاجة فيه إلى تلك النصائح والتوجيهات . ومن ثم فإنهم يأخذون في التخطيط في المواقف المتنبئة . وحتى في حالة الزواج ، فإن العروسين لا يكونان قد نضجا بالقدر الكافي لكي يقدم كل منهما النصائح والتوجيهات لرفيق حياته ، بل إن الحماسة تأخذهاما فيقدم الواحد منهما للآخر من النصائح والتوجيهات الضارة والتي تبعد كل البعد عن الحكمة والتعقل . وبذا فإن ما يقعان فيه من ورطات وما يعانيان منه من إحباطات يعمل على إخراجهما من نطاق السوية النفسية والخلقية والاجتماعية إلى نطاق الانحراف النفسي والخلقي والاجتماعي على السواء .

فقدان شريك الحياة :

إن لفظ « شريك الحياة » قد شاع على الألسنة والأقلام ليعني الزوج أو الزوجة . بيد أننا لا نستطيع في الواقع أن نعتبر أي زوج وأية زوجة « شريك حياة » ، وذلك لأن الكثير من الزوجات في الوقت الحالي لا تتصف إلا بالشكل الخارجي للزوج ، بينما هي تفقد في الحقيقة المضمون أو الجوهر الذي يجب أن يكون متوافراً للعلاقة بين الزوجين . ولعلنا نقوم فيما يلي باستعراض الشروط الواجب توافرها في الزوج أو الزوجة حتى يتسنى لنا نعت الواحد منهما بأنه « شريك حياة » والشروط هي :

أولاً - التكريس الجنسي والعاطفي : فمن الشروط الأساسية التي يجب أن تتوافر في شريك الحياة تصميمه على أن يظل طوال حياته الزوجية غير مائل إلى إقامة أية علاقة جنسية أو ممارسة أي نشاط جنسي خلاف العلاقة والنشاط الجنسي الذي يمارسه مع الطرف الآخر ، أعنى الزوجة بالنسبة للزوج ، والزوج بالنسبة

للزوجة . والمقصود بالتكريس العاطفي أن تكون عواطف شريك الحياة متبلورة حول الطرف الآخر ، بمعنى أن القسط الأكبر من وجدانه يكون متبلوراً ومركزاً حوله .

ثانياً - إيثار شريك الحياة على الذات : فالثمرة الحقيقية التي تتأتى عن الحب بين شريكي الحياة هي إحلال الإيثار محل الأثرة . ذلك أن الفطرة البشرية تؤكد الأثرة أو الأنانية على الإيثار أو التضحية . بيد أن عمل الحب في القلب يغلب كفة الإيثار على كفة الأثرة ، والتضحية من أجل الحبيب على الأنانية وعلى تفضيل الذات على أي إنسان آخر . وكلما كان الحب ممتدًا إلى أعماق شريك الحياة ، فإن تضحياته تزداد إلى أن تصل إلى الذروة المتمثلة في التضحية بالحياة نفسها أو الاستعداد الفعلي للتضحية بالحياة من أجل شريك الحياة لو اقتضت الضرورة القيام بتلك التضحية .

ثالثاً - الاعتقاد قلبياً في استمرارية الحياة الزوجية حتى النفس الأخير : فمن الشروط التي يجب توافرها في شريك الحياة أن يكون على يقين تام بأن لا انفصام للعلاقة الزوجية التي أقيمت بينه وبين الطرف الآخر . فليس هناك ما يؤدي إلى فصح العلاقة الزوجية بأى حال من الأحوال . فلا الفقر ولا المرض الجسدي أو النفسي ولا الاعتقال أو السجن أو أى مصيبة كائنة ما تكون يمكن أن تلحق بالطرف الآخر تستطيع أن تؤدي إلى فسخ العلاقة الزوجية . وحتى ما يمكن أن ينشأ من خلافات أو صدامات بين شريكي الحياة لا يقوم شفيفاً لفصح عرى الزوجية . فالحب بين شريكي الحياة كفيلاً بأن يعمل على انقشاع الغيوم التي تكتنف علاقتهما ببعضهما ببعض في بعض الأحيان وفي ظل بعض الظروف . وسوف نعرض لهذه المسألة في الموضوع التالي .

رابعاً - التصميم على رعاية الطرف الآخر والحفاظ عليه من أي شر يمكن أن يهدده : فمن الشروط الواجب توافرها في شريك الحياة سهره على رعاية شريكه صحياً ونفسياً واجتماعياً ونب أي خطر يقرب من شخصه ، سواء كان خطراً يهدد صحته أو حياته ، أم كان خطراً أنبياً أو معنوياً يهدد سمعته أو مكانته الاجتماعية ، أم خطراً يهدد ممتلكاته أو أمواله . وبتعبير آخر فإن شريك الحياة يجند جميع إمكاناته وقدراته العقلية لدعم شريك الحياة ورعاية مصالحه والحفاظ على كل ما يخصه من أمور وكل ما يهمه من مسائل ويحاول مساعدته ودعمه لتحقيق أهدافه ومراميه في الحياة طالما أن تلك الأهداف والمرامي لا تتعارض مع الشرف والأمانة .

خامساً - الحفاظ على أسرار شريك الحياة وعدم البوح بها تحت أي ظرف من الظروف : فمن واجب شريك الحياة أن يكون كاتم أسرار شريك حياته ، فلا يبوح بها لأحد كائنًا من يكون . والواقع أن الأسرار نسبية ، فكل ما يرغب المرء في أن يعرفه الآخرون يعتبر سرًا من أسرار الشخصية ، فما يعتبره شخص ما سرًا قد لا يعتبره شخص آخر مما يستحق كتمانهم وعدم إذاعته . فعلى شريك الحياة أن يعرف ما ينحو إليه شريك حياته من الأمور التي يعتبرها أسرارًا والأمور التي لا تدخل في نظره في نطاق الأسرار . فكل ما يعتبره شريك الحياة سرًا يكون من واجب شريكه أن يحافظ عليه بينهما ولا يبوح به لأحد . فإذا حتم موقف ما بالبوح بأحد أسرار شريك الحياة ، فلا بد من استئذانه قبل البوح به . فإذا رفض فلا يجوز له أن يكشف السر عن سره .

وبعد أن استعرضنا هذه الشروط الخمسة التي يجب أن تتوافر في الزوج أو الزوجة لكي يتسنى وصفه بأنه شريك حياة . فإن علينا أن نعرض للحالات التي يمكن أن تؤدي إلى فقدانه على النحو التالي :

أولاً - حالات الوفاة الطبيعية : فيعد حياة زوجية طويلة أو قصيرة يموت أحد شريكي الحياة . وقد تكون الوفاة الطبيعية مفاجئة كأن يحدث توقف مفاجئ للقلب أو انفجار شريان بالمخ أو غير ذلك من أسباب تؤدي إلى حدوث الوفاة ، كما قد تكون الوفاة نتيجة مرض طويل أو مزمن .

ثانيًا - الوفاة نتيجة حادث : فلقد تقع حالة وفاة لأحد شريكي الحياة نتيجة حادث سيارة أو غرق أو غير ذلك من أنواع الحوادث الكثيرة التي تعج بها الحياة سواء في المدينة أو القرية .

ثالثًا - الاستشهاد في الحرب : وقد تقع الوفاة لشريك الحياة نتيجة الاستشهاد في إحدى المعارك الحربية أو خلال التدريبات أو المناورات أو غير ذلك من حالات وفاة تحدث بالجيش .

رابعاً - السجن أو الاعتقال : لقد يحدث فقدان شريك الحياة نتيجة الإلقاء به في غياهب السجن . فلقد يحبك عدو ما مؤامرة ضد الزوج فيدس له قطعة من الأفيون في جيبه ثم يبلغ عنه جهات الأمن فيقبض عليه ويلقى به في السجن المؤبد . وطبيعي أن الزوجة المتأكدة من براءة زوجها تحزن عليه حزناً شديداً لا يقل عن حزنها لو أن يد الموت كانت قد اختطفتها . وما يقال عن السجن ينسحب أيضًا بإزاء المعتقل السياسي . فلقد تنقلب الأحوال السياسية ، فيصير الممسكون بزمام الحكم أعداءً لنظام الحكم الجديد ، وبالتالي فإنهم يتعرضون للتشريد أو للزج بهم في السجون . فزوجة السياسي الذي زج به في المعتقل تحس بأنها قد حرمت من زوجها السياسي وهي لا تعلم إلى متى يظل في المعتقل ، وهل إذا خرج منه يعود إلى داره وأولاده أم يخرج ليقاد إلى هبل المشنقة ؟ إنها على أية حال تحس أنها قد فقدت قسم حياتها ورفيق عمرها .

خامسًا - الخيانة الزوجية : وتتمثل هذه الحالة في المفاجأة التي يتم فيها فقد شريك الحياة . فالزوجة التي تحب زوجها وهي تعتقد أنه يبادلها المشاعر نفسها ولكنها فوجئت بأنه على علاقة حميمة بجارة أو صديقة أو أنه عقد قرانه على زوجة جديدة وأخفى أمر زواجه عنها ، تصاب بصدمة عاطفية لا تقل خطورة وفداحة عن الصدمة التي تجابه بها لو أن ذلك الزوج كان قد مات وفارق الحياة .

وبعد أن عرضنا لهذه الحالات الخمس التي يحس فيها شريك الحياة بأنه فقد شريكه ، فإننا نعرض لأثار فقدان شريك الحياة في الصحة النفسية لشريكه على النحو التالي :

أولًا - إصابة جهاز « النحن » ، في التصميم : فالواقع أن الرابطة الحميمة بين شريكى الحياة تجعل لدى كل منهما جهازًا نفسيًا فعّالًا في حياتهما هو جهاز « النحن » ، إلى جانب جهاز « الأنا » . فلدى كل منهما هذان الجهازان المتجاوران والمنسجمان والمتعاونان بل والمتكافلان . فبهما يفكر المرء ويتجه بوجوده وجهات معينة وينزع إلى مناحى الحياة بالتصرفات والمواقف والعلاقات المتباينة . فإذا ما فقد أحد شريكى الحياة شريك حياته ، فإن ذلك الفقدان يكون فقدانا لمقومٍ أساسى من مقومات قوامه النفسى .

ثانيًا - إرتباك حياة شريك الحياة : فالعشرة الزوجية التي تستمر عدة سنوات تتوكلت مع مجموعة من العادات وأنماط الحياة اليومية التي تنهار بانهايار صرح أساسى من صروح الأسرة هو شريك الحياة . فكيف يتسنى للزوج بعد فقد زوجته أن يسيّر حياته ؟ وكيف يتسنى للزوجة أن تقوم بتسيير حياتها بعد فقدها لشريك حياتها ؟ إن شريك الحياة الذى يفقد شريك حياته تضيق منه معالم الطريق ويصاب بصدمة نفسية قلما يستطيع الإفافة منها والعودة إلى

حالته الطبيعية . وعندما نذكر العادات وأنماط الحياة اليومية فإننا لا نقتصر على الممارسات والتصرفات ، بل نتوسع بمعنى العادات وأنماط الحياة اليومية لتشمل العادات وأنماط الحياة الفكرية والوجدانية والأدائية . ففقدان شريك الحياة يعنى انهيار العادات الذهنية والوجدانية والإرادية جميعًا ، ويكون على المرء أن ينشئ مجموعة جديدة من تلك العادات يسيّر بها حياته . والواقع أنه كلما كان شريك الحياة الذى فقد شريك حياته متقدمًا فى السن فإن إنشاء مجموعة جديدة من العادات يكون من الصعوبة بمكان أو يكون من المستحيلات . وبهذا فإن الحياة النفسية للمرء تكون مهددة بالخروج عن السوية . فلقد يصاب شريك الحياة المكلوم بأحلام اليقظة وبالهلوسات وبالوساوس والأعمال القهرية نتيجة فقدان ما اعتاد عليه من عادات ومن أنماط حياته اليومية .

ثالثًا - الإصابة بالاكنتاب : ولقد يتأتى عن فقدان شريك الحياة إصابة الطرف المكلوم بحالة اكتئاب مؤقتة أو مزمنة . فهو قد ينصرف إلى عالمه الداخلى يسبح فيه كيفما يشاء ، أو قد يتوقف عند حدود التخشب فى تخيلته . فهو لا يفكر فى شيء ولا يخضع لسلسلة من أحلام اليقظة ، بل يتوقف عن مجرد التفكير فى شيء حتى فى شريك حياته الذى فقده . فهو يفقد القدرة على التفكير ، وبالتالي فإنه يفقد القدرة على الاتصال بالآخرين من حوله ، ويظل ساكنًا لا يكاد يتحرك من مكانه . وقد يحنج بالرغبة فى النوم فيذهب إلى الفراش هربًا من الناس ومما قد يوجهونه إليه من كلام . فهو يعتكف فى السرير منطويًا على نفسه وقد ضم أطرافه وتكوى كما لو أنه يريد أن يخفى من الوجود .

النزاعات الأسرية وسوية الشخصية :

بحسن بنا قبل أن نبدأ في استجلاء أثر النزاعات الأسرية في سوية الزوجين وأولادهما أن نحاول إلقاء الضوء على تلك النزاعات لنحدد أنواعها المتباينة . ونحسب أنها تتضمن الأنواع التالية :

أولاً - النزاعات التي تدور حول المسائل المالية : فلقد يثور الخلاف بين الزوجين بسبب ميزانية الأسرة والدخل والمنصرف . فلقد يتنافس كلا الزوجين حول الإمساك بدفة السياسة المالية المتعلقة بالأسرة . فالزوج يريد أن يكون سيد الموقف فيكون الدخل والمنصرف من اختصاصه ، وأن عني الزوجة أن تطلب منه ما تريده فيعطئها كل ما تطلبه أو يعطيها جانباً مما تطلبه . ولكن هذا لا يرضى الزوجة . فهي ترى أنها الخليفة بالإمساك بدفة الميزانية لأنها مديرة المنزل ، وهي التي تعرف مطالب البيت . فعلى الزوج إذن أن يسلمها دخله كله وأن يأخذ منها مصروف جيبه . وفي حالة اشتغال الزوجة فإن النزاع يدور حول مدى ما يجب على الزوجة تقديمه من مرتبتها لكي ينفق على الأسرة . فالكثير من الزوجات يعتقدن أن مرتب الزوجة الموظفة يجب الحفاظ عليه لنفسها لما قد يحمله لها المستقبل من مفاجآت غير متوقعة . فهو حقها وحدها ، وأن الواجب على الزوج أن ينفق على الأسرة وأن يشجعها على الاحتفاظ بدخلها وإيداعه في البنك أو في مشروعات اقتصادية وألا تنفق منه مليماً واحداً على البيت . ولكن هذا الوضع لا يعجب الكثير من الأزواج ومن هنا تثور النزاعات بينهم وبين زوجاتهم .

ثانياً - النزاعات بسبب العلاقات الجنسية : وبعض النزاعات بين الأزواج والزوجات تنشأ نتيجة ما يحس به الزوج أو تحس به الزوجة من غيره . فكل منهما يتهم الآخر بأنه لا يكرس قلبه

وفكره له ، وأنه لم يعد متعلقاً به كما كان حاله أيام الخطوبة أو في الفترة الأولى من الزواج . ولقد ينشأ النزاع بين الزوجين لأن الزوجة لا تجد لديها الرغبة في الممارسة الجنسية مع زوجها لأنه أناني يأتيها في الوقت الذي تكون متعبة خلاله ، ولا يلاطفها أو يغازلها قبل الاقتراب منها ، فهو لا يهتم سوى إشباع شهوته ، وكأنها قطعة لحم خالية من المشاعر والإرادة . أما الزوج فإنه قد يشكو من البرود الذي يجده في زوجته . فهي لا تقبل عليه ولا تحبه لشخصه ، ولا تتعلق به ، بل إنها تكلف بغيره وتتجاوب مع أصدقاء الأسرة ، وتقابل ملاطفة صديق معين بسرور بينما تصد عنه ولا تقابل ملاطفاته لها بتقبل وارتياح . فهو إذن شخصية غير مرغوب فيها ، بل إنه الشخص البغيض إلى قلبها وليته ما كان قد تزوجها طالما أنها بعيدة بقلبيها عنه ، وزاهدة فيه ، ولا تقدر رجولته وشخصيته حق قدرهما .

ثالثاً - النزاعات بسبب العلاقة بالأهل : وبعض النزاعات التي تنشأ بين الزوجين تكون نتيجة تنافس أهل الزوج من جهة ، وأهل الزوجة من جهة أخرى على السيطرة على الأسرة الوليدة . فالزوجة ترفض تدخل حماها وحمااتها في شئونها وشئون زوجها وأولادهما . وكذا فإن الزوج يرفض تدخل حماه وحماته في شئونه ويتهمها بأنها يرغبان في فرض وصايتيها على أسرته . ولقد يدور النزاع بين الزوجين حول زيارة والدي أسرتهما وأقربانها . فكل منهما يريد الانحياز إلى أسرته . وعندما ترفض الزوجة زيارة أسرة زوجها أو أقربائه ، فإنه يقيم الدنيا ويقعدها . وكذا حال الزوجة عندما يرفض زوجها القيام بالزيارات لأهلها أو لأقربانها في المناسبات المختلفة . فهي لا تريد أن تذهب وحدها للقيام بالواجبات نيابة عنه ، كما أنها تتوعد إذ لم تقص في حق

أقربائها ، إنها بالتالى سوف تفعل الشيء نفسه بلزاء أقربائه فى المناسبات المشابهة للمناسبات التى قَصُر فيها .

رابعاً - النزاعات التى تنشأ نتيجة القيل والقال : فالكثير من النزاعات التى تنشأ بين الزوجين تكون نتيجة العتابات التى يثيرها الأهل والأقرباء والأصدقاء والجيران والمعارف . فالزوج يلقى باللائمة على زوجته لأنها قالت كيت وكيت ، بينما ترد الزوجة على اتهامات زوجها وترد له الصاع صاعين متهمه إياه بالنزق والتهور وتحميل الأمور أكثر مما تحتمل ويوول الكلام بتأويلات بعيدة عن الحقيقة . فهو يزيد أو ينقص من الكلام الذى قيل ، ويقوم بالتحريف والتزييف والانتواء بعيداً عن المقاصد التى قيل الكلام للتعبير عنها إلى آخر تلك المنازعات التى تدور حول القيل والقال وما ينشأ عنهما من خصومات وشجارات .

خامساً - النزاعات التى يسببها الأولاد والبنات : فبعض النزاعات التى تنشأ بين الزوجين تكون بسبب معاملة الأولاد . فالزوجة تتهم زوجها بأنه يقسو على البنات ويتهاون مع الأولاد أو بأنه صفر على الشمال بالبيت . فالأولاد لا يهابونه ولا يخشون بأسه ، أو أنه منصرف عنهم إلى أعماله ولا يكلف بشئونهم وبما يحرزونه من تفوق فى الدراسة أو من تخلف فيها . ولقد تكون الاتهامات موجهة من جانب الزوج إلى زوجته . فهو يتهمها بأنها لا تهتم بنظافة الأولاد ، ولا تقوم بواجباتها نحوهم بالرعاية الكافية ، بل تقضى معظم وقتها فى الاتصال تليفونياً بأقربائها وصديقاتها ، أو تقوم بانزيارات التى تضعف الوقت ، أو أنها لا تهتم إلا بالطبخ بينما تهمل مظهرها ومظهر بيتها وأولادها وبناتها . ولقد يعيرها الزوج بإحدى الجارات أو بإحدى القريبات مما يزيد الموقف اشتعالاً وهيجاناً .

وبعد أن قمنا باستعراض هذه الحالات الخمس التى تنشأ فيها النزاعات الأسرية بين الزوجين ، فإننا نلقى بالضوء على أثر تلك النزاعات فى سوية شخصية الزوج والزوجة على النحو التالى :

أولاً - حلول الكراهية محل الحب : فمن المفروض أن تنشأ الأسرة على أساس مكين من الحب بين الزوجين . ولكن تلك النزاعات التى عرضنا لأهم ما شيع منها بين الأزواج والزوجات تعمل فى الواقع على قهر الحب الذى كان سائداً بينهم وحلول الكراهية محله . ومن المعروف أن الحب والكراهية صنوان لا يفترقان بمعنى أن الحب هو اختباء الكراهية ، وأن الكراهية هى اختباء الحب . ولكن الكراهية تكون متحفزة للاستيلاء على قلب المرء فى أول فرصة متاحة لذلك . وعلى هذا فإنك لا تجد شخصاً يفقد حبه ولا يكره فى الوقت نفسه . فمن يفقد حبه لشخص كان يحبه لا بد أن يكرهه (انظر كتاب « الحب والكراهية » للمؤلف) . وعلى هذا فإن النزاعات الزوجية تكون خليفة بأن تحيل الزوجين المحبين إلى عدوين كارهين بعضهما لبعض . وبالتالي فإن الكراهية تفسد سويتهما جميعاً .

ثانياً - التذبذب الوجدانى : بيد أن الموقف الوجدانى لدى الزوجين اللذين يقعان فى بوتقة النزاعات الزوجية لا يحسم تماماً . فهما لا يحسمان أمرهما بأن يكره الواحد منهما الآخر على طول الخط وفى كل وقت ، بل إنهما يتأرجحان بين الحب والكراهية . فعلى الرغم من أن الكراهية تتبوأ حياتهما ، فإن ذلك التبوؤ ليس مستمراً ، بل تهدأ العاطفة الكُرهية أحياناً وتعلو وتحتاج أحياناً أخرى . ويتعبير آخر فإن ثمة أوقاناً تمر فيها الحياة الزوجية وهى متمسكة بالصفو والوداد . ولكنه الحب الذى يتعرض بعد وقت قصير لزوبعة جديدة من الكراهية بسبب تلك التنازعات التى تعرضنا لها

قبلاً . وهكذا يكون الحال بين الزوجين . ولقد ينخرط الواحد منهما في تفكير ترددي بينه وبين نفسه فيتساءل : هل هو يحب شريك حياته حقاً أم أنه يكرهه ؟ ولكنه لا يجد جواباً .

ثالثاً - الوسواس المستقبلي : والوسواس هو الوقوف في حيرة بين خيارين أو أكثر دون الرسو على خيار والأخذ به وعدم استبداله . والوسواس المستقبلي يتعلق بالخيارات المستقبلية التي يترسمها المرء للقيام بها شخصياً أو يتخيل أن غيره يترسمها للاضطلاع بها . فالنزاعات بين الزوجين قد تدفع بأحدهما أو بهما جميعاً إلى الانخراط في الوسواس المستقبلية المتعلقة بالخيارات التي يمكن الوقوع عليها والأخذ بها ، أو تلك التي سوف يقع عليها الطرف الآخر ويأخذ بها . فلقد تتعلق الوسواس التي تستولى على عقل الزوج بما يمكن أن يقيمه زوجته من علاقات غرامية مع شخص معين تستلطفه ويستلطفها . ولقد تتعلق الوسواس التي تستولى على عقل الزوجة بما يمكن أن ينخرط فيه الزوج من حب مع إحدى زميلاته في العمل . ولكن تلك الوسواس التي يمكن أن تستولى على عقل الزوج أو على عقل الزوجة لا تصل بهما إلى حد اليقين ، بل هي تكون متأرجحة بين التأييد والرفض من جانب الواحد منهما . فبينما يسيطر تصديق الوسواس على عقل الواحد منهما ، فإنه سرعان ما ينهار ويحل محله التكذيب . ففي لحظة ما يقول الواحد منهما لنفسه : « ولم لا يحدث هذا الذي يستولى على عقلي ؟ » . ولكنه يرد على نفسه قائلاً : « ولكن هذا لا يمكن أن يحدث بأي حال من الأحوال » . وهكذا يظل الزوج وتظل الزوجة بين أخذ ورد ، وبين جذب ودفع ، وبين احتمالين متقابلين يأخذان بعقلهما بغير انقطاع .

رابعاً - أحلام اليقظة : ولقد بنجم عن النزاعات الزوجية المحتممة ما يشبه الهدوء النفسي ، ولكنه في الواقع ليس من الهدوء إلا من حيث ظاهرية السلوك دون الأغوار الداخلية لكلا الطرفين ، أعني للزوج وللزوجة . فكل منهما في خلال الفترات التي يبدو فيها هانئاً إنما يكون منهما في أحلام يقظة تأخذ به كل مأخذ . فهو يعيش واقعاً خيالياً لم يحدث بالفعل ولكنه يحدث في عقله . إنه يجعل من مخيلته مسرحاً للواقع الذي يحدث أمامه في ذهنه . ولقد يترك الزوج أو تترك الزوجة لعقلها العنان ، فتتخيل أنها تأتي بأفعال لا تستطيع أن تأتيها في الواقع ، أو كانت ترغب في الإتيان بها فيما حدث بينها وبين زوجها من نزاعات ولكنها لم تجرؤ ، ولكنها في غمرة أحلام اليقظة تأتي بما تشاء من تصرفات خيالية لا يتسنى لها أن تخرجها من نطاق خيالها إلى نطاق الواقع التصرفي الخارجي ، فأحلام اليقظة تعتبر المنفذ الذي تخرج بواسطتها الانفعالات المكبوتة . ولكنها تعتبر ظاهرة غير سوية لأنها تدل على ثنائية الحياة النفسية للمرء . فظاهرة غير باطنه ، وما يأتيه من تصرفات وما يقيمه من علاقات بينه وبين شريك الحياة يتباين تبايناً جوهرياً عما يأتيه بخياله من تصرفات ، وما يقيمه في مخيلته من علاقات . وهذا هو بعينه الانحراف عن السوية النفسية .

خامساً - التفكير في الإيذاء أو في الانتحار : لقد يخرج الزوج أو الزوجة المنخرطان في الشجارات المستمرة من نطاق أحلام اليقظة إلى نطاق التفكير التخاطبي ، أو بتعبير آخر التفكير الجدي في وضع حد لتلك النزاعات المؤرقة والتي تحرم الجفون من النوم ، والخروج من نطاق الخيال وعدم الاستمرار في أحلام اليقظة إلى أرض الواقع والسلوك الفعلي . فيعد أن كان العمل الذهني محصوراً في النطاق الداخلي للمرء ، فإنه يأخذ منحى آخر

لمأمورية بعيدًا عن المنزل تستمر بضعة أسابيع فلا يكون سفره أو بعده عن البيت نتيجة غضب سافر أو نزاع معلن ، بل يكون باتباع سياسة ودبلوماسية هادئة فلا يحس أحد من أقربائه أو من أقرباء زوجته بأنه نافر من البيت أو أن سفره بمثابة هروب من حومة النزاعات والمشاجرات المستمرة بينهما .

ثانيًا - السفر للخارج للعمل أو للدراسة : فلقد يترك الزوج زوجته ويسافر إلى بلد عربي أو إفريقي بعقد لمدة قد تصل إلى خمس سنوات ، أو قد يسافر الزوج أو الزوجة في بعثة دراسية للحصول على الماجستير أو الدكتوراه من إحدى الجامعات بالخارج . وفي هذه الحالات فإن الانفصال بين الزوجين يكون برضى الطرفين لتحسين وضع أسرتهما في المستقبل ولزيادة الدخل .

ثالثًا - تصدع العمارة التي تقطنها الأسرة أو نشوب حريق بالشقة : فلقد يكون الزوجان على وفاق وقد قاما بإنشاء أسرة سعيدة ولكن تحدث مفاجأة مكنرة تعمل على تفريق الزوجين لمدة طويلة . فلقد يحدث شرخ خطير بالعمارة التي يقطنانها ، ويصير من المحتم أن يخليها سكانها . فلا يكون أمام الزوج إلا نقل الضرورى من أثاثه إلى بيت والده ، بينما تنزح الزوجة إلى البلدة التي تقطنها أسرتهما وتصحب معها أولادها . ومن الطبيعي أن هذا الحال من الانفصال بين الزوجين وبين الأولاد وأبيهم يستمر مدة طويلة . فلا بد أن يستمر الزوج في عمله وأن يرتب أحواله حتى يتمكن له أن يلم شعثه في أقصر وقت ممكن . والشئ نفسه يقال إذا ما شب حريق بالشقة التي تقطنها إحدى الأسر مما يؤدي إلى ضرورة اللجوء إلى الأقارب إلى أن يعاد ترميمها وشرء منقولات جديدة والبدء بتأثيث البيت من الصفر وهو ما يتطلب وقتًا طويلًا ونفقات قد لا تكون

جديدًا هو منحي التخطيط وترسُم أفعال وتصرفات فعلية خارج نطاق التصورات الذهنية . فلماذا لا يعتدى بالفعل على الزوجة بالضرب أو حتى بالتجريح وإن اقتضى الأمر فبالقتل والتخلص من نزاعاتها إلى الأبد ؟ والشئ نفسه يمكن أن يجول بخاطر الزوجة . ولكن لماذا هذا وهناك الطريق الذى لا يفضى إلى المحاكم والمسئوليات الجنائية ؟ أليس الانتحار والتخلص من الحياة أسهل وأسرع ؟ فلماذا الإبطاء إذن ؟ هكذا يترسم الزوج أو تترسم الزوجة طريق الانتحار ويبدأ الواحد منهما فى وضع الخطة التى يراها أنسب من غيرها لتنفيذ ما اعتزم عليه بالتخلص من الحياة المفضية التى يعيشها . وسواء خطط الزوج أو خططت الزوجة لإيذاء شريك الحياة أو للانتحار ولم ينفذا بالفعل ما خططاهم نفاذ بالفعل ، فإن التخطيط الإذائى أو الانتحارى أيًا كان هو انحراف عن السوية النفسية ، أو هو الجنون بعينه .

انفصال الزوجين لفترات طويلة :

يقبل أن نتناول تأثير انفصال الزوجين لمدة طويلة فى سوية شخصية كل منهما ، فإن علينا أن نقدم أهم الحالات التى يحدث فيها الانفصال الطويل بعضهما عن بعض على النحو التالى :

أولًا - النزاعات الأسرية : فالكثير من النزاعات والمشاجرات التى تحدث بين الزوجين يؤدي إلى تصميم واحد منهما على مغادرة البيت والرجوع إلى بيت أسرته . وفى هذه الحالة لا يكون الغضب مصحوبًا بالطلاق فى العادة ، بل يكون الانفصال إما لتهديد أمن الطرف الآخر ، وإما لإعطائه فرصة لمراجعة نفسه ولكى يهدئ من روعه ويحس بالشوق والحنين من جديد إلى شريك حياته . ولقد يقوم الزوج فى بعض الحالات التى يحس فيها أن حياته الزوجية مرهقة لأعصابه وأنه لم يعد يحتمل النزاعات المستمرة بالترتيب

متوافرة ، كما يتطلب مد يد العون إلى تلك الأسرة المنكوبة من جانب الأقرباء والأصدقاء . وفي تلك الحالات وأمثالها فإن الانفصال بين الزوجين يستمر مدة طويلة .

رابعاً - إصابة الزوج أو الزوجة بمرض خطير كالإيدز أو بمرض عقلي : وفي هاتين الحالتين يتحتم انفصال الزوجين بعضهما عن بعض . فإصابة أحد الزوجين بمرض الإيدز معناه ضرورة انفصالهما بعضهما عن بعض تماماً ، وذلك لأن هذا المرض مُعد وقاتل لمن يصاب به . وكذا فإن الإصابة بالمرض العقلي يحتم الانفصال بين الزوجين . فلقد يكون المريض عقلياً خطراً على من يعاشره أو يجالسه . فلا بد إذن من الانفصال حتى يتم شفاؤه عقلياً من مرضه العقلي إذا كان ثمة أمل في الشفاء .

خامساً - ارتباط الزوج بزيجة جديدة : فلقد يلعب الغرام بقلب الزوج فيقع في غرام فتاة جميلة أو امرأة مطلقة فيعقد عليها قرانه سراً . ولكن ما يكون سراً اليوم يصير علناً في الغد القريب أو البعيد . ومن الطبيعي أن الزوجة التي تكشف خيانة زوجها لها بعقد قرانه على امرأة أخرى لا تظل تكن لزوجها نفس مشاعر الحب التي كانت تحملها له قبلاً . فهي تزهد فيه ، بل وتحس بالكراهية تجاهه وتتفصل عنه مدة طويلة إلى أن تهضم الوضع الجديد على مضض وباسْتِيَاء شديد . ولكن في كثير من الحالات المشابهة فإن الانفصال بين الزوجين يستمر عدة سنوات وهما في خصام وعداء سافر قد ينتهي إلى الطلاق أو قد يلتقيان من جديد بعد أن يطلق الزوج زوجته الثانية ويبيدها عن حياته تماماً .

وبعد استعراضنا لهذه الحالات الخمس التي يحدث فيها انفصال الزوجين بعضهما عن بعض لفترات طويلة ، فإننا نأخذ في مدارسة الآثار النفسية التي تترتب على ذلك الانفصال الطويل وما يتبعه من تدهور السوية النفسية على النحو التالي :

أولاً - الإحساس بالفراغ العاطفي : فالواقع أن الإنسان في حاجة إلى أن يحب (بكسر الحاء) وإلى أن يحب (بفتح الحاء) . وهذان الشرطان يتوافران في الزواج الناجح . ولكي يستمر هذان الشرطان في الوجود بين الزوجين ، فلا بد من تواصل ارتباطهما بعضهما ببعض في المكان والزمان . أما إذا حدث انفصال طويل بينهما لسبب أو آخر من الأسباب التي ذكرناها ، فإن الجوع العاطفي ينشب أظافره في قلب كل منهما أو في قلب الطرف المهجور على الأقل . وهذا الإحساس بالفراغ العاطفي هو في الواقع ترجمة للحرمان من الحب الذي كان يصدر إليه من الطرف الذي يحبه . ويتربط على هذا الإحساس بالفراغ العاطفي الكثير من التوترات النفسية ومن الضياع النفسي .

ثانياً - التذبذب بين الإخلاص وبين الخيانة : ومن النتائج التي يمكن أن تترتب على الإحساس بالفراغ العاطفي نتيجة انفصال الزوجين بعضهما عن بعض لمدة طويلة تردد المشاعر المتضاربة على قلب أحدهما أو على قلبيهما جميعاً . فهل يعد القلب الجائع إلى الحب إلى إشباع جُوعه ، فيقيم علاقات حب مع من يتوود إليه ، أم يظل في حالة إخلاص دائم ويتحمل ذلك الجوع العاطفي الذي يقلقه ويؤرقه ؟ وهل إذا انتحى إلى جانب الإخلاص يضمن أن الطرف الآخر ينتحى نفس المنحى أم أنه ينتحى إلى إشباع جوعه العاطفي من أي منبع يمهده بما يشتهي من حب ؟ إن الزوجين المنفصلين بعضهما عن بعض لمدة طويلة يتعرضان لهذا التذبذب بين الإخلاص وما يتعلق به من فضيلة ، وبين الخيانة الزوجية وما يرتبط بها من ندم وفقدان للثقة بالنفس وبالحيات الزوجية ذاتها . وسواء انتحى الواحد من الزوجين إلى جانب الإخلاص أم انتحى إلى جانب الخيانة ، فإنه في الحالتين يكون معرضاً لفقدان السوية النفسية .

ثالثاً - التكيف الجنسي البديل : هناك نوعان أساسيان من التكيف : تكيف أخلاقي اجتماعي ، وتكيف نفسي داخلي . النوع الأول من التكيف يتعلق بما يعلن على الناس من ألوان سلوكية بادية للعيان . أما النوع الثاني من التكيف فهو يتم بين المرء ونفسه . والنوع الأول من التكيف يستهدف الحفاظ على سمعة المرء ووضعه بالمجتمع الذي يحيا في رحابه . أما النوع الثاني من التكيف فإنه يستهدف صحة المرء النفسية وانسجامه مع نفسه ورضاه عن ذاته . وفي حالة انفصال الزوجين لفترات طويلة ، فإن كلاً من الزوجين إما أن ينحاز إلى النوع الأول من التكيف ، وإما أن ينحاز إلى النوع الثاني . وفي معظم الحالات ينتحى الزوجان إلى الانحياز إلى النوع الثاني من التكيف . وبالنسبة للمسألة الجنسية وهي من الحاجات الأساسية في مرحلتى الشباب والكهولة ، فإن التكيف النفسي إما أن يكون عن طريق الاستمناء ، وإما أن يكون بإقامة علاقات جنسية سرية مع شخص أو أكثر من نفس الجنس أو من الجنس المقابل ، أعنى ممارسة الجنسية المثلية أو الجنسية الغيرية . ولكن هل هذا النهج الأخير يكفل التكيف النفسي ؟ بالطبع لا لأن المرء يكون معرضاً عندئذ للفصائح التي تهدم تكيفه الاجتماعي وتقضى عليه . فالأغلب والأشيع هو الانتحاء إلى الاستمناء الذي يتم بين المرء ونفسه دون تدخل طرف آخر في نشاطه الجنسي .

الفصل الحادى عشر التطورات الحضارية وسوية الشخصية

التطورات التكنولوجية :

على الرغم من أن لفظ « التطورات التكنولوجية » يبدو من الوضوح بحيث قد يظن أنه ليس بحاجة إلى أن يلقي عليه الضوء لتبين جوانبه ومعانيه ، فإننا نعتقد أنه بحاجة إلى تمنع الفكر فيه لاستنباطه أبعاده ومضامينه المتباينة . ولعلنا نستبين تلك الأثناء والمضامين على النحو التالى :

أولاً - التطورات التكنولوجية الزراعية : وهذا النوع من التطورات التكنولوجية هو فى اعتقادنا أقدمها . فلقد بزغت تلك التطورات مع فتوح الإنسان على الوجود من حوله . ولعلنا نزع أن أول فأس اخترعها الإنسان لكي يحفر بها الأرض أو ليقطع بها الحشائش والأشجار هي الخطوة الأولى التى خطتها الحضارة البشرية فى المجال الزراعى . وبهذه المناسبة فإننا ننبه إلى فهم خاطئ ران على الأذهان مؤداه أن مفهوم التكنولوجيا يعنى الوسائل الآلية المعقدة ولا يعنى الوسائل البسيطة أو الأدوات اليدوية . ولكن الواقع أن هذا اللفظ لا ينصب على نوع الأداة المستخدمة لأداء إحدى المهام ، بل ينصب على الوظيفة أو الوظائف التى تضطلع بها الأداة . فالنورج الذى يستخدم الثور لشده تكنولوجياً شأنه شأن النورج الآلى . والطملمبة اليدوية تكنولوجياً وشأنها شأن الطلمبة الآلية . والعربة الكارو تكنولوجياً شأنها شأن السيارة والطنائرة . وعلى هذا الأساس فإننا نقول إن التكنولوجيا الزراعية لم تبدأ مع

الداخل ، ومن المستويات الدنيا من الكائنات الحية إلى الإنسان . وكان هناك تداخل فيما بين المملكة الحيوانية والمملكة النباتية من جهة ، وبين المملكة الحيوانية والمملكة البشرية من جهة أخرى . فتمت نباتات وحيوانات متداخلة في تركيبها بحيث يحار العلماء في تصنيفها ، كما أن ثمة حيوانات وبخاصة بعض القرود العليا تتداخل مع المملكة البشرية في كثير من تشريح الجسم وفي كثير من الوظائف الحيوية المتباينة ، وهو ما دعا دارون وغيره من علماء التطور إلى تأكيد الصلة بين المملكتين . والمهم أن تكنولوجيا التشريح وإجراء التجارب واستحداث الأدوات والفنون التكنولوجية قد بدأ منذ القديم إلى أن بلغنا اليوم تكنولوجيا نقل الأعضاء ، بل وبلغنا عصر الهندسة الوراثية بما تتضمنه من تكنولوجيات فسيولوجية على جانب كبير من الدقة . ومن المتوقع أن تمتد تكنولوجيات هندسة الوراثة في المستقبل إلى آفاق مدهشة للغاية كما سبق أن قلنا في الفصل الثامن من هذا الكتاب (انظر أيضا كتاب « البشرية والمستقبل انغماض » للمؤلف) .

رابعا - التطورات التكنولوجية الطبية : وما سبق أن نكرناه بإزاء التكنولوجيا الزراعية والتكنولوجيا الصناعية ينسحب بدوره بإزاء تكنولوجيا الطب . فأول مشروط استخدمه الإنسان في فتح دمل يعتبر تكنولوجيا طبية . ومن هذا المنطلق بدأت التكنولوجيات الطبية المتعلقة بالأدوات الطبية التي تستخدم في الجراحة . وقل الشيء نفسه بإزاء صناعة الدواء . فالمحاولات الأولى التي بدأها الإنسان في غابر الزمان لخلط بعض الأعشاب بعضها ببعض لصناعة عقار ما ، كان نقطة الإنطلاق في تكنولوجيا صناعة العقاقير الطبية ، ثم تطورت تكنولوجيا صناعة الدواء من البسيط إلى المعقد ، ومن الأقل فاعلية إلى الأكثر فاعلية ، ومن البطيء في إنتاجه إلى السريع في إنتاجه ، بل وإلى ما يتم إنتاجه بالجملة

عصر البخار ، بل بدأت ببداية استخدام العضلات في تحريك الأشياء أو التأثير فيها . فالمهم هو وجود طاقة تستخدم في الأداء . والطاقة العضلية لا تختلف عن الطاقة الآلية إلا من حيث الإمكانات المتاحة لكل منهما . فالطاقة العضلية التي تقوم بتشغيل الفأس في الحفر واقتلاع الأشجار هي أول طاقة تكنولوجية قام الإنسان باستثمارها واستغلالها في المجال الزراعي . ومن هذا المنطلق تطورت التكنولوجيا الزراعية حتى بلغت المستوى التكنولوجي الزراعي الحالي .

ثانيا - التطورات التكنولوجية الصناعية : ونقصد بالتكنولوجيا الصناعية الأنشطة اليدوية والآلية التي توجه نحو التأثير في الأشياء الطبيعية أو في الأشياء المصنعة لتحقيق أهداف معينة . فالقيام بتحويل اللبن إلى جبن يعتبر صناعة ، والوسائل أو الفنون المستخدمة لهذا الغرض تعتبر تكنولوجيا . وما يقال عن الوسائل اليدوية من أنها تكنولوجيا لا يختلف عما يقال عن الوسائل الآلية التي تستخدم في هذا الغرض إلا من حيث مدى الكفاءة والسرعة في الأداء . وتكنولوجيا الصناعة تتضمن التأثير في الخامات أو في المنتجات لإنتاج منتجات أكثر تعقداً وتخدم أغراضاً معينة ، كما تتضمن استخدام الآلات لإنتاج آلات أخرى . فتمت آلات تستخدم في صناعة الموتورات والمكانس والرافعات ونحوها . والتطورات التكنولوجية الصناعية بدأت بالأدوات اليدوية واستمرت في تقدمها وتعقدها حتى بلغت عصر الذرة وأتعة الليزر وما يستخدمان فيه من نتاجات صناعية متباينة .

ثالثاً - التطورات التكنولوجية الفسيولوجية : لقد بدأ الإنسان منذ القدم استكشاف ما لدى النبات والحيوان والإنسان من أجهزة متباينة . ومن الطبيعي أن يبدأ بالأجهزة الخارجية ثم يدلف إلى

وبكميات كبيرة في وقت قصير وبدقة تامة . وكذا فإن ما كان يتم إنتاجه نتيجة الخبرة المباشرة أو نتيجة اتباع منهج المحاولة والخطأ ، صار يتم إنتاجه على أسس علمية وعلى أساس من التراث العلمي الممتد عبر العصور المتعاقبة السابقة وعلى أساس ما ثبتت صحته وصار مقنناً بقوانين محددة وأكددة .

خامساً - التطورات التكنولوجية في مجال الاتصال
والمواصلات : وهذا النوع من التكنولوجيا بدأ أيضاً مع بداية الحضارة البشرية . فكانت الرسائل ترسل بواسطة الفرسان الذين يمتطون سهوة الجياد ويقطعون المسافات لإيصال الرسائل ، ثم قام الإنسان بإرسال الخطابات بواسطة الحمام الزاجل ، ثم اخترع التليفون والمورس ثم التلبرنتر ، ودخل اللاسلكي في هذا المجال ، وظهر الراديو والتلفزيون والفيديو والفاكس ميل بحيث صارت الرسالة تصل كما كتبت من المرسل منه إلى المرسل إليه في ثوان معدودات عبر الفاكس بعد أن هزمت المسافات هزيمة تامة . وبالنسبة لوسائل النقل فإنها بدأت بالوسائل البدائية إلى أن بلغنا اليوم عصر النفاثات ومركبات الفضاء ، ولم تعد أي بقعة على الأرض بعيدة كما صارت وسائل الانتقال مريحة للغاية وأمونة إلى حد بعيد .

وبعد أن استعرضنا هذه الأنواع الخمسة من التطورات التكنولوجية ، فإن علينا أن نتأمل الآثار التي تركتها في سوية الشخصية الإنسانية ، فنجد أن من الممكن تحديد هذه الآثار على النحو التالي :

أولاً - بالنسبة لجسم الإنسان : فالإصابة بالتلوث البيئي الذي سببته الكثير من التكنولوجيات التي ذكرناها وهو ما سوف نفرده له موضوعاً في هذا الفصل ، فإن التكنولوجيا بما اشتملت عليه من

تطورات متباينة قد تركت آثاراً غير مواتية في صحة الإنسان وفي بنية جسمه . فمما لا شك فيه أن التطورات التكنولوجية قد أحلت الأدوات والآلات محل العضلات ، أو قل إن العقل البشري قد صار هو سيد الموقف ، ولم تعد ثمة حاجة إلى تشغيل العضلات إلا في القليل جداً من الأعمال . وحتى ما تبقى من الأعمال لتشغيل العضلات به سوف يتولاه الروبوتس التي تم اختراعها بالفعل . ولقد سمعنا منذ وقت قريب أن ثمة روبوتس مفتولة العضلات سوف تنهض بالأعمال التي تحتاج إلى نقل الأثقال أو إلى دفع الأشياء الثقيلة أو حملها . أضف إلى هذا أن التكنولوجيا الزراعية قد عمدت إلى مساندة كم المحاصيل الزراعية على حساب كفيها . فالكثير من الأسمدة التي تقوم تكنولوجيا الزراعة بإنتاجها وإقحامها في المجال الزراعي قد ساعدت على عطب الأجهزة الهضمية عند كثير من الناس . ناهيك عن تكنولوجيا إعداد الأطعمة المتباينة التي تسيل اللعاب ولكنها ضارة بالجسم البشري وقد تكون هي المسؤولة عن الإصابة بالكثير من الأمراض السرطانية وقرحة المعدة وغيرها من أمراض . وأضف أيضاً إلى ما قلناه أن التكنولوجيا الصناعية قد حملت للإنسان الكثير من المخاطر وتسبب الكثير من الحوادث كالكهرباء التي تصعق ، والسيارات التي تقتل ، ناهيك عن وسائل الدمار التي تستخدم في الحروب فتحصد الجيوش والسكان على السواء بالآلاف أو حتى بالملايين إذا ما استخدمت القنابل النووية وأشعة الليزر في الحروب .

ثانياً - بالنسبة للسوية النفسية : من المؤكد أن ثمة علاقة تبادلية من حيث التأثير والتأثر فيما بين جسم المرء وصحته النفسية . فكما أن الجسم يؤثر ويتأثر بالحالة النفسية ، كذا فإن الحالة النفسية تؤثر وتتأثر بالحالة الجسمية . وعلى هذا فإننا نستطيع أن

تقرر أن الإنسان الحديث قد تضعفت صحته النفسية مع ما تأثر به جسمه من تأثر سبباً بالتكنولوجيات المتباينة التي عرضنا لجانب منها في البنود الخمسة السابقة . أضف إلى هذا أن التطورات المتلاحقة والسريعة للمستجدات التكنولوجية تجعل الإنسان الحديث يحس بأن التقدم التكنولوجي أسرع من قدرته على اللحاق به . اخذ مثلاً بسيطاً لهذا بالكُتَّاب والمؤلفين . فمئذ سنوات قليلة كان الكاتب أو المؤلف لا يستخدم سوى القلم والورقة في عملية التأليف . ولكن سرعان ما انتشرت الآلات الكاتبة ، فصار الناشر يرفضون نشر الأعمال المكتوبة بالقلم ويشترطون كتابتها بالآلة الكاتبة . فهذا كلف الكثير من الكتاب تعلم الكتابة على الآلة الكاتبة . ولكن ما فتئ أن ظهر الكمبيوتر وتطور بسرعة ، وانتهى حتى كتابة هذا الكلام إلى ما يسمى بالمكتنوش ، وهو كمبيوتر يمكن أن يولج به دسك في حجم أقل من حجم كف اليد مسجل عليه كتاب كبير به أكثر من ربعمائة صفحة بالحجم الكبير . فيكون على المؤلف أن يؤلف كتابه على الكمبيوتر ويسجله على الدسك ويقدمه للناشر . ومن الطبيعي أن الكثير من الكتاب لا يتسنى لهم تعلم الكمبيوتر ، كما أن بعض الناشرين لا يتسنى لهم شراء المكتنوش لارتفاع سعره . ويتبع هذا بالطبع تعرض الكثير من المؤلفين للتوترات النفسية لعدم قدرتهم على ملاحقة التطورات التكنولوجية في عملية التأليف والنشر . وهذا مثال من بين العديد من الأمثلة التي يمكن إيرادها من مجالات متباينة كالطب والهندسة وغيرهما ، وهي جميعاً تحمل في طياتها من التطورات التكنولوجية السريعة ما يرهق أعضاء المشتغلين بها .

ثالثاً - بالنسبة للسوية الاجتماعية : إن التطورات التكنولوجية المتعاقبة والسريعة قد حملت معها فقداناً للتوازنات الاجتماعية . فمثلاً عملت تكنولوجيات الطب على الحفاظ على

الكثير من المواليد والإبقاء على حياتهم . وهذا بالطبع من حسنات تكنولوجيا الطب لأنها نجحت في تحصين الأطفال ضد كثير من الأمراض الفتاكة ، ولكن ماذا نتج عن هذا النجاح العظيم الذي حققته تكنولوجيا الطب ؟ التفجر السكاني على المستوى العالمي ، فضاقت الأرض بمن عليها ، ولم تعد الرقعة الزراعية على مستوى العالم تكفي لإشباع الأفواه الجائعة ، وبالفعل انتشرت المجاعات في إفريقيا وفي غيرها . وكلما تقدمت السنون إزدادت المجاعات . أضف إلى هذا أن التكنولوجيا قد استغنت عن الكثير جداً من الأيدي العاملة ، فصار معظم الشباب بلا عمل ، وبالتالي فقد انتشر الإرهاب وتعاطى المخدرات والرقيق الأبيض وضياح كثير من القيم وصار نظام الأسرة مهينداً . ذلك أن البطالة التي تنتشر أكثر فأكثر على مستوى العالم وحلول الروبوتس محل الشباب في ممارسة غالبية الأعمال في الوقت القريب ، سوف لا يسمح بإنشاء أسر جديدة ، وبذا سوف تحل الإحاحية والشيعوية الجنسية محل نظام الأسرة ، وبالتالي فإن السوية الاجتماعية سوف تصاب في الصميم ، بل نقول إن السوية الاجتماعية في المجتمع الحديث لم تعد متوافرة بأى حال من الأحوال .

الانتقال إلى بيئة حضارية مغايرة :

هناك مجموعة من العوامل التي تؤدي إلى تغيير البيئة الحضارية التي نشأ بها المرء لعنا تقدمها على النحو التالي :

أولاً - الجرى وراء لقمعة العيش : فمعظم المصريين الذين عملوا بالدول العربية نعدة سنوات ، كانوا يستهدفون البحث عن مصادر رزق أكثر وفرة ، فكان القصد من العمل بتلك الدول تكوين ثروة يعود بعدها العامل أو الموظف إلى موطنه الأصلي وهو يحمل معه ثروة تؤهله للعيش في وفرة ورغد وجاه . ولقد يعمد

خامساً - القحط والمجاعات والأوبئة والفيضانات والزلازل والبراكين : وهذا النوع من تغيير البيئة الحضارية يحدث في الحالات التي تصاب فيها البيئة الطبيعية بتبعية طبيعية كجفاف الأنهار أو تصحر الأرض الزراعية أو زحف البحر عليها وتغطيتها ، أو بسبب الأوبئة وهرب الناس الأصحاء إلى بلد آخر خوفاً من الوباء ، أو هجوم الجراد على الحقول مما يترتب عليه القحط والمجاعات . ناهيك عما قد يحدث من فيضانات أو زلازل أو براكين تدفع بالناس إلى الهرب إلى أوطان قريبة أو بعيدة تاركين بيئتهم الحضارية التي نشأوا فيها واعتادوا عليها .

وبعد أن استعرضنا هذه العوامل الخمسة التي نعتقد أنها تشكل أهم عوامل تغيير البيئة الحضارية ، فإننا نأخذ في إلقاء الضوء على الآثار النفسية والاجتماعية التي تترتب على ذلك والتي تؤثر بدورها في مدى سوية الشخصية على النحو التالي :

أولاً - الإحساس بالاغتراب : فالشخص الذي ينتقل من البيئة الحضارية التي نشأ فيها واعتاد عليها إلى بيئة حضارية غريبة عليه ، لا يكون قادراً بالطبع على التوافق مع ما يشيع في البيئة الحضارية الجديدة من مستويات معيشية ومن تقاليد وعادات وقيم . ومن ثم فإنه يحس بأنه تائه في خضم تلك البيئة الجديدة التي لم يألها . فهو لا بد أن يبدأ من الصفر في اكتساب ما يشيع في تلك البيئة الجديدة من أنماط سلوكية مبنية لما نشأ عليه وامتصه وتربى عليه في بيئته الحضارية الأصلية . وهذا الإحساس بالاغتراب قد يصيب المغترب بالضياح وبأنه مقطوع الصلة بتلك البيئة الجديدة التي قذف به إليها حتى وكأنه طفل رضيع فقد أمه التي تأخذه في حضنها .

المواطن إلى الهجرة إلى بلد أجنبي يتسم بطابع حضارى مبين إلى حد بعيد عن الطابع الحضارى لموطنه الأصلي وتكون هجرته نهائية ، فلا تكون لديه نية للعودة مرة أخرى إلى مسقط رأسه .

ثانياً - التعلم واكتساب خبرات جديدة : وقد يكون الانتقال إلى بيئة حضارية مغايرة للبيئة الحضارية التي نشأ المرء في رحابها يقصد استكمال الدراسة والحصول على درجة جامعية كالمجستير أو الدكتوراه في تخصص غير متوافر بالقطر الذي نشأ فيه . وقد يتأتى اكتساب الخبرات الجديدة عن طريق التبادل الثقافي . فيتم تبادل الدارسين بين بلدين ، كأن ترسل مصر عدداً من الدارسين إلى إحدى الجامعات الأمريكية ، بينما ترسل تلك الجامعة عدداً من دارسيتها لتلقي دراسات معينة في مجال معين غير متوافر بها .

ثالثاً - البعثات الدبلوماسية : فتمتع بعثات دبلوماسية تتبادلها الدول المتباينة ، ومن الطبيعي أن يصطحب المبعوثون الدبلوماسيون زوجاتهم وأبناءهم إلى تلك البلاد الأجنبية التي يبعثون إليها ، فالبعثات الدبلوماسية التي ترسلها مصر إلى الصين أو اليابان تنتقل من البيئة المصرية إلى بيئة حضارية مغايرة تماماً هي بيئة الصينية أو البيئة اليابانية .

رابعاً - النفي أو الإبعاد أو الأسر في الحروب : وفي بعض الحالات فإن تغيير البيئة الحضارية لا يكون صادراً عن رغبة شخصية أو عن الإحساس بحاجة إلى تغيير البيئة الحضارية ، بل يكون ذلك التغيير نتيجة ضغوط خارجية كان تصدر الجهات السياسية أمراً بالنفي أو الإبعاد ، أو كأن يتم أسر الجنود أو الضباط في الحرب ونقلهم إلى بيئة حضارية مغايرة تماماً للبيئة القومية الحضارية التي نشأوا فيها واعتادوا عليها . وكذا فإن الحروب شاهدة على عمليات سبي النساء والاستيلاء على الأطفال وبيعهم في أسواق الرقيق .



ثانيًا - الصراع بين الحب والكراهية : وثمة نوع آخر من الصراع النفسي الذي يتعرض له الشخص المغترب الذي انتقل من بيئة حضارية معينة إلى بيئة حضارية أخرى ، هو الصراع بين الحب والكراهية ، أو بالأحرى بين بيتين تريد كل منهما أن تستأثر بحب أكثر مما تحظى به البيئة الأخرى . فالبيئة الجديدة بما تضمه من ناس وأشياء وعلاقات وأوضاع وحضارة تتنافس مع البيئة التي تركها المرء خلف ظهره بما يشتمل عليه من ناس وأشياء وعلاقات وأوضاع وحضارة . فهل يتعلق بالبيئة الجديدة أكثر من تعلقه بالبيئة القديمة ، أم أنه يتعلق بالبيئة القديمة ويظل منتمياً إليها . فإذا نحن قمنا بتفسير الانتماء باعتباره التعلق بمجتمع وبيئة ما ، فإننا نستطيع أن نقول إن تغيير البيئة الحضارية التي نشأ فيها المرء وامتصها منذ طفولته الباكرة يعمل على نشوء ما يمكن أن نسميه بصراع الانتماءات . ولسنا نغالي إذا ما قلنا إن الانقصاص من انتماء ما إلى بيئة أو مجتمع هو تسرب الكراهية إلى القلب تجاه تلك البيئة . وعلى العكس من هذا فإن زيادة الانتماء إلى بيئة أو مجتمع ما هو الزيادة في حب ذلك المجتمع وتلك البيئة (انظر كتاب : الانتماء وتكامل الشخصية ، للمؤلف) .

ثالثًا - صراع القيم : على أن المسألة لا تقف عند حدود الإحساس بالاعتزاز ، بل تتعدى هذا إلى اصطراع المقومات الأصلية والمقومات الغازية أو تلك المقومات التي تقحم دخيلة المرء وتريد أن تقهر المقومات التي امتصها من بيئته الحضارية الأصلية . والواقع أن الصراع بين القيم الجديدة التي تقحم دخيلة المرء وبين القيم القديمة المتأصلة في قوامه يشكل توترًا شديدًا يضغط على الجهاز النفسي للمرء مما يترتب عليه تصدع سويته وذلك بسبب الحيرة الشديدة التي تنتابه والتذبذب فيما بين القيم

القديمة والقيم الجديدة . فهو عندما يبدأ في الأخذ بالقيم الجديدة التي يكتسبها من المجتمع الجديد ، فإنه يحس بأنه قد خان انتماءه إلى مجتمعه الذي نشأ فيه . أما إذا هو ظل مستمسكًا بالقيم القديمة التي نشأ عليها وامتصها من مجتمعه القديم وظل نابذًا للقيم الجديدة التي تريد أن تستولي على مقاليدته النفسية ، فإنه يحس بالرجعية وبعدم التوافق مع ذلك المجتمع الجديد ، وبالتالي فإنه يحس بأنه شخصية جامدة لا تقبل التطور واكتساب الجديد الذي يتصل به اتصالاً مباشرًا . وهذا الصراع بين القديم والجديد من القيم في دخيلة الشخص المغترب يعمل بلا شك على زلزلة سويته النفسية والاجتماعية على السواء .

رابعًا - الصراع بين الخير والشر ، وبين المناسب وغير المناسب ، وبين الجميل والقبيح : وعلى النحو نفسه فإن ثمة صراعاً نفسياً ينشأ بين الخير والشر في قلب المغترب عن البيئة الحضارية التي نشأ فيها وترعرع وامتصها منذ نعومة أظفاره . فما كان شرًا في البيئة القديمة قد يعتبر خيرًا في البيئة الجديدة . وعلى العكس من هذا فإن ما يعتبر خيرًا في البيئة القديمة قد يعتبر شرًا في البيئة الجديدة . أضف إلى هذا الصراع النفسي بين الخير والشر ، صراعاً آخر فيما بين المناسب وغير المناسب . فما يعتبر مناسباً للأخذ به واتباعه والسلوك بمقتضاه في العلاقات الاجتماعية في البيئة القديمة ، قد يعتبر غير مناسب في البيئة الجديدة . وعلى العكس من هذا فإن ما يعتبر غير مناسب وخارج نطاق الذوق والكراسة في المجتمع القديم قد يعتبر مناسباً ومتمشياً مع الذوق والكراسة في المجتمع الجديد . وأضف أيضاً إلى الصراع بين الخير والشر وإلى المناسب وغير المناسب ، صراعاً آخر هو الصراع بين الجميل والقبيح . فما يعد جميلاً في المجتمع القديم قد يعتبر

قريباً في المجتمع الجديد ، وما يعتبر قريباً في المجتمع القديم قد يعتبر جميلاً في المجتمع القديم . فهل يعد المرء المغترب إلى الاستمساك بالتقييمات التي نشأ عليها في المجتمع القديم أم يقوم بنبذها وإحلال التقييمات الجديدة التي اكتسبها من المجتمع الجديد محلها ؟ إن الحيرة التي يعاني منها المرء شعورياً ولا شعورياً تعمل بلا شك على إخراجها من نطاق السوية النفسية وتدفع به إلى الانحراف عن الصحة النفسية .

خامساً - العجز عن ملاحظة التطورات الحضارية بالمجتمع الجديد : فالشخص الذي ينتقل إلى بيئة حضارية جديدة يكون عليه أن يبدأ من الصفر في امتصاص واستيعاب الحضارة المغايرة لحضارة مجتمعه الذي أتى منه . بيد أن ذلك المجتمع الجديد ليس مجتمعاً استاتيكياً ، وإنما هو مجتمع ديناميكي يتحرك إلى الأمام بسرعة تضاعفية . ذلك أن التغيرات الحضارية لا تسير وفق متتالية حسابية ، بل تسير وفق متتالية هندسية . ومعنى هذا أن التغيرات التي تحدث اليوم سوف تتضاعف غذاً ، فيكون على المرء أن يلحق بالمجتمع الجديد فيما وصل إليه من تطورات حضارية بدءاً من الصفر من جهة ، وأن يكون عليه أن يمتص ويمتدع التطورات الحضارية الجديدة التي تتضاعف يوماً بعد يوم من جهة أخرى . ولكن هل من السهل على مثل ذلك الشخص أن يمتص حضارة ذلك المجتمع بدءاً من الصفر ، وأن يساير التطورات المستجدة والمستمرة في بزوغها إلى حيز الواقع بطريقة تضاعفية كما نكرنا ؟ من المؤكد أن هذا من الصعوبة بمكان . ومن ثم فإن المرء اننازح إلى مجتمع جديد بحضارة مغايرة للحضارة التي تُشربها من مجتمعه السابق يحس بالتخلف عن المستوى الحضاري الذي بلغه ذلك المجتمع الجديد والذي ليس له سابق عهد به . فهو

ذلك مما يوجبنا نبعثه ، فليستنا بأسفلك من هياكنا نلتص له ريد
يحس إذن بالقرامة الحضارية بالمقارنة بمن حوله من أشخاص
نشأوا وشبوا وتطوروا في اتساق وتساوق مع مجتمعهم الذي
تشربوا حضارته منذ نعومة أظفارهم . فليستنا مما يجدنا لكتنا
ولكن هل معنى هذا أن جميع الذين ينتقلون إلى بيئة حضارية
مغايرة للبيئة الحضارية التي نشأوا فيها وامتصوا حضارتها يعانون
من هذه المشكلات الخمس التي نكرناها هنا ؟ الواقع أن هذا
غير صحيح . ففئة من الأشخاص الذين قاموا بتغيير بيئتهم
الحضارية واستبدلوا بها بيئة حضارية جديدة قد نجحوا في التوافق
معها والتكيف مع ما تذهب إليه وما تأخذ به أبناءها وذلك باتباعهم
الخطوات التالية .

أولاً - إعداد الذات قبل الرحيل : فالشخص الذي يعتزم الانتقال
إلى مجتمع ذي حضارة مغايرة للحضارة التي تشيع في مجتمعه قد
يعتمد إلى إعداد نفسه مسبقاً قبل أن يشرع في الرحيل بالفعل . خذ
مثالاً لذلك الشاب الذي اعتزم الهجرة إلى أستراليا فعكف على
دراسة اللغة الإنجليزية باللهجة الأسترالية ومتابعة الحياة هناك عن
طريق الأفلام السينمائية التي تستعرض الأوضاع هناك والعلاقات
التي تقوم بين الناس في مختلف الطبقات الاجتماعية بالمدن
الأسترالية وقراها . فهو عندما هاجر بالفعل إلى هناك ، فإنه صار
خليقاً بالإحساس بأنه ليس غريباً عن ذلك المجتمع الأسترالي ، بل
كان انتقاله من مجتمعه إلى ذلك المجتمع بمثابة استمرار لما سبق
أن تشربه واعتاد عليه قبل الرحيل الفعلي إلى هناك .

ثانياً - الوقوف على احتياجات ذلك المجتمع قبل الرحيل :
فالأشخاص الذين استطاعوا أن يتكيفوا للمجتمعات التي انتقلوا إليها
وهم يعرفون أنها مبانيتة في حضارتها للمجتمع الذي نرحوا منه ،
يكونون بالفعل قد استطاعوا أن يدرسوا تلك المجتمعات ، وأن يقفوا

على ما تحتاج إليه من وظائف أو أنشطة ، فيعدون أنفسهم لسد تلك المطالب الناقصة هناك ، وذلك بالمعرفة واكتساب المهارات الحركية اللازمة . وبذا فإنهم يجدون ذلك المجتمع الغريب عنهم فاتحاً ذراعيه لهم ويستقبلهم بتلief لأنه يكتشف احتياجه إليهم وأنهم سوف يكونون أعضاء إيجابيين فيه ، فلا يكونون عالة عليه ، بل أعضاء حية فعالة ومنتجة .

ثالثاً - التذرع بالنظرة المستقبلية إلى جانب النظرة التاريخية والنظرة الآتية : فالمجتمع شأنه شأن الفرد من الناس له ماضٍ وحاضر ومستقبل . ومن يريد أن يتكيف للمجتمع الجديد الذي يعتزم الرحيل إليه ، فإن عليه أن يتناول ذلك المجتمع من هذه الزوايا الثلاث ، فيكون على وعى بماضيه وما انتهى إليه في حاضره فيدرك ذلك الواقع بخيره وشره ، وبإيجابياته وسلبياته ، ثم عليه أن يتذرع بالنظرة المستقبلية إلى ذلك المجتمع فيقف على مطامحه وما يعتزم بلوغه وما قام بالتخطيط له . ذلك أن النظرة المستقبلية لم تعد من الكماليات ، بل صارت من الضروريات وذلك لأن المستقبل لم يعد يتمهل في حدوده ، بل يتسارع وفق التطورات التي تتحقق بسرعة مذهلة . فالشخص الناجح في تكيفه هو من يعد نفسه بهذه الأضلاع الثلاثة معرفياً ووجدانياً ومهاريًا ، فلا يصطدم بما يشاهده ويتعامل معه من بيئة حضارية جديدة مغايرة لبيئة مجتمعه وحضارته .

التليفزيون والتدفقات الإعلامية والترفيهية :

على الرغم من أن وسائل الإعلام عموماً والتليفزيون خصوصاً قد صارت ذات فوائد تنقيفية وإعلامية عظيمة لا تنكر ، فإن ثمة مجموعة من المثالب التي تأنت عن انتشار التليفزيون على نطاق واسع مما أثر ويؤثر في مدى سوية الناشئة والراشدين جميعاً . ولعلنا نقوم بتقديم أهم تلك المثالب على النحو التالي :

أولاً - الآثار الصحية : فمن المؤكد أن الجلوس لفترات طويلة أمام الشاشة الصغيرة يؤثر في النشاط الحيوي للجسم ويؤذى الدورة الدموية ويحمل القلب على الكسل . ناهيك عن أن المرء وهو منهمك في متابعة الأفلام أو الأخبار المثيرة ينفعل معها مما يتسبب عنه ارتفاع ضغط الدم . ولا يخفى أن الأشعة التي تنبعث من شاشة التليفزيون تؤثر تأثيراً ضاراً في العينين وفي الجسم عموماً . وسوف تكشف الدراسات أن ما ينبعث من أشعة سواء من التليفزيون أم من شاشة الكمبيوتر يعرض المشاهد للإصابة بالأمراض السرطانية وغيرها من أمراض .

ثانياً - الآثار النفسية : لقد كشفت الدراسات الحديثة عن أن بعض الأطفال المصابين بنوبات الصرع يكونون من مدمني مشاهدة التليفزيون . ومعنى هذا أن للأشعة المنبعثة من الجهاز التليفزيوني آثاراً نفسية عصبية رديئة . ناهيك عن أن السهر الطويل أمام الشاشة الصغيرة يستتبعه حرمان المشاهد من الانخراط في النوم بالقدر الكافي . فالحرمان من النوم يعرض المرء للانحرافات النفسية المتباينة . فالحرمان من النوم بالقدر اللازم له كل يوم يكون معرضاً للإصابة بالهلوسات والمخاوف المرضية والوساوس وغير ذلك من أمراض نفسية متباينة .

ثالثاً - الآثار الأخلاقية : فخلال السنوات القليلة القادمة سوف يصل البث التليفزيوني إلى المناطق المحلية بجميع أرجاء العالم . ومعنى هذا أن القيم الأخلاقية سوف تتعرض للتخفيف . ومن المعروف أن بعض محطات الإرسال التليفزيونية تقدم أفلام الجنس المكشوف وأفلام الجريمة والعنف . فإذا قام الشباب بمشاهدة تلك الأفلام والبرامج المعارضة لما نأخذ به ونعتقد فيه ونتمسك به ، فإن خطراً حقيقياً سوف تتعرض له قيمنا الأخلاقية ونتمسك بها .

أساليب السلوك الفاضلة وتعم التفضي الأخلاقية وتحل محل السلوك الأخلاقي المستقيم . وبالتالي فإن السوية النفسية تتحطم ليحل محلها الإنحراف .

رابعاً - الآثار الثقافية : من الممكن أن ننظر إلى الثقافة المعرفية من زاويتين : إحداهما زاوية أفقية ، والأخرى زاوية رأسية . والزاوية الأفقية هي الزاوية التي توفر للمتابع الخطوط العريضة دون التفاصيل والدقائق . أما الزاوية الرأسية فإنها تهتم بالتفاصيل والدقائق . ومن المؤكد أن التليفزيون يهتم بالزاوية الأفقية . فهو لا يقدم الدقائق المتعلقة بالموضوع الواحد ، إذ أن ذلك لا يدخل في اختصاصه وإلا فإنه سوف يكون فقيراً من حيث عدد الموضوعات التي يقوم بعرضها . والواقع أن المشرفين على البرامج التليفزيونية يهمهم تقديم أكبر قدر من الموضوعات والنوعيات خلال فترة الإرسال اليومية . وتعبير آخر فإن التليفزيون يهتم بأن يقدم من كل بستان زهرة ، وبالتالي فإنه يقدم الكثير من النوعيات ولكن بخطوطها العريضة . فالمتابع لجميع ما يبث بالتليفزيون لا يستطيع أن يركز ذهنه في دقائق كل موضوع ، بل يكتفي بلمحات خاطفة عن كل موضوع . ومعنى هذا أن التليفزيون الذي استولى على وقت المشاهدين واحتكر نشاطهم لمتابعته قد حكم عليهم بالسطحية المعرفية . ذلك أن التليفزيون قد استطاع بالفعل أن يهزم الكلمة المكتوبة ، وبخاصة ما تتضمنه الكتب الثقافية التي تهتم بالنظرة الرأسية إلى الموضوعات التي تتناولها بالمدارسة .

خامساً - الآثار السياسية : فبعد أن صار للتليفزيون الوضع الخطير في حياة إنسان العصر ، فإن وصول البرامج الإعلامية من مصادر متباينة ومن الدول الصديقة والدول العدو على السواء ،

سوف يحمل معه آثاراً ونتائج سياسية غاية في الخطورة . وسوف تكون تلك الآثار والنتائج أكثر وأفضل في القلوب من الآثار والنتائج التي تأتت وتتأتى عن الإذاعة ، وذلك لشدة جانبية الشاشة الصغيرة بما تحمله من صور مرئية كما لو أن المرء في مواقع الأحداث ذاتها . ومن الأخطار المتوقعة قيام بعض الجماعات المتطرفة بإنشاء محطات إرسال تليفزيونية وذلك بفضل التقدم التكنولوجي الذي سوف ييسر إنشاء تلك المحطات بسهولة ويسر وبغير ما حاجة إلى الأجهزة الحالية المعقدة والضخمة . فليسوف لا تحتاج محطة البث التليفزيوني في المستقبل لأكثر من حجرة صغيرة في إحدى الشقق . ناهيك عن أن التصوير التليفزيوني سوف يتطور بحيث لا يحتاج التقاط المشاهد والأحداث سوى أجهزة تصوير وتسجيل صوتي في حجم نصف كفي اليد . فالمناهضون للحكومات في نفس البلاد سوف يتمكنون من إرسال برامجهم الموجهة إلى المواطنين يثون فيها ما يشاءون من اتجاهات مناوئة لنظام الحكم القائم .

وعلياً أن نتأمل الانحرافات التي نتجت بالفعل عن المشاهدة المستمرة واليومية للبرامج التليفزيونية والتي تتبدى في سلوك الناشئة والراشدين على السواء . إننا نستطيع أن نحدد تلك الانحرافات على النحو التالي :

أولاً - الانتحاء إلى ارتكاب الجرائم : فالكثير من الأفلام التي تعرض على الشاشة الصغيرة تهتم أكثر ما تهتم بالإثارة وتصوير الوسائل الماكرة والفعالة والمنقذة لارتكاب الجرائم المتباينة . من ذلك مثلاً ما استخدم في بعض الأفلام من وسائل وتكتيكات للهجوم على البنوك وسرقتها . فالشباب الذين يشاهدون تلك الأفلام يودون لو كانوا هم للتصوص ، فيستغرقون في أحلام اليقظة ويتخيلون أنهم زعماء عصابات لسرقة البنوك . وبعد ذلك الاستغراق الذي يعتبر

بمقابلة بروفات وتدريبات عقلانية على الممارسة الفعلية ، فإنهم يخرجون بما كان يجوز بخاطرهم وبخامرهم إلى الواقع السلوكي الفعلي ، فيحلون العمل والممارسة الفعلية محل الصور الذهنية والتصورات العقلانية . وإذا قال قائل معترضاً بأن الكثير من الناس الذين يشاهدون تلك الأفلام لا يخطرطون في تلك الأحلام اليقظانة وفي تلك الممارسات الإجرامية الفعلية ، فنجيبهم بأن الناس ليسوا جميعاً مهينين لتقبل الإيحاءات أو تقليد ما يشاهدونه من ألوان سلوكية متباينة . فالبعض من الناشئة يكونون مجبولين على تقبل الإيحاءات والقيام بتقليد ما يشاهدونه أو يسمعونه بسرعة خلافاً لغيرهم . فهؤلاء عندما يشاهدون أفلام المغامرات وأفلام السرقة واقتراح الجرائم المتباينة ، فإنهم سرعان ما ينقلون تلك المشاهدات إلى أغوارهم النفسية ، ثم يعملون بعد ذلك إلى تطبيق ما شاهدوه أو أكثر وأدق منه إلى الواقع الخارجي وإلى ما يتخذونه من تصرفات وإقبال على اقتراح الجرائم .

ثانياً - التطرف الديني : ولقد يتأتى عن مشاهدة بعض الأفلام أو البرامج الدينية الانتحاء إلى ألوان سلوكية دينية متطرفة . من ذلك مثلاً إهمال الواجبات الدراسية بالنسبة للطلبة ، وإهمال الواجبات الوظيفية بالنسبة للموظفين ، وإهمال الواجبات الأسرية بالنسبة للأزواج والزوجات . ومن التطرف الديني أيضاً ما هو متعلق بكرامية فئات معينة من الشعب والعمل على إبانتهم ونهب أموالهم وإباحة الاعتداء على أعراضهم وأعراض نسائهم والتعريض بهم واحتقارهم والتحرش بهم ومضايقتهم ووضع الصعوبات أمام قضاء مصالحهم ، ونحرهم التعامل معهم والتعريض على نهبهم من المجتمع والحيلولة بينهم وبين مخالطتهم أو التعامل معهم أو التحدث إليهم أو الرد على تحييتهم إذا ما ألقوا

السلام عليهم أو على غيرهم . ومن مظاهر التطرف الديني أيضاً تكفير من يكون خارج نطاقهم حتى من يندرج في نطاق دينهم ولكنه لا يؤمن بما يؤمنون به من المحللات والمحرمات .

ثالثاً - التطرف السياسي : ولقد يتأتى عن مشاهدة بعض الأفلام والبرامج التليفزيونية التشعب بروح الكراهية لبعض الشعوب أو الجنسيات بحيث لا يتسنى مقاومة تلك الكراهية إذا ما اقتضت المصلحة القومية ذلك . فالواقع أن السياسة قُلب . فصديق اليوم يمكن أن يصير عدو الغد ، كما أن عدو اليوم يمكن أن يصير صديق الغد . فالعلاقات السياسية تختلف عن العلاقات الشخصية . فمن الممكن أن تتخذ أنت من أحد الأشخاص عدواً مؤبداً لك ولا تقيم معه أية علاقة صداقة أو علاقة مصلحة من أي نوع حتى نهاية العمر ، بل إنك من الممكن أن تورث كراهيتك لأولادك وأحفادك ، ولكن هذا ليس شأن العلاقات السياسية . فهذه العلاقات لا تقوم على العواطف بقدر قيامها على المصالح . فإذا اقتضت مصلحة البلاد مد يد الصلح والتعاون إلى أعداء البلاد ، فلا بد من مدها ، وذلك لأن مصلحة الوطن تعلو وتقهمر المشاعر الوجدانية التي قد تكون معتملة ومنغرسه في قلوب الأفراد . ولكن من الممكن أن تكون الكراهية التي شاعت وتعمقت واستوطنت في قلوب الناشئة قبالة شعب أو دولة سبباً في إعاقة التحولات السياسية تجاه ذلك الشعب أو هذه الدولة التي كان بيننا وبينها عداة أو تصادم حدث في الماضي . ولكن الأفلام والبرامج التي تعرض على الشاشة الصغيرة تؤكد الكراهية ، ومن ثم فإن الممسكين بدفة السياسة يجدون من الصعوبة بمكان إقامة علاقات صداقة سياسية مع أي شعب أو دولة نشأت بين دولتنا وإياهم صدامات سياسية وعسكرية فيما مضى من سنوات . فتلك الأفلام والبرامج تؤكد الخصومات

التاريخية ، وبالتالي فإنها تثبت في الناشئة ما يمكن اعتباره تطرفاً سياسياً ، لأن التطرف السياسي معناه الخروج عن المقننات والمصالح السياسية والتحولات التي تتطلبها العلاقات الدولية التي تعلو على مستوى العواطف والانفعالات التي تبثها الأفلام والبرامج التليفزيونية في قلوب كثير من الناشئة الذين ينظرون إلى التحولات السياسية بنظرة كلها ريب وشكوك في نيات الزعماء السياسيين الواقعيين الذين يقيمون الإعتبار كل الإعتبار للظروف والتحولات السياسية الدولية ويضربون عُرْض الحائط بالانفعالات والعواطف الشخصية وما ترسب في النفوس من الكراهية والمقت لشعوب يعينها في ضوء مواقف سياسية قديمة .

التلوث البيئي وسوية الشخصية :

نستطيع أن ننظر إلى التلوث البيئي من عدة زوايا على النحو التالي :

- أولاً - تلوث بيئي شيئي وتلوث بيئي بشري .
- ثانياً - تلوث بيئي إيجابي وتلوث بيئي سلبي .
- ثالثاً - تلوث بيئي طبيعي وتلوث بيئي حضاري .
- رابعاً - تلوث بيئي حسي وتلوث بيئي سيكولوجي .
- خامساً - تلوث بيئي فردي وتلوث بيئي جمعي .

ولعلنا نقوم فيما يلي باستعراض هذه الأنواع الخمسة من التلوث حتى يتسنى لنا بعد ذلك أن نلقى الضوء على أثر كل منها في سوية الشخصية .

أولاً - التلوث البيئي الشيئي والتلوث البيئي البشري : قمت تلوث بيئي يمكن أن يصيب أحد الكواكب التي يرمل إليها الإنسان سفن الفضاء ، ولكن التلوث الذي يصل ويؤثر في تلك الكواكب لا يؤثر في البشرية طالما أنها بعيدة عن الأرض ولا صلة

للإنسان بها ولا يعيش على أرضها أو يتعامل مع مقوماتها . أما التلوث البيئي البشري فهو ذلك التلوث الذي يؤثر في الحياة البشرية على الأرض سواء بطريق مباشر أم عن طريق النباتات والحيوانات التي يحتك بها الإنسان أو يتناول منتجاتها مثل ثمار النباتات وبيض الطيور وألبان الحيوانات ، أو يتناول لحمها ويقتات به . وسوف نتناول هذا النوع الأخير من التلوث بالتفصيل .

ثانياً - التلوث الإيجابي والتلوث السلبي : والتلوث الإيجابي كتلوث مياه النيل بمخلفات المصانع التي تصب تلك المخلفات في النهر وهي في الغالب مخلفات كيميائية ضارة بصحة الإنسان . أما التلوث السلبي فمن أمثله تهتك طبقة الأوزون نتيجة استخدام بعض الغازات في الصناعات ، مما يتأتى عنه إصابة الإنسان والحيوان والنبات بالأشعة الضارة أو القاتلة . ومن أمثلة التلوث السلبي أيضاً ما يحدث من قحط للأراضي الزراعية أو تصحرها وما يترتب على ذلك من موت المحاصيل الزراعية والفضاء على الثروة الزراعية ، وبالتالي انتشار المجاعات والأوبئة وتهديد السكان بالانقراض .

ثالثاً - التلوث الطبيعي والتلوث الحضاري : ومن أمثلة النوع الأول من التلوث ما يتأتى عن الزلازل والبراكين من محق للمكان والإنسان ومن كل مسحة حضارية يكون الإنسان قد ترك بصمته عليها . والشئ نفسه يقال عن السيول والفيضانات التي لا تبقى ولا تذر ، بل تجرف كل ما يقف أمامها أو يعترض سبيلها ويمحو كل المعالم الحضارية ويجرف كل ما يشير إلى الحضارة البشرية . أما التلوث الحضاري فإنه يتبدى في المخلفات البشرية ومخلفات المصانع وعادم السيارات والتكدس السكاني بالمدن مما يجعل على فساد الهواء ، وانتشار الأمراض المعدية .

رابعاً - التلوث البيئي الجسمي والتلوث السيكلوجي : فنحن نطل على العالم المحسوس من حولنا عن طريق الحواس الخمس . والتلوث الذي يصيب بنيتنا البيولوجية وبالتالي بنيتنا السيكلوجية يصلنا عن طريق حواسنا الخمس . وبعبير آخر فإن التلوث قد يصلنا عن طريق العينين أو عن طريق الأنف أو عن طريق الجلد أو عن طريق الأنف الذي نشم به أو عن طريق الفم الذي نذوق به . أما التلوث السيكلوجي فإنه يحدث نتيجة الخبرات غير المواتية أو المفاجآت المثيرة سواء كانت مفاجات سارة أم مكدره ، وكذا المشكلات الكداء التي لا يعثر المرء على حل لها والهموم والخبرات المكبوتة في اللاشعور . كل هذا وغيره من معوقات نفسية يمكن أن يدرج ضمن أنواع التلوث السيكلوجي .

خامساً - التلوث البيئي الفردي والتلوث البيئي الجمعي : فالتلوث قد يصيب فرداً أو أفراداً ويتبدى تأثيره في نطاق ضيق لا يتعدى ذلك الفرد أو هؤلاء الأفراد . ولكن التلوث قد يكون تلوثاً جمعياً كما يحدث في حالات الهستيريا الجماعية أو عند انتشار مرض ما على نطاق واسع مشكلاً وباء جمعياً كما حدث لدى انتشار الكوليرا والجدرى وغيرهما من أمراض فتاكة تحصد السكان حصداً ، فيكون التلوث المرضي أو هجوم ميكروب أو فيروس معين غير مقتصر على فرد أو أفراد ، بل ينتشر على نطاق واسع يشمل قطاعات ضخمة من البشرية كما هو متوقع بإزاء انتشار مرض الإيدز إذا لم ينجح العلماء في التوصل إلى الوسائل الكفيلة بهزيمته والتخلص منه .

وعلينا بعد أن استعرضنا هذه الأنواع الخمسة من التلوثات البيئية أن نلقى الضوء على أثرها بصفة عامة في سوية الشخصية الإنسانية ، فنجد أن من الممكن استبانة الآثار التالية :

أولاً - الآثار الفسيولوجية وسوية الشخصية : فما لا شك فيه أن الجسم البشري قد خضع لفاعلية التلوث البيئي الذي عرضناه من خمس زوايا متباينة . فما لا شك فيه أن التلوث النووي المتأني عن التفجيرات النووية ومن استخدام الأشعة في الأغراض المتباينة كما هو الحال بالنسبة للتلفزيون والكمبيوتر ، قد أخذ يصيب الجهاز العصبي ، وما يترتب عليه من أمراض عقلية متباينة ومن تدهور في الكثير من العمليات العقلية التي ربما لا تتبدى ظاهرة للعيان لأن الأجهزة المساعدة كالآلات الحاسبة والكمبيوتر تقوم بعمليات تعويضية تعمل على ستر العيوب الذهنية التي أصابت القدرات الذهنية البشرية . وبالنسبة للتلوثات التي تصيب الجهاز الهضمي ، فإنها بادية في ضوء ما يستهلك من عقاقير خاصة بالجهاز الهضمي . فإذا أنت قمت بعمل إحصاء للمقارنة بين استهلاك النوعيات المتباينة من العقاقير الطبية ، فإنك سوف تجد أن عقاقير الهضم تحتل المركز الأول بين جميع العقاقير المختلفة مما يشير إلى أن التلوثات التي اختلطت بالماء الذي نشربه وبالخضروات واللحوم والأسماك التي نتغذى عليها قد استفحل خطرها . وبالنسبة للتلوث الذي أصاب الهواء الذي نستنشقه فإن آثاره الرديئة بادية في أمراض الجهاز التنفسي وفي قصور الرئتين عند كثير من الناس عن العمل بكفاءة . ناهيك عن انتشار الكثير من الأمراض الصدرية . وقس على هذا جميع أجهزة الجسم من حيث مدى تأثرها بالتلوثات الكثيرة التي تؤذي الجسم البشري بصفة عامة .

ثانياً - الآثار السيكلوجية وسوية الشخصية : سبق أن قلنا إن ثمة تأثيراً وتأثيراً بين الحالة الجسمية والحالة النفسية للمرء . فما يصيب الجسم من آثار جسمية يترك صداه على الحالة النفسية على

التفكير وعلى حالته المزاجية وعلى تكامل شخصيته سيكولوجياً واجتماعياً على السواء . ومما لا شك فيه أن الإنسان الحديث يتعرض للإصابة بالكثير من الأمراض العقلية والوجدانية والعصبية بسبب التلوثات الكثيرة المحيطة به والتي تصوب تجاه منافذه المستقبلية الخمس ، أعنى حواسه الخمس . ولسنا نغالي إذا ما قلنا إن الأصوات العالية التي توجه ليل نهار إلى الأذنين ، والأضواء الساطعة المبهرة التي توجه إلى العينين ، وما يصوب إلى بشرة المرء من أشعة لا يحسها بحاسة اللمس مباشرة ولكن عدم إحساسه بها لا يقوم دليلاً على عدم وجودها ، وعلى عدم تأثيرها في قوامه الجسمي عن طريق بشرته ، وكذا مذاقات الشهية والروائح التي يستشعرها الإنسان كثيراً ما تكون ملوثة . ولعلنا نذكر المخدرات بهذه المناسبة . فالشخص المتعاطي للمخدرات يجد متعة تدفوية أو شمية فيما يقبل على تعاطيها منها ، ولكن تلك المخدرات فيها هلاكه برغم متعته بها وإقباله عليها بنهم شديد . وباختصار فإن أنواع التلوث الكثيرة المصوبة إلى المنافذ الخمسة التي يستقبل بها الإنسان العالم الخارجي كثيراً ما تنذر بهلاكه . ولعل أخطر ما يصيب الإنسان من تلوث ما كان مغلفاً باللذة والخالي من الألم . فليس كل لذيق مفيد ، كما أن ليس كل مؤلم ضار . فالمخدرات برغم لذتها تؤثر بشكل خطير في القوام السيكولوجي لمن يتعاطاها ويقبل عليها .

ثالثاً - الآثار الاجتماعية وسوية الشخصية : ومن التلوثات ما قد يكون فردياً ومنها ما قد يكون جمعياً . وقد فكرنا أن ثمة ما يمكن أن يصيب الجماعات البشرية من هستيريا . وليست الهستيريا سوى مثال واحد قلنا بذكره بإزاء التلوث الجماعي . ولكن الواقع أن هناك أنواعاً كثيرة من التلوث الجمعي نذكر منها

المعتقدات التي يمكن أن تسيطر على جماعة تهدف إلى إيذاء الجماعات الأخرى . وتاريخ البشرية مشحون بتلك المعتقدات العدوانية التي ربما يكون مصدرها عقلية شخص واحد تكون له قدرة تأثيرية شديدة ، فيبث فكره المسموم في الجماعة التي يتزعمها فيملأهم بالحدق ضد فئة أو فئات أخرى كما فعل هتلر وموسوليني وغيرهما من زعماء عدوانيين يدفعون بالجماعات التي يتزعمونها إلى موارد التهلكة أو يقضون على الجماعات الأخرى بحرب لا تبقى ولا تذر . وبهذه المناسبة فإننا نستطيع أن نقول إن التلوث قد يكون مادياً متمثلاً في مواد معينة ، كما أنه قد يكون معنوياً يتمثل في المبادئ والأفكار المسمومة التي يمكن أن تشيع وتنتشر على نطاق واسع ولا يكون مفعولها محصوراً في نطاق معين ، بل يكون انتشارها كالوباء ولكنه وباء عقائدي سياسي أو مرتدياً أزياء مبهرة تأخذ بالباب الشباب فيندفعون نحو الأعمال الإرهابية وقد خلت قلوبهم من الرحمة وامتلات بما تمليه عليهم التلوثات الفكرية التي صدرت أصلاً من زعيم تربت في حضن عقله تلك التلوثات ثم وجدت لها مرتعاً في الجماعات التي أخذت تنصت له مخدوعة بما يقوله لها وبما يدعوها إلى اتباعه من ألوان سلوكية سوداء قائمة .

رابعاً - الآثار التقييمية وسوية الشخصية : حيث إن آثار التلوث المادي والتلوث المعنوي تنبدي في النتائج التي تترتب عليها ، فقد نشأ عن ذلك أن الناس صاروا يركزون على النتائج وليس على الوسائل . فبعد أن كان الناس قديماً يقولون بضرورة استخدام الوسائل النبيلة لبلوغ الأهداف النبيلة ، فقد عمل التركيز على النتائج إلى القول حديثاً بعدم الاهتمام بنيل الوسائل . فالمهم هو بلوغ الغايات الجيدة . فبالنسبة للجريمة وانتشارها على نطاق

واسع على مستوى العالم ، فقد صار الناس ينادون بضرورة استخدام الوسائل الفعالة في القضاء عليها دون إقامة أى اعتبار لمدى سمو تلك الوسائل أو خسبتها . فنصبت المشائق ولم يعد من الأهمية بمكان النظر إلى المجرم بنظرة سيكولوجية لعلاجها وتخليصه من المرض الإجرامى ، بل المهم هو تخليص المجتمع منه . فلم يعد للإنسان قيمة في ذاته . ونفس هذا الدرب مار فيه الطب والتجارب على الإنسان . فتمة رقيق يستورد من البلاد المستضعفة ويشترى بالفعل كما سمعنا عن بيع الأطفال الصوماليين فتقوم الجهات العلمية بالتجريب عليهم . والمهم فى نظر هؤلاء العلماء هو ما يتوصلون إليه من فتوحات علمية جديدة وليس المهم فى نظرهم تقييم الوسائل المستخدمة وعدم اللجوء إلا إلى الوسائل النبيلة . فلقد طالعنا جريدة الأهرام بتاريخ ٨ سبتمبر عام ١٩٩٣ بأن طبيباً يابانياً اعترف بأنه قام خلال الحرب العالمية الثانية بإجراء تجارب طبية قاتلة على أسرى صينيين ، وقال : "إنه قام باستئصال أجزاء من أمخاخهم لتنفيذ تجاربه ، وأطلق على آخرين الرصاص للتدريب على كيفية استخراج الطلقات . وقال إنه وعدداً آخر من الأطباء الذين خدموا فى الجيش اليابانى خلال الحرب قاموا باستئصال أيدى وأرجل عدد من المزارعين الصينيين الأصحاء وأجروا تجارب لمحاولة زرعها فى الجسم مرة أخرى ، واعترف الطبيب بأن مئات الأطباء فى الجيش اليابانى آنذاك كانوا يجرون تجارب مماثلة . . ولعلنا نقول ونؤكد أن التلوث الحضارى الذى اشتملت عليه الحضارة الحديثة سواء كان تلوثاً مادياً أم تلوثاً معنوياً هما المسئولان الرئيسيان عن الضرب صفحاً عن تقييم الوسائل والاهتمام بالنتائج فحسب .

الحضارة وما تحمله معها من حوادث :

إن الحضارة رغم ما تحمله من نعم عظيمة للإنسان ، فإنها تحمل له فى الوقت نفسه الكثير من الأخطار والحوادث التى تأتى عليه أو تقعه عن مزاولته أوجه النشاط التى اعتاد عليها أو تصيبه بعامة تفسد جمال خلقته أو تسبب له المضايقات والأزمات النفسية التى تخرج به عن نطاق السوية إلى نطاق الانحراف النفسى والخلقى والاجتماعى . ولعلنا نقوم فيما يلى باستعراض أخطر الحوادث التى تحيق بالإنسان فى ظل الحضارة على النحو التالى :

أولاً - حوادث الطرق والمواصلات : فمنذ أن بزغت الحضارة والإنسان معرض لحوادث الطرق والمواصلات . فقديماً لم تكن الطرق معبدة ، بل كان الإنسان يركب سهوة الجياد ويسافر بها لمسافات طويلة نسبياً . فكان معرضاً للوقوع بالحصان من فوق جرف مرتفع فيلقى مصرعه . وبعد اختراع العربات التى تشدها الجياد ، فإن الإنسان صار معرضاً لانقلاب تلك العربات والدوس تحت عجلاتها . ولقد أخذت حوادث الطرق والمواصلات فى تزايد من جهة ، كما أن عدد الضحايا فى كل حادثة صار فى تزايد مطرد من جهة أخرى . فحوادث القطارات والطائرات والسيارات اليوم لم تعد هينة ، بل كثر وقوعها ، كما ازداد عدد المصابين فى كل حادثة منها وتلك لأن وسائل المواصلات الحديثة تحمل أعداداً كبيرة من المسافرين فى كل رحلة تقوم بها أى منها .

ثانياً - حوادث الحرائق والمفرقات : وكذا يقال عن هذا النوع من الحوادث . فمنذ أن اخترع الإنسان الوسائل التى يتحكم بها فى عمليات الإشتعال والإفادة من النار فى تحقيق أهدافه اليومية المتباينة ، وحوادث الحرائق تلاحقه من حين لآخر . فالنار فى بعض الأحيان يفتل زمامها فينتسح مهاباً وتلقم ما يصادفها من

أشياء وأحياء وأناسي . وكلما تقدمت الحضارة زادت خطورة النيران . فلقد تمكن الإنسان من حبس الطاقات الحرارية في قوالب أو قنابل أو أنابيب . فإذا انفجرت تلك القوالب أو القنابل أو الأنابيب فإنها تحدث اشتعالاً هائلاً ومركزاً ، فلا تبقى ولا تذر ويتسبب عنها الكثير من الخسائر في الممتلكات والأرواح . ولسنا هنا لننحو إلى ما يستخدم في الحروب من قنابل حارقة ، بل نركز كلامنا في الاستخدامات اليومية ، مثل استخدامنا لأنابيب البوتاجاز والغاز الطبيعي الذي يصل من الخزانات الممتلئة بذلك الغاز إلى شقق المواطنين . فإذا ما حدث خطأ ما يؤدي إلى فرقة أنبوبة البوتاجاز أو خزان الغاز الطبيعي ، فإن الحرائق التي تترتب على ذلك تكون هائلة ومخيفة للغاية .

ثالثاً - حوادث الإبتصاق بالكهرباء : فالواقع أن خطورة الكهرباء تكمن في عدم مشاهدتها . فأنت لا تستطيع أن تميز بالبرؤية بين المعدن المكهرب وبين المعدن غير المكهرب . فما يكاد الشخص يلامس الجسم المكهرب حتى يحس بهزة شديدة تُقضى في كثير من الأحيان إلى الموت في الحال أو بإحداث حروق شديدة في الجسم . وفي بعض الحالات تكون الكهرباء قد تسربت من أحد الأعمدة الكهربائية الخاصة بالضغط العالي إلى ما يحيط بقاعدة العمود من ماء في إحدى الترع أو المستنقعات فيصعق الشخص الذي ينزل إلى الترفة أو يقترب من المستنقع . وحوادث الكهرباء في البيوت كثيرة وبعض الأطفال يعيشون بالأسلاك أو بالمسامير فيمسكون بالسلك أو المسمار ويلجونه في الفئسة المثبتة بالحائط فيصعقون في الحال .

رابعاً - حوادث البنادق والمسدسات : فالكثير من الضحايا البشرية يقعون صرعى نتيجة سوء استخدام الأسلحة النارية . فكم

من شخص انطلق فيه مسدسه وهو يقوم بتنظيفه معتقداً أنه خال من الطلقات . وكم من طفل خر صريعاً بينما كان يعبت بمسدس والده . ومن وقت لآخر تطالعنا الصحف بأخبار حوادث القتل بطريق الخطأ في الأفراح والموائد عندما كان البعض يطلقون الأعيرة النارية في الهواء فأصابت أشخاصاً كانوا بالشرفات يتفرجون على سير الفرح أو الاحتفالات الشعبية . وقد يكون العيب في صناعة البندقية أو المسدس فبدل أن يطلق الرصاص نحو الهدف فإنه ينطلق في صدر حامل البندقية أو المسدس .

خامساً - حوادث التسمم بالعقاقير الطبية : فعلى الرغم من أن العقاقير الطبية تستهدف معالجة الإنسان من الأمراض التي قد تصيبه ، فإن الجهل باستخدامها يمكن أن يؤدي إلى التسمم والوفاة . وثمة نسبة عالية من وفيات الأطفال تعزى إلى تناولهم لعقاقير تصل إليها أيديهم خاصة بالكبار ، فيبتلعون منها بضعة أقراص تقضى على حياتهم في الحال . ناهيك عن حوادث التسمم الناجمة عن تناول الأطعمة الفاسدة ولا يتسنى إسعاف من يتناولونها فيلقون حتفهم .

وبعد أن عرضنا لهذه الأنواع الخمسة من الحوادث التي يتعرض لها الناس في ظل الحضارة البشرية ، فإن علينا أن نستعرض الآثار المترتبة عليها في سوية المرء الذي يتعرض لتلك الحوادث أو الذي تهدده تلك الحوادث على النحو التالي :

أولاً - الآثار النفسية : فإنسان الحضارة يتوقع تعرضه للأخطار المتباينة التي لا يمكن التنبؤ بها إذ أن تحديد نوع الخطر الذي يمكن أن يدهمه لا يمكن التنبؤ به . فهل يستطيع راكب القطار أن يتنبأ أو يتوقع خروجه عن القضبان فيصاح بعاجلة أو يلقى حتفه

النهوض بها ، تحول بينه وبين التوافق الاجتماعي . ويتعير صريح فإن من يتعرض للحوادث التي تحملها الحضارة إليه يفقد مصداقيته ، بل ويحرم من احترام المجتمع له وتقديره لإمكاناته . فالمجتمع ينظر إلى أفراد بنظرة اقتصادية . ولعله يتساءل : ما الفوائد التي يمكن أن يقدمها هذا الشخص ؟ فإذا كانت الإجابة بأن لا فائدة منه ، فإنه عندئذ يلقى كل احتقار وامتهان وازدراء أو على الأقل فإن الناس من حوله ينظرون إليه بلا مبالاة ولسان حالهم يقول « ليتنا نتخلص منه في أقرب فرصة ممكنة » .

★ ★ ★

في الحال ؟ وهل يستطيع المرء أن يميز بين الجسم المكهرب والجسم الخالي من الكهرباء ؟ إنه قد يقوم بفتح التلاجة فيكون حقه بسببها لأن بها ماساً كهربائياً فيقتل في الحال لدى فتحها . فما دام الحال هكذا من تهديد دائم لا يمكن تبيين مصدره وتحديد خطورته ، فإن إنسان الحضارة يصاب بنوع من التوتر المستمر مما يصيبه بالقلق النفسي . أليس انتشار الأمراض النفسية بين الناس المتحضرين راجعاً إلى تلك التوترات النفسية الناجمة عن توقع الأخطار المفاجئة من مصادر لا يمكن استنباطها والوقوف عليها بحيث يتسنى محاشاتها وتجنبها والحماية من وقوعها ؟ والأبغضى هذا إلى الخروج عن السوية النفسية ؟ صحيح إن الناس يتباينون من حيث مدى استعداد كل منهم للتوتر والقلق ، ولكن بصفة عامة ، فإن إنسان الحضارة يتعرض للخروج عن نطاق السوية نتيجة توجسه من الحوادث التي يمكن أن يتعرض لها في أي وقت وفي أي موقف .

ثانياً - الآثار الفسيولوجية : ومما لا شك فيه أن إنسان الحضارة يتعرض لفساد أجهزته الجسمية نتيجة وقوعه تحت طائلة تلك الحوادث الكثيرة والمتنوعة التي يتعرض لها . فما يمكن أن يصاب به من عاهات يعمل على إخراجها من نطاق السوية الفسيولوجية . فمن تقطع يده أو رجله أو يصاب بالعمى نتيجة إصابته في عينيه على إثر حادث إنما يصير فاقدًا لجانب أساسي من جوانب مقوماته الفسيولوجية ، وما يتوأكب مع هذا من فقدان لكفائته النفسية ومن فقدان لثقته في نفسه وفي قدراته وما يتسنى له إنجازها من أعمال .

ثالثاً - الآثار الاجتماعية : فالحوادث التي يتعرض لها إنسان الحضارة فتعده أو تحول بينه وبين مزاوله أنشطته التي دأب على

يعتقد ، وحلماً لا رقاً أملاً زبوا هنيئاً زامناً ، لبيد ربحها
عقل حباله ، لمعنا ليقطع عقله شطراً على ربحه من ربحه
دنانيراً ربحه ربحاً حلالاً شفافاً ، ربحاً نزيهاً ، ربحاً نزيهاً
رأه ليس حلالاً ، ربحاً نزيهاً ، ربحاً نزيهاً ، ربحاً نزيهاً

الفصل الثاني عشر العوامل الاقتصادية وسوية الشخصية

الأزمات الاقتصادية وسوية الشخصية :
لا بد أن نحدد ما نعبه بالأزمات الاقتصادية قبل أن ننكر ما تؤثر به تلك الأزمات في سوية الشخصية التي تعاني من تلك الأزمات . والواقع أن الأزمات الاقتصادية تشتمل على عدة نوعيات لعلنا نقوم بتحديدها على النحو التالي :

أولاً - ارتفاع الأسعار ونقص الدخل : فإذا لم يتواكب ارتفاع الأسعار مع زيادة الدخل ، فإن ذلك يشكل أزمة اقتصادية . ولكن يجب أن ننظر إلى هذه المسألة من زاوية كلية جماعية وليس من زاوية فردية ، وذلك لأن ثمة فروقاً فردية بين شخص وآخر . ففي أشد الحالات المتعلقة بارتفاع الأسعار ، فإنك تجد أشخاصاً قد زادت دخولهم . وأكثر من هذا فإن ارتفاع الأسعار قد يكون لصالح بعض الأفراد ، أو ربما يكونون هم الذين رفعوا الأسعار جرياً وراء الحصول على أرباح مرتفعة . مثال لذلك التجار الجشعين الذين يديرون السوق السوداء فيعمدون إلى حجب إحدى السلع الرئيسية عن السوق ثم تقديمها بكميات قليلة فيرتفع سعرها ، ويحصلون بذلك على دخل كبير على حساب باقي المواطنين الذين يحسون بوطأة الغلاء عليهم . من هنا فإنه بتحديد متوسط الدخل بالمقارنة بمتوسط الأسعار يتسنى الوقوف على جليّة الأمر وما إذا كان الوضع يشكل أزمة اقتصادية أم أنه ينحو إلى السوية الاقتصادية .

ثانياً - زيادة الأيدي العاملة عن فرص العمل المتاحة : فلكي تتحقق السوية الاقتصادية بأحد الأقطار ، فلا بد أن تكون فرص العمل مكافئة لطالبي الشغل . أما إذا تقلصت فرص العمل أو زاد عدد طالبي العمل على المتوافر منه بالفعل ، فإن هذا يشكل أزمة اقتصادية . أضف إلى الواقع الراهن ما يمكن التنبؤ به في المستقبل . فإذا اتضح من الإحصاءات أن السنوات القادمة سوف تزيد خلالها الأيدي العاملة على فرص العمل ، فإن هذا يشكل أزمة اقتصادية مستقبلية . ومن الممكن أن تنحصر الأزمة الاقتصادية في هذه الحالة في نطاق حرقه أو مهنة معينة ولا تنسحب على باقي الحرف أو المهن . وأكثر من هذا فإن زيادة فرص العمل عن الأيدي العاملة المتاحة يشكل أزمة اقتصادية . ومعنى هذا أن النقص أو الزيادة في فرص العمل بالمقارنة بالأيدي العاملة المتوافرة يشكل أزمة اقتصادية . وسوف نفرد موضوعاً في هذا الفصل لمعالجة موضوع البطالة .

ثالثاً - الإنفاق المفاجئ غير المتوقع : فلقد يضطر المرء لإجراء عملية جراحية لا تحتمل التأجيل له أو لفرد من أفراد أسرته ، وبالتالي فإنه ربما ينفق كل مخراته في سبيل إجراء العملية الجراحية ، أو ربما يستدين للإنفاق عليها . وثمة ظروف مفاجئة كثيرة سارة أو مكدره تنشأ في سياق الحياة ولا يكون المرء قد حسب حساباً لها ، فيقع في أزمة اقتصادية ربما تستمر مدة طويلة أو ربما تلازمه وتزداد تعقداً أكثر فأكثر وذلك لأن موارده المالية حتى وإن زادت فإنها لا تكفي لسداد الديون ولكي ينهض من كبوته الاقتصادية .

رابعاً - العجز عن مواصلة العمل بسبب المرض : فلقد يصاب المرء بأحد الأمراض يعجزه عن مواصلة العمل لمدة طويلة أو حتى



توافيه المنية . فإذا كان ذلك الشخص هو الذى يعول نفسه ويعول أسرته ، فإنه يقع إذن فى مأزق مالى ، فيضطر لمد يده لغيره لكى يسانده فى محتته . وبالتالي فإنه يظل فى معاناة مستمرة من الأزمة المالية التى اعترضت طريق حياته .

خامساً - اطراد زيادة الأعباء العائلية وتزايدها مع تزايد عدد الأولاد : فالزواج فى ذاته يشكل عبئاً مالياً على كاهل الشخص الذى ينشئ أسرة جديدة . وكلما أنجبت تلك الأسرة الجديدة طفلاً جديداً ، فإن أعباءً جديدة تضاف إلى الأعباء السابقة . فإذا ما كثر عدد الأولاد ، زادت بالتالى مطالبهم واحتياجاتهم . فإذا كان دخل الأسرة ثابتاً أو يزيد زيادة طفيفة ، فإن أزمة اقتصادية طاحنة تعتور طريق تلك الأسرة وما يتضمنه ذلك من مضايقات وخصومات ومنازعات وتبرم بالحياة بل وندم على الزواج أصلاً .

ويعد أن عرضنا لهذه الزوايا الخمس للأزمات الاقتصادية التى تعتور طريق الفرد وأسرته - وهى بالطبع لا تشتمل على جميع الزوايا التى تتضمنها الأزمات الاقتصادية ولكنها فى رأينا أهمها - فإن علينا بعد هذا أن نتفحص أثر تلك الأزمات فى سوية الشخصية التى تعانى منها وتعترض طريقها على النحو التالى :

أولاً - التوترات النفسية : فلا شك أن الشخص الذى تعترضه أزمة اقتصادية من الأزمات الاقتصادية التى عرضنا لها أو لغيرها يصاب بتوترات نفسية قد تلازمه حتى بعد أن يمر بسلام من أزمته الاقتصادية . والتوتر النفسى عبارة عن شد عصبى يسببه ما يجد المرء نفسه فيه من مأزق تكنفه وتحول بينه وبين ممارسة حياته العادية والقيام بالنشاط الذى دأب على القيام به . والواقع أن التوتر العصبى مسألة عادية إذا لم يستمر بعد مرور الموقف الذى أحدثه ،

ولكنه يكون عرضاً نفسياً ينتقص من السوية النفسية إذا ظل مستمراً حتى بعد مرور الأزمة الاقتصادية أو المواقف الحرجة أياً كانت التى اعترضت طريق المرء وسببت نشوء تلك التوترات العصبية .

ثانياً - الانغماس فى أحلام اليقظة : والشخص الذى يعانى من شدة الأزمات الاقتصادية يجد نفسه مدفوعاً بطريقة لا شعورية إلى الانكفاء على عالمه الداخلى حيث يسبح فيه بحرية تامة ويتخلص بالخيال مما يعانى منه من أزمات اقتصادية ومن أية مشكلات أو صعوبات تعترضه فى الحياة . وهذا ما يعرف بأحلام اليقظة . والواقع أن تلك الأحلام قد تكون صحية إذا كانت تهدف إلى مراجعة النفس ومدارسة الواقع والبعد بعض الوقت عن مصادر الإثارة . ولكن إذا كانت أحلام اليقظة وسيلة للهروب من الواقع وخداع الذات بأنه لا توجد أى مشاكل خارجية ، فإنها تكون عرضاً نفسياً قد ينتهى إلى الإصابة بالمرض النفسى والخروج من نطاق السوية النفسية .

ثالثاً - التخبط فى اتخاذ القرارات والبعد عن الواقعية : فالمرء فى خصم الأزمات الاقتصادية يكون غير خلىق بالتفكير السديد ، فتفكيره يكون مشوشاً ، ويكون من الصعب الإمساك بأول الخيط والتسلسل الفكرى المنطقى والالتزام بالواقعية فى التخطيط سواء للمستقبل القريب أم المستقبل البعيد . وأكثر من هذا فإن المرء وهو فى هذه الحالة يكون بحاجة إلى من يأخذ بيده ويقوم بتوجيهه وتبصيره بما ينبغى عليه اتخاذه من خطوات تكون كفيلة بإخراجه من ورطته المالية وإنقاذه من مشاكله الاقتصادية وما يتوكلب معها أو يترتب عليها من نتائج مؤسفة .

رابعاً - زيادة الطين بلة : وبدلاً من قيام الشخص الذى تعتور حياته إحدى الأزمات الاقتصادية ، فإنه ينتهى غالباً إلى ما يزيد الأزمة تعقداً . فبدلاً من اتخاذ الطريق المفضى إلى تخليصه من

ورطته ، فإنه ينتحى إلى ما يزيد الأزمة احتمالاً . فلقد يتجه إلى لعب القمار أو إلى إنفاق ما تبقى لديه من مال في لهو وتبديد ، ولقد يمد يده بالسرقة أو الاختلاس فيقبض عليه . وبدلاً من إخراج نفسه من أزمته الاقتصادية ، فإنه يتورط في مشكلات تضاعف من تلك الأزمة ، بل إنه قد يجد نفسه وراء القضبان في المحكمة ثم في السجن فتزداد أزمته الاقتصادية سوءاً ولا يكاد يجد لنفسه مخرجاً .

ولقد يصور له زملاؤه بالسجن بعد أن يُفضى لهم بمشاكله أن الطريق الوحيد للخروج من أزمته تلك والتخلص منها نهائياً هو الطريق الذي ساروا هم فيه ولكن لسوء الحظ فقد قبض عليهم . ولكن ربما يكون هو حسن الحظ عندما يقوم بتسويق المخدرات التي سوف يدلوته على المتعهد بتسويقها على نطاق واسع فيصير واحداً من صبيانه . وهكذا يخرج صاحبنا من السجن وهو متحمس لاقتناء الثروة الكبيرة التي سوف تخرجه إلى نهاية العمر من أزمته الاقتصادية . ولكن أملة يضيع عندما يقبض عليه ويودع من جديد بالسجن المؤبد . فواضح أن مثل ذلك الشخص يزداد تدهوراً في صحته النفسية وفي علاقاته الاجتماعية . فهو يفقد سويته نفسياً واجتماعياً على السواء .

خامساً - الانتحار أو الإصاية بلوثة : ولقد تحمل الأزمات الاقتصادية الشخص الذي يعاني منها على الرغبة في التخلص من حياته بإنهاء عمره بيده . ومما لا شك فيه أن سيكولوجية المنتحر من التعقد بمكان . فإذا نحن تدارسنا ما يعاني منه وما يخيم على أفقه العقلي والوجداني ، فإننا نجد في حالة يرثى لها . إنه بالطبع يكون يائساً كل اليأس وقد سدت جميع المنافذ أمام عينيه ، بل إنه يجد أن الوسيلة الوحيدة للتخلص مما يعاني منه من ضيق نفسى يتمثل في القضاء على قوامه وجوهر شخصيته . ولسنا نغالي إذا

ما زعمنا أن الغالبية العظمى من المقدمين على الانتحار يكونون في حالة نفسية يمكن وصفها بأنها الجنون بعينه . ولكن من الممكن أن ينهي الشخص المتأزم مالياً حياته والخروج من معمعة مشكلاته بالجنون . فالجنون هو مخرج آخر لا يقل خطورة عن المخرج الانتحاري . فبينما يتخلص المنتحر من قوامه البيولوجي والوجداني والعقلي ، فإن المجنون شخص يتخلص من الواقع الخارجي بالخروج منه وعليه . فهو يسخر بذلك الواقع الخارجي بل وينكر وجوده وأهميته وخطورته ، ويصور لنفسه أنه مسيطر عليه ومحرك لمقايده ومسخر لإمكاناته . إنه قد يتخيل وهو في غمار الجنون أنه صاحب الثروة الطائلة والمالك لخزائن العالم كله .

وعلينا أن نتناول بعد هذا العوامل التي تساعد على الانحراف عن السوية لدى الشخص الذي يعاني من التعرض لإحدى الأزمات الاقتصادية على النحو التالي :

أولاً - استحالة العثور على مخرج من الأزمة الاقتصادية : فالواقع أن الأمل لا يكون متاحاً أمام المرء للخروج من الضائقة المالية إلا إذا كان الواقع الاقتصادي يسمح بذلك . صحيح إن هناك من الأشخاص المتأزمين مالياً من يتوهمون أن لا حل لما يعاونونه من مشكلات اقتصادية برغم أن الحل متاح وموجود بين أيديهم ، ولكن في المقابل فإن بعض الحالات تكون موصدة نونها الحلول الممكنة . ولتضرب مثلاً بالحريق الذي التهم أحد المصانع الذي لم يؤمن صاحبه عليه ، وهو المصدر الوحيد لرزقه ، ناهيك عن الكثير من الائتمانات للبنوك والمؤسسات والأفراد التي لا أمل في سدادها والوفاء بحقوق الآخرين عليه ، فيكون باب الرجاء من الناحية الواقعية موصوداً أمامه ، ولا يكون هناك في الواقع الخارجي

وسيلة لتعويض الخسارة الفادحة وضياح رأس المال كله . فتلك الاستحالة الواقعية تعمل على زيادة التوتر النفسى عند هذا الشخص وعند غيره ممن يعانون أزمات اقتصادية مشابهة .

ثانياً - رهافة الإحساس وهشاشة الجهاز النفسى :
ومما يساعد على اشتعال التوترات النفسية لدى الشخص المتأزم مالياً ، ما يكون قد جهز به من جهاز نفسى على جانب كبير من الحساسية والرهافة . فبعض الناس لم يؤهلوا بأجهزة عصبية متينة ، بل تكون أجهزتهم العصبية فى غاية الرقة والهشاشة . فهم يتأثرون من أية مشكلة تجابههم فى الحياة . فإذا ما جوبهوا بضائقة مالية ، فإنهم يُضربون فى الصميم ولا يتحملون ما يجابهون به ، بل ينحرفون عن السوية النفسية بسرعة وبشدة لا يكادون يطبقونها أو يتحملون ثقلها .

ثالثاً - ما تتعرض له الأسرة من عواقب وخيمة : فالشخص الذى تعتور حياته أزمة اقتصادية لا تعتوره وحده ، بل تعتور من فى زمام مسئولياته أيضاً . فهو لا يفكر فيما سوف يؤول إليه حاله شخصياً فحسب ، بل يفكر ويألم وتهيج مشاعره عندما يتخيل ما سوف يعانى منه أولاده وزوجته من فاقة بعد عز ، وضيق ذات اليد بعد الوفرة والسعة .

رابعاً - العجز عن سد المطالب والحاجات الأساسية : فمما يزيد من شدة الضائقة المالية عوز المرء وأسرته وحاجتهم لتغطية مطالب الغذاء والكساء وتسيدي أجره الثقة ومصاريف الغاز والكهرباء وتغطية مطالب الحد الأدنى للعيشة .

خامساً - النقد والتجريح وإلقاء اللوم على المرء : والشخص الذى يتعرض لإحدى الأزمات الاقتصادية لا ينجو غالباً من نقد الآخرين له ولومهم واتهامه بأنه أخطأ فى اتخاذ القرارات ، ولم يكن

حكيمًا فى تسيير دفة حياته . وأكثر اللوم إيلاًما وتجريحاً ذلك الذى يصدر عن أقرب المقربين إلى المرء . ومما يزيد التجريح إيلاًما نكر الناجحين فى حياتهم الاقتصادية من الأقباء والأصدقاء . فبدلاً من المواساة والمساندة فإن المرء لا يلقى سوى التعبير والنعي عليه ونكر ما أخطأ فى اتخاذه من قرارات وما أتاه من تصرفات .

الثروة المفاجئة :

من أين تأتى الثروة المفاجئة ؟ الواقع أن هناك مجموعة من المصادر التى يمكن أن تهبط منها الثروة المفاجئة على المرء . لعلنا نفوم بتحديدنا على النحو التالى :

أولاً - الإرث والتوريث : ونقصد بالإرث نزول الثروة من السلف إلى الخلف بطريقة شرعية ، بينما نقصد بالتوريث رغبة أحد الأشخاص فى أن يرثه شخص بالذات دون أن تكون هناك قرابة بينهما وبغير أن ينص القانون على أحقية ذلك الشخص فى وراثة الثروة التى وُرثت له بناءً على الرغبة الشخصية لصاحب تلك الثروة . ولكى يتسنى وصف الثروة بأنها مفاجئة فى الحالتين السابقتين يشترط أن يكون الوارث غير متوقع إحرازه لها . فبالنسبة للإرث الشرعى فإنه يكون عن طريق أحد الأقباء البعيدين وليس له أبناء فلا يكون هناك وريث مباشر ، بل يكون الوريث غير مباشر متمثلاً فى واحد من أبناء الخال أو أبناء العم مثلاً . وبالنسبة للتوريث فلا بد أن يكون الشخص الذى تؤول إليه الثروة غير متوقع نوالها ، فيفاجأ بعد موت صاحب الثروة بأنه قد أوصى بأن تؤول إليه .

ثانياً - المسابقات واليانصيب : فبعض المؤسسات التجارية تعلن عن مسابقات بكوبونات منسوسة فى السلعة التى تباعها كالحلوى وغيرها . فيفاجأ شخص ما بأنه قد كسب مبلغاً طائلاً يقدر

بالآلاف من الجنيهاًت لمجرد أنه أرسل أحد الكوبونات إلى الشركة صاحبة المسابقة ولم يكن يخطر بباله أنه سوف يربح كل تلك الآلاف من الجنيهاًت لمجرد أنه أرسل ذلك الكوبون . وما يقال عن المسابقات التجارية ينسحب أيضاً بجزءه أوراق البانصيب فيربح أحد الأشخاص آلاف الجنيهاًت لمجرد أنه اشترى ورقة بانصيب بقرش قليلة .

ثالثاً - العثور على كنز : ففديماً كان الناس يخفون مصوغاتهم الذهبية بعيداً عن أعين الرقباء والطامعين في ثروتهم وللصوص وذلك بوضع تلك المصوغات في صندوق ويقومون بدسه تحت أرضية البيت ويبلطون فوقه . وبعد فترة من الزمن يموت صاحب تلك المصوغات الثمينة ويدفن سره معه ولا يعرف أبناؤه شيئاً عن ذلك الكنز المطمور تحت أرض المنزل . وتأتي أجيال وتمر من الحياة إلى الموت إلى أن يحكم على البيت بالهدم ، ويعثر أحد عمال الهدم على ذلك الصندوق فيعمد إلى إخفائه بعيداً عن الأنظار ويحمه في سرية تامة إلى بيته حيث يفاجأ لدى فتحه بأنه يحتوى على ثروة طائلة . وهكذا ينتقل صاحبنا من الفقر إلى الغنى الفاحش .

رابعاً - الحصول على جائزة ضخمة : ومن مصادر الثروة المفاجئة الحصول على جائزة كجائزة نوبل نتيجة تقديم عمل أدبي حظى بإعجاب اللجنة المختصة بتلك الجائزة . فيفاجأ الفائز بأنه صار بين ليلة وضحاها صاحب ثروة كبيرة لم يكن يحلم بها أو يتوقع حصوله عليها ، فينتقل من المستوى الاجتماعي والاقتصادي الذي كان عليه إلى مستوى اجتماعي واقتصادي رفيع لم يكن يحلم به .

خامساً - الاتجار في الممنوعات : فالكثير من المليونيرات على المستوى العالمي لم يحصلوا على ثرواتهم الطائلة بالطرق

المشروعة ، بل كانوا من الفقراء أو من متوسطي الحال ثم أخذوا في الدخول في نطاق التجارة غير المشروعة كتجارة العملة والسوق السوداء والتهرب وترويج المخدرات . فبعد أن كان الواحد منهم يربح بضعة جنيهاًت قليلة كل يوم ، صار بين ليلة وضحاها يربح الآلاف الجنيهاًت كل يوم .

وبعد أن عرضنا هذه المصادر الخمسة للثروة المفاجئة ، فإن علينا أن نقوم بمداخلة الآثار النفسية التي تتأني عن إحرازها بشكل مفاجئ أو غير متوقع ومدى الذي تؤثر به في سوية المرء النفسية على النحو التالي :

أولاً - فقدان التوازن النفسي : فالثروة المفاجئة تؤثر في الحالة النفسية للمرء نتيجة شدة الفرح . ومن المعروف أن الفرح الشديد شأنه شأن الحزن الشديد من حيث تأثيره النفسي الناجم عن التغيرات الفسيولوجية المفاجئة . من ذلك مثلاً التغيرات المفاجئة في الجهاز العصبي وفي الغدد الصماء المسنولة عن تحقيق التوازن في الحالات المزاجية والعقلية . فالفرح الشديد المفاجئ يمكن أن يصيب المرء بالجنون والخروج التام عن نطاق السوية العقلية . فالشخص الذي تهبط عليه الثروة المفاجئة بعد معاناة شديدة من الفقر المدقع قد لا يستطيع تحمل وقع الصدمة المفرحة فيفقد قدرته على التفكير المنطقي السليم أو على ضبط انفعالاته فينخرط في بكاء شديد أو في ضحك وصخب وقفز وتحطيم كل ما يقابله ، فيمزق ثيابه ويحطم النوافذ والأواني وقد يهاجم المحيطين به ويؤذيهم ويخرج في النهاية عن نطاق الواقعية إلى نطاق التخريف والهيجان والصخب الذي لا يبقى ولا ينذر .

ثانياً - فقدان التوازن الاجتماعي : فمن تهبط عليه الثروة المفاجئة قد يرتبك اجتماعياً وتتحطم علاقته الاجتماعية التي دأب

على الانخراط في إطارها . فهو يتوجس خيفة من المحيطين به حتى زوجته وأولاده ويخشى من طمعهم فيه واستيلائهم على أمواله الطائلة . ولقد يخرج من جلده ويرتدى جلداً غير جلده ويتكبر على معارفه وأصدقائه ويجافيهم ويتعد عنهم . ولقد يغير من طريقته في الحياة ، بل إنه قد يهجر مكان إقامته ويتزوج شابة جميلة من أسرة موسرة أو قد يقيم علاقات غرامية مع الزائرات ، وقد يتردد على صالات القمار ، كما أنه قد يقوم بتبديد الثروة التي هبطت عليه بغير مقدمات وذلك لجهله بالشئون الاقتصادية .

ثالثاً - انهيار القيم : ومن أثار الثروة المفاجئة التي يحرزها المرء بغير مقدمات سابقة تعرض صاحب تلك الثروة التي تهبط عليه فجأة لتزلزل القيم الدينية والخلقية والاجتماعية التي سبق له أن تشرىها ونشأ عليها . فبعد أن كان يحسن إلى الفقراء والمعوزين ، فإنه يتحاشاهم وقد أخذ الإقبال عليه يتزايد طلباً للإحسان والعطف . فهو يرى في كل فقير يقبل عليه طامعاً في ثروته ، بل إنه يرى في كل من يبسم له أو يتودد إليه متمراً عليه ، بل إنه يعتقد أن ثمة أشخاصاً مجهولين يتآمرون عليه ويتربصون به ويعتزمون الهجوم عليه والفكك به والاستيلاء على ماله ومقتنياته . وطالما أنه صار من الأثرياء فلم لا يتمتع بتلك الثروة الطائلة ؟ إنه إذن يضرب بالقيم المتعلقة بالعفة والطهارة والاستقامة عرض الحائط . فلا لزوم للتمسك بأهداب الفضيلة . فالقيم الأخلاقية لم توضع إلا للفقراء حتى يتعزوا ويتخففوا مما يعانونه من فقر وعوز . أما الأغنياء من أمثاله فلا بد أن يكونوا أحراراً منطلقين نحو مصادر اللذة المتحررة من كل قيد أو عائق .

رابعاً - الانصراف عن التنمية الثقافية : والكثير ممن تنزل عليهم الثروة المفاجئة يتوقفون عما كانوا يضرّبون فيه من طرق ،

وعما كانوا يستعينون به من وسائل لتنمية حصيلتهم المعرفية ، أو لترقيق مشاعرهم الجمالية ، أو لاكتساب مهارات يدوية واجتماعية جديدة . فيعد أن كانوا يخصصون بضع ساعات كل يوم للقراءة المتمعنة ، فإنهم يقلعون عن القراءة وينصرفون إلى مصادر اللهو والمجون . وبعد أن كانوا يهتمون بالمساهمة في المجالات الثقافية المتباعدة ، فإنهم صاروا لا يكتفون بالهجوم الثقافي . فلا يحثون إلا عن الذائذ المادية كالجنس والرحلات الترفيهية والتردد على المسارح والملاهي الليلية ونحوها . والبعض من الذين هبطت عليهم الثروة المفاجئة انتحوا إلى عدم المبالاة بالدين خشية أن يطلب منهم المشاركة في عمل الخير ودعم المؤسسات الدينية . وإذا كان الشخص الذي تهبط عليه الثروة المفاجئة ممن يشتغلون بالتأليف الفلسفي أو الأدبي أو العلمي أو بالتأليف الموسيقي أو بالرسم والنحت ، فإنه ينصرف في الغالب عن تلك الممارسات وخاصة إذا كان الدافع إلى نشاطه الثقافي هو الحصول على المال الذي يكفل له الحياة الكريمة . ولكن طالما أن المال قد هبط عليه فجأة بغزارة ، فإنه يتوقف إذن عن مواصلة نشاطه الثقافي مكتفياً بما أحرزه فلا يكون لديه الباعث لمواصلة نشاطه الثقافي الإيجابي الإنتاجي . وهذا بلا شك يخرج به من مجال السوية إلى مجال الانحراف .

خامساً - فقدان النظرة المستقبلية : فمن الحقائق المعروفة أن الإنسان السوي يحيا بأضلاع ثلاثة في حياته . فهو يبنى حاضره على ماضيه ، كما أنه يتشوف مستقبله في ضوء حاضره وماضيه جميعاً . والمرء يترسم المستقبل لكي يقوم بتحقيقه . ولكن الكثير ممن تهبط عليهم الثروة المفاجئة يجدون أن المستقبل الذي كانوا يؤملون فيه وهو تحسين وضعهم المالي قد تحقق بالفعل وصار حاضراً . وتعبير آخر فإن الضلع الثالث في الزمان قد تحطم في

ثانياً - الاستعداد الشخصي : على أن هذه الفئة الماكرة التي تصطاد الأشخاص الذين هبطت عليهم الثروات المفاجئة لا تستطيع أن تنجح في مسعاها اللئيم إلا إذا كان الشخص المقصود مفعماً بالاستعداد النفسي للهبوط إلى الدرك الأسفل . فمن كان صلب الشخصية وهبطت عليه ثروة مفاجئة لا ينحرف ولا ينجر مع تيار الفساد ولا ينصت إلى إغراءات العوارة من المفسدين وأصدقاء السوء . فالاستعداد الشخصي للانحراف والغواية يكون متحفراً في دخيلة المرء للبروغ إلى سطح الواقع السلوكي إذا ما حانت له الفرصة لذلك البروغ .

ثالثاً - العوامل اللاشعورية : ومن العوامل المساعدة على الخروج عن السوية النفسية والسوية الاجتماعية وتحطيم القيم التي سبق أن تشرّبها المرء ما يكون قد اكتسبه منذ طفولته من مقومات لاشعورية تسير سلوكه أو تستجيب لما يحيط به من مؤثرات جديدة بعد أن تكون قد هبطت عليه الثروة المفاجئة . فالواقع أن المرء يتأثر بتلك المكونات اللاشعورية مثلما يتأثر بالاستعدادات الوراثية .

رابعاً - الحرمان من لذائذ الحياة : ومن العوامل التي تساعد على الخروج عن نطاق السوية إلى نطاق الانحراف النفسي والخلقي والاجتماعي حرمان المرء الذي هبطت عليه الثروة المفاجئة من طبيبات الحياة وإحساسه بوطأة تلك الحرمان . فهو يكون كالعطشان الذي يجد الماء المثلج أمامه فيعجب منه عباً ويملاً بطنه منه أكثر مما تتطلبه حاجة جسمه . كذا الحال بالنسبة للشخص المحروم الذي كان يحيا في نطاق أحلام اليقظة كل يوم وإذا به يجد أحلام يقظته قد تحققت بالفعل وأن الثروة التي كان يحلم بها قد صارت بين يديه وطوع بنانه . فهو إذن يعجب مما تصفيه عليه من لذائذ عباً أكثر بكثير مما كان يجب أن يتأمله أو يستلذ به .

أنظارهم ، أعنى أن ضلع المستقبل قد اندمج مع ضلع الحاضر . فلم يعد صاحب الثروة التي كان يأمل في أن يحرزها في المستقبل يفكر في نوالها مستقبلاً لأنه نالها ونال أكثر منها في حاضره . وبذا فإن مثل ذلك الشخص يفقد القدرة على استهداف المستقبل . فهو يفقد أهدافه المستقبلية التي كان يرجوها قبل إحرازه للثروة . وحيث إنه فقد قدرته على التفكير في المستقبل ، فإنه يخرج بالتالي عن إطار السوية النفسية . ولسنا نستغرب إذا ما لجأ شخص كهذا إلى الانتحار سواء كان انتحاره بيولوجياً بالقضاء على حياته بالفعل ، أم كان انتحاره سيكولوجياً وذلك بفقد عقله ، أم كان انتحاره اجتماعياً أخلاقياً فيرتدى في أحضان الإدمان أو الجنس أو القمار أو غير ذلك من موبقات .

وعلينا في نهاية المطاف أن نستعرض العوامل المساعدة على الخروج عن نطاق السوية الذي يتوكلب في كثير من الأحيان مع هبوط الثروة الضخمة المفاجئة على المرء . ولعلنا نحدد تلك العوامل على النحو التالي :

أولاً - رفقاء السوء : فثمة من الناس من يستهويهم الجرى في أنيال الأغنياء وبخاصة أولئك الذين تهبط عليه الثروة بالإرث أو التورث لأنهم يعلمون أنهم يكونون في العادة خالين من الخبرة في شئون المال ويتشوقون للاستمتاع بتلك المال الذي هبط عليهم والذي لم يجتهدوا في الحصول عليه ولم يعرفوا في سبيل اقتنائه . فتلك الفئة من رفقاء السوء يمارعون إلى من هبطت عليه الثروة المفاجئة ويقومون معه علاقات صداقة ويستنزلون أنفسهم أمامه بتقديم الولاء له والاحترام العظيم جاعلين منه شخصية نادرة وذات مواهب فذة وأصل كريم . فسرعان ما ينزلق صاحب الثروة المفاجئة في إطار الفخ الذي نصبوه له ويسوقونه إلى مهاوى التهلكة بواسطة الموبقات التي ذكرنا طرفاً منها .

خامساً - الفراغ والخلو من المسئوليات : أخيراً فإن من العوامل المساعدة على الخروج من نطاق السوية إلى نطاق الانحراف عدم وجود التزامات عملية أو ثقافية أو أسرية تشغل وقت الشخص الذي هبطت عليه الثروة . فالواقع أن الشخص المشغول والملتزم بأداء مهام سياسية أو وظيفية أو ثقافية أو أسرية لا يجد لديه الوقت أو الدافع للانخراط في العبث بما هبط عليه من ثروة مفاجئة ، بل يصير في حِمَى من الانزلاق في مهوى الانحراف والخروج عن نطاق السوية النفسية والاجتماعية والخلقية وتحطيم القيم التي سبق أن تشرّبها وصارت من لحم قوامه الشخصي والاجتماعي .

الكوارث وسوية الشخصية :

هناك العديد من الكوارث التي يمكن أن تصيب الناس في معترك حياتهم . لعلنا نقوم باستعراض أهمها على النحو التالي :

أولاً - الكوارث الطبيعية : من أهمها الزلازل والبراكين والسيول والفيضانات وجفاف مصادر المياه التي تتوقف عليها الزراعة والشرب وزحف البحر على الشواطئ والصواعق والنيازك وما يمكن أن تسببه من حرائق على نطاق واسع والعواصف والانهيارات الأرضية وغير ذلك من كوارث طبيعية لا دخل للإنسان في إحداثها ، ولا قدرة له على منع حدوثها أو التخفيف من وطأتها .

ثانياً - الكوارث الحضارية : وأهمها الحوادث التي تسببها أو تتعرض لها السيارات والعجلات البخارية والطائرات وأنابيب الغاز والمتفجرات والغازات المنبعثة من المصانع ومخلفاتها التي تصب في الأنهار فتصيب الناس الذين يشربون من مياهها بالتسمم البطيء أو بالأمراض السرطانية ، والإشعاعات الذرية والتجارب النووية

أو القنابل بكافة أنواعها المستخدمة في المناورات والحروب ، وانهدام المنازل بسبب سوء تصميمها وتنفيذها أو لقمها واستهلاكها أو نتيجة الزلازل والانهيارات الأرضية ونحوها ، والحرائق المعتمدة أو التي تحدث نتيجة الإهمال أو الجهل أو العبث ، والطلقات النارية وبخاصة طلقات المدافع التي يمكن أن تصيب مدينة بكاملها والتي يمكن أن تطلق من بعد على الأهداف التي تصوب نحوها ، والتسمم الذي ينجم عن إضافة مواد سامة إلى الأطعمة عن قصد أو عن طريق الخطأ إلى غير ذلك من كوارث حضارية يكون الفاعل فيها هو الإنسان بقصد أو بغير قصد .

ثالثاً - الكوارث العسكرية : وتصدرها بالطبع الهزائم العسكرية مثل الكارثة التي لحقت بالجيش المصري عام ١٩٦٧ . وهذا النوع من الكوارث لا يكون محدوداً وفي نطاق ضيق ، بل يشمل الأمة بأسرها ، كما أن آثاره تستمر لسنوات عديدة حتى ينسحب الخروج من النصفعة التي لطمت وجه الشعب وأهانت كرامته . ناهيك عما يفقده ذلك الشعب المهزوم من ضحايا أبرياء بالإضافة إلى العتاد والتجهيزات العسكرية التي تخسرهما الدولة أمام الدولة المنتصرة عليها .

رابعاً - الكوارث السياسية : ومن أهمها انهيار أحد النظم السياسية بما يركز عليه من أيولوجية كانت مفروضة على الشعب وقد أخذ بعض المتحمسين لها في تلقينه مبادئها ، ولكن الحماسة وحدها لا تجدي وقد أثبتت التجارب الواقعية خواءها وعدم صمودها أمام المتغيرات الحضارية والسياسية . ولعل أهم مثل نضربه لذلك النظام الشيوعي وما كان يركز عليه من نظرية سياسية هي النظرية الماركسية . أضف إلى هذا ما كانت مصر تأخذ به من اشتراكية مستمدة بعض جوانبها من الشيوعية وبخاصة

أولاً - الشعور بالضياح : فمن الركائز التي يبنى عليها البقاء في ظل الحضارة هو تلك الركيزة الاقتصادية . والواقع أن إنسان الحضارة يختلف اختلافاً جوهرياً عن الإنسان البدائي من حيث اعتماده على التركيبة الحضارية التي يوجد بها . فهو مثله مثل العين في الجسم . فإذا تزعت العين من جسم صاحبها ، فإنها لا تستطيع أن ترى شيئاً . كذا الحال بالنسبة لإنسان الحضارة . إنه إذا نزع لسبب أو آخر من المجتمع الذي يوجد به ، فإنه لا يستطيع أن يبقى على قيد الحياة بل يتضور جوعاً . وهذا ليس شأن الإنسان البدائي الذي إذا ما ترك وحده في الغابة ، فإنه يستطيع أن يلتقط عشبة من هنا وحيواناً من هناك ويتغذى عليهما ، وقد يبتزح ورقة من شجرة يغطي بها عورته ولا تكون به حاجة مباشرة إلى معاونة غيره له . أما الإنسان الحضاري فإنه يعيش على ما نسميه النقود وهي مجرد رموز للممتلكات . وإنسان المدينة لا يزرع ولا تحيط به أشجار يقطع ثمارها ولا حيوانات أو طيور يقوم باقتناصها وصيدها والتهام لحمها وليس لديه بقرة تحلب لبنها . فهو يعتمد على ما لديه من نقود يحصل عليها ببذل جهد في مجال ما من مجالات الحضارة بالمدينة . فإذا ما أصيب بكارثة من الكوارث التي ذكرناها ، فإن الأرض تميد من تحت قدميه ويتضور جوعاً ويعانى من البرد والحر على السواء . وهذا هو ما نقصده بالضياح .

ثانياً - النكوص الحضارى : وعندما تقع كارثة من الكوارث الخمس التي ذكرناها أو كارثة من الكوارث التي لم نسمفنا الذاكرة بنكرها ، فإن الفرد أو الجماعة التي تهبط عليها تلك الكارثة تصاب بما نسميه بالنكوص الحضارى ونعنى به خلع أثواب الحضارة وارتداء أثواب البداوة . ولا تعنى هنا الأثواب المصنوعة من القماش أو من غيره ، بل نعنى الأثواب السلوكية - إذا صح

فى المجالات الاقتصادية . فمما لا شك فيه أن سقوط النظام السياسى يعتبر نكسة و كارثة لا تستطيع الأمة أن تفيق منها إلا بعد وقت طويل وبعد جهد جهيد .

خامساً - الكوارث العائلية : ومن أهمها موت عائل الأسرة فيتسرد أفراد الأسرة وتضطر الزوجة إذا لم تكن متعلمة وربة بيت إلى مد يدها إلى الأقارب والأصدقاء والجمعيات الخيرية طلباً للإحسان أو الاشتغال بالمنازل كخادمة . ولقد يتأتى عن موت رب الأسرة تشرد الأبناء وضياحهم وضياح مستقبلهم وذلك بعد أن تندهم المدارس بسبب عجزهم عن سداد المصروفات المدرسية . ومن الكوارث العائلية نشوب حريق بالشقة والتهام المنقولات واحتراق بعض أفراد الأسرة وتشرد البقية الباقية من أفرادها . ومنها فصل رب الأسرة من عمله أو نشل مرتبه أو وقوعه صريع المرض الذى يلزمه الفراش ويكون بحاجة إلى مباشرة طبية مستمرة مع ما يتطلبه ذلك من نفقات علاج باهظة التكاليف . ومنها اتهام رب الأسرة أو ربة الأسرة بالاختلاس أو بالرشوة أو بالاتجار فى المخدرات وتوريطهما فى تهم ملققة تتأدى بهما أو بواحد منهما إلى السجن . ومنها ما قد ينشب بين الأسرة وبين بعض البلطجية أو الإرهابيين من مشاجرات تفضى إلى القتل أو الإصابة بعاهات مزمنة أو تفضى إلى تهور أحد أبناء الأسرة فيهجم على الخصوم ويقتل منهم شخصاً أو أكثر فيكون مصيره إلى حبل المشنقة .

وبعد أن استعرضنا هذه الأنواع الخمسة من الكوارث التى يمكن أن تصيب الناس ، فإننا نقوم بتأمل النتائج النفسية التى يمكن أن تترتب على هذه الكوارث وما تتركه تلك النتائج من أثر سئى فى السوية النفسية على النحو التالى :

بل وأكثر من هذا فإنه لا يستطيع أن يستنجد بغيره ، كما لا يستطيع أن يفعل شيئاً لأنه يكون قد أصيب بشلل إرادى فلا يستطيع أن يتصرف أو أن يأتي بأى سلوك أو أن يتحرك قيد أنملة عن الوضع الذى يوجد به . ولقد يغوص المرء عندئذ فى دخيلته فيغى عليه لفترة تقصر أو تطول . وباختصار فإن من نتائج وقوع الكارثة - كائنه ما تكون - فقدان القدرة على التصرف للخروج من المأزق أو التخفيف من هول الكارثة .

البطالة وأثرها فى سوية الشخصية :

على الزعم من أن لفظ « بطالة » يفهم على أنه عدم قيام الدولة بتوظيف القادرين على العمل من خريجي الجامعات والمعاهد الفنية ونحوها ، فإننا نجد أن الاقتصار على هذا المفهوم الضيق فيه اجتزاء بمفهوم البطالة مع أنه يتسع لأنواع خمسة من البطالة على النحو التالى :

أولاً - البطالة التوظيفية : وهذا النوع من البطالة هو الذى ينصرف إليه الذهن عندما تذكر البطالة . فثمة أعداد هائلة من خريجي الجامعات والمعاهد الفنية ونحوها قابعين فى بيوتهم أو يتسكعون فى الشوارع بلا عمل فى انتظار دورهم فى التعيين بالحكومة .

ثانياً - البطالة المقتنعة : فقد اكتظت أماكن العمل بالموظفين الزائدين عن المطلوب . فكل زيادة فى الأيدى العاملة فى أى مؤسسة تدخل فى نطاق هذا النوع من البطالة . والواقع أن الزيادة فى الأيدى العاملة - شأنها شأن النقص فى تلك الأيدى - يعمل على تعطيل العمل وعلى الانخفاض بمستوى الأداء . والواقع أن هذا النوع من البطالة قد استفحل شأنه فى مصر . فانهك عن سوء

التعبير - وذلك بأن يستحيل المرء إلى شخص غير الشخص الذى دأب أن يكون عليه . إنه لا يظل متلبساً بالأساليب والأخلاق الحضارية ، بل يسترد ما كان أسلافه العبيدون جداً يتذرعون به فى التعامل وفى العلاقات وفى اجتلاب مطالب الحياة . وما وقع من بعض الكوارث شاهد على ذلك . ألم يقبل البعض فى المجاعات على أكل لحم البشر ؟ وألم تقم بعض الأمهات خلالها ببيع أطفالهن نظير ما يحصلن عليه من طعام يشبع بطونهن ويخلصهن من معاناتهن ومعاناة أولئك الأطفال ؟ وألم تكثر جرائم القتل والنهب واقتحام المطاعم والبيوت للحصول على ما فيها من خير أو من مأوى فى البلاد التى تنتشر بها المجاعات ؟ إن الكوارث تتوكل مع النكوص إلى سلوك بدائى أعجف غير مصقول بالصقل الحضارى فينزح الإنسان عن نفسه كل الأساليب والعادات السلوكية الراقية التى سبق أن أكسبته الحضارة إياها .

ثالثاً - التخشب وقلة الحيلة : وعندما تقع الكارثة فإن التفكير المنطقى السديد يغيب عن ذهن المرء . فحتى أحكم الحكماء يفقد ما يتصف به من حكمة ورجاحة عقل وقد حلت لديه الانفعالات الفائرة محل التفكير الهادئ الرصين . ولقد نقول إن التصرف فى تلك الحالات يسبق التفكير ، فيندفع الجميع لا يلبون على شيء ولا ييقون ولا يذرون . وما دام التصرف صار سابقاً على التفكير ، فإن التخبط بل والاتجاه نحو المهالك يكون هو السائد . فمثلاً عندما يشتعل الحريق فإن وسائل الإطفاء التى كانت فى متناول اليد تنبته ولا يتسنى العثور عليها ، بل لقد يسكب أحد الموجودين صفيحة الكيروسين فوق النار ليطفئها فيزداد اشتعالها وتزداد النكبة حدة وصرامة . ولقد يتوقف الشخص الذى أصيب بكارثة عن التصرف بأى تصرف ، بل يتحجر أو يتخشب فى مكانه لا يستطيع أن يفكر ،

توزيع القوى العاملة فتجد أن القاهرة وعواصم الأقاليم مكتظة بالزيادة في الأيدي العاملة وبالتالي البطالة المقنعة ، بينما تجد أن البلاد النائية تشكو من الافتقار إلى من يعملون بها .

ثالثاً - البطالة التعليمية : وهذا النوع من البطالة يوجد بالنظام التعليمي ويترتب على تطبيق الأيديولوجية التعليمية التي أسميناها بالأيديولوجية الأحادية في التعليم (انظر كتاب « التربية لمجتمع متحرر » للمؤلف) . وهي الأيديولوجية الفئوية التي تعتبر كل فئة من التلاميذ أو الطلاب بمثابة عقل واحد ومستوى واحد وقدرة واحدة . ويستهدف تعليم كل فئة الوصول بها إلى مستوى تحصيلي معين . فالمدرس يعد درسه ويلقيه على تلاميذ الفصل ككل كما لو أنهم جميعاً قد حصلوا على مستوى واحد من التحصيل وأن لديهم مستوى متطابقاً من الذكاء . ويتأتى عن الأخذ بالأيديولوجية الأحادية في التعليم وجود بطالة تعليمية تتبدى لدى التلاميذ والطلبة المتفوقين والأذكى من جهة ، ولدى التلاميذ والطلبة المتخلفين ومنخفضي الذكاء من جهة أخرى . فإذا أنت قمت بإحصاء عدد الساعات التي يظل خلالها أفراد هاتين الفئتين بالمدرسة بلا تحصيل ، فإنك ستجدها تقدر بالآلاف الساعات . ولقد دعونا إلى الأخذ بأيديولوجية تربوية وتعليمية مبنية هي الأيديولوجية الفارسية التي تجعل من كل تلميذ أو طالب فئة قائمة برأسها .

رابعاً - البطالة الحضارية : وهذا النوع من البطالة ينصب على عدم الأخذ بالوسائل والتكنولوجيات المستحدثة والمتدفقة في سوق العمالة . ذلك أن الحضارة متدفقة بما تفرزه من وسائل وتقنيات جديدة . فإذا لم نصارح بالأخذ بتلك الوسائل والتقنيات المستمرة في التدفق ، وإذا لم نقم بإحلال الجديد المستحدث محل القديم الذي صار في خبر كان ، فإننا نكون إذن مكبئين بهذا النوع

من البطالة الحضارية . ولعل من أسباب استفحال أمر هذا النوع من البطالة في حياتنا وفي ممارسة الأعمال والقيام بأنشطتنا المتباينة ، أننا نتشبث بالقديم ولا نرضى بإحلال الجديد المستحدث محلّه ، بل إننا حتى عندما نأخذ بالجديد ، فإننا نظل ميقين على القديم . وبذا فإن القديم يتصادم مع الجديد ويبطل فاعليته . ولقد سبق أن ضرينا مثلاً بمن يشتغلون بالتأليف وقلنا إن الغالبية منهم ما يزالون متشبثين بالأقلام يدونون بها مقالاتهم ولا يأخذون بالجديد المستحدث في وسائل الإبانة . ففاتتهم الإفادة من الآلة الكاتبة أولاً ، ثم فاتتهم الإفادة من التكمبيوتر ثانياً . وعلى هذا فإننا نقول إن المؤلف الذي لا يتطور مع الوسائل المستحدثة في العمليات الكتابية ويظل متشبثاً بالقلم الذي كان يكتب بمثله أسلافه البعيدون من أصحاب الأقلام ، إنما يكون قد حكم على نفسه بالبطالة الحضارية .

خامساً - البطالة العمرية : وتعنى بها التوقف عن مزاوله أى نشاط في الشيخوخة أو بعد التقاعد . وليس من شك في أن من الأخطاء التي شاعت بالأذهان حصر مفهوم العمل في نطاق النشاط الذي يأتي من ورائه عائد مادي . والواقع أن مفهوم العمل يجب أن يتسع لكي يشمل أى نشاط ذهني أو عضلي يستنفد الطاقة الحيوية للمرء حتى يتسنى له تجديدها . ذلك أن الطاقة الحيوية كالنهر الذي يجب أن يجدد مائه بالقف بالماء القديم لكي يحل محله ماء جديد بحيث لا يتوقف سريان مائه بأي حال وإلا فإنه يصير أسناً مثل ماء البركة . وهذا ما يصدق بإزاء من يحال إلى المعاش أو التقاعد ، بل وينسحب بإزاء كل شخص - رجلاً كان أو امرأة - توقف عن مواصلة النشاط وبذل الجهد . فأى نشاط يمارسه المرء حتى ولو كان مجرد رعاية بعض الطيور أو ممارسة لعبة رياضية أو لعبة

فيه أيام كان طالباً ، فإن المتطلبات الوظيفية تفرض عليه بعد التوظف أن يحصر اهتمامه فيما يتعلق بالواجبات المنوطة به . وحتى بالنسبة للمستجدات الخيرية المتعلقة بالوظيفة ، فإن الموظف غالباً ما لا يجد الوقت أو الرغبة في اكتساب تلك المستجدات . ذلك أن الجهد الذي يبذله في الوظيفة والرتابة التي تتصف بها ، والروتين الذي عليه أن يلتزم به ، تعمل جميعاً في الغالب على تعطيل استعداداته لاكتساب الخبرات الجديدة . ناهيك عن أن كل ما يتعلق بالتعليم يكون قد انطفأ بريقه وعلاه الصداً بسبب الوسائل المنفرة التي كانت المؤسسات التعليمية تتبعها معه أيام كان تلميذاً وطالباً ، وبخاصة ما يتعلق بالامتحانات وما يرتبط بها في لاشعوره من خوف وبغضاء . من هنا فإن الوظيفة غالباً ما تعمل على انطفاء بريق كل جديد في المجال الوظيفي الذي يعمل به .

ثانياً - مصادر القدرات الإبداعية : ومن العوامل التي تؤثر في سلامة الصحة النفسية للموظف تكبيله بنظام مرسوم بحذافيره لأداء العمل وعدم إطلاق يده للتصرف بوسائل جديدة يقوم بابتداعها . فالواقع أن المؤسسات على اختلافها فإن شأنها شأن الأفراد من حيث إنها تكتسب مجموعة من العادات التي تسيطر عليها ولا يكون ثمة مناص من اتباعها والالتزام بها . فالموظف الذي يحاول تحقيق شخصيته والتعبير عن قدرته الإبداعية يجد المقاومة الشديدة من جانب مؤسسته . فالجديد مرفوض والقديم له قدسيته وسيطرته . وطبعاً أن الموظف الجديد يرغب في التعبير عن أصالته الفكرية والأدائية ، وذلك لأن من شروط السوية النفسية - كما سبق أن قلنا - قيام المرء بإبداع الجديد . ولكن المؤسسة التي يعمل بها قد اكتسبت مجموعة من العادات التي تتجسد في الروتين واللوائح وترفض ذلك الجديد الذي يريد الموظف الجديد أن

ثالثاً - إهمال المواهب والقدرات الخاصة الشخصية : ومن الطبيعي أن يتأدى هذان الموقفان من الذات ومن المجتمع إلى إهمال ما جبل عليه المرء من مواهب وقدرات خاصة . ذلك أن تلك المواهب والقدرات الخاصة لا يسنى لها أن تستثمر ما لم تكن هناك بواعث شخصية وثقة بالنفس من جهة ، وتشجيع من جانب المجتمع وشعوره بالحاجة إلى استثمار تلك القدرات والمواهب الخاصة من جهة أخرى . ولقد سبق أن قلنا إن عدم بذل الطاقة الحيوية التي تشبه النهر المتدفق يؤدي إلى فسادها ، وبالتالي فساد تلك المواهب والقدرات الخاصة . وكما أن الماء الآسن في النهر الذي لا يدفع بالماء القديم ليحل محله الماء الجديد يشتمل على الميكروبات الضارة ، كذا فإن المواهب والقدرات الخاصة الشخصية إذا صارت آسنة - إذا صح التعبير - فإنها تستحيل إلى عوامل شر وانحراف واعوجاج سلوك المرء . فالشخص البطال يستحيل إلى شخصية ضارة بنفسه وبالمجتمع الذي يحيا في إطاره . فهو إذن يأتي بالوان السلوك الرديئة والشاذة والضارة به وبغيره على السواء .

رابعاً - الارتعاض في أحضان الماضي دون العيش في الحاضر ودون تشوف المستقبل : والشخص البطال ينكفي على نفسه غاطساً في أحلام اليقظة التي تدور حول الماضي الذي عاشه قبلاً ، سواء في طفولته أم في مراحل عمره التالية . وفي الوقت نفسه فإنه ينصرف عن الواقع الراهن حوله ، كما أنه لا يستطيع أن يرمى ببصره إلى المستقبل ، فلا يستطيع أن يقوم بالتخطيط لذلك المستقبل وأن يجهز نفسه للاضطلاع بالأنشطة التي يتضمنها .

خامساً - الشعور بالأخطار المحدقة بالمرء : فالشخص البطال ينظر إلى المخاطر التي تحدد به نظرة تهويلية . فهو لا يقف عليها بطريقة موضوعية ، بل يقوم بتخصيمها ويعمل على

ذلك ما يجده من انسداد طريق المستقبل أمامه . والواقع أن من لا ينظر بنفاؤل إلى المستقبل ، لا بد أن ينظر بتشاؤم إليه . ومن أين يأتي التفاؤل للشخص البطال ؟ إنه يجد أن الواقع المرير يحيط به من كل جانب وأنه محاصر بما سوف يقع له من تدهور نفسى ومادى ونشاطى على السواء . وحتى عندما يأتيه بصيص من أمل فى أنه قد يتخلص من البطالة وينخرط فى نشاط عملى ما ، فإن ذلك البصيص سرعان ما يتلاشى فيرمى مرة أخرى فى أحضان اليأس والقنوط وقد سدت المنافذ أمامه وصار يحصر على نفسه .

وبرغم هذه النتائج السيئة التى تحيق بالشخص البطال ، فإننا نستطيع أن نقدم مجموعة من العوامل التى تساعد على التخفف من تلك الآثار السيئة على النحو التالى :

أولاً - عدم الالتزام بالتخصص العلمى أو الفنى : فمع التغيرات الحضارية المتسارعة ، فإن ما جهز الشاب نفسه له من عمل فى مجال متخصص معين ، قد ينطفى ولا تصير له قيمة فى سوق العمل . فإذا ما استمر المرء مصمماً على حصر نشاطه العلمى فى ذلك النطاق الذى انقشعت الآمال فى انفتاحه ، فإنه لا يلقى فى حاضره ومستقبله سوى اليأس والقنوط والبقاء فى نطاق البطالة . فمنطق الحضارة الحالى يلزم الشباب بالتواؤم مع متطلباتها دون التقيد بما تخصص فيه أو درسه بتعمق . المهم هو التحرك والبحث عن المجالات المفتوحة والاستعداد لها من جديد . فمن جهز نفسه للعمل فى مجال الجيولوجيا مثلاً يمكن أن يجهز نفسه للعمل فى مجال الكومبيوتر ، ما دام مجال الجيولوجيا مغلقاً أمامه .

ثانياً - العمل بقطر آخر أو الهجرة إلى وطن جديد : ومن متطلبات الحضارة الحديثة عدم التقيد بالمكان الذى ولد به المرء .

فلقد صار العالم كله بمثابة قرية صغيرة . ومن الممكن العمل فى أى بلد إفريقي أو عربى أو آسيوى أو أوروبى أو استرالى بضع سنين أو الاستيطان به طوال العمر . ولا مانع أبداً من الاستمرار فى الانتماء النفسى والقومى للبلد الأسمى . فنحن فى النهاية مواطنون إقليميون نحس بالانتماء إلى بلدنا ، كما أننا مواطنون عالميون نحس بالانتماء إلى عالمنا كله .

ثالثاً - كسب مهارات أو فنون أو معارف جديدة : فالواقع أن هذا الكسب يعتبر فى ذاته تخلصاً من البطالة . فلقد قلنا إن البطالة تتسع بمفهومها من نطاق النشاط الذى يعود على ممارسه بالكسب المادى إلى أى نشاط يقوم به المرء ويستهلك طاقاته النفسية حتى يتسنى لها أن تتجدد . فالشخص الذى يجد نفسه مرتباً فى أحضان البطالة عليه أن يشرع فى اكتساب خبرات جديدة وبالتالي فإنه يخرج من نطاق البطالة إلى نطاق العمل . وبتعبير آخر فإن القيام باكتساب خبرات جديدة هو فى ذاته ممارسة للعمل وإبطال للبطالة .

الفصل من العمل والإحالة إلى المعاش :

سواء فصل الموظف أو العامل من العمل أو أحيل إلى المعاش أو التقاعد ، فإن النتيجة واحدة ، وهى التوقف عن ممارسة العمل الذى كان منخرطاً به ودائماً على ممارسته . ولعلنا نقوم فيما يلى باستطلاع الأسباب التى تعمل على الفصل من العمل أو الإحالة إلى المعاش أو التقاعد ، فنجد أن تلك الأسباب يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً - بلوغ السن المقررة للإحالة إلى المعاش وهى تكون سن الستين فى الغالب : وهى السن التى اصطلح على أنها بداية مرحلة الشيخوخة فى عرف جهات العمل مع أن الشيخوخة تبدأ فى سن الخمسين ، وذلك لأن المرحلة السابقة عليها - وهى مرحلة

الكهولة - تمتد فيما بين الثلاثين والخمسين . ولكن الواقع أن الشيخوخة إذا كان المقصود بها عدم القدرة على مواصلة العمل ، فإنها نسبية من شخص لآخر . فثمة أشخاص ينحدرون إلى الشيخوخة بهذا المعنى قبل الستين بكثير ، بينما هناك أشخاص آخرون لا ينحدرون في الشيخوخة إلا بعد السبعين (انظر كتاب « رعاية الشيخوخة » للمؤلف) .

ثانياً - الإصابة بعاهة أو بمرض جسدي أو نفسي يعيق الموظف أو العامل عن ممارسة العمل : وفي هذه الحالات فإن جهة العمل تضطر للاستغناء عن الموظف أو العامل وتستبدل به موظفاً أو عاملاً آخر يستطيع النهوض بمهام العمل . فالواقع أن قيمة الموظف أو العامل تتحدد بمقدار صلاحيته لممارسة العمل . فإذا هو فقد تلك الصلاحية ، فإنه يستبعد ويحل محله من يصلح .

ثالثاً - استغناء جهة العمل عن الموظف أو العامل بسبب ضعف مستوى أدائه أو بسبب سوء سلوكه : فلقد تتغير طبيعة أو نظام العمل أو الوسائل التي يمارس بها ، فتستورد أجهزة جديدة تحتاج إلى إعداد طويل أو إلى مواصفات ثقافية أو مهارية معينة ، ولا يستطيع القائمون بالعمل بالنظام الذي كان متبعاً في أداء العمل وفق النظام الجديد ، فيكون من المحتم إن فصلهم وتعيين موظفين جدد تكون لديهم المواصفات والذرية المناسبة للنهوض بالممارسات الجديدة . ولنضرب مثلاً لذلك بما كان متبعاً بالمطابع في جمع حروف الطباعة لطبع الكتب والمجلات . فلقد كان المتبع في السابق جمع الحروف المصنوعة من الرصاص باليدين ، فكانت تلك الحروف الرصاصية مرصوفة في لوحة وكان على العامل أن يجمع الحروف منها ويرصها . ولكن مع اختراع آلات جمع الحروف وانتهاء إلى الجمع بواسطة الكمبيوتر ، فإن أضيق العمال

الجدد صاروا ممن أهلوا لاستخدام الكمبيوتر في جمع الحروف وتوضيب الكلام المجموع . وبذا فإن من لا يكون مهياً للفتون الجديدة في الأعمال المتباينة يكون عليه أن يترك مكانه لغيره ممن تدربوا على فنون العمل التي استحدثت بمجالات العمل المتباينة . ولقد يكون استغناء جهة العمل عن الموظف أو العامل بسبب نقص الكفاءة أو بسبب سوء الخلق وعدم اتباع أساليب السلوك اللائقة .

رابعاً - تقلص نطاق العمل أو إفلاس المؤسسة التي يعمل بها الموظف أو العامل : فمن المعروف أن الأنشطة الاقتصادية والإدارية المتباينة في تحول مستمر وتغير متصل . ويتأتى عن تلك التحولات الاقتصادية والإدارية تقلص نطاق العمل أو ضمور بعض المؤسسات أو إفلاسها بسبب الاستغناء عن الخدمات التي كانت تضطلع بها أو بسبب تنافس المؤسسات بعضها مع بعض أو اندماج بعضها في بعض مما يترتب عليه الاستغناء عن بعض الأقسام بموظفيها فيفصلون من وظائفهم .

خامساً - نقل نشاط بعض المؤسسات من قطر إلى قطر آخر : فلأسباب سياسية أو اقتصادية قد تنقل إحدى المؤسسات أو الشركات نشاطها من قطر إلى قطر آخر . فشركات التنقيب عن البترول أو المعادن مثلاً لا تظل مستقرة في مكان واحد أو في دولة واحدة ، بل تتحول من دولة إلى أخرى خضوعاً للظروف الاقتصادية أو للظروف السياسية ، ويتبع انتقالها الاستغناء عن بعض العمال والموظفين واستبدال عمال وموظفين جدد بهم .

وبعد استعراضنا لهذه العوامل الخمسة المؤدية إلى الفصل من العمل والإحالة إلى المعاش أو التقاعد فإن علينا أن نلقى الضوء على تأثير ذلك في الحالة النفسية للموظف أو العامل الذي يستبعد من



نطاق العمل لمسبب ما من الأسباب التي ذكرناها ، ف نجد أن ذلك التأثير يتبدى على النحو التالي :

أولاً - كراهية العمل الذي كان يمارسه أو كراهية أي عمل آخر : فالموظف الذي يفصل من عمله أو يستبعد من نطاقه لسبب أو آخر من الأسباب التي عرضنا لها يجد نفسه قد صار كارهاً للوظيفة التي كان يحتلها وللأنشطة التي كان يمارسها في عمله . وأكثر من هذا فإن بعض المستبعدين من العمل يكرهون جميع الأعمال كأنه ما تكون . فإذا ما توافرت لهم الفرص للانتحاق بأعمال جديدة أخرى ، فإنهم يحسون بالتوجس والنبو والنفور منها حتى قبل أن يلتحقوا بها ويمارسوا أنشطتها الجديدة التي ربما تكون مباحنة تماماً للأنشطة التي كانوا يمارسونها بوظائفهم السابقة .

ثانياً - النسيان اللاشعوري لما كان يمارس بالعمل السابق : ويترتب على ما يحس به الموظف المستبعد من عمله من كراهية لذلك العمل ، إصابته بعوامل لاشعورية تحمله على نسيان كل ما يتعلق بالعمل السابق بما في ذلك أسماء الزملاء والرؤساء والمرءوسين الذين ظل يعمل معهم عدة سنوات . ناهيك عن نسيان المعلومات والخطوات التي كانت متبعة في ممارسة العمل أو أداء الوظيفة . وهذا النوع من النسيان لا يشير إلى ضعف ذاكرة الموظف أو العامل ، بل يشير إلى عوامل وجدانية لاشعورية أو إلى الكراهية التي طغت على الذاكرة .

ثالثاً - العجز عن التنمية الخبرية : فالموظف أو العامل المستبعد من عمله لسبب أو آخر من الأسباب التي سبق ذكرها يجد نفسه غير قادر على تجديد معلوماته أو اكتساب معلومات أو مهارات جديدة تساعده على الالتحاق بعمل جديد في مجال غير المجال الذي كان يعمل به . ولكن تحت إلحاح أصدقائه أو

أسرته فإنه قد يتغلب على هذا العائق النفسي ويقوم بسبر أغوار مجال خبرى جديد ينهل منه ويستعد لاقترام مجال عمل جديد .

رابعاً - الشعور بخطر العوز والفاقة : وهذا الشعور يحتدم بصفة خاصة لدى من ليس لديهم موارد رزق أخرى غير المورد الذي كانت تكفه لهم الوظائف التي كانوا يشغلونها ثم استبعدوا منها . ولقد يحتدم الشعور بخطر العوز والفاقة فينتهي بالموظف أو العامل المفصول إلى البحث عن وسائل غير مشروعة لتعويض نفسه عما فقده من رزق وذلك بالعمل في أعمال مهينة أو غير مشروعة كترويج المخدرات أو الدعارة مما قد ينتهي به إلى السجن .

خامساً - الارتداء في أحضان المرض وإثارة المشاكل : فالكثير ممن يحالون إلى المعاش أو التقاعد أو ممن تستغنى عنهم جهات العمل لمسبب أو آخر من الأسباب التي ذكرناها يتوقفون عن ممارسة النشاط الجسمي والعقلي ، مما يسبب لهم الإصابة بأمراض جسمية ونفسية عديدة . فالبعض منهم يصابون بالشلل أو بتصلب الشرايين أو بجلطة في المخ ، وبعضهم الآخر يصابون بالوساوس والأعمال القهريّة والهوسات والمخاوف المرضية ونحوها . والكثير من الشيوخ الذين يركنون إلى البيت لا يبرحونه يثيرون المشاكل وينخرطون في المنازعات مع أهلهم ومع جيرانهم ، مما يجعلهم شخصيات بغيضة وبغضنى القريبون منهم التخلص منهم في أقرب وقت ممكن .

رابعاً - الحفاظ على جسم المرء من الأمراض المعدية : فمن سبل الرعاية الجسمية السليمة وقاية الجسم من الإصابة بالأمراض المعدية وذلك بأخذ المحصنات التي يتحدد أخذها في الأعمار المتباينة ، وأيضاً تناول الأدوية التي يصفها الطبيب للعلاج من الأمراض التي تصيب المرء فعلاً .

خامساً - الحفاظ على جسم المرء مما قد يصيبه بجراح أو حروق أو عاهات : فالاحتكاك بالواقع الخارجي يمكن أن يتأتى عنه الإصابة بالجراح أو ببتير الأطراف أو بالحروق . والواقع أن الحضارة قد حملت معها الكثير من الأخطار . من هنا فإن من سبل التربية الجسمية تدريب أبناء الحضارة على التعامل مع الواقع الخارجي المشحون بالأخطار بحذر وبوعي كافٍ .

وبعد أن قدمنا الجوانب الأساسية التي تتضمنها التربية الجسمية ، فإن علينا أن نلقي بالضوء على ما يتضمنه النمو الجسمي المتكامل على النحو التالي :

أولاً - نمو الجسم من حيث الطول والوزن في حدود سن المرء : فتمه إحصاءات حدد بواسطتها ما يجب أن يكون عليه طول الطفل ووزنه في الأعمار المتباينة . وكذا وزن جسم الراشد بالنسبة لطوله . فأى زيادة أو نقص في ذلك يشير إلى خلل في تكامل النمو الجسمي .

ثانياً - تحقيق النسب المنضبطة في نمو أجزاء الجسم الخارجية : فلكي يكون النمو الجسمي متكاملًا ، فلا بد أن تكون أجزاء الجسم الخارجية قد بلغت مستوى النمو المناسب لها والملائم لانسجامها بعضها مع بعض . فتمه مقاييس موضوعة لتحديد تلك النسب من حيث الطول والسمنة .

الفصل الثالث عشر

التربية وسوية الشخصية

التربية الجسمية والنمو المتكامل :

يحسن بنا أن نلقي بالضوء على مضمون التربية الجسمية ثم على مضمون النمو المتكامل حتى يتسنى لنا بعد ذلك أن نندرس العلاقة بين ما نُقضى إليه هذه التربية وما تكفله من نمو متكامل فيما يتعلق بسوية الشخصية . ولنبدأ بتناول مضمون التربية الجسمية على النحو التالي :

أولاً - إشباع حاجات الجسم إلى الغذاء والماء والهواء : فالتربية الجسمية السليمة هي تلك التربية التي تكفل للمرء حاجته إلى الغذاء المناسب لسنه و لحالته الصحية وإلى ما يطفى ظمأه من الماء وإلى ما يستنشقه من هواء نقي .

ثانياً - إشباع حاجة الجسم إلى الحركات السليمة التي تنشط القلب وتكسب العضلات القوة وتوفر رشاقة الحركات : فالتربية السليمة هي تلك التربية التي توفر للجسم الحركات السليمة المتمثلة في الألعاب الرياضية وتحاشي الحركات التي تسبب الإرهاق أو تؤثر تأثيراً سيئاً في القلب .

ثالثاً - إشباع حاجة الجسم إلى النوم : فبينما يحتاج الجسم إلى مه بالغذاء والماء والهواء وإشباع حاجته إلى الحركة ، فإنه يحتاج أيضاً إلى النوم لمدة مناسبة تختلف باختلاف السن وباختلاف ما بذل من جهد وباختلاف الحالة الصحية للمرء .

ثالثاً - تحقيق الكفاءة المناسبة لعضلات الذراعين والرجلين وغيرهما من عضلات خارجية : فلا بد من توافر الفرص المناسبة لتقوية تلك العضلات وذلك بممارسة التدريبات الرياضية المخصصة لتقوية عضلات الجسم المتباعدة .

رابعاً - تكامل أجهزة الجسم الداخلية وذلك بقيام كل منها بوظيفته التي تتكامل مع باقي وظائف الأجهزة الداخلية : فلا بد من تكامل أجهزة الهضم مثلاً مع الرئتين ومع القلب والدورة الدموية وغير ذلك من أجهزة داخلية .

خامساً - تكامل الجهاز العصبي المركزي مع الجهاز العصبي السمبثاوي وتكامل هذين الجهازين مع الغدد الصماء : فما لم يتم هذا التكامل فإن المرء لا يستطيع أن يتعامل بنجاح مع الواقع الخارجي .

وبعد استعراضنا لمضمون كل من التربية الجسمية والنمو المتكامل ، فإن علينا أن نلقي الضوء على علاقة هذه التربية والنمو المتكامل بسوية الشخصية على النحو التالي :

أولاً - إن سوية الشخصية تعتمد على السوية الجسمية : فقد سبق أن أكدنا على علاقة الصحة الجسمية بالصحة النفسية ، وبالتالي على علاقة النمو الجسمي المتكامل بمدى ما يتمتع به المرء من سوية نفسية . ولكي تتحقق السوية النفسية في أكمل صورة وبأعلى درجة فإن من الواجب الاهتمام بالتربية الجسمية والعمل على تحقيق النمو الجسمي المتكامل بالنسبة للقاعات الجسمية المختلفة التي نكرناها قبلاً . ومن الواجب أن نؤكد أن التربية الجسمية لا تنصب على المرحلة الأولى من العمر ، أعني خلال الطفولة فحسب دون باقي مراحل العمر ، بل إنها تستمر خلال مراحل العمر المتتالية حتى الشيخوخة . فمفهوم التربية عموماً

ينحصر بالأسف في أذهان كثير من الناس في مرحلة الطفولة وبالأكثر في مرحلة المراهقة ، ولكن الخلق بنا أن ننظر إلى التربية بنظرة شاملة تغطي عمر المرء بأسره بما في ذلك مرحلة الشيخوخة . فكل عناية بالمرء وذب الأخطار عنه يدخل في نطاق التربية . وسوية المرء عبر مراحل عمره المتباعدة تعتمد على مدى استمرار تأثير التربية الجسمية في حياته اليومية .

ثانياً - إن التربية الجسمية التعويضية تخفف من مدى الانحراف عن السوية : ففي الحالات التي يصاب فيها جسم المرء بأذى كأن يصاب بعاهة أو بالحروق التي تشوه الجسم أو تعوق بعض وظائفه ، فإن من الواجب تدريب الشخص المصاب بتدريبات جسمية معينة حتى يتسنى تقوية بعض أعضائه بحيث تعوض الجسم عما فقده من وظائف . خذ مثلاً ذلك بالشخص الذي يصاب بالعمى في إحدى الحوادث . إن الواجب على التربية أن تعمل على تعويضه عما فقده من رؤية وذلك بتقوية حاستي السمع واللمس ، فينتقل الخبرات بالأننين إلى جانب ملامسة الأشياء وتعلم طريقة برايل في القراءة . وهذا النوع من التربية الجسمية هو ما نسميه بالتربية التعويضية .

ثالثاً - إن العادات الحركية الجسمية تؤثر في مدى سوية الشخصية : فالحركات الجسمية السليمة هي تلك الحركات التي تحقق بعض الأهداف المكانية بأقل جهد وبأكثر فاعلية وإنتاجية . ولعلنا لا نخطئ إذا ما قررنا أن العادات الحركية الرديئة هي تلك العادات التي لا تحقق أي أهداف أو هي تلك التي تفضي إلى نتائج رديئة أو تلك التي تسبب نفور من يشاهدون المرء أو يتعاملون معه . ناهيك عن أن العادات الحركية الرديئة تسبب تبيد الطاقة الحيوية فيما لا يجدي بحيث لا تبقى الطاقة الكافية لتحقيق الأهداف

الخلقية بالتحقيق . وعلى العكس من هذا فإن العادات الحركية السليمة هي تلك التي تتأزر فيما بينها لتحقيق أهداف خلقية بالتحقيق وأولى من غيرها بالبزوغ إلى حيز الواقع .

رابعاً - إن التربية الجسمية والنمو المتكامل يوفران طاقة حيوية متدفقة ومتجددة : ومما لا شك فيه أن الشخصية السوية هي الشخصية التي لا تحس بالثبئة والعجز عن مواصلة النشاط ، ولا تحس بالرغبة في الركون إلى الخمول . ولعلنا لا نخطئ إذا ما قررنا أن النشاط الجسمي والنشاط العقلي مرتبطان ببعضهما البعض وكلاهما يصدران عن الطاقة الحيوية وعن استمرار تدفقها وتجديدها . فإذا خمل الجسم ونضبت الطاقة الحيوية ، فإن المرء ينزوي وينحو إلى الخمول ، بل إنه قد يهرب من الواقع إلى النعاس ، أو بتعبير آخر إلى الإفلاس النشاطي الجسمي والذهني على السواء .

خامساً - إن النمو الجسمي المتكامل شرط لاكتساب المهارات الذهنية والمهارات الحركية على السواء : فالحضارة مغممة بالمهارات الذهنية والمهارات الحركية حتى لقد نقول إن من يريد أن ينسجم مع المتطلبات الحضارية ، فإن عليه أن يكون مستعداً لاكتساب المهارات التي تستلزمها الحضارة التي نطله سواء كانت مهارات ذهنية في التعامل مع الأشياء والناس والأفكار والمشاكل ، أم كانت مهارات حركية تستخدم فيها البدان أو القدمان . ولعلنا نزع من الحياة في ظل الحضارة تعتمد على « الكيفيات » أكثر من اعتمادها على « الماديات » . فإين الحضارة يجب أن يتعلم كيف يفكر وكيف يمارس الأعمال المتبالية بما تشتمل عليه من خامات وأدوات وآلات وأجهزة الكترونية ونحوها . ولكن هذا كله يعتمد على مدى توافر النمو الجسمي المتكامل له .

بيد أن هناك مجموعة من الصعاب التي تعترض طريق التربية الجسمية التي تحقق النمو المتكامل ومن أهم تلك الصعاب ما يأتي :

أولاً - المقومات الوراثية الرديئة : فالواقع أن مهمة التربية الجسمية تنحصر في استنهاض وتنشيط المقومات البيولوجية الموروثة ، سواء كانت الوراثة مباشرة من الوالدين ، أم كانت غير مباشرة من الأسلاف القريبين أو البعيدين . فما لم يكن المرء قد ورث مقومات وراثية صالحة للتفاعل مع المؤثرات البيئية المتعلقة بالتربية الجسمية ، فإن حشد أكثر وأفضل المؤثرات البيئية والتربوية لا يجدي نفعاً . ولكن الأمل اليوم معقد على هندسة الوراثة التي يمكن أن تتدخل في المقومات الجبلية فتعدلها بالزيادة والنقصان ، وبالإضافة والحذف . ولكن هل يتسنى لهندسة الوراثة أن تخرج من نطاقها المحدود جداً حالياً إلى المجال العالمي الواسع ؟ نشك في هذا أو أننا على الأقل لا نستطيع أن نتفاءل حالياً بما سوف تحرزه هذه الهندسة من نجاح في المستقبل .

ثانياً - التربية المتحيزة للجانب العقلي والمهملة للجانب الجسمي : فتمة أيديولوجية تربوية سادت آفاقنا التربوية تنظر إلى الجسم بنظرة مناهضة بينما تتحيز للعقل ، معتبرة أن قوة العقل تزيد بإضعاف الجسم بل وبمحاربه . فوضعت المناهج الدراسية في ضوء هذه الأيديولوجية المنحازة للعقل ، بل قل للذاكرة والتراث بصفة خاصة . وقد ترتب على هذا الانحياز افتقار كثير من الناشئة والبالغين التكامل الجسمي وبالتالي افتقارهم لسويتهم النفسية والاجتماعية على السواء .

ثالثاً - النجاح في الحياة لا يعتمد على النمو الجسمي المتكامل : فالحضارة التي ننضوي تحت لوائها لا تقيم الوزن إلا للمتفوقين عقلياً باستثناء قلة من الأمثال الرياضيين .

أما مجموع التلاميذ فإن قياس مدى نجاح الواحد منهم يتحدد في ضوء ما يحرزه من تقدم وتفوق عقلائى . ومن المؤسف أن كل جهد يبذل في تنشيط الجسم يعتبر هباءً وهراءً . فالتلميذ الذى يقضى الوقت فى اللعب يعتبر ضائعاً وقد حكم عليه بالمستقبل المظلم . أما التلميذ الذى ينكب على الاستذكار والذى يبذل تفوقاً فى المدرسة ويحصل على الدرجات النهائية فى الامتحانات ، فإنه الخليق بالتقدير والتنبؤ له بالمستقبل الباهر . وهذا مما يؤكد إهمال التربية الجسمية وما يتواكب معها من نمو متكامل ، ويؤكد بالتالى ما لتلك التربية من أثر فى تدهور الصحة النفسية والسوية الشخصية لدى الأجيال المتعاقبة التى تحتويها الحضارة البشرية الحالية والمستقبلية .

رابعاً - إن التقدم الحضارى يعتمد على العقل وليس على الجسم : فمن الواضح أننا نعيش فى ظل حضارة عقلانية . وحتى الجانب المادى من حضارتنا يعتمد على العقل أو قل على الرموز . فاختراع السيارة كان فكراً قبل أن يستحيل إلى واقع عملى . والإنسان فى الحاضر وفى المستقبل يعتمد على العقل . فبالعقل يسيطر على المادة بكامل صورها وأشكالها . ومن هنا فإن التربية قد انتقلت إلى ما هو عقلى وصارت نابعة عما هو جسمى . وحتى إذا هى اهتمت بالتربية الرياضية فإنها لا توليها الأولوية ، بل إنها تتخذ منها وسيلة للترويح والترفيه . وليس باعتبارها غاية لها الأولوية على الأنشطة العقلية المتباينة . وبناء على هذا فإن النمو الجسمى المتكامل عبر مراحل العمر المتباينة قد أصيب بالتدهور ، وبالتالي فإن شخصيات الناشئة والراشدين على السواء قد أصيبت بالانحراف النفسى والاجتماعى .

خامساً - الازدحام والتفجر السكاني وتكديس التلاميذ والكبار فى أماكن ضيقة : فلقد عمل الزحام فى الفصول الدراسية وكذا ازدحام الناس فى الأماكن العامة ، على ضيق المساكن وضيق وسائل المواصلات بحيث لم تعد المساحة التى يستطیع الفرد من الناس التحرك فيها وبالأحرى ممارسة الأنشطة الرياضية بها خليقة بالسماح للجسم بالنمو المتكامل أو للحفاظ على ما حازره من تكامل . ناهيك عن تلوث البيئة التى تشمل الأرض والماء والهواء جميعاً . فتدهورت الصحة بصفة عامة وبالتالي فإن معظم السكان المنضوين تحت جناح الحضارة قد فقدوا سويتهم الشخصية بسبب تدهور مستوياتهم الصحى .

التربية والتذوق الروحى :

قبل أن نعرض للدور الذى تضطلع به التربية فى التذوق الروحى علينا أن نعرض لمفهوم هذا النوع من التذوق ، فنجد أنه يتضمن المقومات التالية :

أولاً - الإحساس بوحدة الكون : فالتذوق الروحى يتضمن الإحساس بأن الموجودات التى تحيط بنا ليست هى الموجودات الوحيدة ، بل إن الوجود متسع بادناً بالمحدود إلى غير المحدود ، وإنه يتسع لما هو كائن ولما سوف يكون ، كما أنه يتسع لما يقع تحت الحس مباشرة ولما يستدل عليه أو يكون بحاجة إلى أجهزة مساعدة كالأجهزة والمناظير الإلكترونية ونحوها ، والكون يتسع أيضاً ليشمل المادى المحسوس والروحى غير المحسوس . ولعل أن تكون الدراسات العلمية الحديثة قد كشفت النقاب عن أن المادة بالتحليل وصولاً إلى الذرة قد انتهت إلى أن المادة فى النهاية لا تعدو أن تكون طاقة . وتعبير آخر فإن العلماء خرجوا بالمادة من النطاق

الحسى إلى النطاق الروحي وقد جعلوا الوجود الحقيقي ليس للمادة المحسوسة ، بل لما يستدلون عليه . وبتعبير أكثر وضوحاً فإنهم حطمو الوجود المادى ليحلوا محله الوجود الروحي .

ثانياً - الإحساس بأن الوجود المحدود يشير إلى الوجود اللانهائى : والتذوق الروحي يتضمن الوقوف على أن الوجود المادى المحدود يشير إلى وجود لانهائى يمتد إلى الماضى وإلى المستقبل . والوجود المادى ليس سوى أحداث متصلة . فما نظن أنه وجود ثابت لا يتغير ، إنما هو فى الواقع بمثابة أحداث متصلة . فالوجود الساكن أمامنا يتضمن بدخيلته فى ذراته التى يتكون منها عمليات متصلة . فالساكن فى صورته الخارجية متحرك فى قوامه الداخلى . وطالما أن الكون عبارة عن أحداث متصلة ، فإنه يتكرر بتكرر الأحداث التى يتضمنها إلى ما لا نهاية . والمتذوق الروحي لا يقيم الاعتبار للثابت الراكد ، بل للمتحرك والمتدفق فى دخيلته . فهو لا يتخدد بظاهرية الوجود المادى ، بل يغوص إلى أعماقه ليدرك بذهنه الثاقب أن الكون عبارة عن عمليات معقدة ومستمرة وملاحقة إلى غير نهاية .

ثالثاً - حب الكون بما يضمه من أشياء وأحياء وأناسى : والتذوق الروحي يتضمن الشعور الوجدانى المستنير بهداية العقل والساير لأعماق الكائنات الحية والأشياء المادية . فبينما كان البدائى يضى على الجوامد صفات الخير والشر ، فيعتقد أنها تشتمل على عوامل الخير فتتفعه وعوامل الشر فتضره ، أو بتعبير آخر يعتقد أنها مشتملة على نوع من الحياة (Animism) ، فإن الإنسان بعد ترفيقه أعفى الجوامد من أى مسئولية بسبب ما يصدر عنها من

ضرر أو شر . فلم يعد الإنسان المتحضر ينظر إلى الصخرة التى سقطت من فوق الجبل فأردت شخصاً ما قتيلاً بأنها صخرة شريرة أو خيرة . وبدأ الإنسان المتحضر يعمم نظريته الحيادية بلزاء الوحوش الضارية والطيور الكواسر والحيتان وأسماك القرش وغيرها من حيوانات بحرية مفترسة . فنشر نظريته الحيادية عليها جميعاً . فلم يعد يعتقد أن الأسد أو النسر أو الوحش البحرى شرير لأنه يهاجمه ويفترس من يتسنى له اقتراسه من بنى البشر . وأكثر من هذا فإن هذه النظرة الحيادية أخذت فى الانتشار لتشمل الناس جميعاً . ففى ضوء الدراسات الميكولوجية صار الاعتقاد السائد بأن الإنسان ثمرة لما ورثه من مقومات من جهة ، ولما تأثر به من البيئات التى انخرط فيها من جهة أخرى . فثمة دعاة يطالبون بأن ينظر إلى التصرفات الشريرة بنظرة سيكولوجية موضوعية وليس بنظرة أخلاقية تجرؤية . ويتأتى عن تلك النظرة الحيادية إلى الإنسان والحيوان والمادة الجامدة اتجاه وجدانى يتسم بالحب وامتناع الكراهية تجاه الموجودات جميعاً . فثمة فارق بين الشر الذى يصدر عن الإنسان أو الحيوان أو المادة الجامدة وبين الكائن نفسه . فليس الكائن سوى معبر يعبر عليه الشر وكان من الممكن أن يكون معبراً للخير . وهذه النظرة تكفل التفاؤل فى إصلاح المعوج من سلوك أى إنسان أو أى كائن حى . فمن الممكن ترويض الشخص الشرير لكى يصير شخصاً محبباً للخير ، كما يمكن ترويض الأسد المفترس لكى يسلينا فى السيرك ، كما يمكن ترويض النهر فلا يغرق ماؤه السكان وذلك ببناء السدود وحفر الترغ وتحوها فيستفاد من مائه بدلاً من إغراق الزرع والحيوان والإنسان .

رابعاً - تذوق الاعتكاف وولوج العالم الشخصي الداخلي :

فالواقع أن هناك عالَمين يحيا المرء في نطاقهما : العالم الخارجى المتمثل فى عالم الأشياء المحسوسة ، والعالم الداخلى الذى يتضمن المشاعر والسياسة التى يتبعها المرء أو الفلسفة التى يحيا بمقتضاها سواء فى علاقته بنفسه أم فى علاقته بالناس والأحياء والأشياء من حوله ، وما يستطيع أن يجنده من أفكار أو مشاعر ، أو ما يستشفه من حقائق جديدة غير مسبوقه أو ما يرفق به مشاعره من أحاسيس وجدانية ، أو ما يحاسب به نفسه ويعاتبها بحيث يرفض ما انتحى إليه ويتسلح بأساليب سلوكية جديدة يتبعها بعد أن يتشربها ويستسيغها . والاعتكاف ليس موقفاً سلبياً بتجاه الواقع الخارجى ، بل هو موقف مكمل للمواقف التى يتخذها المرء بإزاء الواقع الخارجى . فالمرء بحاجة إلى التعامل مع عالمه الداخلى بقدر حاجته إلى التعامل مع العالم الخارجى القريب منه أو البعيد عنه ، سواء كان عالماً محسوساً مباشراً أم كان عالماً رمزياً غير مباشر .

خامساً - تذوق الاتصال بخالق الكون وراعيه : وعلى رأس

التذوقات الروحية تلك الخبرة الروحية التى يمارسها كثير من الناس منذ بدء الخليقة متمثلة فى الصلاة . فالصلاة ليست مجرد شعائر أدائية خارجية ، بل هى بالإضافة إلى هذا صلة مباشرة بين الإنسان الفرد أو بين مجموعة من الناس وبين خالقهم وراعيهم . ولا شك أن هذا التذوق ممتع للغاية من جهة ، ومفيد نفسياً من جهة أخرى . فالصلاة بالنسبة للمرء بمثابة ارتماة فى الأحضان الإلهية والاتكال التام بصدد تنظيم حياته وتبديل كل شئونه . فالمصلى بقلبه يتكل على خالقه ويتقبل كل ما يرتبته له ويرتضيه وهو متأكد من أن الرعاية الإلهية سوف تُظله وهو فى حال الصحة والمرض ، وهو فى حال

الثراء وحال الفقر ، وهو فى كل موقف من مواقف حياته ، وفى مواجهة أى مشكلة تجابهه . ثم إن الصلاة تمنح المرء قوة خاصة وتجعل له سندا يرتكز عليه فلا يهبط فى مهاوى الهلاك . ولا شك أن المرتضى فى الأحضان الإلهية يكون فى حِمى من الإصابة بأى من الأمراض النفسية وذلك بفضل توافر الطمأنينة له وإجساسه بأن لا خوف عليه من أى شىء أو من أى إنسان كائنًا من كان .

وعلىنا بعد أن استعرضنا هذه المقومات الخمسة للتذوق الروحى أن نلقى الضوء على الدور الذى تقوم به التربية فى التذوق الروحى ، فنجد أن هذا الدور يتضمن ما يأتى :

أولاً - **الدق على باب الوجدان** : فالتذوق - سواء كان تذوقاً روحياً أم كان تذوقاً جمالياً أم كان تذوقاً أخلاقياً - يرتكز على الأحاسيس الوجدانية أولاً وقبل كل شىء ، ولا يكون دور العقل سوى دعم ومساندة التذوق . ولعلنا نميز بهذه المناسبة بين العقل التأكيدى أو التبريرى وبين العقل النقدى . فالعقل التأكيدى أو التبريرى يعمل على الدفاع عما اكتسبه المرء من تذوق روحى وليس للوقوف على ما إذا كان المرء مصيباً فيما يتذوقه أم أنه أخطأ فى ذلك . فالأساس فى التذوق الروحى هو ما يستشعره المرء من تعلق والتذاد بما يقوم بممارسته من أنشطة تذوقية روحية . والسبيل إلى هذا هو السبيل الوجدانى العاطفى ، بمعنى أن هذا التذوق عبارة عن بلورة الوجدان حول محاور أو مفاهيم أو كائنات روحية . وكلما كان التبلور على جانب أكبر من المتانة ، كان التذوق الروحى على جانب أكبر من المتانة والديمومة فى حياة المرء . ومهمة التربية فى مجال التذوق الروحى تتركز فى تهيئة المناخ المناسب لهذه العملية التبلورية للوجدان حول المحاور الروحية المتباعدة .

ثانياً - المشاركة الوجدانية في عملية التدنوق الروحي :
فما يساعد على إشاعة روح التدنوق الروحي في القلب التنام فريدين
أو أكثر وممارسة الأنشطة الروحية المتباينة . فاجتماع المصلين
في مسجد أو كنيسة أو معبد يعمل بلا شك على إحساسهم بعضهم
ببعض ، أو بتعبير آخر فإنهم يتناغمون وجدانياً ، وبالتالي فإنهم
يشاركون بعضهم بعضاً في التدنوق الروحي ، فيتدعم ذلك التدنوق
ويشكل اتجاهًا نفسياً عاماً بينهم جميعاً .

ثالثاً - تسخير اللغة للإفصاح عن جوانب التدنوق الروحي :
فاللغة وإن كانت بمثابة إناء يحمل في نطاقه المفاهيم والاتجاهات
الروحية التي يتم تدنوقها ، فهي أكثر من أن تكون مجرد إناء يحمل
ما فيه . فاللغة ليست مبيّنة لما تحمله من معانٍ وأنغامٍ وتدوقات .
فهي متحدة ومتفاعلة مع ما تحمله من ذلك . فالكلمة الروحية ليست
مجرد حاملة لما تستوعبه من تلك المعاني والاتجاهات . إنها بمثابة
كائن حي أو قل إن اللغة هي القوام الروحي ذاته أو هي الإبانة
عما تتضمنه الروحانيات من حياة ومن قوة ومن غذاء روحي . فكم
من إنسان أحس بالتدنوق الروحي لدى سماعه ما يفوه به أصحاب
الرسالات الروحية أو ما قاموا بكتابتها . ولسنا نبالغ إذا ما قررنا
أن الكتب المقدسة قد كانت وما تزال مصدرًا وملهمًا للتدنوق
الروحي العميق لملايين البشر في جميع أنحاء العالم . وليس من
شك في أن التربية الدينية تعتمد على الكلام المنطوق والكلام
المكتوب . ولكن المرعى يعمد إلى انتقاء ما يقدمه إلى المتلقين من
الكلام المنطوق والكلام المكتوب بحيث يكون مناسباً لهم . ولعلنا
لا نخطئ إذا ما قررنا أن اللغة عبارة عن تيار متصل فيما بين
المتحدث أو الكاتب وبين من يتلقون الكلام المنطوق والكلام

المكتوب . وليست اللغة تصديقاً بغير أن تكون مستهدفة أهدافاً
محددة هم أولئك الذين يتلقونها . فاللغة خطاب موجه بدقة إلى
أشخاص تعينت شخصياتهم أو مواصفاتهم في ذهن من يتكلم أو
يكتب . وكلما كان المتحدث أو الكاتب مؤمناً بما يقوم بقوله أو
كتابته ، كانت لغته على جانب أكبر من التأثير ، وكانت بالتالي على
جانب أكبر من التدنوق والتقبل والفاعلية في حياة المتلقين لها .

والواقع أن الشخصية السوية هي تلك الشخصية التي تتمتع
بالتدنوق الروحي . فمالم يكن المرء متدوفاً للروحانيات ، فإنه يكون
خارج نطاق السوية ومنحرفاً في إطار الإنحراف النفسي .

التربية والتدنوق الجمالي :

قبل أن نبدأ بمدارسة الدور الذي تقوم به التربية في التدنوق
الجمالي علينا أن نتفحص ما يتضمنه هذا التدنوق من مقومات ،
فنجد أنه يتضمن المقومات التالية :

أولاً - التقييم الجمالي : على الرغم من أن الإنسان - بل
والكثير من الكائنات الحية الأخرى - تنحو بالفطرة إلى التمييز بين
ما هو جميل وما هو نواب عن الجمال ، فإن هناك درجات أو مراتب
من القدرة على هذا التمييز . فلفطرة دورها في هذا التمييز ، وكذا
فإن للاكتساب دوره في هذا الصدد . ويتعبير آخر فإن ثمة تفاعلاً
دينامياً يتم بين الفطرة التمييزية للجمال ، وبين الاكتساب التمييزي
له . ويأتى عن هذا التفاعل ما يتدرج به المرء من مستوى تمييزي
جمالي . فكلما كانت الفطرة التمييزية ذات مستوى جيد ، وكانت
المؤثرات البيئية التي تسلمح المرء بالقدرة التمييزية الجمالية جيدة ،
فإن الحصلة التي تتأتى للمرء نتيجة تفاعل هذين المقومين تكون
جيدة .

بإزاء التذوق الجمالى المسموع ، والتذوق الجمالى الملموس ،
والتذوق الجمالى المشموم ، والتذوق الجمالى المذاق . ومن الممكن
ترتيب التذوقات الجمالية الخمسة من حيث قوتها ودقتها عند أى
شخص يتم تقييم تذوقاته الجمالية المتباينة .

رابعا - التذوق الجمالى السلبي والتذوق الجمالى الإيجابى :
فمن يستمع إلى الموسيقى ويستمتع بها بينما يكون مصغياً فحسب
دون المشاركة فى الأداء الموسيقى ، فإن تذوقه الموسيقى السمعى
يكون تذوقاً سلبيًا . أما من يستمع إلى الموسيقى ويستمتع بها ويكون
مشاركاً فيها سواء بوضع أنغامها أو يكون واحداً من الفرقة
الموسيقية التى تعزفها أو يكون موجهاً للعازفين فى عزفهم بأن
يكون مايسترو الفرقة . فإنه يكون متذوقاً للموسيقى تذوقاً إيجابياً .
وهناك مستويات من الإيجابية . فمن يقوم بتطوير لحن أو يعيد
صياغته يكون إيجابياً إبداعية إبداعية ، ولكن إيجابيته الإبداعية
لا ترقى إلى إيجابية وإبداعية من وضع اللحن أصلاً وأنشأه بدهاء
دون أن يكون مسبقاً . وينسحب كلامنا هذا بإزاء جميع التذوقات
الجمالية الأربعة الأخرى ، أعنى التذوق المنظور ، والتذوق
الملموس ، والتذوق المشموم ، والتذوق المذاق .

خامساً - الحالة النفسية والتقلبات المزاجية : هناك علاقة
حميمة بين الحالة النفسية التى يكون عليها المرء وبين التذوق
الجمالى أيًا كان نوعه . وكذا فإن التقلبات المزاجية التى تعنور حالة
المرء النفسية ذات أثر بعيد المدى فى ذلك التذوق . فأكثر الفنانين
التشكيبيليين حباً لفنهم يجدون أنفسهم فى بعض الأحيان مقبلين
بحماس والتذاذ على أنشطتهم الإبداعية ، بينما يكونون فى أحيان
أخرى فائرى الهمة أو حتى نافرين من المشاركة فى النشاط الفنى
الذى يعشقونه فى العادة . ومما لا شك فيه أن الإقبال والإقبال ،

ثانياً - التمييز بين مستويات الجمال : ويترتب على التقييم
الجمالى المتأتى عن تفاعل الفطرة مع الاكتساب تمكن المرء من
التمييز فيما بين المستويات الجمالية المتباينة . فثمة تضاد وليس
تناقضاً بين الجمال والقبح ، بمعنى أن أكثر الأشياء جمالاً تتضمن
بعض القبح ، كما أن أكثر الأشياء قبحاً تتضمن بعض الجمال .
فالجمال والقبح يشبهان الأبيض والأسود . فأكثر الأشياء بياضاً
تكون مشوبة ببعض السواد ، كما أن أكثر الأشياء سواداً بها بعض
البياض . ومن هنا فإن القدرة على التمييز بين مستويات الجمال
تعنى القدرة على ترتيب الأشياء والعلاقات من أكثرها خطأً واكتساباً
للجمال إلى أقلها خطأً منه . والواقع أن من الممكن الإغضاء عن
مفهوم القبح والاكتفاء بمفهوم الجمال ، وذلك إذا ما اعتبرنا أن القبح
لا يعدو أن يكون انتفاءً للجمال ، كما نقول إن الظلام هو عدم وجود
النور ، وإن الشر هو عدم وجود الخير وما يترتب على انعدام
وجود الخير عبارة عن نتائج لا تنخرط فى إطاره ، بل تترتب عليه
فحسب .

ثالثاً - الأنواع الخمسة للجمال : فكل حاسة من الحواس
الخمس نوع من الجمال يختص بها . فثمة جمال منظور ، وجمال
مسموع ، وجمال ملموس ، وجمال مشموم ، وجمال مذاق .
صحيح إن النوعين الأولين من الجمال قد حازا قصب السبق
والسيطرة ، ولكن هذا ما يحول دون الاعتراف بالأنواع الثلاثة
الأخرى من الجمال . ولعلنا نزع من الناس يبنانيون من حيث مدى
استعداد كل منهم وما اكتسبه من البيئة المحسوسة والرمزية فيما
يتعلق بالتذوق الجمالى بإزاء هذه الأنواع الخمسة من التذوقات .
فبعض الناس جبلوا واكتسبوا تذوقاً جمالياً منظوراً أكثر مما جبلوا
عليه واكتسبوه بإزاء الأنواع الأربعة الأخرى . وقل الشيء نفسه

أو الشغف والنفور ، أو العشق والكراهية ، تشبه المد والجزر في البحار والمحيطات . فالحالة النفسية لدى المرء لا تكون على وضع ثابت لا يتغير ، بل هناك علو وهبوط ، واحتدام وتفتور بإزاء الأنشطة التنشيطية الجمالية المتباينة . ولكن هذا لا يعنى أن جميع الناس سواسية في هذا الشأن . ذلك أن بعض المتذوقين قلما تعزيتهم حالات الفتور أو إذا هي اعزرتهم ، فإنها تكون خلال فترات قصيرة وعابرة .

وبعد أن عرضنا لهذه المقومات الخمسة للتذوق الجمالي ، فإن علينا أن نلقى الضوء على الوظائف التي تضطلع بها التربية في عمليات التشريب الجمالي لدى من تقوم بالتأثير فيهم وتربيتهم جمالياً ، فنجد أن من الممكن تحديد هذه الوظائف على النحو التالي :

أولاً - الكشف عن المواهب التذوقية الجمالية : فمن يرغب في العمل على نمو الاستعدادات الفطرية التي جبل عليها من يقوم برعايتهم وتربيتهم ، فإن عليه أولاً أن يتدارس ما جبل عليه كل منهم من استعدادات فطرية حتى يتسنى له بعد هذا أن يقدم الجرعات الملائمة من المؤثرات الجمالية لكل منهم . فالموقف هنا يشبه الموقف بإزاء نوع وكمية الطعام التي تقدم للأكلين . فمن الواجب التمييز بين استعداد كل منهم غذائياً من جهة ، والكمية التي يجب أن يتناولها كل منهم من جهة أخرى . وكلما كان المرء قادراً على الوقوف على استعدادات كل واحد ممن يقوم برعايتهم تربوياً في وقت مبكر فإنه يكون خليفاً بدرجة أكبر بالتعامل معهم بأكثر نجاحاً مما لو تأخر في ذلك أو إذا ترك المسؤولية في يد المصادفة وحدها .

ثانياً - توفير الخيارات العديدة حول المتعلم : فمن الواجب على المرء أن يعد القوالب الجمالية المناسبة للاستعدادات التذوقية

المتباينة لدى من يقوم بتربيتهم بحيث تكون أكثر كماً من طاقتهم ، وأن تكون أرفع مستوى مما يتسنى لهم استيعابه أو التفاعل معه . ونحن نختلف مع كثير من المرءين الذين ينحون إلى تفصيل ما يقومون بتقديمه إلى من يقومون برعايتهم تربوياً على قدهم بغير زيادة أو نقصان . فما نؤمن به هو ضرورة استمرار المجال مفتوحاً أمام من نقوم بتربيتهم . فيروا أن الطريق طويل أمامهم من جهة ، وأن ثمة مستويات أرفع مستوى مما يتسنى لهم بلوغه من جهة أخرى . ذلك أن الإحساس بالنقص يشكل دينامية بذل الجهد والاستمرار في التقدم . فلقد سبق أن نهينا إلى وجوب التمييز فيما بين الإحساس بالنقص وبين مركب النقص . ناهيك عن ضرورة التمييز بين الأفراد في ضوء ما بينهم من فروق فردية بعيدة المدى . ومن الأخطاء التي تردت فيها التربية اتخاذ العمر الزمني معياراً لتصنيف التلاميذ والطلاب بافتراض أن أطفال العمر الواحد يكونون متطابقين في كل المناحي المعرفية والتذوقية والمهارية والعلائقية . فالواقع يقول غير هذا . فبالنسبة لما نحن بصده فإن الفروق الفردية بعيدة المدى بين أفراد الفئة العمرية الواحدة .

ثالثاً - تربية التذوق السلبي والتفوق الإيجابي : فالتربية الجمالية المتكاملة ذات شقين أساسيين : الشق الاستقبالي السلبي ، والشق التصديري الإيجابي . ومما لا شك فيه أن الاجتزاء بشق واحد من هذين الشقين وإهمال الشق الآخر لا يُفضى إلى تربية جمالية سديدة . ونحن لا نزعم أن جميع من تربيتهم يكونون نابغين أو مبدعين في مجال أو أكثر من المجالات الجمالية ، بل نزعم أن التربية الجمالية لا بد أن تسير وفق هذين الضربين من التربية ، فنشجع كل من نقوم برعايتهم جمالياً على الاستقبال السلبي

وعلى الإسهام التصديري ، ومن يمتاز منهم بمتاز ومن يتخلف عن الركب يتخلف . فليست هناك تربيان جاليتان : إحداهما لمن سوف يبدعون وأخرى لم يظنون متلقين فحسب . فالجميع يجب أن يشارك كل شخص حسب استعداداته واجتهاداته في التفاعل مع الأطر الجمالية التي تحيط به .

رابعاً - التربية الجمالية ديناميكية وليست ميكانيكية : فالمرابي الخلق بالتقدير هو الذي يركز اهتمامه على إثارة وتنشيط وتعبئة ما لدى كل واحد ممن يقوم برعايتهم جمالياً لكي يتسنى له أن يتفاعل تنوqياً مع المقومات والعناصر الجمالية التي يوفرها أمامه . فالمرابي هنا لا يفرض على تلاميذه أو طلبته قوالب جمالية معينة ، بل تتركز مهمته في جعل مقوq النشاط التنوqى في يد كل منهم وليس في يده هو . وبتعبير آخر فإن شعار المعلم يكون توفير حرية الانتقاء وحرية التفاعل للتلميذ . فله أن يقبل وله أيضاً أن يُدبر ، وله أن يحب هذا الإطار الجمالي أو ذلك ، وله أن يكره هذا الإطار الجمالي أو ذلك . فالمعلم لا يفرض مزاجه وما يفضله وما ينبو عنه على من يقوم برعايتهم جمالياً وتنوqياً . فإذا حقق هذا الاتجاه فإن تربيته يمكن أن توصف عندئذ بأنها تربية ديناميكية خلافاً للمعلم الذي يفرض تنوqاته على تلاميذه فتوصف تربيته إنز بأنها تربية ميكانيكية .

خامساً - صياغة النقد في قالب موضوعي يناسب مزاج التلميذ وقدرته الإستيعابية : فلكي تكون التربية الجمالية التنوqية ذات فاعلية ، وتكون منسمة باستمرارية التأثير في مستقبله ، وتكون باعثة له على المشاركة في المسيرة الإبداعية الجمالية ، فإن واجب المعلم أن يكون حصيفاً فيما يقدمه من نقد . فيجب عليه أن يتحرز من الاستخفاف أو الاستهزاء بمواقف التلاميذ

وبما يساهمون به من نشاط فني ، كما يجب عليه أيضاً ألا يفرض في المديح أو أن يمدح كل التلاميذ بنفس القدر ، وألا يلقى باللائمة عليهم أو يفت في عؤدهم أو يوبخهم أو يتهمهم بالتقصير أو الإهمال . ناهيك عن عدم ضربهم أو توقيع أية عقوبة من أي نوع على أي منهم بسبب إهمال العمل الفني التنوqى . ولكن هذا لا يعنى التسبب أو عدم مراعاة الموضوعية في النقد ، بل يعنى ضرورة التلاحم فيما بين الموضوعية وبين الذاتية ، أي ضرورة أن يكون النقد الذي يوجهه المعلم إلى أنشطة تلاميذه الفنية نقداً غير متحيز أو متزمت ، وأن يكون موظفاً توظيفاً سيكولوجياً فيحميمهم من كراهية الجمال والتنوq الفني ، بل ويدفعهم إلى الاستزادة والاستفادة مما يقدمه إليهم من قوالب جمالية ، كما يشجعهم على المشاركة بإيجابية في الأنشطة الفنية الجمالية المتبانية .

ولنا أن نذكر في نهاية المطاف أن التربية الخليقة بتوفير المناخ المناسب لتحقيق سوqية الشخصية هي تلك التربية التي تقوم بتغذية من تقوم برعايتهم بالغذاء الجمالي التنوqى . ذلك أن من المقومات الرئيسية بالشخصية المقوم الجمالي التنوqى الذي إذا لم نقم برعايته الرعاية المناسبة ، وإذا لم توفر له المناخ المناسب لبروغه واعتماله في مواقف الحياة المتبانية ، فإنه يضمحل ويموت ، وبالتالي فإن شخصية المرء تخرج من إطار السوqية وتخرط في إطار الانحراف النفسى .

التربية والتنوق الأخلاقى :

ماذا يعنى بالتنوق الأخلاقى ؟ فى رأينا أن هذا النوع من التنوق يشمل على جوانب متعددة لعلنا نقدم أهمها على النحو التالى :

أولاً - التمييز بين المطلق والنسبى من القيم الخلقية : فمن يسير أحوار المواقف الأخلاقية المتعددة ، يجد أن أمامه بعين من

الأحكام الخلقية : نوع مطلق يظل راسخاً كما هو برغم اختلاف الزمان والمكان ، ونوع آخر نسبي تختلف بصده الأحكام الخلقية من شخص لآخر ، ومن مجموعة من الناس إلى مجموعة أخرى . ولكن الناس يختلفون فيما بينهم بصدد تصنيف القيم الخلقية إلى قيم مطلقة وإلى قيم نسبية . فما يراه بعضهم قيماً مطلقاً ، يراه غيرهم قيماً نسبية . خذ مثلاً ذلك بالصدق . فهل يجب على المرء أن يكون صادقاً فيقرر الواقع أو ما يعرفه في كل مكان وفي أى موقف وفي أى وقت ، أم يجب عليه أن يعدل من معرفته وما يتطابق معها من كلام حسب الظروف وما يستوجه كل موقف من قول للصدق أو من تعديل أو تأجيل قول ما يعرفه أو تخينه الحقيقة لأن إعلانها يترتب عليه نتائج وخيمة ؟ من الطبيعي أن الفئة الإطلاقيه تؤكد ضرورة قول الصدق دائماً وفي ظل أى ظرف كائن ما كان ، بينما تذهب الفئة الثانية إلى وجوب تكيف الكلام حسبما يتطلب الموقف وفي ضوء ما يترقب على الكلام من نتائج مادية أو نفسية لمن يقال له .

ثانياً - هل يطابق المرء بين سلوكه الداخلي وسلوكه الخارجي ؟ وتعبير آخر : هل يقوم المرء بإقامة ما يشبه الفلتري بين دخيلته وما يموج فيها من أفكار ومشاعر وبين ما يبين عنه في خارجيته من أقوال وتصرفات وعلاقات ؟ صحيح إن من يقيم مثل هذا الفلتري بين ما يعتدل بداخله وبين ما يبدو منه من سلوك ظاهري يوصف بأنه منافق أو مُرَاعٍ . ولكن دعنا نتساءل : ألا يعتبر المرء نزقاً ومتهوراً وأحمقاً إذا هو حقق المطالبية فيما بين دخيلته وخارجيته ، فكل أفكاره يعلنها بلسانه ، وكل مشاعره الوجدانية يلبسها سلوكاً خارجياً ؟ وهل يعتبر شخص كهذا شخصاً حكيماً ؟ وهل يحظى بنقة الناس وبحبهم وتقديرهم ؟ فعلى من يريد أن يكون

صاحب تفوق أخلاقي أن يسير غور هذا الإشكال وأن يتخذ لنفسه موقفاً ويترسم فلسفة أخلاقية في هذا الشأن .

ثالثاً - هل المسؤولية الأخلاقية مسؤولة فردية أم مسؤولة جمعية ؟ : فمثلاً هل السلوك الرديء الذي يصدر عن الزوج يقع على عاتقه وحده أم أنه يلحق بزوجه أيضاً ؟ وهل نشوز سلوك واحد أو واحدة من الأولاد يمس الوالدين أم ينحصر في نطاقه فحسب ؟ وإذا قال قائل إن مسؤولية الوالدين عن أولادهما تنحصر في حدود الطفولة ولكن بعد أن يكبروا فإن كل واحد منهم يكون مسئولاً عن سلوكه وعلاقته ، فإننا نرد بأن الرشد انبثاق من الطفولة . فما نشأ عليه الطفل يمكن أن يوتى ثماره الجيدة أو ثماره الرديئة في الرشد . بيد أن الأسرة ليست المؤسسة الوحيدة التي تقوم برعاية الأولاد ، بل هناك المدرسة وغيرها من مؤسسات ومجموعات يتصل بها الأولاد وقد يكون لها من التأثير في القيم الخلقية ما يفوق تأثير الأسرة . فعلى من تقع المسؤولية وهل هي مسؤولة كل فرد عن نفسه أم أنها مسؤولة جمعية فيحكم بالخيرية أو بالشرية على الأسرة بكاملها أو على المدرسة بكاملها كما لو أنها شخص واحد ؟

رابعاً - هل يجب أن يكون تقييم المرء خلقياً في ضوء آخر مستوى سلوكي توصل إليه أم في ضوء الحصيلة السلوكية التي صدرت عنه طوال عمره ؟ : فالشخص الذي عاش طوال حياته متمسكاً بالأمانة ثم سرق شيئاً ما فهل نغضى عن ماضيه الشريف ولا نركز فكرنا إلا في تلك الواقعة السلوكية أم ننظر إلى المسألة بنظرة شاملة ؟ وعلى العكس أيضاً ننكر الشخص الذي اتصف سلوكه بالشر طوال حياته ولكنه قام بعمل خير عظيم . من ذلك مثلاً تاجر المخدرات الذي جمع الملايين من الجنيهات ، ثم أحس بوخز

ضميره لأنه جمع أمواله بطريق شرير ، فقام بالتنازل عن كل أمواله للجمعيات الخيرية التي ترعى الفقراء والمسجونين وأسره ، فهل يعتبر هذا الشخص شخصاً فاضلاً فتغضى عن تاريخه الطويل المنحرف ؟ إن المتدوق الأخلاقي يتناول هذه المشكلة ويدلى بطلوه فيها ويصدر حكمه بإزائها .

خامساً - هل يجب أن ننظر إلى السلوك الذي يصدر عن المرء في ضوء سيكولوجيته أم في ضوء القيم الخلقية الاجتماعية ؟ :
والواقع أن النظرة السيكلوجية تقرر أن ما يعتدل في قوام المرء من مقومات سيكولوجية مبنقة من مقرماته البيولوجية هو الذي يفرخ ما يصدر من سلوك داخلي وخارجي عن المرء . ويتعبير آخر فإن هناك حتمية أو سببية أو سلسلة متصلة من العوامل والنتائج فيما بين ما يعتدل بدخيلة المرء وبين ثمار تلك الدخيلة من سلوك يتعلق بالفكر أو بالوجدان أو بالإرادة . أما النظرة الاجتماعية فإنها تؤكد مسئولية المرء عن سلوكه وتحكم على ذلك السلوك في ضوء ما يقرره المجتمع من فضيلة أو رذيلة ، وما يعتبر مناسباً وممدوحاً وما يعتبر غير مناسب ومضموم . ولعلنا نقول إن النظرة السيكلوجية تؤمن بانفقاء المسئولية الخلقية ، بينما تؤمن النظرة الاجتماعية بإلقاء المسئولية على كاهل صاحب السلوك البادي للعيان .

ومن الطبيعي أن يخلص المسئولون عن التربية بأيدولوجية أخلاقية تحمل في طياتها موقفاً محدداً من المسائل الخمس التي عرضنا لها هنا بالإضافة إلى المسائل التي لم يسعنا المقام لاستعراضها حتى يعبروا عن سياستهم وتطبيقاتهم التربوية في ضوءها . ولعلنا نقوم بتحديد الخطوات التي يتخذها المربون على النحو الآتي :

أولاً - الأحادية والفارقية : فعلى المربي أن يحدد موقفه بإزاء السلوك الخلقى . فهل هناك أكثر من موقف خلقى يمكن أن يتخذ بإزاء المسألة الواحدة ، أم أن هناك موقفاً واحداً يجب الالتزام به ومراعاته ؟ ويتعبير آخر هل يقاس السلوك الخلقى في ضوء المناسب لكل فرد أم في ضوء المناسب للمجتمع ؟ فما يناسب الأفراد يتباين بتباينهم ، وما يناسب المجتمع يضرب صفحاً عما يناسب الأفراد المتباينين من حيث السن والثقافة والمكانة الاجتماعية والمسئولية الوظيفية ونحو ذلك من اعتبارات . لا بد إذن أن يحدد المربي أيدولوجيته التربوية وأن لا يتناقض مع تلك الأيدولوجية .

ثانياً - المكافآت والعقوبات : وعلى المربي أن يحدد أيدولوجيته وموقفه من الاستعانة بالمكافآت والعقوبات في سبيل ترسيخ القيم الخلقية فيمن يقوم برعايتهم وتربيتهم . ويتعبير آخر فإن عليه أن يحدد موقفه بإزاء الاستعانة بالجزاء أو عدم الاستعانة به . فالجزاء - سواء كان مكافأة أم عقوبة - يعتبر ضغطاً من الخارج على من يقوم المربي بتربيته . من هنا فإن من يستعين بالجزاء يكون قد بيئت في ذهنه أسلوباً سلوكياً محدداً يحمل من يقوم بتربيته على اتباعه والالتزام به . أما المربي الذي يؤمن بالحرية الخلقية وبأن كل إنسان أمين على سلوكه ومسئول عن تسيير دفته وأن من واجب الكبار ألا يفرضوا قيمهم على الصغار ، فإنه لا يستعين بالجزاء لتحقيق أهداف معينة . فثمة رضا الصغيره عن نفسه أو عدم رضاه عنها ، وله أن يحدد مسار حياته بنفسه طالما أنه لا يصطدم بالقوانين الوضعية التي ترتفع عن مستوى المسئولية الخلقية إلى مستوى المسئولية القانونية المدنية أو الجنائية .

بل تظل مستمرة طوال الحياة . ولكن مفهوم المربي يجب أن يتغير
فيعتبر كل شخص مؤثراً في غيره مربيًا له . وبالطبع فإن المربي
بهذا المعنى قد يكون أكبر أو نذاً أو أصغر من المرء . والكبير
والصغير لا ينحصران في نطاق العمر ، بل يتعدى هذا المعيار إلى
معايير كثيرة كالثقافة والمكانة الاجتماعية والثروة ونحوها .

خامساً - مدى ارتباط السلوك الخلقي بالمعرفة الخلقية :

فتمه تباين في موقف المربين من مسألة المعرفة الخلقية . فمنهم
من يقول إن المعرفة الخلقية تعمل على تحقيق السلوك الخلقي
المكين ، ومنهم من يقول إن المعرفة الخلقية تعمل على زعزعة
السلوك الخلقي وتقويض أركانه . فما يتم معرفته وكشف النقاب
عنه يفسد ما كان عقيدة وإيماناً أخلاقياً . فجرباً وراء (فرويد) فإن
ما يكون منغرساً في أعماق اللاشعور ومحفوراً فيه إذا ما طفا على
سطح الشعور فإن بريقه ينطفئ ويتزلزل أساساته التي كانت راسخة
مكينة . صحيح إن فرويد قد استهدف من كلامه المكبوتات
اللاشعورية التي تسبب الأمراض النفسية . ولكن ألا يصح هذا
الكلام بإزاء جميع المقومات اللاشعورية سواء كانت مكبوتات
مرضية أم مكبوتات تتعلق بالسلوك الخلقي الفاضل ؟ المهم أن
المربي يجد لزاماً عليه أن يحدد اتجاهه بإزاء هذين الموقفين
المتعارضين وأن يضم صوته لواحد منهما . فهو إما أن يستعين
بالإحياء والتقليد في بث الفضيلة في قلوب من يقوم برعايتهم ، وإما
أن يستعين بالمفاهيم والبراهين المنطقية العقلانية في هذا السبيل إذا
كان ممن يؤمنون بالموقف الأول القائل إن الفضيلة علم والردية
جهل كما ذهب إلى ذلك سقراط .

ثالثاً - هل تتبّع الفضيلة لذاتها أم لما يترتب عليها من
فوائد ؟ وعلى المربي أن يحدد موقفه من النتائج التي يمكن أن
تترتب على السلوك الفاضل . فهل يكفي بما يحسه من يقوم المربي
بتربيته من أحاسيس بالسمو الخلقي لدى انتهجه السلوك الخلقي
الطيب حتى ولو ترتب عليه التضحية ببعض اللذائذ أو تلقى بعض
الأضرار المادية أو المصلحية ، أم من الواجب أن يرتبط السلوك
الخلقي بما يترتب عليه من فوائد ؟ فإذا كان المربي مؤمناً بالاتجاه
الأول فإن عليه أن يبيت في تلاميذه أو مربييه روح التضحية .
فالشخص الفاضل هو الشخص المضحى الذي لا يعاب بما يترتب
على سلوكه من فوائد وذلك لأن الفضيلة قوام قائم بذاته لا يرتكز
على نوع النتائج التي تترتب عليه . فلقد يترتب على اتباع الفضيلة
نفع كما قد يترتب عليه من ضرر . ولكن إذا كان المربي مؤمناً
بالاتجاه الثاني ، فإنه سوف يبيت في تلاميذه ومربييه أن السلوك
الفاضل هو السلوك المفيد ، وهو السلوك الذي يحكم عليه في ضوء
ما يترتب عليه من نتائج . فإذا كان السلوك مؤدياً إلى قدر أكبر من
النفع ، فإنه يكون أكثر فضيلة . وعلى العكس فإذا كان السلوك
مؤدياً إلى الخسارة فإنه يكون سلوكاً شريراً بغض النظر عن نية
وأحاسيس المرء الذي يأتي هذا السلوك .

رابعاً - هل التربية الخلقية تنتهي في سن معينة أم أنها
مستمرة عبر الأعمار المختلفة ؟ وعلى المربي أن يحدد موقفه
بإزاء العمر الذي تنتهي عنده مهمته التربوية الخلقية . فلقد ذهب
البيعض مثل (برتراند رسل) إلى أن الشخصية الخلقية للمرء تتبلور
في حوالى الخامسة من العمر . فإذا كان هذا هو الحال ، فإن مسؤولية
المربي بإزاء التربية الخلقية تتوقف عند هذه السن . ولكن الواقع
أن هناك فرقاً بين الخطوط العريضة في التربية الخلقية وبين
الخطوط الدقيقة التي يستمر اتخاذ المواقف بإزائها طوال العمر .
من هنا فإن مسؤولية المربي لا تتوقف بإزاء الخطوط العريضة ،

التربية بين الأتانية والغيرية :

هناك اتجاهان يتنازعان التربية ويريد كل منهما أن يستأثر باهتمامهما في تنشئة الأجيال التي تتولى مسئوليتها : الاتجاه الأول هو الاتجاه الأتاني الذي بمقتضاه تقوم التربية بمخورة جهودها وتوجيه اهتمامها إلى شخصيات الأفراد فتحثهم على العمل على اختيار الوسائل التي تعمل على إسعادهم والنمو عما يعمل على حرمانهم من السعادة والنجاح في الحياة . أما الاتجاه الثاني فإنه يؤكد الاهتمامات والأهداف الجماعية ، والتربية التي تأخذ بهذا الاتجاه تؤكد في شخصيات الناشئة حب التضحية من أجل الآخرين وتفضيل رغباتهم وحاجاتهم على الرغبات والحاجات الشخصية . وحرى بنا أن نقوم بتقديم الأسس التي تقوم عليها التربية التي ترجح كفة الأتانية ، ثم نقوم بعد ذلك بتقديم الأسس التي تقوم عليها التربية التي ترجح كفة الغيرية . وفيما يلي نستعرض الأسس التي تقوم عليها التربية الأتانية :

أولاً - كل فرد يشكل فنة قائمة برأسها : فهذه التربية حتى وإن جمعت العديد من الناشئة في حجرات دراسية حسب السن أو المستوى الدراسي ، فإن الفلسفة التي تقوم عليها تقرر أن كل واحد من التلاميذ أو الطلاب يشكل عالماً قائماً بذاته . فليس هناك واحد منهم متطابق مع غيره . صحيح إن هناك عناصر مشتركة أو استعدادات متقاربة أو متشابهة بين أفراد الصف الواحد ، ولكن ما يتباينون فيه أكثر بكثير مما يتطابقون بصدده . ومهمة التربية الأتانية تتمثل في وقف كل واحد من التلاميذ على إنيتة أو على عالمه الخاص به حتى يتسنى له رعايته والقيام على خدمته وتفتيق الاستعدادات المطمورة بدخيلته .

ثانياً - الالتفاف حول الذات : وعلى الرغم من أن التربية الأتانية لا تغضى عن الاهتمامات الجمعية ، فإن مهما الأساسي هو تمركز كل واحد ممن يقوم برعايتهم حول ذاتيته ، وأن يكون نشاطه الخارجى المتعلق بالآخرين من الأفراد أو المجموعات عبارة عن صدى لذلك التمركز الأتاني . فإذا تعارضت الاهتمامات أو المصالح بين ما يخص الفرد وما يخص الجماعة التي ينخرط فيها ذلك الفرد ، فإن عليه أن يرجح اهتماماته ومصالحه على اهتمامات ومصالح الآخرين من حوله .

ثالثاً - استثمار المواهب والاستعدادات الفردية والعمل على التنمية الخيرية إلى أقصى حد ممكن : فهذه التربية الأتانية توفر جميع الإمكانيات الممكنة التي يتوقع لها أن تتفاعل مع مواهب كل فرد واستعداداته بغض النظر عما يمكن أن يعود على المجتمع من فوائد أو من خدمة لمصالحه الراهنة أو المستقبلية . وأصحاب هذه التربية يعلنون مبدأ خبيراً أساسياً في أنظارهم هو العلم لذات العلم أو بالأحرى العلم لتفتيق ما لدى كل فرد من مواهب وليس العلم للمجتمع أو لسد حاجات ذلك المجتمع أو الارتفاع بشأنه أو تحسين مستقبله . وإذا ما قوبل أصحاب هذه التربية بالاعتراض والامتناع من جانب المتحمسين للمجتمع ، فإنهم يردون بأن تفتيق المواهب والإمكانيات الفردية يهين الطريق المستقبلى المجهول أمام المجتمع . فمن يهتم بالمجتمع ويصب مواهب الأفراد فيه لا يتسنى له أن يتقدم بذلك المجتمع إلى الجديد المجهول ، بل يكون كل همه الأكبر هو تنميط الأفراد وجعلهم جميعاً نسخاً مكررة من نموذج يرتثيه المجتمع لهم .

رابعاً - خدمة جميع جوانب شخصية الفرد : وهذه التربية الأتانية لا تنظر إلى الفرد من منظور مجتزئ ، بل تنظر إليه بنظرة شاملة جامعة لكل جوانب شخصيته . فهي تهتم بصحته الجسمية

وأيضاً بصحته النفسية ، فترعى وجدانه وتساعدته على استثمار مواهبه الذهنية ، كما تهتم بكسبه مجموعة كبيرة من المهارات اليدوية المفيدة له ، كما تعمل على كسبه مجموعة من المهارات الاجتماعية والعلائقية ، كما أنها تهتم بكسبه للقيم الدينية والخلقية والجمالية ، كما أنها تهتم بكسبه المهارات البيانية باللسان والقلم . ناهيك عن أنها تهينه بالنظرة المستقبلية إلى الحياة ، فلا يعيش حاضره فحسب بل يترسم مستقبله في ضوء ما استفاده من الماضي وما يستفيدة من الحاضر . ومعنى هذا أن هذه التربية لا تعمل على عزل من تقوم برعايتهم تربوياً عما يحيط بهم من أفراد وجماعات ، ولكنها تجعل خدمتهم لغيرهم ثمرة لاهتمامهم بذواتهم من جميع الجوانب التي نكرناها . فهي تؤكد دوماً على نقطة الارتكاز أو المحور الذي تدوير حوله اهتماماتها أعنى المحور الفردى لكل فرد ممن تقوم بتربيتهم .

خامساً - رفاهية الفرد وسعادته هما الهدف : فهذه التربية الأثنائية تؤكد أن ما تستهدفه من نشاطها التربوى هو الوصول بكل فرد ممن تقوم برعايتهم إلى أعلى مستوى من الرفاهية والسعادة . فهي لا تؤمن بأن الفرد لا يعدو أن يكون أداة لرفاهية وسعادة المجتمع ، حتى ولو لم يتم ذلك إلا بشقائه والتضحية بسعادته الشخصية . وليس يعزب عن البال أن هذه التربية لا تجعل من المجتمع كائناً حياً كبيراً له قوامه الذاتى المباين للقوامات الذاتية المتباينة للأفراد الذين يتشكل منهم . فهذه التربية الأثنائية تؤمن أن المجتمع - كائناً ما يكون - إن هو سوى مجموع أفراد ، وأنه لا يعمل على طمس فردية أى منهم أو دمجها فى قوامه الجمعى . من هنا فإن وجود المجتمع مرهون بوجود أفراد ، وأن اهتماماته لا تعدو أن تكون محصلة اهتمامات أولئك الأفراد .

وعلىنا بعد هذا أن نقوم باستعراض الأسس التى تقوم عليها التربية الغيرية على النحو التالى :

أولاً - المجتمع هو الجوهر : فهذه التربية تعتبر أن للمجتمع وجوداً قائماً بذاته ، بل إن وجود الأفراد ليس سوى صدى لوجود مجتمعهم . فالأفراد زائلون ولا يمكن قياس عمر الفرد بعمر المجتمع . فما يقوم المجتمع بإفرازه من أفراد إنما هو وجه من أوجه نموه وبقائه . وكما أن أعضاء الجسم جعلت لخدمته باعتبار أنه هو الأساس والجوهر ، كذا فإن الفرد بالمجتمع يجب أن يكون خادماً وأداة ناعمة وجيدة وخليقة بخدمته والمساهمة فى تحقيق أهدافه الجمعية . وواضح أن هذه التربية تتعارض تعارضاً حاداً مع التربية الأثنائية ، إذ أنها تجعل المجتمع هو الجوهر والأفراد هم المظهر الزائل والمؤقت .

ثانياً - الخبرات أياً كانت هى خبرات جمعية : فمهما ظن بعض الأفراد أنهم يبدعون شيئاً من المعارف أو المهارات أو الكلام ووسائل تسجيله أو نقله إلى الآخرين ، أو غير ذلك من خبرات ، فإن الواقع أن ما يضيفه الأفراد لا يعدو أن يكون امتداداً لما سبق أن أفزره المجتمع من خبرات تتمثل فى التراث القومى . فمن الغرور أن يعتقد أحد الأفراد أنه يتفضل على المجتمع بتقديم مخترعته أو إبداعاته . فكما أن الأفراد يولدون وينمون ويموتون ، كذا فإن الخبرات تولد وتنمو وتموت . فإذا اعتقد أحد المبدعين أن ما أبدعه سوف يبقى مخلداً ، فإنه يكون واهماً . فالمجتمع يفرض خبرات جديدة باستمرار ، وتعمل تلك الخبرات الجديدة على إزاحة الخبرات القديمة أو قل إنها نقلتها لتحل محلها . وحتى ما يبدو إبداعاً ما هو سوى نتقى من قديم كان موجوداً . فجميع الخبرات ملك للمجتمع فى نهاية المطاف ولا يعدو أن يكون الأفراد مجرد أدوات يستخدمها المجتمع لخدمة مصالحه واهتماماته الخيرية .

ثالثاً - توضيحات بعض الأفراد ضرورة حتمية : وحيث إن المجتمع هو الأساس والجوهر ، بينما لا يعدو الأفراد أن يكونوا أدوات ووسائل لمجتمعهم ، فإن الفرد بالمجتمع لا يعدو أن يكون وسيلة لحماية المجتمع ورفع شأنه . والوسيلة يمكن أن يستغنى عنها ، بل يكون حرياً بها أن تلزم حدودها ولا تظن أنها الغاية وأن المجتمع ليس سوى وسيلة لرفاهيتها وسعادتها والتذاذها . فالجنود في المعركة يقومون بالذود عن وطنهم ويموتون في سبيله . والوالدان يضحيان من أجل أبنائهم بالسهر على راحتهم . وليس من شك في أن المجتمع الذي لا يقوم على التكافل بين أفرادهِ ، بل وعلى تضحية من تكون ثمة حاجة إلى تقديم تضحياتهم إليه ، فإنه يكون معرضاً للتفكك والانقسام على ذاته ولا يكون خليقاً بالبقاء والتقدم . ومن واجب المرابين أن يربوا الناشئة على هذه العقيدة حتى إذا ما استلزم الأمر تضحياتهم فإنهم يكونون على استعداد للتضحية براحتهم ومالهم بل وبحياتهم في سبيل المجموع .

وإذا نحن قارنا بين ما تذهب إليه التربية الأنانية والتربية الغيرية ، فإننا نجد أن لكل منهما براهينها الخليفة بالاعتبار والتقدير . من هنا فإن من الواجب أن نستخلص من كل منهما أفضل ما تأخذ به وتذهب إليه وأن نستخلص محصلة منهما دون مغالاة بالتحيز لصف الفرد أو لصف المجتمع ، فنحصل بذلك على تربية تكاملية تعمل على صيانة وخدمة الفرد والمجتمع على السواء والحفاظ على سويتهما .

★ ★ ★

الفصل الرابع عشر الثقافة وسوية الشخصية

الثقافة المعرفية وسوية الشخصية :

احتلت الثقافة المعرفية مكانة رئيسية في أنظار معظم الناس لدرجة أن الكثير منهم إذا تكروا لفظ ثقافة ، فإنهم يفهمونه بمعنى متطابق مع لفظ معرفة ، فهم يحصرون معنى الثقافة في النطاق المعرفي دون أن يدركوا فيه المقومات الثقافية الأخرى وهي مقومات رئيسية لا تقل في أهميتها عن المعرفة . ولعلنا نقوم فيما يلي بتقديم تلك المقومات التي يتضمنها لفظ ثقافة بالإضافة إلى المعرفة . والمقومات هي :

أولاً - المهارات التعبيرية : فالمعرفة هي الوقوف على الواقع الخارجي عن طريق حاسة أو أكثر من الحواس الخمس ، ثم تخزين جانب من تلك المدركات الحسية بالذاكرة ، ثم قيام المخيلة بتشكيل نتاجات تخيلية مستحدثة من المدركات والتكريات ، ثم تشكيل مفاهيم ذهنية مجردة ومعمّمة ، وهذه العمليات الإدراكية والتفكيرية والتخيلية والتصورية تعتبر ارتكازاً على القدرة الاستقبالية للواقع الخارجي أو للرموز التي تشير إليه . وواضح أن الاستقبال المعرفي مبين تمام المبينة للتصدير المعرفي . فما يقوم الكاتب بتأليفه ليس استقبالا معرفياً ، وإنما هو تصدير معرفي . والتصدير المعرفي قد يكون كلاماً منظوقاً ، أو كلاماً مكتوباً ، أو رموزاً منطوقة أو مشاهدة أو مسموعة كأن تكون أصواتاً أو أضواء ، كما قد تكون حركات أو ملامح وجه أو اتخاذ الجسم أوضاعاً معينة

أو غير ذلك من تصدير معرفي أو قصدي . والواقع أن الإنسان السوي هو ذلك الذي لا يتمتع بالاستقبال المعرفي فحسب ، بل إنه الممتع أيضاً بالتصدير المعرفي والقصدي . ولكننا لا نزع من لا يقوم بالتأليف لا يكون سوياً ، بل نقصد بالتصدير المعرفي والقصدي الأخذ والعطاء ، فيكون المرء قادراً على أن يكتسب خبرات من خارجيته ، كما يكون قادراً على تقديم جانب من خبراته إلى غيره من الأشخاص ، ويكون قادراً على الإفصاح عن مشاعره وأهدافه وقيمه .

ثانياً - المهارات الحركية : ونقصد بالمهارات الحركية تلك الأداءات التي يضطلع بها المرء بطريقة شبه لا شعورية بعد أن يكتسبها بطريقة شعورية وبوعي وتركيز ذهن . فالمهارة الحركية تستهدف أداء وظيفة أو وظائف معينة ويتم اكتسابها بالمرور في عمليات ذهنية مصحوبة أو متوازية مع عمليات أدائية باليدين فقط أو باليدين والرجلين أو بغير ذلك من القوام الخارجي بالجسم ، فالمرأة الريفية التي تحمل الجرة على رأسها ولا تسندها بيديها وتقطع المسافات وهي على هذه الحال دون أن تسقط منها على الأرض ، إنما تكون قد اكتسبت مهارة حركية تستخدم فيها رأسها ورجلتيها وجذعها . والمهارات الحركية متعددة الفئات . فمن المهارات الحركية ما يتعلق بالحياة اليومية ، ومنها ما يتعلق بالمهام المعرفية التصديرية . فالكاتب الذي يستخدم القلم يكون قد اكتسب مهارة حركية تتمثل في طريقة إمساكه بالقلم ووضع يده على الورق والحركات التي يأتيها بها . والكاتب الذي يستخدم الآلة الكاتبة في تصديره الثقافي ، يختلف عن الكاتب الذي يستخدم الكومبيوتر في هذا الصدد . وفنئ الطباعة الذي يقوم بطبع ما يكتبه المؤلف ،

يكون قد اكتسب مهارات حركية أخرى تتعلق بالآلات والأجهزة الإلكترونية المتقدمة ، وهو يختلف في هذا الصدد عن الفني الذي يستخدم لوحات جمع الحروف الرصاص . وقُل الشيء نفسه بإزاء المهارات الحركية العديدة التي تعتبر في الواقع من صميم الثقافة طالما أنها تستهدف أهدافاً تخدم الإنسان أو تساعد على الحياة بنجاح وتقدم . ولا شك أن الشخصية لا تكون متقنة إلا إذا هي اكتسبت مجموعة من المهارات التي تساعد على مساندة الحضارة والتكيف للظروف المحيطة بها . ولعلنا لا نبالغ إذا ما قلنا إن الشخصية التي لا تكتسب ما يساعد على انتهاز الحياة بنجاح ، لا تكون شخصية سوية . فنحن لا نحصر معنى السوية في سلامة الجهاز النفسي للمرء ، بل نمتد بمعنى السوية لكي يشمل الجوانب الإيجابية المتمثلة بصفة خاصة في مدى قدرة المرء على مواكبة المناخ الحضاري الذي يوجد به . فصاحب الجهاز النفسي السليم والاستعدادات الممتازة الذي لم يستثمر ذلك الجهاز النفسي وصانراً هذه الاستعدادات الممتازة لا يمكن اعتباره شخصية سوية .

ثالثاً - المهارات اللغوية : وبالإضافة إلى المعرفة والمهارات الحركية ، فإننا نذهب أيضاً إلى أن هناك نوعاً آخر من المهارات هو المهارات المتعلقة بالقدرة على إقامة علاقات بين المرء وغيره من أشخاص ، سواء كانوا أفراداً أم جماعات . من ذلك مثلاً مهارة التعرف على شخصية جديدة لم يسبق للمرء أن أقام علاقات بها ، وكذا مهارة إدارة اجتماع ، أو مهارة مخاطبة جمهور غير بخطة تثير وجدانهم ، أو مهارة إلقاء محاضرة أمام مجموعة من المنقذين ، أو مهارة التعليق على إحدى المباريات الرياضية ، أو مهارة إقناع الآخرين بوجهة نظر لم يكونوا مقتنعين بها قبلاً ، أو مهارة النقاش ومهاجمة الخصوم وتفنيد حججهم ، أو مهارة

التهديد وإلقاء الخوف في قلب العدو أو المعتدى . والمهارات العلائقية قد تكون سلبية أيضاً . فينخرط في إطار المهارات العلائقية القدرة على هدم علاقات اجتماعية كانت قائمة بين المرء وغيره من أفراد أو مجموعات لأسباب يراها وجيهة ، أو لأن استمرار قيام تلك العلاقات يهدد أمنه أو مستقبله أو أمن ذويه ومستقبلهم . وواضح مما سبق أن المهارات العلائقية تشكل قواما ثقافياً هاماً لا يمكن الإغضاء عنه أو التقليل من أهميته . وواضح أن الشخص الذي لا يستطيع أن يكتسب تلك المهارات العلائقية والتمكن منها لا يحسب ضمن الأسوياء ولا يكون بالتالي صاحب ثقافة أو مشاركاً في الحياة الثقافية .

رابعاً - تشرب وتذوق القيم الدينية والخلقية والجمالية واليتناسية : فليس من ينكر أن المشاعر الدينية والأخلاقية وتذوق الجمال في جميع جوانبه المنظورة والمسموعة والملموسة والمشمومة والمذاقة ، والوقوف على المناسب وغير المناسب من التصرفات والمواقف والعلاقات ومرعاتها في الحياة الخاصة والعامة ، لمما يشكل قواما هاماً من قوامات الثقافة . فمن يحرم من ذلك التشرب وهذا التذوق للقيم المتباينة ، سواء كانت قيماً دينية أم قيماً أخلاقية ، أم قيماً جمالية ، أم قيماً اجتماعية ، فإنه يكون إذن محروماً من اكتساب ركن أساسي من أركان الثقافة .

خامساً - توقع المستقبل ووضع الخطط في ضوء المتاح حالياً والممكن مستقبلاً : والثقافة لا تتضمن الواقع الراهن ، والمعرفة المستقاة من الماضي فحسب ، بل إنها تمتد إلى الواقع المستقبلي أيضاً . ويندرج في إطار هذا الجانب الثقافي ما يتسنى للمرء إبداعه أو التخطيط لوقائع مستقبلية ليس لها وجود في الوقت الحالي . فالشخص المنقذ لا يخضع لما تعلمه عليه الوقائع الراهنة

المحيطة به ، بل يتفاعل معها ويخلص من ذلك التفاعل إلى ابتكار أشكال جديدة لما سوف يحمله المستقبل ، أو لما سوف يصوغ المستقبل وفقه وإرادته . فالثقافة إذن ليست معرفة فحسب ، بل هي معرفة تبصيرية ، ووجدان منعطف ، وإرادة هادفة لتحقيق أهداف مستقبلية . والشخص السوي هو صاحب تلك النظرات والوجدانات والإرادات المستقبلية . أما من يعيش في إطار الحاضر فحسب ويخضع له ، فإنه لا يكون من السوية في شيء .

وبعد أن عرضنا لهذه المقومات الخمسة للثقافة - وهي التي سوف نعرض لكل منها تفصيلاً في الموضوعات التالية من هذا الفصل - فإن علينا أن نستعرض أهمية الثقافة المعرفية في تحقيق سوية الشخصية على النحو التالي :

أولاً - المعرفة هي مفتاح جميع جوانب الثقافة : فليس من شك في أن المرء يبدأ حياته بأن يطل على الواقع الخارجي من خلال حواسه الخمس . وكلما تقدم في النمو الثقافي ، فإنه يجد أن جوانب جديدة للثقافة تنفتح أمامه . فهو يجد أن من الضروري أن يستقبل المعرفة ثم ينطق ببعض ما يعرفه . ومع نموه ثقافياً ، فإن الإبانة لديه تتسع نطاقاً وتتعدد من حيث جوانبها وأهدافها ، ثم إنه يجد أن الحركات التي يبدئها جسمه يمكن أن توظف لتحقيق أهداف معينة ، وأن من الممكن صقلها ، بل ومن الممكن صياغتها في قوالب أدائية متباينة وعديدة ، ثم إنه يجد مجالاً آخر هو المجال العلائقي يفتح أمامه ، فيقيم علاقات مع الآخرين ويهدم علاقات يبنو عنها ويفر منها ، ثم إنه بالمعرفة يستطيع أن يتشرب القيم بأنواعها التي ذكرناها ، ثم إنه يجد أن الثقافة تتسع أيضاً لغزو المستقبل ، بل إنها تتسع أيضاً لما يمكن أن يبدعه من أفكار وأهداف وخطط يحيلها إلى واقع ، فيحيل المستقبل إلى حاضر جديد مابين للحاضر الذي يعيشه

اليوم . وباختصار فإن المعرفة هي مفتاح جميع المقومات الثقافية ،
ولكنها تتباين عما تتفق عنه تلك المقومات الثقافية التي نكرناها .

ثانياً - إن الناس يغير استثناء يقدرون المعرفة حق قدرها :
فكلما كان المرء أكثر معرفة ، كان بالتالي في نظر الناس خليقاً بأن
يكون أكثر سوية . فالاعتقاد السائد بين الغالبية العظمى من الناس ،
أن السوية بجميع أبحاثها تنبع من المعرفة ، ولقد سبق أن قال
(سقراط) إن الفضيلة علم والرذيلة جهل . وما يزال الكثير من الناس
يعتقدون أن ما يعرفه المرء يؤثر في سلوكه ، وأن المنحرفين إنما
يصدرون في انحرافاتهم عن جهلهم بالسبل القويمة . ولكن
(فرويد) بصفة خاصة قد برهن على أن المعرفة لا تنهض نريعة
كافية لإحراز السوية النفسية أو السوية السلوكية . فثمة ديناميات
أخرى غير الدينامية المعرفية تؤثر في مدى سوية المرء .

الثقافة الوجدانية وسوية الشخصية :

بينما تُعنى الثقافة المعرفية بتدريب العقل على التفكير السليم ،
فإن الثقافة الوجدانية تعنى بتدريب أحاسيس المرء الوجدانية على
التنوعات الوجدانية الرفيعة . ومن المعروف أن ثمة تنوعات
وجدانية متباينة لعلنا نقوم باستعراضها على النحو التالي :

أولاً - **التذوق الروحي** : وهذا النوع من التذوق الوجداني
ينصب على تشرب المرء روح الدين والاستمتاع بقيمه والتمسك
بها ، بحيث لا تصير العفة والطهارة وحب الإنسان أينما يكون
نتيجة للترهيب والتهديد والخوف من العواقب في الدنيا والآخرة ،
بل نتيجة الالتذاذ بتذوق القيم الروحية . والأمر هنا شبيه بالعزوف
عن القذارة لا لأنها تحمل معها بعض الأمراض ، بل لاعتقاد المرء
النظيف على أن يكون نظيفاً وأن من صفاته أنه ينبو عما هو قذر .
فالإلتذاذ بالنظافة هو الذي يحمل على التثبث بها وليس ما تحمله

القذارة من نتائج وخيمة على الصحة . والواقع أن الشخصية السوية
لا بد أن تكون قد تشربت التذوق الروحي منذ نعومة الأظفار .
وما يتشربه المرء ويتذوقه منذ طفولته يمكن أن يستمر في النمو
مع نمو شخصيته إذا ما استمر في النهل من ينابيع الروحانية
والمواظبة على ممارسة الطقوس الدينية كالصلاة والصوم
والعكوف على التأملات الروحية والمداومة على قراءة رسائل
السماء المتمثلة في الكتب المنزلة وما قام ويقوم به القادة الروحيون
بتدوينه من تأملات وشروح ونحوها . ومما لا شك فيه أن من يفتقد
التذوق الروحي ، يكون بالتالي قد فقد ركناً رئيسياً من أركان الثقافة
الوجدانية ، وبالتالي فإنه يكون قد فقد ركناً أساسياً من أركان السوية
الشخصية .

ثانياً - **التذوق الموسيقي** : الواقع أن التذوق الروحي يرتبط
ارتباطاً وثيقاً بالتذوق الموسيقي . فالشعائر الدينية بجميع الأديان
تتلبس بالأنغام الصوتية وحدها ، أو بالأنغام الصوتية المصاحبة
للأنغام الموسيقية التي تعزف على الأرباب أو بواسطة الدفوف
والأوتار ونحوها . ولكن هذا لا يعني أن التذوق الموسيقي لا يتم
إلا في نطاق التذوق الروحي . فالواقع أن التذوق الموسيقي له
قوامه الذاتي واستقلاله برغم أن التذوق الروحي يستعين به كعامل
مساعد لترغيب المتذوقين روحياً وجذبهم نحو التأمل والانسجام
النفسى الذي يعتبر سبيلاً إلى الانسجام الروحي . ومنذ القديم
والإنسان يتذوق الموسيقى بدءاً بهدير الأمواج ، وصفير الرياح ،
وشيقشة العصافير ، ونقيق الضفادع ، ثم بدأ الإنسان في اختراع
الآلات الموسيقية التي كان يقلد بها موسيقى الطبيعة ، ثم أخذ في
التطور بالحدف والإضافة والإبداع الموسيقي ، سواء بالغناء مع
ما يعزفه من ألحان ، أم بالعزف الموسيقي البحت . وما يزال

الموهوبون في الإبداع الموسيقي يقومون العديد من ابتكاراتهم الموسيقية ، فصارت هناك شخصيات موسيقية تميز كل شعب من شعوب الأرض . ومما لا شك فيه أن المرء لا يكون مكتمل السوية إلا إذا كان متذوقاً للأنغام فيطرب لسماعها . والتذوق الموسيقي قد يكون استقبالياً فحسب ، وذلك بأن يطرب المرء لسماع الموسيقى أو الغناء ، وقد يكون تصديرياً أيضاً إذا كانت لديه موهبة الإبداع الموسيقي فينشئ الحاناً غير مسبوقه . ومن الطبيعي أن المرء الذي يتذوق الأنغام ويشارك في إبداعها ، يكون على مستوى أعلى من حيث سويته النفسية من الشخص الذي يتذوقها بسماعها فحسب . ولكن الشخص الذي ينمو عن سماع الموسيقى والغناء أيًا كانت تلك الموسيقى أو هذا الغناء ، فإنه يكون فاقداً لجانب أساسي من جوانب سوية الشخصية .

ثالثاً - التذوق التشكيلي : وكما أن السمع يلعب دوراً خطيراً في التذوق الموسيقي وبالتالي في التذوق الوجداني ، فإن المشاهدة بالعينين تلعب دوراً مماثلاً يتبدى فيما يقع عليه بصر المرء من نسب وألوان . فمنذ قديم الزمان والإنسان يستمتع بالجمال الشكلي ، بل إن الكائنات الحية المتباينة كئفة أيضاً بالجمال المنظور . ومما لا شك فيه أن الجمال بكافة أنواعه يتبدى في جميع أنحاء الوجود . ونأسف إذ نقول إن الحضارة وإن كانت تسعى لتحقيق الجمال ، فإنها ترجّح كفة الفوائد على كفة الجمال . ومن الطبيعي أنها لو كانت قد عمدت إلى تحقيق التعادل بين الفائدة والجمال ، لكان الإنسان بالتالي أكثر سعادة . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة أن التربية والتعليم لا يوليان التذوق الوجداني عموماً والتذوق التشكيلي خصوصاً بما يستحقانه من اهتمام . فالمعلومات المفيدة تحظى بنصيب الأسد بالمناهج الدراسية . أما حصص الرسم فإنها قليلة ،

وكتيراً ما تجور عليها المناهج الدراسية المفيدة التي تقضى إلى تحصيل لمعلومات أكثر وأتقن . ولقد يعتبر اهتمام أحد الطلبة بالفنون التشكيلية مضیعة للوقت . والجدير بالذكر أن من يتذوق الجمال التشكيلي يكون خليفاً بنشر الجمال من حوله فيما يصفحه من أشياء ، وفي مظهره الشخصي دون نبو عن المؤلف المشساع .

رابعاً - التذوق التعبيري : وتقصده بهذا النوع من التذوق تذوق اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة استقبالياً وإرسالاً . فالشخص الذي يتقن التعبير عما يجول بخاطره من معان من جهة ، ويتقن الإصغاء إلى ما يقال له من جهة أخرى ، يكون متفوقاً فيما ينطق به وما ينطق به غيره . والواقع أن الكلام المنطوق والكلام المكتوب لا يحملان معاني فحسب ، بل يحملان موسيقى كلامية أيضاً . ومن المعروف أن اللغة بدأت في أفواه الناس تعبيراً عن الانفعالات قبل أن تصير أداة للتعبير عن المعاني . وعلى الرغم من أن اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة تُغنيان أولاً بالمعاني ، وثانياً بالأنغام الكلامية ، فإنهما سوف لا تنفضان يديهما من الاستعانة بالأنغام اللهم إلا في مجال المنطق والرياضيات . والتذوق التعبيري لا ينحصر في مجال اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى نطاق ملامح الوجه وقسماته والإشارات والإيماءات . ومن الطبيعي أن نضيف إلى ما يتصل بالجسم من تعبيرات تنوقية ما يتصل بحركات الجسم ككل متمثلاً في الرقص الفردي والرقص الجماعي . ولعلنا لا نخطئ إذا ما أضفنا إلى التذوق التعبيري تلك الحركات العسكرية والرياضية التي تشكل ما يمكن أن ننتعه بأنه موسيقى حركية . فمن يشاهد استعراضاً عسكرياً أو مباراة لكرة القدم ، إنما يكون متذوقاً لتلك الانسجامات الحركية التي يأتيها كل فرد بحيث تشكل تناغماً حركياً يستمتع به المشاهد والمتابع لتلك

الانغمات الحركية المثقفة التي لا تنبو بعضها عن بعض إذا كان تدريب المشتركين في الاستعراض أو المباراة على ما يرام . ومن الطبيعي أن الشخص الذي يكون على المستوى المناسب من التنوق التعبيري ، يكون بالتالي محظوظاً بالمسوية النفسية . وعلى العكس فإن الشخص المحروم من هذا النوع من التنوق ، تكون مسويته النفسية مهترئة أو منحرفة .

خامساً - التنوق الأدائي : وهذا النوع من التنوق ينصب على ما يضطلع به المرء من أعمال . فكل عمل يؤدي بحمل في طياته سيقاً أو نهجاً أو انسجاماً يحس به من يقته . فالواقع أن كل عمل يتكون من جزئيات أو من سلسلة من العمليات . وكلما كان المؤدى للعمل على جانب أكبر من التنوق الأدائي ، فإنه يكون خليقاً إنز بإدخال التعديلات بالإضافة والحذف بحيث يحقق للسياق الأدائي مستوى أعلى من الانسجام . وأكثر من هذا فإن المؤدى للعمل يركز اهتمامه على تنمية المهارات الأدائية التي اكتسبها ، فهو يضيف مهارات جديدة إلى المهارات التي سبق له اكتسابها كما أنه لا يظل على الوتيرة ذاتها في أداء المهارات التي اكتسبها ، بل يعمد إلى تعديلها حتى تتناسب التطورات التي حدثت في نطاق العمل نفسه من جهة ، وحتى يحقق انسجاماً أكبر سواء في الحركات المستخدمة في الأداء ، أم في العمليات التي يشترك في أدائها مع أشخاص آخرين من جهة أخرى . وواضح أن العامل في أي موقع من مواقع العمل ، إذا لم يكن متمتعاً بالتنوق الأدائي ، فإن ذلك يشير إلى نقص في ثقافته الوجدانية مما يؤثر في مدى مسوية شخصيته .

وبعد استعراضنا لهذه الأنواع الخمسة من التنوقات الوجدانية التي تتضمنها الثقافة الوجدانية ، فإن علينا أخيراً أن نعرض للعوامل التي تساعد على اكتساب هذا النوع من الثقافة الوجدانية على النحو التالي :

أولاً - التدريب الاستقبالي والتدريب التصديري : فمن الخطأ قصر لفظ « تدريب » على الممارسات الحركية . ذلك أن التنوقات الوجدانية لا تكتسب بالتلقائية والعفوية فحسب ، بل إنها تكتسب أيضاً على نحو أفضل وأكثر ضماناً إذا ما خضعت لبرنامج تدريبي يتسم بالاستمرارية من جهة ، وبالدفقة من جهة أخرى . صحيح إن التلقائية والعفوية تلعبان دوراً كبيراً في الثقافة الوجدانية ، ولكن الكثير من الناس لا يستفيدون من تركهم للمصادفات بينما يكونون حاملين في قوامهم الكثير من الاستعدادات الطيبة للتنوقات الوجدانية الاستقبالية والتصديرية على السواء . ومن المؤكد أن لدى المختصين بالثقافة الوجدانية الكثير من تلك التدريبات التي تعمل على إخراج ما يكمن بخيلة من يقومون بتدريبهم إلى حيز الواقع السلوكي . وحبذا لو توافر نوع من التوازي فيما بين الاستقبال التنوقي وبين التصدير التنوقي حتى تكتمل شخصيات المتدربين على الثقافة الوجدانية .

ثانياً - توفير الإمكانات الأدائية للتثقيف الوجداني : فالتدريبات التي تعد ضرورية لكسب الناشئة والراشدين الثقافة الوجدانية تعتمد بالضرورة على الوسائل التي تستخدم ، سواء في الاستقبال التنوقي أم في التصدير التنوقي . فبغير توافر الأجهزة والخامات والأماكن المناسبة للأداء ، وبغير توفير الوقت المناسب والمناخ التربوي المؤثر لتحقيق التثقيف الوجداني ، فإن الناشئة والراشدين لا يستطيعون صقل وجداناتهم واستثمار مواهبهم وإخراج مكنونات استعداداتهم من حيز الكمون إلى حيز الواقع السلوكي .

ثالثاً - توافر المربين المتمكنين من التربية الوجدانية : فلا بد من إعداد المعلمين المجيدين والمتمكنين من شخصياتهم الناشئة



ووقفهم على خطورة التدوق الوجداني في حياتهم ، وحملهم على الاعتقاد في أن التربية الوجدانية والتثقيف الوجداني هما الطريق إلى السعادة وإلى النجاح في جميع مناحي الحياة والشعور بقيمة الوجود والعمل على جعل الحياة أبهى وأجمل ومصدرًا للبهجة والانسجام الذاتي وتحقيق تكامل الشخصية . وثمة في الواقع فنون تربية للتثقيف الوجداني تتباين عن فنون التعليم التقليدي . وحتى بالنسبة لتقييم المستويات التي يبلغها المتعلم في هذا النوع من التربية الوجدانية ، فإنه يختلف اختلافًا جوهريًا عن تقييم الرياضيات والعلوم . فهو تقييم كفي وليس تقييمًا كميًا . ونأسف إذ نقول إن مدرسي التربية الفنية والتربية الموسيقية يأخذون بالتقييم بالدرجات بنهاية عظمى ونهاية صغرى كالشأن بالنسبة لتقييم الرياضيات والعلوم . ومن الواضح أن تطورات هامة كثيرة ينبغي أن تدخل في مناهج الكليات التي يتخرج فيها معلمو التربية الفنية والتربية الموسيقية على السواء .

الثقافة المهارية وسوية الشخصية :

هل الثقافة المعرفية سابقة على الثقافة المهارية ، أم أن الثقافة المهارية سابقة على الثقافة المعرفية ؟ إن هذا السؤال شبيه بالسؤال المشهور الذي يثار وتصعب الإجابة عنه وهو : هل البيضة سابقة في وجودها عن وجود الدجاجة ، أم أن الدجاجة سابقة في وجودها عن وجود البيضة ؟ ، فالإجابة عن هذين السؤالين متعذرة ، ولراحة البال نقول إن ثمة تضاف بين الطرفين في كل من السؤالين . والتضاف مثل الأمومة والبنوة ، فلولا الأمومة ما كانت بنوة ، ولولا البنوة ما كانت أمومة ، تمامًا كما أنه بدون البيضة ما كان هناك وجود للدجاجة ، وأيضًا بدون وجود للدجاجة ما كان هناك بيض . وعلى النحو نفسه نقول إنه لولا الثقافة

المعرفية ما كان هناك وجود إذن للثقافة المهارية ، ومن جهة أخرى فلولا وجود المهارة الحركية ما كان هناك وجود للثقافة المعرفية . وبعبارة أخرى فإننا لا نستطيع أن نرجح كفة المعرفة على كفة المهارة الحركية ، كما أننا لا نستطيع أن نرجح كفة المهارة الحركية على كفة المعرفة . فنحن لكي نعرف لا بد أن نمارس أو نتخيل أننا نمارس أو نستقري ما سبق لغيرنا ممارسته ، كما أننا لكي نمارس نشاطًا عمليًا من أي نوع ، فلا بد أن نعرف ما نقبل على ممارسته قبل الشروع فيه . خذ مثالًا بما أنا فاعله الآن في تأليف هذا الكلام الذي أقوم بتسطيره على الورق . فلولا معرفتي بما أقوم بكتابته ما كنت إذن أستطيع الكتابة ، ولكن من جهة أخرى فلولا العملية الكتابية المهارية ما كان لذهني أن يتفقق عن المعاني التي أحاول التعبير عنها بالكتابة . فكما أن المعرفة تحفزني على الكتابة ، كذا فإن الكتابة نفسها تستثير الفكر وتحفز المعرفة . وشأننا هنا كشأن من يقوم بقيادة سيارة . فلولا معرفة قائد السيارة بالعمليات التي يضطلع بها لقيادتها ، ما كان له إذن أن يقودها ، ولولا الإمكانية العملية وتوافرها وهي الإمكانية المتمثلة في وجود السيارة وإمكانية تشغيلها وتسييرها ، ما كان لتلك المعرفة التي حازها قائدها أن تعمل عملها ويتأتى عنها قيادة السيارة بالفعل وتسييرها .

وبعد أن أوضحنا ما بين الثقافة المعرفية والثقافة المهارية من تفاعل تبادلي أو تضاف ، يحسن بنا أن نقوم بإلقاء الضوء على العلاقة فيما بين الثقافة المهارية وبين سوية الشخصية ، فنجد أن هذه العلاقة تتحدد على النحو التالي :

أولاً - المهارات الحركية وتحقيق الذاتية : من المؤكد أن السوية النفسية لا تتحقق إلا بتحقيق الذاتية وإظهار هوية العرء

وقوامه المنفرد . وهذا لا يتأتى إلا بالتأثر والتأثير . والتأثر يتم بالمعرفة واكتساب الخبرات المتباينة التي تندرج المهارات الحركية في إطارها . أما التأثير فإنه يتم عن طريق إحداث تغييرات في المقومات البيئية التي يتناولها المرء فيحقق عن طريق التأثير فيها قدرته التأثيرية . وكلما استطاع المرء أن يتعامل بالمهارات التي اكتسبها بالتأثير في الأشياء من حوله في سبيل تحقيق أهداف معينة ، كان بالتالي أكثر سوية . وتعبير آخر نقول إن الشخص الذي لم يكتسب مجموعة كافية من المهارات الحركية ، يكون بالتالي شخصاً عاجزاً عن تحقيق ذاتيته ، كما يكون عاجزاً عن تحقيق سويته النفسية .

ثانياً - المهارات الحركية والتوافق الاجتماعي : إن الفرد من أفراد الناس في أي مجتمع من المجتمعات البشرية ، بل إن الفرد من أفراد الكائنات الحية في أي مجتمع من مجتمعات النوع الذي ينتمي إليه ، لا يكتسب قيمته ، ولا تتحقق انتمائته ، ولا يحقق تواقفه وتكيفه لمجتمعه الذي ينخرط فيه إلا إذا هو اكتسب مجموعة مناسبة لموقعه به من المهارات الحركية ومارس استثمارها واستخدامها لخدمة ذلك المجتمع . وإذا نحن أخذنا في اعتبارنا أن كل حركة إرادية يأتيها المرء لتحقيق هدف اجتماعي ما إنما هي خبرة مهارية حركية ، فإننا ندرك بالتالي أن المهارات الحركية ضرورة لازمة للمرء لكي يتواءم مع مجتمعه . وكلما كانت المهارات الحركية التي يحصل عليها أكثر كمّاً وأكثر تنوعاً وإتقاناً ، فإنه يكون بالتالي أكثر قدرة على تحقيق قدر أكبر من التكيف لمجتمعه الذي ينخرط فيه . ولعلنا لا نخطئ إذا ما أدرجنا الكلام والكتابة ضمن المهارات الحركية . فالخطيب لا يقف أمام من يخطب فيهم يفكر دون حراك ، بل هو يستخدم مجموعة من

المهارات الحركية سواء كانت حركات ظاهرة ببديه وبملاصحه وجهه وبأوضاع جسمه ، أم كانت حركات غير ظاهرة كذلك التي يحدثها في أحباله الصوتية فيرتفع صوته أو ينخفض أو تعلو طبقاته أو تنخفض . فتلك الحركات الداخلية لا تظهر للعيان ولكن تظهر نتائجها فيما يبدو أمام المستمعين إليه . وإذا كان هذا هو حال الخطيب ، فإنه أيضاً حال الكاتب سواء أمسك بالقلم وكتب به ، أم كتب على الآلة الكاتبة ، أم كتب على الكمبيوتر . وهو أيضاً حال النحات أو الفنان التشكيلي ، بل إنه حال الصانع وقائد السيارة والطيار وكل شخص في أي موقع من مواقع الحياة الاجتماعية . فإكتساب المهارات الحركية المتباينة ليس ترفاً يفتريا به بعض الناس دون البعض الآخر منهم ، بل هو ضرورة حتمية لكي يصير المرء صالحاً للانخراط في المجتمع والانسجام معه بنجاح وفاعلية . ومما لا شك فيه أنه بغير إحراز الحد الأدنى من ذلك الانسجام مع المجتمع الذي ينخرط فيه المرء ويكون ذا فاعلية فيه ، فإنه لا يكون بالتالي من الأسوياء لا في نظر الآخرين من حوله فحسب ، بل وفي نظره شخصياً أيضاً إلى نفسه .

ثالثاً - المهارات الحركية وإنتاجية المرء : والمهارات الحركية تكفل للمرء أيضاً أن يكون عضواً منتجاً بالمجتمع الذي يوجد به . والواقع أن الإنتاجية قد اكتسبت معنى أوسع من مجرد إنتاج سلع في مصنع ، فصار الإنتاج يعني العمليات التي ينجزها المرء ، سواء كانت عمليات متصلة بالأشياء المحسوسة ، أم عمليات متصلة بالخدمات أم بالفنون والآداب ، بل يعني أيضاً العمليات السلبية . فرجل الشرطة يتبدى إنتاجه في التحول بين الخارجين على القانون واقتراح الجرائم أو الحد من نشاطهم أو تنفيذ أحكام القانون ضدهم . ومعنى هذا أن الإنتاج قد يكون إيجابياً

كما هو الحال في إنتاج العامل والموظف ، وقد يكون الإنتاج سلبياً كإنتاج الشرطي والقاضي . وقد يكون الإنتاج بتعليم الآخرين فنون الإنتاج ، كما قد يكون بتهديب أخلاقهم وبكسبهم اتجاهات معينة في الحياة الاجتماعية . وكل أنواع الإنتاج التي نذكرها والتي لم نذكرها تتطلب أن يكون الشخص المنتج قد اكتسب مجموعة من المهارات الحركية الضرورية لما يقوم بإنتاجه . وكلما كان المرء حائزاً على المهارات الحركية المناسبة لما يقوم بإنتاجه ، كان بالنال أكثر سويةً وممتعاً بالصحة النفسية المكيّنة .

رابعاً - المهارات الحركية وتجديد الطاقة الحيوية للمرء :
من المعروف أن الطاقة الحيوية في القوام البيولوجي للمرء أشبه ما تكون بمياه النهر التي ينبغي أن تتحدد باستمرار وإلا فإنها تصير مياهاً أسنة لا تصلح للشرب أو للرى . كذا فإذا لم تصرف الطاقة الحيوية المتدفقة في قوام المرء في أنشطة حركية متباعدة ، فإنها تفسد وتكون ضارة بحياته البيولوجية والسيكولوجية جميعاً . فالمرء الذي لا يستنفذ الطاقة القديمة لكي تحل محلها طاقة جديدة إنما يكون معرضاً للإصابة بالمرض النفسي وبالخمول الذهني . ولعل من أفضل الطرق التي يصرف بها المرء طاقته الحيوية حتى يتسنى تجديدها بطاقة حيوية جديدة هو ممارسته للمهارات الحركية المتباعدة . ولعل إنسان الحضارة يكون بحاجة إلى ممارسة الألعاب الرياضية لأنه لا يجد أمامه الفرصة الكافية لاستنفاد طاقته الحيوية في الأعمال التي يضطلع بها ، فيمارس الرياضة لاستكمال ما حَرَمه منه عمله الذي ينهض به وهو جالس إلى مكتبه بغير حركة كافية . فمثل هذا الشخص إذا لم يمارس الرياضة بما تتضمنه من مهارات حركية متباعدة ، فإنه يكون معرضاً للإصابة بالاكنتاب أو بغير ذلك من أمراض نفسية .

خامساً - المهارات الحركية والتخلص من المكبوتات اللاشعورية : فقد وقف المعالجون النفسيون على العلاقة بين ما تتضمنه المهارات الحركية وبين التنفيس عما يكون المرء قد كبت في لاشعوره من ركامات نفسية خبيثة يمكن أن تقضى إلى إصابته بالمرض النفسي . فعن طريق ممارسة المهارات الحركية المتباعدة ، يكون من الممكن بالتالي التخلص من تلك المكبوتات اللا شعورية الضارة بالصحة النفسية وأيضاً بالصحة الجسمية . وليس يخاف ما بين هذين النوعين من الصحة من تفاعلات وعلاقات ووشائج مكيّنة . فالنظرة الحديثة إلى الصحة تربط بين صحة المرء الجسمية وصحته النفسية ، على أساس أن الصحة الجسمية تؤثر في الصحة النفسية ، وأن الصحة النفسية تؤثر في الصحة الجسمية .

وعلينا في نهاية المطاف أن نستعرض العقبات التي تقف حائلاً بين المرء وبين اكتساب المهارات الحركية الكافية لتحقيق سويته النفسية . فنجد أن تلك العقبات يمكن أن تتحدد على النحو التالي :

أولاً - الإحتياز للفكر ضد المهارات الحركية : فمنذ القدم وحتى عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو أي في نطاق الحضارة الإغريقية القديمة التي سادت أفكارها وانتشرت بين ربوع العالم وما تزال تنتشر وتسيطر على عقول وقلوب الناس ، اضطهد العمل اليدوي ونيط بالعبيد ، أما السادة فإنهم كانوا خليقين بالتفكير والترعب في سمت الرئاسة يأمرن العاملين فيعملون . وإنك لتجد (أفلاطون) في جمهوريته يقسم الناس إلى ثلاث فئات : فئة الفلاسفة وهم يشبهون الرأس المفكر ، وفئة الجنود وهم يشبهون القلب بما يوج فيه من انفعالات ، وفئة الصناع والفلاحين وهم يشبهون البطن وما يعتمل فيها من شهوات للأكل والجنس . والواقع أن هذه النظرة

المتحيزة للعقل هي التي أسرت النظم التعليمية ، فنجد التلاميذ يكسبون بحجرات الدراسة معظم اليوم المدرسي ويحرم عليهم الحركة والنشاط الجسمي . وكلما كان التلميذ أكثر عزوفاً عن النشاط الحركي وعن ممارسة الألعاب الرياضية وعن اكتساب المهارات الحركية ، كان هذا أدعى إلى امتداحه وتقديره . فالمهم ما يكتسبه من معرفة وليس ما يكتسبه من مهارات حركية .

ثانياً - إتاحة المهارات الحركية بالآلات : فكلمة تقدمت الحضارة ، فإن الآلة تسقولي على أزمّة الأعمال التي تحتاج إلى ممارسة مهارات حركية . وليس بخاف أن الروبوت في الطريق وهو الذي سوف يكتسح معظم المجالات التي تحتاج إلى استثمار المهارات الحركية والتذرع بها في ممارسة المهام العملية . وحتى ما تستخدم فيه بعض المهارات الحركية مثل قيادة السيارة أو الطائرة ، فإنه في المقابل يقضى على مجموعة كبيرة من المهارات الحركية التي كان الإنسان القديم يستعين بها في ممارسة أعماله . ناهيك عن ضيق المساكن وازدحام الطرق والاستغناء عن المتنزهات والساحات الشعبية الرياضية . فإنسان الحضارة مكتوف اليدين ومحصور في حيز مكاني ضيق يتحرك فيه بالكاد ، وبالتالي فإنه محروم من ممارسة المهارات الحركية اللازمة لتجديد نشاطه وللحفاظ على سويته النفسية .

ثالثاً - السعي وراء لقمة العيش ومصادر الرزق : فالإنسان قديماً كان في مسعاه لنيل رزقه يمارس المهارات الحركية ، أو قل إنه كان يكتسبها لأنها الوسيلة الفعالة في كسب رزقه . وكلما كان المرء يحصل قديماً على مهارات حركية أكثر ، كان يحتل بالتالي مكانة أرفع في مجال العمل . ولكن هذا الحال تبدل أو قل إنه انحصر

في نطاق ضيق للغاية . فمعظم الأعمال المرموقة في ظل الحضارة المتقدمة لا تحتاج إلا إلى قليل من المهارات الحركية . ولعلنا نضيف إلى هذا أن المهارات الحركية التي تتضمنها الأعمال المتباينة في ظل الحضارة محصورة في نطاق ضيق . فمثلاً الكتابة على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ليست بحاجة إلا إلى تحريك أصابع اليدين . وكذا الآلات الحاسبة وقيادة السيارة أو الطائرة . أما العضلات الكبيرة بالجسم فإنها في الغالب قد أوكل ما كانت تصطلع به قديماً إلى الآلات . وحتى بالنسبة للمهارات الحركية البسيطة التي يقوم بها إنسان الحضارة اليوم سوف توكل في المدى القريب إلى الروبوتس .

الثقافة العلائقية وسوية الشخصية :

نقصد بالثقافة العلائقية تلك العمليات التي تساعد المرء على إقامة علاقات جديدة لم تكن موجودة بينه وبين شخص آخر ، أو بينه وبين مجموعة تشكل فئة وشخصية جماعية معينة ، والتي تساعده أيضاً على تقوية أو إضعاف علاقات معينة بينه وبين فرد أو جماعة ، وعلى شجب أو هدم علاقات معينة بينه وبين شخص أو مجموعة لأسباب يرتئها وجيهة تحمله على ذلك الشجب أو الهدم . ويتعبير آخر فإن الثقافة العلائقية هي الفنون التي يكتسبها المرء بإزاء العلاقات بينه وبين غيره من أشخاص ، وتسييس تلك العلاقات بمهارة وإتقان وتبصر .

ولعلنا فيما يلي نقوم بتفحص هذه الثقافة العلائقية حتى نستبين أنحاءها ومقوماتها ، فنجد أنها تتضمن الأنحاء والمقومات التالية على النحو التالي :

أولاً - التناغم الوجداني : ونقصد به الوقوف على النعمة الوجدانية السائدة عند الشخص أو الجماعة التي يرغب المرء إقامة

علاقات جديدة لم تكن قائمة من قبل معه أو معها ، أو الشخص أو الجماعة التي يريد المرء تقوية أو إضعاف العلاقات القائمة بينه وبينها بالفعل ، أو الشخص أو الجماعة التي يريد المرء تقويض العلاقات القائمة بينهما . ذلك أن الوقوف على النعمة الوجدانية السائدة لدى الطرف الآخر الذي يراد إنشاء علاقات جديدة أو تقوية علاقات أو تقويض علاقات معه يعتبر بمثابة أول الخيط الذي يجب الإمساك به والبدء منه . فحتى بالنسبة لمن يريد المرء تقويض العلاقات القائمة بالفعل معه ، فلا بد من البدء بذلك التناغم الوجداني ، أي الوقوف وجدانياً على النعمة الوجدانية التي جمعتهما بعضهما مع بعض في خط علائقي واحد . ولسنا نخطئ إذا ما قلنا إن للعلاقات الاجتماعية العلائقية لغة وجدانية شبيهة باللغة العقلانية ولكنها لا تفهم بالمنطق العقلاني ، بل تحس بالمشاعر الوجدانية .

فثمة لغة تتحدث بها القلوب ، شبيهة باللغة التي تتصل العقول عن طريقها . فلا بد من التلاحم الوجداني قبل الانقراض على العلاقة الوجدانية وتقويض أركانها . وتعبير آخر فإن من يراد تقويض العلاقات معه من أشخاص لا بد أن تلتحم وجدانات المرء مع وجداناته قبل الإجهاز على تلك العلاقات . والشأن هنا شبيه بالمفروعات التي تهدم المباني التي يراد نسفها لإجلال مبان جديدة محلها . فلا بد من عمليات التوصيل بين السلكين اللذين إذا ما تلامسا فإن الإنفجار يحدث . ومعنى هذا أن الاتصال الوجداني بين المرء وبين غيره ضروري في جميع الحالات التي ذكرناها وهو ما أسميناه بالتناغم الوجداني حتى يتسنى إحداث النتيجة المطلوبة بإزاء العلاقات الجديدة أو العلاقات القائمة بالفعل .

ثانياً - القدرة على استمرارية الهدم والبناء العلائقيين : وكما أن الحياة البيولوجية تعتمد على عمليتين حيويتين أساسيتين

هما عملية الهدم وعملية البناء ، كذا فإن العلاقات الاجتماعية في مسيرتها تعتمد على عمليتي هدم وبناء علائقيتين . فثمة علاقات اجتماعية تنهدم ، وعلاقات اجتماعية أخرى تنبنى . ويخطئ من يعتقد في استاتيكية العلاقات الاجتماعية ، بمعنى الثبات بنفس الدرجة من القوة والمتانة . فما ينشأ من علاقات اجتماعية شأنه شأن ما يحدث بالنسبة للكائن الحي من ميلاد ونمو ثم توقف عن النمو ثم الموت . وكما أن بعض الكائنات الحية تموت قبل الشيخوخة ، كذا فإن من بين العلاقات الاجتماعية ما ينهدم قبل الأوان أو لسبب مفاجئ . فمن مقومات الثقافة العلائقية الوقوف على هذه الحقيقة وهضمها وأخذها في الاعتبار ووضعها نصب الأعين . فمن يعرف طبيعة العلاقات الاجتماعية ودينامياتها ، فإنه يتعامل معها على هذا الأساس ويكون بمقدوره أن يكتسب المهارات اللازمة لتسييس تلك العلاقات الاجتماعية بحيث يكون واعياً بما ينبغي إقامته منها لم يكن قائماً قبل ذلك ، وبما ينبغي تقويته أو إضعافه منها موجود بالفعل ، وبما ينبغي تقويض أركانها منها . والحكيم من يستطيع أن يمسك بزمام الموقف العلائقي ، والأ يدع الفرصة للعفوية والمصادفة تعبت بمصير قدرته العلائقية قيماً يقيمه أو يقويه أو يضعفه أو يفوضه من علاقات ، بل يكون ممسكاً بأزمة تلك العلاقات ويوجهها الوجهات التي يراها مناسبة أو مفيدة لحاضره ومستقبله معاً .

ثالثاً - القدرة على ترتيب الأولويات العلائقية : والثقافة العلائقية تعني أيضاً اكتساب المرء للقدرة على ترتيب العلاقات الاجتماعية الممكنة والقائمة والمراد تقويضها وفق جدول أولويات . فثمة ترتيب للأولويات الإيجابية من جهة ، وثمة ترتيب للأولويات السلبية من جهة أخرى ، فجدول الأولويات الإيجابية ترتب فيه العلاقات التي يجب إنشاؤها أو تقويتها . أما جدول

الأولويات السلبية فإنه يرتب العلاقات التي يجب البدء في إضعافها أو تقويضها . ومعنى هذا في الواقع أن على المرء أن يتذرع بنظرة قبلية ، أو بتعبير آخر أن عنصر الوعي يلعب دوراً هاماً في ترتيب الأولويات الإيجابية والأولويات السلبية على السواء . والواقع أن قيام المرء بوضع الجدول الإيجابي والجدول السلبي اللذين يتضمنان أولويات البناء وأولويات الهدم بإزاء العلاقات بين المرء وبغيره لا يكون نهائياً لا يقبل التعديل ، بل إن المرء الواعي والمتصر بالواقع من حوله يقوم بتعديل جدول ترتيب الأولويات في ضوء المستجدات التي تحدث في الواقع الاجتماعي من حوله . ذلك أن المجتمع من حول المرء في تغير مستمر . ومن يريد أن يتعامل معه بنجاح ، عليه أن يعدل من خططه باستمرار بحيث تتواءم تلك الخطط مع التغيرات المتدفقة من حوله . ومن الطبيعي أن يتواكب هذا الترتيب مع الخطوات التنفيذية التي يتخذها المرء بعد قيامه بذلك الترتيب .

رابعاً - التذرع بالنظرة الموضوعية الواقعية : فمن مقومات الثقافة العلائقية عدم الميل مع الهوى في تقييم العلاقات الاجتماعية ، سواء كانت علاقات قائمة بالفعل ، أم كانت علاقات سوف تقام . ومعنى هذا أن على المرء أن يكون ذا بصيرة مستقبلية ، فيقوم بتحليل العلاقات التي سوف يقوم بإنشائها قبل أن يقيمها بالفعل . فهذه النظرة المستقبلية ضرورية ولكنها يجب أن تكون نظرة مستقبلية موضوعية وواقعية وتبصيرية بما سوف تحمله العلاقات التي يتم إنشاؤها من نتائج تتعلق بالمرء نفسه ، أو بغيره من أشخاص . ويجب ألا يكون هذا التوقع المستقبلي وما يستشف من نتائج سوف تتأتى عن قيام العلاقات الجديدة منصّباً على ما يحمل في طياته الفائدة وما يحمل الضرر فحسب ، بل يجب

إقامة الاعتبار أيضاً للجميل والقيح ، وللمناسب وغير المناسب ، وللخير والشرير . وبتعبير آخر فإن التذرع بالنظرة الموضوعية الواقعية يجب أن يقيم الاعتبار لجميع الزوايا والاعتبارات التي يمكن أن تحملها تلك العلاقات المزمع إقامتها بين المرء وبين غيره من أفراد ومجموعات .

خامساً - التخلص من الركامات اللاشعورية : فالثقافة العلائقية تهدف إلى التخلص من العوامل اللاشعورية التي تنحو بالمرء إلى الانحرافات النفسية المتباعدة ، والتي يكون من نتاجها التخطيط في إقامة وتقوية أو إضعاف أو هدم العلاقات الاجتماعية . ذلك أن تلك الركامات اللاشعورية تعمل على الإنحراف فيما يقوم المرء بتقييمه من علاقات موجودة أو سوف توجد على السواء . فالمرضى النفسيون لا يتسنى لهم التخطيط بإزاء ما سوف ينشئونه من علاقات اجتماعية أو ما سوف يعملون إلى تقويته أو إضعافه أو تقويضه منها بموضوعية وفعاليتها ، بل إنهم إذا ما قاموا بالتخطيط فإن خططهم تأتي شائبة ومتخبطة ومتناقضة بعضها مع بعض . فهم يبنون في أذهانهم علاقات من جهة ، ويقومون بهدمها أيضاً في أذهانهم من جهة أخرى . فهم لا يتبينون طريقهم سواء في التفكير أم في التنفيذ ، وذلك لأن المقومات اللاشعورية المنحرفة تعمى بصائرهم وتحركهم كما نشاء وتغلب لديهم الرغبات المجنونة على الحاجات الشخصية إلى إقامة علاقات مفيدة وجيدة . وهم في الغالب ينحون إلى هدم العلاقات القائمة بالفعل ولا يتسنى لهم أن يقوموا بتشييد علاقات إيجابية جديدة . وبتعبير آخر فإن الانحراف عن السوية يحزم المرء من الاستحواذ على ثقافة علائقية مكنية .

وعلينا في نهاية المطاف أن نستعرض الأعراض التي تتأني عن الانحراف عن السوية وهي التي يمكن استعراضها على النحو التالي :

أولاً - ترجيح الرغبات على الحاجات : فالرغبات تتركز في اللحظة الراهنة ، أما الحاجات فإنها تتعلق بالمستقبل وبما سوف يتأتى عن اتخاذ مواقف أو إجراءات معينة من نتائج . والشخص المنحرف عن السوية ينحو إلى تفضيل رغباته على حاجاته . صحيح إن الرغبة قد تتطابق وتتسجم مع الحاجة في بعض الأحيان ، ولكنها قد تتعارض معها في أحيان أخرى ، ومن ثم فإنه في حالة وجود تعارض بين الرغبة والحاجة ، فإن الشخص المنحرف عن السوية ينحاز إلى الرغبة ويضرب صفحاً عن الحاجة . والشهوات تحتل مكان الصدارة في الرغبات ، ومن ثم فإن المنحرف نفسياً يغرق في لجة شهواته ويعمى عن مشاهدة ما يحتاج إليه في حاضره ومستقبله جميعاً .

ثانياً - الخضوع للانفعالات : ومن مظاهر الانحراف عن السوية الاستغراق في الانفعالات وعدم القدرة على كبح جماحها والتخفف من غلوئها . فالشخص المنحرف عن السوية لا يستطيع إجماع انفعالاته المسيطرة عليه . فهو قد يقوم وهو تحت وطأة الانفعالات بهدم وتقويض علاقات اجتماعية ذات قيمة كبيرة لحاضره ومستقبله . فهو لا يبقى ولا يذر ، بل يندفع في عمليات الهدم لما هو قائم من علاقات ، كما يندفع في عمليات تشييد علاقات جديدة لم يكن من المناسب إقامتها دون تبصر بالحاضر والمستقبل جميعاً . فهو رهن اللحظة التي يحياها هنا والآن ، ومن ثم فإنه يعجز عن التطلع إلى نتائج الخطوات التي يتخذها .

ثالثاً - العجز عن إقامة علاقات جديدة أو تقوية أو إضعاف أو تقويض علاقات قائمة بالفعل : فمن أعراض الانحراف النفسي وقوف المرء مكتوف اليدين فلا يقدم ولا يؤخر ، ولا يتسنى له اتخاذ أى خطوة بإزاء العلاقات الموجودة أو العلاقات التي يجب تقويتها أو إضعافها أو هدمها . فيكون شخص كهذا بحاجة إلى من يقوم بتوجيهه بسبب عجزه ، وبذا فإنه يكون عاجزاً عن تسيير حياته وعلاقاته بالآخرين ، ويكون بالتالي تحت رحمة من يقومون بتوجيهه بإزاء العلاقات بينه وبين غيره من أشخاص أو جماعات ، فيكون بذلك منعدم الشخصية وفاقداً الثقة بنفسه ، وبالعلاقات التي لم يكن له يد في إقامتها بينه وبين الآخرين .

الثقافة المستقبلية وسوية الشخصية :

سبق أن ألمحنا في أكثر من موضع إلى أهمية النظرة المستقبلية للمرء المثقف ، وبالتالي للإنسان السوي . ولقد اتضح من معالجتنا لموضوع الثقافة أننا ننهج نهجاً ديموقراطياً في فهمنا لمعنى الثقافة . فنجد أن الكثيرين ممن يتناولون موضوع الثقافة يركزون ذهنهم ومفهومهم على المعنى المعرفي مهملين باقى الجوانب التي نرى أنها جوهرية في قوام الثقافة ، وهي الجانب الوجداني ، والجانب المهارى ، والجانب التعبيري ، والجانب العلائقي ، وأخيراً الجانب المستقبلى . وسوف نركز كلامنا هنا على هذا الجانب المستقبلى . والواقع أن الإنسان بطبعه ينظر إلى الزمان بأضلاعه الثلاثة . فهو ينظر إلى الماضى والحاضر والمستقبل . ولعلنا نزع من الإنسان يختلف اختلافاً جوهرياً عن سائر الكائنات الحية من حيث قدرته على توقع المستقبل ، بل ورسم الخطط لذلك المستقبل ، والربط بين الماضى والحاضر والمستقبل في سياق متصل بمعنى

أن الحاضر منفتح ومنبثق من الماضي ، وأن المستقبل منفتح ومنبثق من الحاضر والماضي ، كما أن الإنسان يتمتع بالقدرة على تعديل النتائج التي كانت لتتأتى عن أعمال مقومات الحاضر والماضي فيوفر مؤثرات من شأنها إحداث ذلك التعديل بما يخفف من وطأة المتأثرات الرديئة أو الضارة ، والزيادة فى المتأثرات الجيدة والمفيدة .

وكلما كان الإنسان أكثر ثقافة ، فإنه يكون متمتعاً بقدرة أكبر على التأثير فى المستقبل ، أو بتعبير آخر فإنه يكون خليقاً بالإفادة من خبرات الماضي والحاضر فى التأثير فى المستقبل وصياغته تبعاً لما يترسمه من صياغات جديدة . ومعنى هذا فى الواقع أن الإنسان المثقف لا يكون خاضعاً للمصادفات المستقبلية ، بل يكون مسيطراً على المؤثرات وموაკباً للتطورات وملاحقاً لها من حيث إدراكها من جهة ، ومن حيث التأثير فيها من جهة أخرى . فالمثقف يبعد عن مستوى الكائنات الحية التي لا تستطيع استشراق المستقبل وترسم ملامحه وإدراك ما يمكن أن يحمله لها من أخطار وما يمكن أن يحمله لها أيضاً من فوائد ومزايا وفرص مواتية . إنه على العكس كائن يمسك بيده مقود مسيرة حياته . فهو كما قلنا كائن مؤثر فى حاضره ابتغاء إحراز نتائج معينة فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد .

وعلى الرغم من أن الإنسان ظل منذ القدم وهو يفكر فى المستقبل مبايئاً بذلك لما تنهج الكائنات الحية الأخرى وفقه ، فإنه استمر فى تحسين وسائله المتعلقة بالكشف عن المستقبل . فلقد ظل ردهاً من الزمن وهو يمارس التنجيم (Astrology) إلى أن توصل منذ وقت قريب إلى علم المستقبلية (Futurism) (انظر كتاب « البشرية والمستقبل الغامض » للمؤلف) . وهو علم لا يرتكز على التخمين

أو الإلهام ، بل يرتكز على حقائق الحاضر والماضى والتدرج بها إلى احتمالات المستقبل التي يمكن أن تتحقق إلى حد بعيد . وحتى بدون علم المستقبلية ، فإن الشخص المثقف يهتم بالمستقبل ، وتكون توقعاته مبنية لا على الرجم بالغيب ، بل على أسس استقرائية يعتمد فيها على معطيات الحاضر وما يمكن أن ينبثق عنها من وقائع مستقبلية . ولعلنا نقرر بحق أن من الممكن تعريف الشخص المثقف بأنه ذلك الذى يتخذ من خبراته المستمدة من الماضي والحاضر ذرائع لبلوغ أهداف يترسمها فى المستقبل . وإذا كان المثقف من المبدعين - علماً بأن جميع المثقفين يأملون فى أن يدرجوا فى نطاق المبدعين - فإنه بشكل صورياً ذهنية غير مسبوقه يريد أن يتليس بها المستقبل ، أو يصاغ وفقها ، ثم يقدم عينة إبداعية لما يمكن أن ينهج المستقبل وفقها . خذ مثلاً لذلك بلديسون الذى اخترع الصباح الكهربى . إنه شكل فى ذهنه صورة ذهنية لما يمكن أن يضىء بالكهرباء وبغير استخدام للكبروسين أو الشمع . وبعد أن ترسم تلك الصورة الذهنية مفكرًا فيما سوف يترتب على تحقيق صورته الذهنية إلى واقع من نتائج ، فإنه شرع فى إجراء التجارب إلى أن توصل إلى تحقيق تلك الصورة الذهنية . فهو إذن ترسم المستقبل ثم شرع فى إخراجها من حيز الكمون ذهنى إلى حيز الواقع العملى . وعلى هذه الشاكلة فإن جميع المثقفين من تكنولوجيين وعلماء وفلاسفة وأدباء وفنانين وسياسيين ورجال دين وأخلاق ومصالحين اجتماعيين ومعلمين وغيرهم يعملون جميعاً على بلورة مفاهيم مستقبلية يريدون تجسيدها فى الواقع المستقبلى ، ثم يترسمون الخطط ويهيئون الوسائل الكفيلة بتحقيق ما يؤملون فيه ، ثم يشرعون فى تسخير إرادتهم لتحقيق ما أملوا فيه . وسواء نجحوا فى مسعاهم أم لم ينجحوا ، فإنه يستمرون فى منهجهم الفكرى المستقبلى .

ونحن نميز بين فئتين من المثقفين : فئة ندياً ، وفئة عليا . أما الفئة الدنيا فإنها تتشكل من أولئك المثقفين الذين ينجون في مسيرتهم الثقافية وفق مبدأ العنينة ، أعنى استعارة ما أبدعه أو أنشأه غيرهم من أفراد الفئة العليا من نتاجات غير مسبوقه ، ويكون مهمهم الأول والأخير هو إلقاء الضوء على تلك المنجزات وعمل تخريجات واستنباطات منها . أما الفئة العليا من المثقفين ، فإنها تتشكل من أولئك المبدعين الذين يركزون فكرهم في المستقبل وما يمكن أن يقدموه من صياغات جديدة يتلبس بها وينهج وقتها . وهذه الفئة العليا هي الممسكة بأزمنة المستقبل ، وهم الذين يتحركون بالبشرية في جميع الجبهات الثقافية . وهذه الفئة هي التي أمسكت بيد البشرية نحو التقدم عبر المراحل الحضارية المتعاقبة وتقدمت بها وما تزال تتقدم بها بغير توقف مضيئة المستقبل الغامض بما يمكن أن يحيل غموضه إلى وضوح وجلاء وتقدم ، وهم الذين يخففون من آلام البشرية المتأنية عن المرض والجوع والكوارث الطبيعية ، بل وعن ظلم الإنسان لبنى جنسه بالحروب والإبادة والتعصب العرقي والاسترقاق وغير ذلك من شرور .

ولعلنا نقوم بعد هذا بمدارسة مقومات الثقافة المستقبلية وعلاقتها بسوية الشخصية على النحو التالي :

أولاً - ما يتعلق باستثمار الاستعدادات الشخصية : فالمرء منذ طفولته وهو يسائل نفسه « ما الذي سوف أكون عليه في المستقبل ؟ » ، ولقد يكون اللعب في الطفولة هو الوسيلة التي يترسم بها الطفل مستقبله . فهو قد يلعب أدواراً مستقبلية متنوعة يدرّب نفسه عليها أو يحاول ذلك . ولكنه في أثناء ممارسته للعب المستقبلي الذي يسمى باللعب الإيهامي ، يكون متقمصاً الدور المستقبلي الذي يهني نفسه لممارسته في المستقبل بعد أن تتهيأ له الظروف النمائية

والإمكانيات التي تؤهله لتحقيق آماله التي ترسمها في طفولته . على أن المرء يستمر عبر مراحل نموه المتتالية ، أعنى المراهقة والشباب والكهولة وحتى الشيخوخة في ترسم المستقبل وتشبيد صور وأخيلة يحاول بث الحياة فيها فيستحيل من نطاقه الذهني إلى النطاق العملي . ومن الممكن أن نقول إن السوية التي يتمتع بها المرء تتوازى مع مدى قدرته على تشكيل تلك الصور الذهنية المستقبلية ومع مدى ما يبذل من محاولات لتحقيقها .

ثانياً - ما يتعلق بالمشكلات والعقبات الشخصية : والمرء في مراحل عمره المتعاقبة وفي نطاق البيئات الطبيعية والاجتماعية المتباعدة لا يجد الطريق مفروشا أمامه بالورود والرياحين ، بل يجده مفروشا بالشوك كما تختبئ فيه الثئاب والأفاعى والعقارب . وبتعبير آخر فإن الطريق نحو تحقيق آمال المستقبل ليس سهلاً منبسطاً ، وإنما هو طريق وعر ومحفوف بالمشكلات التي على المرء التخطيط لتذليلها . فعلى المرء إذن في ثقافته المستقبلية أن يتذرع بأسلحة تذليل الصعاب وهمم الحواجز بالإضافة إلى تدرعه بمعدات البناء . وبتعبير آخر فإن على المرء أن يتسلح بنوعين من الأسلحة : أسلحة إيجابية ، وأخرى سلبية . فهذه الأسلحة السلبية يقوم بتذليل الصعاب وهمم المعوقات المتباعدة . والواقع أن الكثير من المثقفين يصابون بالأسأ لدى مجابهة المشكلات فيركنون إلى الإنزواء بعيداً عن الأنظار حتى يتجنبوا الاصطدام بالعقبات ومجابهة الصعاب . ذلك أنهم في إعداد أنفسهم بالثقافة المستقبلية اكتفوا بنصف مقوماتها وهو النصف الإيجابي . أما النصف الآخر السلبى المسئول عن تذليل الصعاب وهمم العقبات ، فإنهم لم يحرزوه ، وبالتالي فإننا نعتبر أفراد هذه الفئة نصف مثقفين لأنهم

يفتقدون نصف الثقافة المستقبلية وهو التسلع بالماحول التي يمكن الإجهاز بواسطتها على الصعاب والعقبات وحل المشكلات التي تقابلهم في مسيرتهم نحو المستقبل المتعلق بهم شخصياً .

ثالثاً - الثقافة المستقبلية الغيرية : فالشخصية السوية هي الشخصية التي تهتم بالآخرين كما تهتم بذاتها وبأمورها الشخصية . ذلك أن الإنسان أناني بالطبع من جهة ، واجتماعي بالطبع من جهة أخرى . ومن يهتم بنفسه وبمستقبله ولا يلقى بالأى إلى ما يتعلق بالآخرين ومستقبلهم يكون ناقصاً فيما يتعلق بالنمو الثقافي المستقبلي . فمن الأهمية بمكان أن يكون المرء مهتماً بالآخرين ومخططاً لما يعود عليهم بالنفع والسعادة من جهة ، وعاملاً مساعداً على تذليل الصعاب التي تجابههم من جهة أخرى . فالثقافة المستقبلية تحمل المرء السوى على التفكير في المجتمعات المحيطة به بدءاً بأقربها إليه وانتهاءً إلى أبعدا عنه . ومن الطبيعي أن يكون اهتمامه بمشكلات المجتمعات الأقرب إليه كمجتمع أسرته أقوى من اهتمامه بمشكلات المجتمعات البعيدة عنه . ولكن كلما كان المرء أكثر سوية ، فإن آفاق اهتماماته تتسع فيكون اهتمامه بالمجتمعات البعيدة عنه أقوى من اهتمامات الشخص الأقل منه سوية . ولكن الشخص الذي يولي المجتمعات البعيدة عنه اهتماماً أكبر مما يوليها للمجتمعات القريبة منه - أسرته مثلاً - فإنه يكون قد فقد جانباً أساسياً وركيزة هامة من سويته النفسية والاجتماعية على السواء . فالأقرب أهم من الأبعد ، وبالتالي فإن مشكلات الأقربين وما يعود عليهم بالخير ، أهم من مشكلات البعيدين وما يعود عليهم بالخير .

ويتضح مما سقناه قبلاً أن الثقافة المستقبلية لا تنفصل عن السوية الشخصية ، بل ترتابط معها وتوازى . وإذا سأل سائل عن الحالات

التي نجد فيها شخصية ناجحة في التخطيط لمستقبلها ولكنها ليست ناجحة في التخطيط لمستقبل الناس أو الفئات أو المجموعات المحيطة بها ، فإننا نقول إن من يتدرب بالثقافة المستقبلية ويصب همه على نفسه فحسب لا يكون بالضرورة قد قصر ثمار ثقافته المستقبلية على ذاته حتى ولو لم يُلقِ بالأى إلى الآخرين من حوله . فالعالم المنكفي على معمله يجري فيه التجارب أو المفكر الذي يفكر بينه وبين نفسه ويكتب ما يعن له من تأملات عقلانية ذاتية ، يكون بالضرورة أو بغير قصد من جانبه مهتماً بالآخرين ، وذلك لأن ما يتأتى عن تفكيره الذاتي يتسع ليشمل غيره . فديكارت مثلاً الذي كان عاكفاً على التفكير التأملية الذاتي ، صار فكره منهجاً يعزز به المفكرون من بعده . فطالما أن المنكفي يفكر أو يعمل للمستقبل ، فإنه بالضرورة والحتم يفكر ويعمل للآخرين سواء عن قصد من جانبه أم عن غير قصد . فمن يفكر ويخطط ويعمل للمستقبل هو بالضرورة شخصية سوية نفسياً واجتماعياً .

ومن الممكن أن نتوسع بمفهوم إقامة الأود فنجد أن الناس جميعاً متكافلون بعضهم مع بعض ، وأنهم يقيمون أود بعضهم بعضاً بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر .

ثانياً - درء المخاطر : فالوالدان ورجال الشرطة والقانون والحراس وغيرهم يوفرون الأمن والأمان لمن يقعون في نطاق مسئولياتهم . وتحدد قيمة كل منهم بقدر قيامه بدرء الأخطار عن الأشخاص الواقعين في نطاق مسئوليته .

ثالثاً - العلاج من الأمراض : فالأطباء والصيادلة والممرضون يقيمون بمدى قدرة الواحد منهم على استخدام علوم وفنون الطب وتكنولوجياه في علاج الأمراض وفي الوقاية منها . أما تقييم الأشخاص معنوياً فإنه يتم في ضوء المناحي التالية :
أولاً - إبداعية المرء : فكلما كان الإنسان أكثر إبداعية وذلك بأن يقدم إلى الناس من حوله أفكاراً أو فناً أو اختراعاتاً أو اتجاهاتاً أو نموذجاً سلوكياً غير مسبوق ، فإنه يكون على جانب أكبر من القيمة المعنوية .

ثانياً - الجانب الروحي : فكلما كان المرء أكثر رقياً من الناحية الروحية بحيث يكون صاحب مواهب روحية مؤثرة في الناس من حوله ، فإنه يكون على جانب أكبر من القيمة . فالأنبياء والرسل والقديسون والأنقياء يحوزون قيمة معنوية أعظم من معظم الناس العاديين الذين لا يعيشون إلا لحياتهم الأرضية ولا يتعلقون بالحياة الآخرة .

ثالثاً - التربية والإصلاح الاجتماعي : فكلما كان المرء مشاركاً في تنشئة الصغار أو في المشاركة في الإصلاحات الاجتماعية المتباينة ، فإنه يكون حاصلًا على قيمة معنوية أكبر مما يحصل عليه غيره ممن لا يشاركون في هذا الصدد .

وهناك في الواقع صراع صريح أو ضمني بين التقييم المادى والتقييم المعنوى لعلنا نقوم بتحديد جوانبه على النحو التالي :

الفصل الخامس عشر القيم وسوية الشخصية

التقييم المادى والتقييم المعنوى :

منذ قديم الزمان خضع الإنسان لنوعين من التقييم ، بل إنه ظل يُخضع الناس والأحياء والأشياء من حوله لنوعين من التقييم ، هما التقييم المادى والتقييم المعنوى . فعندما نقابل شخصاً ما لأول مرة ، فإنك تتساءل بينك وبين نفسك عن وضعه المادى من جهة ، وعن وضعه المعنوى من جهة أخرى . وكذا فإنك تخضع الأحياء والأشياء من حولك لهذين النوعين من التقييم . ويتعبير آخر فإنك تتساءل بينك وبين نفسك أو بينك وبين من حولك عن الفائدة التى تتأتى عن تلك الأحياء والأشياء من جهة ، وعمّا تحمله فى قوامها من قيم معنوية كالجمال والندرة وغير ذلك من مناح معنوية من جهة أخرى .

ولعلنا نقوم أولاً باللقاء الضوء على القيم المادية لتبين مناحها المتباينة ، ثم نلقى الضوء بعد ذلك على القيم المعنوية لاستجلاء جوانبها . فنجد أن القيم المادية تتضمن المناحي التالية :

أولاً - إقامة الأود : وتعنى الإعالة . فالوالدان اللذان يعولان أبناءهما ينهضان بإقامة أودهم أى توفير الطعام والكساء والماوى لهم . فكل شخص يوفر لغيره من الناس لوازم المعيشة يكون مسهماً فى إقامة الأود حتى ولو كان يتقاضى نظيراً لما يقدمه من خدمات مادية . فالمصلحة أو الشركة التى يعمل بها المرء وتعطيه راتباً ينفق منه على أسرته تكون قائمة بإقامة أوده وأود أسرته .

أولاً - إن الصيغة السائدة بالمجتمعات الحضارية الحديثة هي صيغة مادية : فالعلاقات القائمة بين الأفراد بعضهم وبعض أو بين الأفراد والجماعات ، أو بين الجماعات بعضها وبعض ، إنما هي علاقات تعتمد على المصالح المادية المشتركة . فالمبدأ الأساسي الذي يسود العلاقات الإنسانية هو مقايضة المصالح . فيقدر ما تعطى تأخذ . وإذا لم يكن لديك ما تعطيه فلن تأخذ . وإذا أخذت فقط فإن النظرة إليك لا تكون باحترام وتقدير ، بل بلشفاق أو حتى باحتقار . من هنا فإن تقييم الناس بعضهم لبعض يكون في ضوء ما يمكن أن يقدمه كل منهم نظير ما يحصل عليه من فوائد مادية أو مصلحة . وعلى هذا فإن التقييم المعنوي قد أخذ في الخفوت ، وحتى يكون لهذا التقييم الأخير قيمة فلا بد أن يتواكب مع التقييم المادي . فالحاصل على أعلى المؤهلات الدراسية إن لم يحصل على الدخل المناسب لمؤهلاته ، فإن تلك المؤهلات لا تساوى إذن شَرُوى نغير .

ثانياً - العلاقات الأسرية : وفي العلاقات الأسرية يقوم الصراع بين القيم المعنوية والقيم المادية . فالعريس الذي يحمل أعلى المؤهلات الدراسية ولكنه غير حائز على شقة ويكون دخله متواضعاً لا يكون إذن كفوًا للزواج ، بينما يكون الشخص غير الحائز على المؤهلات الدراسية ولكن لديه الشقة والدخل الوفير أكثر قبولاً للزواج بالطبيعية أو المهندسة . صحيح إن صراعاً ينشأ في أسرة العروس حول النظر والتقدير لكلا العريسين . ولكن القيم المادية هي التي تنتصر في الغالب في نهاية الأمر .

ثالثاً - إن المناهج الدراسية تقيم الوزن أكبر الوزن لما هو مفيد : فالمبدأ السائد في ميدان العلم والتعليم اليوم هو « العلم والتعليم للمجتمع » وليس « العلم والتعليم لتنمية شخصية المتعلم » . ومعنى هذا في الواقع أن العلم والتعليم صارا بمثابة سلعة في سوق الحضارة ، بل إن التلميذ والمعلم والعالم أصبحوا مجرد أدوات

في يد المجتمع . وكل علم وكل تعليم لا يخدم المجتمع يجب حذفه . وطالما أن المجتمع يفضل الفائدة على القيمة الذاتية ، فإن المناهج التي تخدم القيم الذاتية صارت في الظل أو حتى لقد نجد من يدعو للتقليل منها أو حذفها تماماً . فالتربية الفنية التي تعمل على تربية الذوق الفني والتي لا يكون من وراء تعلمها وتعليمها أية فائدة مادية ، قد انسحبت إلى الظل . ناهيك عن التربية الموسيقية وغير ذلك من مواد دراسية تعمل على خدمة الذات لا خدمة الموضوع ، وتعمل على الارتقاء بالمشاعر الشخصية وعلى ترفيق الأحاسيس ، مثل الأدب أو حتى العلوم التجريبية التي تدرس لذاتها كالهندسة الفراغية ونحوها فهي لا تلقى من كثيرين سوى الاستهجان والمطالبة باستبعادها من المناهج الدراسية .

رابعاً - كليات القمة وكليات المجاميع الهابطة : وخير شاهد على الصراع فيما بين التقييم المادي والتقييم المعنوي الإقبال الشديد على ما نعت بأنه كليات القمة ، أي الكليات التي تبشر بمستقبل مادي باهر ، بينما نعتت الكليات التي لا تبشر بمثل ذلك المستقبل الباهر بالكليات التي تقبل المجاميع الهابطة بالثانوية العامة . فلكأن الجامعة قد صارت سوقاً للعمالة بعد أن كانت في نشأتها تستهدف تنمية مواهب المتعلم بغض النظر عن المال الذي سوف يحصل عليه بعد التخرج . وليس من شك في أن الربط بين التعليم الجامعي وبين المال الذي سوف يحصل عليه المرء بعد تخرجه يمثل قمة الصراع بين التقييم المعنوي والتقييم المادي في نطاق التعليم الجامعي لدرجة أن الناس صاروا ينظرون إلى طلاب كليات القمة باعتبارهم أغنياء المستقبل ، بينما ينظرون إلى طلاب كليات المجاميع الهابطة باعتبارهم فقراء المستقبل .

خامساً - أزمة الأدباء والفنانين : فما يعانى منه الكتاب الثقافى من ارتفاع سعره ومن قلة الإقبال على شرائه ، وكذا ارتفاع تكلفة اللوحات الفنية ومن ثم ارتفاع ثمنها مع قلة الإقبال على إقتنائها ، لهو شاهد على انصراف الناس عن القيم المعنوية وإقبالهم على القيم المادية التى تتعانق مع اللهو وانحطاط الذوق . من ذلك الإقبال على المسرحيات الساقطة التى تدغدغ الغريزة الجنسية . وأكثر من هذا فإن النظرة بالإعجاب إلى أصحاب الأقلام قد أخذت فى التزائل . فلم تعد لتلك الهالة التى كان يحاط بها الأديب والفنان وجود بنفس القوة كما كان حالها قديماً ، بل انتقلت تلك الهالة إلى أصحاب الملايين وإلى من بيدهم مقدرات الخلق .

وعلىنا أن ننظر بعد هذا إلى العلاقة بين هذين النوعين من التقييم وبين سوية الشخصية ، فمن الشروط التى يجب أن تتوافر لتحقيق سوية الشخصية تحقيق التوازن بين القيم المادية والقيم المعنوية . فالإنسان لا يحيا بالماديات وحدها ، كما أن القيم المعنوية وحدها لا تكفل استمرار الوجود . ولكن الواقع أن اهتزاز هذا التوازن بين النوعين من القيم ، يؤدي إلى فقدان السوية النفسية . فالجانح أو العريان أو المهموم لأنه لا يستطيع سد نفقات معيشته لا يمكن أن يكون شخصية سوية . وكذا فإن الشخص الذى لا يتذوق الوحي الإلهي ولا يجد متعة فى الصلاة والصوم والإحسان إلى الفقراء والتجاوب مع المتأزمين والمكبلومين بما أصابهم من مصائب ، وكذا الشخص الذى لا يتذوق الأدب الرفيع ، أو الذى لا يطرب لسماع الموسيقى الراقية ، أو الذى لا يحس بالجمال لدى مشاهدته للمناظر الجميلة أو الخلقة البديعة فى إنسان أو حيوان أو طير أو نبات ، أو الذى لا يترسم فى مخيلته صوراً جميلة يرغب فى تحقيقها فى

حياته وفى حياة المحيطين به ، إنما يكون قد فقد القدرة على التقييم المعنوى ، وبذا فإنه يفقد سويته الشخصية حتى وإن كان حائزاً على كنوز العالم بأسره .

التقييم الإطلاقي والتقييم النسبي :

هناك فلسفتان بإزاء التقييم المعنوى على المرء أن يتخذ واحدة منهما يستهدى بها فى حياته الأخلاقية : إحداهما إطلاقيه ، والأخرى نسبية . وثمة فى الواقع مجموعة من الأسس التى تتركز عليها كل فلسفة من هاتين الفلسفتين . ولعلنا نبدأ بالأسس التى تتركز عليها الفلسفة الأولى ، أعنى الفلسفة الإطلاقيه ، على النحو التالى :

أولاً - الخطأ والصواب : فهذه الفلسفة تنهج نهجاً حسابياً . فكما أن $1 + 1 = 2$ ، وأن أى إجابة أخرى غير ٢ تكون خاطئة ، كذا فإن هذه الفلسفة الإطلاقيه تقول إن هناك طريقاً واحداً للموقف الأخلاقى الواجب الاتباع ، وما عداه يكون خاطئاً . فليس هناك سوى نهج واحد هو النهج الصائب فى السلوك الخلقى وما عداه يكون نهجاً خاطئاً .

ثانياً - التناقض بين الخير والشر : والتناقض مثل الوجود والعدم ، أو الحياة والموت ، أو الصواب والخطأ . والتناقض مباين للتضاد . فالتضاد مثل الأسود والأبيض ، والصحة والمرض ، والشعور واللاشعور . فبينما لا نجد حالات وسطى فيما بين الطرفين المتناقضين ، فإننا نجد تدرجاً فيما بين الطرفين المتضادين . فأنت لا تستطيع أن تجد حالات وسطى بين الوجود والعدم ، أو بين الحياة والموت ، أو بين الصواب والخطأ ، ولكنك على عكس هذا تجد حالات وسطى بين الأسود والأبيض ، وبين الصحة والمرض ، وبين الشعور واللاشعور . والفلسفة التقييمية الإطلاقيه تؤمن بوجود تناقض بين الخير والشر ، وتنفى وجود

حالات وسطى فيما بينهما . ويترتب على هذا أن الناس ينقسمون إلى فئتين لا ثالثة لهما . فئمة فئة الأخيار من جهة ، وثمة الأشرار من جهة أخرى ، ولا توجد فئة أو فئات تحتل مكانة وسطى بين هاتين الفئتين .

ثالثاً - أى شر يفسد كل الخير : فهذه الفلسفة الأخلاقية الإطلاعية تؤمن بالكمال الأخلاقي . فإذا اترف المرء أى خطأ أخلاقى ، فإنه يتحول من فئة الأخيار إلى فئة الأشرار . وعلى العكس فإن الشخص الشرير مهما فعل من خير ، فإن ما يفعله لا يسمح بنقله من فئة الأشرار إلى فئة الأخيار .

رابعاً - الخير معرفة والشر جهل : فكما قال (سقراط) إن الفضيلة علم والرديلة جهل ، وكما قال (ديكارت) إن العقل السليم قسمة عادلة بين جميع الناس ، وهما فيلسوفان إطلاقيان ، فإن من يعرف الخير لا بد أن يتبعه ، ومن لا يعرفه يقترف الشر . والمعرفة عند الفيلسوفيين تكون مشفوعة بالإرادة التى تستخر للمعرفة وتخضع لها . ومعرفة الخير فطرة غريزية فى قوام الإنسان . فهى لا تحتاج إلى معلم يلقنها للمرء ، بل تحتاج إلى النقاء النفسى الذى يعمل على صقل الروح وينير البصيرة . أما الشخص الشرير والجاهل فى الوقت نفسه ، فهو الشخص الذى لم يصقل روحه فظل جاهلاً كما يظل المعدن الثمين مدفوناً فى الأرض ومغلفاً بالصدأ .

خامساً - الحياة الأخلاقية فردية وليست جماعية : فالفلسفة الأخلاقية الإطلاعية لا تؤمن بالطبيعية فى السلوك الأخلاقى ، ولا تعترف بوجود جماعة صالحة وأخرى رديئة ، بل تؤمن بأن كل فرد بمثابة عالم قائم بذاته ومسئول مسئولية كاملة عن سلوكه

الأخلاقي . أما انصهار الفرد فى أى مجموعة ، فإن ذلك يمسخ شخصيته وإنسانيته ويحيله إلى حيوان أعجم . فما يأتيه من سلوك مهما كان لا يحكم له بالخيرية ولا بالشرية . فالخير مسئولية فردية وليس مسئولية جماعية .

وبعد أن قدمنا هذه الركائز الخمس التى تنبنى عليها الفلسفة الأخلاقية التقييمية الإطلاعية ، يكون علينا أن نقدم الركائز التى تنبنى عليها الفلسفة الأخلاقية التقييمية النسبية على النحو التالى :
أولاً - نتائج السلوك الأخلاقى هى الأساس : فبينما نجد أن الفلسفة الأخلاقية الإطلاعية تركز الذهن فى شكلية السلوك ، فإن الفلسفة الأخلاقية النسبية تركز الذهن فى النتائج المترتبة على أداء السلوك . فمثلاً بالنسبة للصدق والكذب نجد أن الفلسفة الإطلاعية تركز الاهتمام على الصدق اللفظى ، أعنى مطابقة الكلام للواقع الذى حدث أو الذى يحدث أو الذى سوف يحدث . أما الفلسفة الأخلاقية النسبية فإنها تركز الاهتمام على ما نسميه الصدق السلوكى ، أعنى ما يسفر عنه الكلام من نتائج ومن تقييم لتلك النتائج من حيث فوائدها العملية والنفسية والاجتماعية . فكلما كانت النتائج أكثر فائدة ، كان الكلام أكثر صدقاً .

ثانياً - الخير نسبى وليس مطلقاً : ويترتب على هذا أن يكون السلوك الخلقى الجيد نسبياً وليس مطلقاً ، فكما أننا لا نستطيع أن نقول إن هناك شخصاً متمتعاً بالصحة مائة فى المائة ، كذا فإننا لا نستطيع أن نقول إن هناك شخصاً خيراً مائة فى المائة . فهذه الفلسفة لا تؤمن بالنظرة الحسابية التى تقول إن الخير هو الصواب وأن الشر هو الخطأ كما هو الحال بإزاء العمليات الحسابية ، بل تؤمن بالحصيلة السلوكية العامة للمرء . ويتعبير آخر فإن هذه الفلسفة النسبية تتناول الجوانب السلوكية الأخلاقية المتباينة للمرء وتستخرج محصلة أو متوسطاً عاماً يحكم فى ضوءه على سلوكه .

ثالثاً - المعرفة وحدها لا تكفي لتفسير السلوك الأخلاقي :
فبينما تنتظر الفلسفة الإطلاعية إلى السلوك الخلقى من زاوية واحدة
هي زاوية المعرفة أو البصيرة ، فإن الفلسفة النسبية تنظر من عدة
زوايا . فثمة الوراثة والبيئة وتأثيرهما في السلوك الخلقى للمراء .
وثمة المقومات الفسيولوجية كضعف مناطق معينة بالمخ وما يتركه
ذلك الضعف من أثر في السلوك الأخلاقي ، وما تؤثر به كيمياء
الجسم كالكهورمونات التي تفرزها الغدد الصماء في السلوك
الأخلاقي ، وكذا بعض المواد التي يتعاطاها المرء أو يحقن بها
كالمخدرات بأنواعها المتباينة وما تؤثر به بشكل دائم أو بشكل
مؤقت في السلوك الأخلاقي للمراء . وثمة المقومات اللاشعورية
والرواسب النفسية التي ترسبت في اللاشعور والتي يمكن أن تطفو
على سطح تصرفات المرء وعلاقاته بغيره من أشخاص أو
جماعات . وثمة العادات العقلية والعادات الوجدانية والعادات
التعبيرية والعادات الحركية والعادات الاجتماعية العلائقية . فتلك
العادات التي تستولى على مقاليد الشخصية بحيث تؤدي بطريقة شبه
لاشعورية يجب أن تؤخذ في الاعتبار في تفسير سلوك المرء .
وأخيراً ما يشيع بالمجتمع من قيم أخلاقية تتباين من حيث خيريتها
أو شريتها من مجتمع لآخر . فما يمتدحه مجتمع ما قد يذمه مجتمع
آخر . كل هذه الزوايا يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند تفسير السلوك
الأخلاقي من الزاوية النسبية التي تؤمن بها الفلسفة الأخلاقية
النسبية .

رابعاً - الفلسفة النسبية متفائلة : فبينما نجد أن الفلسفة
الإطلاعية متشائمة لأنها تؤمن بالكل أو لا شيء ، بمعنى أن افتراض
أى خطيئة أو أى خطأ يؤدي بكل الخير الذي سبق أن فعله المرء ،
فإن الفلسفة النسبية على عكس ذلك تأخذ في اعتبارها جميع جوانب

الشخصية . فقد يكون المرء شريراً في جانب من شخصيته ولكنه
يكون خيراً في جوانب أخرى تعوض عما ينخرط فيه من شر .
وأكثر من هذا فإن الشر الذي يمكن أن يقتضيه شخص ما قد يعود
بالخير على غيره . فمثلاً غنى الحرب أو تاجر العملة أو السلع
المهربة الذي صار من الأثرياء ، ففتح محلات تجارية شغل فيها
الكثير من الشباب العاطلين . إنه بأعماله الشريرة التي جمع بها
الثروة فتح أبواب رزق أمام أولئك الشباب العاطلين . فالشر الذي
اقتضيه تولد عنه خير هو تشغيل الأيدي البطالة . والبلطجي الذي
تساجر مع بلطجي آخر نتيجة التنافس بينهما فقتلا معاً في المعركة
التي دارت بينهما . إن سلوكهما البلطجي وانخراطهما في معركة
بعضهما مع بعض ينخرط في نطاق الشر . ولكن النتيجة التي أتت
عن افتراضهما لذلك الشر هي الخير المتمثل في الحياة الآمنة
للمواطنين الذين كان يتأذى عن إرهابهما خوفهم وهلعهم وقض
مضاجعهم .

خامساً - التقييم النفسي جنباً لجنب مع التقييم الأخلاقي :
أخيراً فإن الفلسفة النسبية تقيم الاعتبار للعوامل النفسية التي تعتبر
القوام الجوهرى للشخصية . فهي تعتقد أن السلوك الأخلاقي
الظاهري إنما هو ترجمة لما يعتمل بخيلة المرء من نشاط نفسي .
فالشر ليس ما يظهر على سطح الشخصية وما يبدو من سلوك ،
بل الشر في الاعوجاج النفسي . وبعبارة أخرى فإن الشر عبارة عن
مرض نفسي ، وأن الشخص سوى النفس يكون في الوقت نفسه
شخصاً صالحاً . فما يبدو من سلوك خلقى ممدوح نتيجة اعوجاج
نفسى لا يعتبر سلوكاً خلقياً جيداً من وجهة نظر هذه الفلسفة
النسبية . فلقد يُخسِن الغنى على الفقراء لإذلالهم أو لجمع الأنصار
حواله ، فلا يكون عمله من الخير فى شيء ، وقد يصاب شخص ما
بجنون السرقة ، فلا يكون تصرفه المذموم شراً يعاقب عليه ، بل

يجب علاجه في مصحة نفسية وعدم الإلقاء به في السجن . فالمهم هو دخيلة المرء وسلامتها لا خارجيته وما يتبدى في سلوكه من تصرفات . وحتى إذا نحن نعمنا تلك التصرفات الرديئة كالسرقة المرضية ، فإننا لا ندم الشخص المريض بل ندم تصرفاته فحسب .

وما دنا قد عرضنا لدخيلة المرء وسويتها ، فلا بد لنا أن نتناول سوية الشخصية في ضوء هاتين الفلسفتين ، فنجد أن علاقة هاتين الفلسفتين بسوية الشخصية تتبدى في العناحي التالية :

أولاً - القلق والتوتر النفسي : فالشخص الملتمزم بالفلسفة الإطلاقيه في حياته يكون في الأغلب مصاباً بالقلق والتوتر النفسي . ذلك أنه لا يعاتب نفسه على ما يقترفه من خطأ أو خطيئة حالياً فحسب ، بل يعاتب نفسه على أخطائه وخطاياها التي اقترفها منذ نعومة أظفاره حتى اللحظة التي يعيشها حالياً . أما الشخص الملتمزم بالفلسفة النسبية فإنه يحيا في هدوء نفسي وذلك لأنه يقيم سلوكه في ضوء المتوسط أو الحصيلة العامة التي يمكن أن يتوصل إليها إذا ما أخذ في اعتباره جميع موافقه وتصرفاته المتباينة . فهو لا يقيس نفسه في ضوء مثل أعلى مطلق ، بل يقيس نفسه على أرض الواقع ، بل قياساً إلى غيره من الناس الموجودين في ظروف حياتية مماثلة لظروفه . فمعياره الأخلاقي معيار يتعلق بظروف الحياة وليس بمثل أعلى مجرد .

ثانياً - الموقف من المستقبل : وبينما نجد أن الشخص الملتمح بالفلسفة الإطلاقيه يجد أن المستقبل الأخلاقي مظلم أمامه ، وذلك لأنه في الغالب يكون قد حكم على نفسه بأنه شرير طالما أنه اقترف ولو خطيئة واحدة أو خطأ واحد ، فإننا نجد أن الشخص الملتمح بالفلسفة النسبية ينظر إلى المستقبل بتفاؤل .

فهو سوف يضيف خيراً إلى رصيده الخير بما يدعمه من أعمال الخير . فالخير الذي سبق أن فعله في فترة عمره السابقة سوف يضاف إلى ما سوف يفعله في المستقبل ، بل إن الخير الذي سوف يفعله في المستقبل سوف يربو على ما سبق أن فعله من شر ، وبالتالي فإن كفة الخير في محصلة حياته سوف ترجح على كفة الشر الذي سبق أن اقترفه أو الذي يقترفه حالياً أو الذي سوف يقترفه مستقبلاً .

ثالثاً - الموقف من الصحة النفسية : فبينما نجد أن الشخص الملتمح بالفلسفة الإطلاقيه لا يعبأ بصحته النفسية ، بل يهيمه بلوغ الكمال الأخلاقي والخلو تماماً من أية نقيصة سلوكية ، فيصب همه كله على شكليات السلوك ، فإن الشخص الملتمح بالفلسفة النسبية يصب همه على الجانب النفسي . فما يهيمه هو صحته النفسية . أما النمار المتأنية عن تمتعه بالصحة النفسية ، فإنها تحتل المرتبة الثانية وليس المرتبة الأولى . فالسلوك الأخلاقي الجيد في نظره هو ذلك السلوك الذي يترجم عما يعمل بخياله من سلامة نفسية ومن اتزان نفسي وخلو من الأمراض والانحرافات النفسية .

التقييم الفردي والتقييم الجمعي :

مما لا شك فيه أن لدى الفرد ثلاثة أقطاب أساسية تشترك جميعاً في تحريك سلوكه بما يشتمل عليه من فكر وعاطفة وإرادة . فثمة قطب « الأنا » من جهة ، وثمة قطب « النحن » من جهة ثانية ، وثمة قطب « هم » من جهة ثالثة . فالمرء في نظره إلى الوقائع والأحداث والعلاقات من حوله يعمد إلى تقييمها باشتراك هذه الأقطاب الثلاثة . ومن جهة أخرى فإن المرء يقيم نفسه باعتباره شخصية موضوعية . فهو يكون في هذه الحالة ذاتاً من جهة ، وموضوعاً للتقييم من جهة أخرى . وثمة ثانياً الفئات أو الثنائيات التي يفتنى إليها

والتي تشكل جهاز « النحن » لديه . إن هذه الفئة تتناول ذلك الفرد المنتمى إليها بالتقييم لتحديد قيمته وموقعه منها . وثمة ثالثاً الفئة أو الفئات التي لا ينتمى إليها الفرد والتي يتشكل منها جهاز « الهم » . إنها بدورها تقوم بتقييمه في موقف أو آخر لنقف على قيمته وموقعه بالمجتمع .

من هنا فإننا نجد أن هناك مصدرين للتقييم : مصدر فردي أعنى تقييم الفرد لنفسه ، أو تقييم فرد آخر له ، وتقييم جمعي ، أعنى تقييم جهاز « النحن » الموجود بدخيلة المرء لذلك الفرد ، أو تقييم الفئة أو الفئات التي ينتمى إليها ذلك الفرد له . وكذا تقييم جهاز « الهم » الموجود بدخيلة المرء له ، أو تقييم فئة أو فئات خارج نطاقه ولا ينتمى إليها إلا في مناسبة أو أكثر من المناسبات العديدة التي يخضع فيها للتقييم من جانب فئات لم يكن ينتمى إليها أو لم يكن له صلة بها قبلاً .

وبالنسبة للتقييم الفردي سواء كان من جانب المرء لنفسه أم من جانب فرد آخر أو جماعة أخرى ، فإننا نجد أنه يتضمن عدة جوانب . لعلنا نقوم بتحديددها على النحو التالي :

أولاً - التقييم الصحي : فالمرء يقوم بتقييم صحته سواء وهو في حال الصحة أم في حال المرض . ولا يقتصر التقييم الصحي على الشخص نفسه لصحته ، بل إن الناس من حوله يقومون أيضاً بتقييمه من الناحية الصحية .

ثانياً - التقييم الثقافي : فالمرء يدأب على تقييم نفسه ثقافياً سواء بإزاء ثقافته المعرفية ، أم بإزاء ثقافته التعبيرية ، أم بإزاء ثقافته مهارية ، أم بإزاء ثقافته القيمة التذوقية ، أم أخيراً بإزاء ثقافته الاجتماعية العلنقية . ولا يقتصر هذا التقييم على المرء لنفسه بل إن الآخرين يقومون أيضاً بتقييمه في ضوء ما يصدر عنه

من سلوك سواء بالكلام أم بالكتابة أم بالأداء أم بالمساهمة في الأنشطة التذوقية استقبالاً وتصديراً أم استقبالاً فحسب ، أم بما ينشئه ويقويه ويقوضه من العلاقات الاجتماعية القائمة فيما بينه وبين الأفراد والجماعات .

ثالثاً - التقييم الديني : فالمرء يعيّن نفسه أو يقوم الآخرون بتقييمه في ضوء القيم والممارسات والطقوس الدينية التي يتضمنها دينه . فكلما كان المرء أكثر استمسكاً بدينه وتعاليمه وأوامره ، كان التقييم لصالحه . وعلى العكس من هذا فإذا كان ضارباً صفحاً بالمعتقدات الدينية والطقوس والشرائع التي يتضمنها دينه فإن تقييمه سواء من جانب نفسه أم من جانب الآخرين من حوله لا يكون لصالحه .

رابعاً - التقييم الأخلاقي : وعلى الرغم من أن الكثير من السلوك الأخلاقي داخل في نطاق التعاليم الدينية ، فإن ثمة جوانب أخلاقية مستقلة عن الدين وتخضع للمجتمع الذي يعيش المرء في إطاره . فما يتعلق بالمناسب وغير المناسب من السلوك يتباين من مجتمع لآخر ومن بيئة اجتماعية إلى بيئة اجتماعية أخرى . من ذلك مثلاً إلقاء رجل على أخرى في حضرة الغرباء أو طريقة الجلسة أو العبارات المستخدمة أو حتى الألفاظ التي ينطق بها المرء . فهي قد لا تكون محرمة دينياً ولكنها تكون غير أخلاقية إذا ما نطق بها المرء أو نادى بها غيره . من ذلك مثلاً كلمة « امرأة » التي ينطق بها في بعض البلاد العربية « مره » . إنها في مصر إذا ما نعتت بها سيدة فإنها تستشيط غضباً ولكنها نداء عادي هناك .

خامساً - التقييم الإنتاجي : فالمرء يقوم بتقييم نفسه أو يقوم غيره بتقييمه بإزاء ما يلعبه من أدوار إنتاجية في المجتمع الذي

ما كان عليه في الماضي . أما المجتمع الآتى فإنه يعنى عن تراثه من جهة ، كما أنه لا يستشرف المستقبل من جهة أخرى . إنه يرضى بوضعه الراهن ولا يرغب في التطور أو التغيير . أما المجتمع المستقبلى فإنه المجتمع الذى يستشرف المستقبل ، بل إنه يدأب على ترمم خطط مدروسة ويعد الإمكانيات التى يتسنى بها تحقيقها .

ثالثاً - هل يقوم المجتمع بتنشئة الأجيال الجديدة بحيث يواكبون التطورات الحضارية المتدفقة ؟ : فلكى نقوم بتقييم أى مجتمع ، فلا بد أن تكون من النقاط الهامة فى تقييمنا له منسبة على سياسته التربوية والتعليمية . فهل هو ينشئ أبناءه على التفكير الإبداعي أم على الحفظ واستيعاب الموجود . وبعبير آخر : هل المجتمع يهتم بالذاكرة وبحشوها بالمعلومات ، أم أنه يهتم بتنشئة أبنائه على التفكير والتفاعل مع المستجدات الحضارية المتلاحقة . وهل يربح المجتمع كفة ما يعرفه تلاميذه وطلبه ، أم كفة الكيفية التى بها يفكرون ؟ فالواقع أن الحضارة تلزمننا بالكيفيات لا بالمواد . فالمجتمع الذى يستمر فى التأكيد على الماديات ، ولا يعبأ بالكيفيات يكون قد حكم على أبنائه بأن يكونوا فى المستقبل مجرد حفظة ونقلة لما هو موجود بالفعل . أما المجتمع الذى يركز جهده فى تربيته على الكيفيات ، فإنه يكون بذلك قد أكد روح البحث واستخدام الوسائل والأدوات والخامات فى التجريب ، كما يكون خليقاً بتدريب ناشئته على الأجهزة الجديدة التى تساعد على التقدم فى جميع مناحى الحضارة .

رابعاً - هل يميز المجتمع بين القيم المطلقة والقيم النسبية ؟ : ذلك أن المجتمعات التى تعتبر جميع القيم قيمًا مطلقة فإنها تعمل بذلك على إضاعة جميع القيم . وجرى بالمجتمع التقنى

ينتمى إليه . والإنتاج قد يكون ماديًا كما هو الحال بإزاء إنتاج الصانع فى المصنع ، وقد يكون الإنتاج وسيطياً كما هو الحال بالنسبة للتاجر الذى يعتبر وسيطاً فيما بين المنتج والمشتري . وقد يكون إنتاجاً تأثيرياً كما هو الحال بالنسبة للواعظ والمعلم والصحفى والكاتب ، وقد يكون الإنتاج علاجياً كما هو الحال بالنسبة للطبيب . أما بالنسبة للتقييم الجمعى ، فإننا نستطيع أن نستبين فيه مجموعة من الجوانب لعلنا نقدمها على النحو التالى :

أولاً - هل المجتمع مركب أم مزيج ؟ : فالواقع أن المجتمعات الدكتاتورية تعتبر مجتمعات مركبة ، أى أن الأفراد فيها يدخلون فى قوام مجتمعهم كما يدخل العنصر فى تركيب المركب الكيميائى . أما المجتمعات الديموقراطية فإنها تعتبر مجتمعات تتفاعل فيها شخصيات الأفراد الذين تتركب منهم دون أن يفقدوا فردياتهم واتجاهاتهم الفردية . ولسنا متحيزين لنوع ما من هذين النوعين من المجتمعات ورافضين للنوع الآخر ، فلقد يكون المجتمع الدكتاتورى مجتمعاً ناجحاً وملائماً للمرحلة التاريخية التى يمر خلالها ، كما قد يكون المجتمع الديموقراطى هو المجتمع المحقق لسعادة أبنائه . وبعبير آخر فإن الدكتاتورية أو الديموقراطية يمكن أن تكون ملائمة أو غير ملائمة كنظام اجتماعى وسياسى فى ضوء الظروف التى يمر بها المجتمع الذى ينهج وفق نظام منهما .

ثانياً - هل للمجتمع أهداف محددة ؟ : فالمجتمع أياً كان فإن شأنه شأن الفرد من الناس . فهو إما أن يكون قد حدد لنفسه أهدافاً يسعى لتحقيقها ، وإما أنه ينهج فى حياته على نحو إعطابى بلا أهداف أو بأهداف غامضة أو تافهة . وبعبير آخر نتساءل عما إذا كان المجتمع رجعيًا أم أنيئًا أم مستقبليًا ؟ فبالنسبة للمجتمع الرجعى ، فإنه يكون متشبثاً بالماضى ويرغب فى أن ينجذب إلى

ما جبل عليه المرء أو المجتمع من استعدادات استثمارًا صحيحًا وجيدًا ، فإن الفرد والمجتمع يكونان إذن متمتعين بالسوية . وبعبير آخر فإن الإبقاء على تلك الاستعدادات في حالة كمون يحيل الشخصية أو يحيل المجتمع إلى شخصية أو إلى مجتمع منحرف . فالطاقات أو الاستعدادات التي لا تستثمر تكون كالماء الأسن الذي يضر من يشربه ولا يروى ظمأه .

ثانيًا - التطور الثماني المستمر : فالفرد أو المجتمع الذي لا يتطور في نمو شخصيته وذلك بالاستمرار في التفاعلات الخيرية ، لا بد أن يتقهقر . وإذا وضعنا في اعتبارنا أن الحضارة في تطور متدفق مدهل إذ أنها تسير وفق متتالية هندسية أي بطريقة تضاعفية كما قلنا ، فإننا ندرك أهمية ملاحقة تلك التطورات . وإذا نحن أدركنا أن مجتمعنا بمثابة فرد بين مجتمعات كثيرة أخرى يتنافس معها في معركة التطور والتقدم ، فإننا نستطيع أن نقول إننا إذا لم نتطور كأفراد وكمجتمع باستمرار ، فيكون قد حكم علينا إذن بالتقهقر والتخلف بمدى بعيد عن المجتمعات الأخرى .

ثالثًا - تسوية المشكلات الداخلية والمشكلات الخارجية : فالفرد والمجتمع كلاهما يجابه بالمشكلات المتلاحقة التي تنشأ بينه وبين غيره أو في نطاقه الداخلي سواء في قوامه النفسي والثقافي بالنسبة للفرد أو بين فئاته بالنسبة للمجتمع . فإذا لم يسع الفرد أو المجتمع للتوصل إلى حلول سريعة وفعالة لما يجابهه من مشكلات ، فيكون قد حكم عليه بالتمزق الداخلي مما يؤدي إلى خروجه عن نطاق السوية إلى نطاق الانحراف النفسي أو الاجتماعي .

أن يعمل على تطوير قيمه وألا يظل متشبثًا بجميع القيم حتى ما يجب أن يبطل الأخذ به . من ذلك مثلًا القيم التي كانت تأخذ بها بعض المجتمعات القديمة فيما يتعلق بالكتابة . فقد كان من ميزات الطالب النابغة أن يكون صاحب خرائع الجمال . ولكن بعد انتشار الآلات الكاتبة والكمبيوتر ، فإن هذه القيمة قد خففت ، ومن الواجب أن ننظر إلى انخط باعباره وسيلة للإهانة فحسب ، بل من الواجب تشجيع الناشئة على التدريب على الآلة الكاتبة والكمبيوتر بدلًا من إضاعة الوقت الطويل في تحسين الخط . ذلك أن جمال الخط قد خرج من نطاق القيم المطلقة في التعليم واندرج في نطاق القيم النسبية .

خامسًا - هل نأخذ المنحرفين بالعقوبات أم نخضعهم للعلاج ؟ : فما يقال عن الممننين على المخدرات ينسحب بإزاء الكثير من الانحرافات الأخلاقية . فثمة اتجاهان : أحدهما يقمض لتوقيع العقوبات على المنحرفين سواء كانوا مدمنين أم منحرفين جنسيًا أم عدوانيين . أما الاتجاه الآخر فإنه ينظر إلى المدمن والمنحرف لا بنظرة تجريمية بل بنظرة عطف فيمد له يد العلاج . ولكن هل معنى هذا أن نمتنع عن العقوبات بشئ أنواعها ؟ نقول إن العقوبة قد تكون من وسائل العلاج المستخدمة في بعض الحالات التي يبدو الشخص فيها منحرفًا أو مدمنًا .

ولعلنا ننسأل بعد هذا عن الظروف التي توفر السوية للفرد والجماعة فنجد أن تلك الظروف المنشودة يمكن أن تتحدد على النحو التالي :

أولًا - استثمار الاستعدادات والمواهب الكامنة : فسواء بالنسبة للفرد وللمجتمع ، فإن هناك استعدادات استثمرت بالفعل من جهة ، بينما هناك استعدادات تظل كامنة . فكلما تم استثمار

التقييم النقلى والتقييم الإبداعى :

نستطيع تقسيم النشاط البشرى بكافة أنواعه إلى نوعين أساسيين : نوع إبداعى غير مسبوق ، ونوع نقلى أى منقول عما سبق للآخرين إبداعه . وحيث إن هذا النوع الأخير النقلى هو الأشيع والأعم لذا فإننا سوف نتناوله بالمدرسة والتقييم قبل أن نتناول النوع الإبداعى . فإذا نحن ألقينا الضوء على المناحي التى ينصب عليها النقل الثقافى ، فإننا سوف نجدها موزعة على النحو التالى :

أولاً - النقل المعرفى : فمنذ أن قام الإنسان بتفنيح عينيه على الوجود من حوله وهو يتنقل ما تم الوقوف عليه سواء فى عالم الواقع من حوله ، أم فى عالم الخيال الذى يترسمه ويتمنى تحقيقه ولو بعيداً عن أرض الواقع ، وكذا ما يقع له أو لغيره من أحداث طيبة أو رديئة . واستعان الإنسان منذ بداوته فى عمليات النقل المعرفى بالكلام المنطوق وبالنقش على الحجارة بالكهوف . وكلما استطاع الإنسان عبر العصور تطوير أدوات التسجيل والخامات المستخدمة فى ذلك ، فإن ما يتناقله قد يصير أكثر كماً وأدق وأسرع تسجيلاً . ومما لا شك فيه أن سبب الإنسان لأغوار الرمزية قد مكّنه من تسجيل خبراته ونقلها إلى غيره من الناس البعيدين عنه مكاناً أو زماناً أو مكاناً وزماناً ، فصار تنقل الخبرات المعرفية ميسوراً ، وصار حفظها من الضياع أمن وأكثر ضماناً . والنقل المعرفى صار يتخذ له طريقين : الطريق الحفظى والطريق التفاعلى . فمن اتخذوا الطريق الحفظى يستذكرون الخبرات المعرفية التى ابتدئها السابقون أو المعاصرون دون أن يضيفوا إليها أو يحذفوا منها . وهؤلاء هم الحفظة . أما أولئك الذين اتخذوا الطريق التفاعلى فإنهم يتناولون ما سجله السابقون أو المعاصرون للتفاعل مع المقومات

التي تناسب أذواقهم والتى يمكن أن تصير من لحم قوامهم المعرفى . فما يقومون بقراءته لا يحفظ فى أذهانهم كما قرأوه ، بل يتفاعل مع مركبهم الخبرى المعرفى بحيث يتأتى عن ذلك التفاعل مركب خبرى معرفى على جانب أكبر من التعقد . فهذا التفاعل الخبرى أشبه ما يكون بالتفاعل الكيمايى الذى يتم فيما بين العناصر بعضها وبعض أو فيما بين العناصر والمركبات أو فيما بين المركبات فيتأتى عن تلك التفاعلات مركبات كيمايية لها خصائص جديدة مابينة لخصائص العناصر أو المركبات التى انخرطت فى العمليات التفاعلية الكيمايية .

ثانياً - النقل العقائدى : وهذا النوع من النقل يتم بالتناغم الوجدانى بالدرجة الأولى ، وبالمرحلة بالدرجة الثانية . ويخترط فى نطاق النقل العقائدى المعتقدات الدينية ، والمعتقدات السحرية ، والمعتقدات الشعبية ، بل والمعتقدات العلمية التى يؤمن بها المرء دون أن يسير أغوارها ، أو يلم بأطرافها كالاعتقاد فى أن هناك فيروسات تنقل الأمراض ولا يمكن رؤيتها ، أو الاعتقاد فى مكونات الذرة . فمثل تلك المعتقدات العلمية تسلم بها دون أن نشترك فى الوقوف عليها تجريبياً . والواقع أن الكثير مما تسلم به فى حياتنا وعلاقتنا يدخل فى إطار النقل الإعتقادى .

ثالثاً - النقل المهارى أو الأدائى : فجميع المهارات الحركية التى يكتسبها المرء منذ طفولته وعبر حياته تكون مرتكزة على هذا النقل المهارى أو الأدائى . صحيح إن المرء يصيغ ما يكتسبه من مهارات بصيغته الشخصية ، ولكن ما يضيفه من صبغة شخصية إلى المهارات التى يكتسبها لا يمس جوهر المهارة ، بل يتعلق بهوامئها فحسب . وكلما تقدمت الحضارة ، فإن المهارات الحركية تزداد خصوبة وتعقدًا ودقة . ولكن جوهر العملية النقلية

يظل ثابتاً وهو اكتساب الحركات المطلوبة للمهارة المعينة بحيث تؤدي بطريقة شبه لاشعورية تقريباً حتى يتسنى القول بأنها قد اكتسبت بالفعل على النحو الأكمل .

رابعاً - النقل التكنولوجي : إن أي أداة ابتكرها الإنسان منذ العصور البدائية تدخل في نطاق التكنولوجيا . فأول فأس وأول محراث وأول عجلة أو عربة اخترعها الإنسان هي تكنولوجيا . ومن الطبيعي أن تتطور المعرفة وتستمر التجارب عبر العصور المتعاقبة . فتعقدت المخترعات التكنولوجية حتى وصلت البشرية إلى غزو الفضاء والرسو على الكواكب وإلى غير ذلك كثير جداً من التكنولوجيات الإلكترونية المتباينة . ولقد ظل الإنسان ينقل عن غيره التكنولوجيات والتطورات التكنولوجية المتباينة في جميع المجالات الحضارية .

خامساً - النقل العلائقي : وهذا النوع من النقل يتعلق بما توصل إليه الآخرون من تنظيم للعلاقات الاجتماعية . من تلك العلاقات الأسرية والمدرسية والإدارية والسياسية والإقتصادية والحربية والدينية ونحو ذلك من علاقات بنيت عليها العلاقات بين الناس بعضهم وبعض بلزاً ما يخرطون فيه من ظروف وأحوال متباينة . فكل مجتمع ينقل عن سواه ما سبق أن أقامه من علاقات بين الناس بعضهم وبعض ويكيفه حسب ظروفه .

وبعد أن قمنا هذه الجوانب النقلية الخمسية ، فإن علينا أن نلقى بالضوء على الجوانب الإبداعية التي قدمها المبدعون المتباينون منذ أن بزغت الحضارة على الأرض وما يزولون يقدمونها يوماً بعد يوم في تدفق وإتقان مستمرين على النحو التالي .

أولاً - الإبداع الجبري : فالمبدع في أي مجال من المجالات الإبداعية العديدة لا يتنزع بالمنهج النقلى عن غيره ، وإن كان

يستمد خاماته المعرفية والأدائية مما هو موجود بالفعل ، بل يتناول ما يستمده من تلك الخامات ويتفاعل معه كما قلنا ، فتتفق مستمداته الخبرية التي حصل عليها من الخارج ومما هو موجود بالفعل إلى قوامات ونتائج جديدة غير مسبوقه . فما يقدمه من إبداعات علمية وتكنولوجية ومهارية وجمالية تنوقية وعلائقية وغير ذلك من إبداعات يكون غير مسبوق ، بل يكون جديداً كل الجدة ولا يكون مجرد تطوير لما سبق أن وجد . وحتى ما يظن أنه مجرد تطوير لما سبق وجوده يكون مشتملاً على مقومات جوهرية جديدة تماماً . فالطائرة النفاثة أو مركبة الفضاء ليست مجرد تطوير للطائرة العادية ، وإنما هي قوام جوهرى جديد مشتمل على بعض الجوانب التي سبق إبداعها .

ثانياً - الإبداع المنهجي : وثمة إبداعات تتعلق بمنهج الحياة أو منهج الأداء . والمبدعون من هذا النوع يرسمون لمن يأتيهم بعدهم أو للمعاصرين لهم نهجاً جديداً يسهل لهم الحصول على النتائج الأكثر دقة أو الأوفر كماً أو الأكثر فائدة . والواقع أن المبدع في هذه الحالة لا يكون مركزاً ذهنه في المضمون بل في الوسائل التي تؤدي إلى الحصول على المضمون المتباينة . ولعلنا نقول إن المبدعين المنهجيين يخنصون بنظرة أشمل إلى المجال الذي يعملون فيه قدرتهم الإبداعية من غيرهم من مبدعين .

ثالثاً - الإبداع السياسي : وهذا النوع من الإبداع يتعلق بترسّم أنماط جديدة من العلاقات السياسية فيما بين الدول بعضها وبعض ، أو في نطاق كل دولة من الدول المتباينة . والواقع أن المبدع السياسي يكون في الغالب مهتماً بشئون بلده فينتج لها نمطاً سياسياً إبداعياً غير مسبوق يأخذه عنه بعض الدول الكبرى كما فعل كارل ماركس مثلاً بلزاً روسيا وما ابتدعه من نظام سياسي جديد

هو الشيوعية بغض النظر عن انحسارها وقد ثبت أنها نظام سياسي غير مناسب للظروف السياسية العالمية .

رابعا - الإبداع الرياضي : فالمبدع في هذا المضمار يهتم بتقديم أنواع جديدة من الألعاب الرياضية أو من الأجهزة الرياضية التي تضاف إلى قائمة الألعاب الرياضية السائدة حالياً بالملاعب . من ذلك مثلا ما يمكن أن يبتكره أحد المبدعين من أجهزة رياضية يتسنى استخدامها في البيت تغني المرء عن ممارسة الألعاب في أحد الأندية . ولقد يكون الجهاز الرياضي الذي يبتكره ناطقا أيضا فيقوم بتوجيه اللاعب أو يأمره بأوامر معينة في أثناء اللعب بالزيادة في الممارسة أو الإنقاص منها حسب حالته الصحية . ذلك أن الجهاز المبتكر يكون به عدادات توضح ضغط الدم ودقات القلب والتنفس وبالتالي ما يجب على اللاعب أخذه في الاعتبار مع ما يقدمه الجهاز من توجيهات مباشرة إليه بصوت مسموع .

خامسا - الإبداع السيكولوجي : ولعلنا نذكر بهذه المناسبة (سجموند فرويد) وما قدمه لنا من إبداع سيكولوجي في الطب النفسي ، أعنى منهج التحليل النفسي . بيد أن المجال متاح أمام المبدعين السيكولوجيين لتقديم الكثير من الإبداعات السيكولوجية المتبانية . فمن الممكن تقديم إبداعات تتعلق بالإنبو بما سوف يصيب المرء من أعراض نفسية قبل إصابتها بها وذلك عن طريق جهاز مثل جهاز ضغط الدم يستخدمه المرء كل صباح أو كل مساء للاطمئنان على حالته الصحية النفسية .

وعلينا بعد أن عرضنا للوعين الأساسيين اللذين يمكن تقسيم النشاط البشري في ضوءهما ، أن نقوم بتقييم ما يضر المرء في إثره من أنشطة عقلية أو إبداعية في ضوء سويته النفسية وما تتمتع به شخصيته من صحة نفسية على النحو التالي :

أولاً - المنهج النقلى ضرورة لازمة : فمن الخطأ أن نعتقد أن الشخص المبدع لا يستعين بالمنهج النقلى في حياته الخيرية . فالواقع أن المرء ابن بيئته الحالية من جهة ، وابن الأجيال السابقة جميعا من جهة أخرى ، بل إنه الوريث للتراث البشرى كله حتى وإن لم يستفد بكل أنحاء ذلك التراث الخصب والطويل والمعقد . فالمبدع لا يبدأ من فراغ ، بل يبدأ بتشرب ما يتسنى له تشربه من الخبرات السالفة ومن الخبرات الحالية التي سادت وانتشرت من حوله . وفي أثناء ذلك التشرب قد يتسنى له تقديم إبداعات متبانية . فالشخص السوي هو ذلك الذي يكتسب وينهل من الخبرات الموجودة بالفعل ، بيد أن ذلك الاكتساب وهذا النهل يجب أن يكون بطريقة تفاعلية وليس بطريقة احتوائية في الذاكرة ، أعنى صيغ المكتسبات الخيرية بالصيغة الشخصية التي تميز المرء من سواه من أشخاص اكتسبوا ونهلوا من نفس الماعون الخبرى .

ثانياً - تشجيع الإبداع منذ الطفولة : ولكي يكون الشخص سويا وينشأ على الصحة النفسية الجيدة ، فإن من الواجب تحقيق التوازن فيما بين اكتسابه النقلى وبين ما يتربى لديه من نزعة إبداعية . ونأسف إذ نقول إن النظم التعليمية السائدة تؤكد النقل ولا تشجع الإبداع . ولنا أن نزع من أن معظم المبدعين كانوا يجبرون منذ طفولتهم على استيعاب ما كان يفرض عليهم تشريه من قوالب معرفية أو أدائية أو علائقية جاهزة ، بينما كان الآباء والأمهات يقاومون ما كان يبدو لديهم من إبداعات متبانية . بيد أنهم بفضل إرادتهم الصلبة قد استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى الإبداعية فأنبتوا بذلك وجودهم وريادتهم الإبداعية في المجالات المتبانية التي قاموا بغزوها بمواهبهم الإبداعية . ونستطيع أن نقرر أن لدى الغالبية العظمى من الأطفال مواهب إبداعية ولكن معظم تلك المواهب تدفن

أو تخفق ولا تيزغ إلى واقعهم السلوكى بسبب التربية المنحازة إلى التراث القومى والتراث الإنسانى على حساب المواهب الإبداعية وما يتسنى للناشئة تقديمه من مبتكرات إبداعية غير مسبوقة لو شجعت لتقدمت باليسرية إذن خطوات حثيثة إلى الأمام .

ثالثاً - إجلال المبدعين فى المواقع اللائقة بهم : ولكى نضمن عدم انحراف المبدعين عن السوية لا بد أن نساعدهم على شق طريقهم الإبداعى ببسر وسهولة . فالواقع أن المطبقين لما سبق إبداعه يحظون بنصيب الأسد بينما المبدعون أنفسهم لا يحصلون على شئ تقريباً . خذ مثلاً ذلك بمخترع الدواء الجديد أو الجهاز الطبى المبتكر وقرانه بالطبيب الناجح فى تطبيق ما درسه وتدرّب عليه دون أن ينتكر جديداً . إن المبدع طبيباً لا يكاد يُذكر أو يحصل على ما يميزه من سواه ، بينما يحظى الناقل بنصيب الأسد فى سوق التطبيق - إذا صح التعبير .

تقييم الماضى والحاضر والمستقبل :

يمتاز الإنسان من الكائنات الحية الأخرى بأنه يتوقع المستقبل كما أنه يتمتع بالنظر إلى الضلعين الآخرين للزمان ، أعنى الحاضر والماضى . وبهذا فإن الإنسان ينظر إلى الزمان والمكان وما حدث ويحدث وسيحدث فى إطارهما من أحداث متباعدة . بيد أن الناس يتباينون بعضهم عن بعض فى مدى تذكرهم للأحداث الماضية من جهة ، وفى مدى توقعهم للأحداث القادمة فى المستقبل من جهة أخرى . وبهذه المناسبة فإننا نؤكد أن القدرة التوقعية التنبؤية تشبه القدرة على التذكر . فكما أن القدرة على تذكر الماضى قد تكون قوية أو ضعيفة عند بعض الناس ، كذا فإن القدرة التوقعية التنبؤية قد تكون قوية أو ضعيفة . ولكن كلما كانت هذه القدرة الأخيرة أقوى عند المرء ، فإنه يكون بالتالى أكثر قدرة على التأثير فى المتوقع وقوعه من أحداث أو مواقف مستقبلية .

بيد أن القدرة على تقييم الأحداث الآتية ، أعنى الأحداث التى تقع فى حاضر المرء مباشرة أو لآ بأول من الأهمية بمكان ، بل إننا نستطيع أن نقول إن هذه القدرة على تقييم الحاضر تعد بمثابة الرابطة بين تقييم الماضى وتقييم المستقبل جميعاً . ويتعبّر آخر فإن الشخص الذى لا يستطيع أن ينجح فى تقييم حاضره التقييم الموضوعى الصحيح والمناسب ، فإنه بالأولى لا يستطيع تقييم ماضيه من جهة ، كما لا يستطيع تقييم ما يتوقع حدوثه فى المستقبل من جهة أخرى . وأكثر من هذا فإننا نستطيع أن نقول إن الماضى هو حاضر فات ، وأن المستقبل هو حاضر آت . ومعنى هذا أننا نستطيع ترجمة الماضى والمستقبل إلى حاضر باعتباره الركيزة الزمانية الحية والمعتلة فى قوام المرء مباشرة . ذلك أن الماضى والمستقبل جميعاً غير حيين وليس لهما واقع فعلى قائم هنا والآن ، بل لهما واقع ذهنى هناك ووقتئذ .

إذن فنقطة الإرتكاز التى ينبغى أن يقف عليها المرء فى تقييمه الآتى والمستقبلى ، بل وأيضاً فى تقييمه للماضى هى الحاضر أو الآن الذى يعيش فيه هنا والآن . ذلك أن المرء عندما يستعيد الماضى أو عندما يتوقع أو يتنبأ بالمستقبل ، فإنه يكون قد بث الحياة فى الماضى والمستقبل ، أو قل إنه يكون قد استعاد الماضى إلى حاضر ذهنى يحياه ، كما أنه يكون قد بث الحياة فى المستقبل المتوقع وأحاله بصفة مؤقتة إلى حاضر فى ذهنه .

وسواء عاش المرء حاضره أو عاش ماضيه أو مستقبله اللذين أحالهما فى ذهنه إلى حاضر ، فإنه لا يعيش تلك الأضلاع الثلاثة منغمراً فيها ، بل إنه يعمد إلى طرحها جميعاً أمامه كموضوعات خارجية يقوم بتقييمها . والتقييم الذى يضطلع به قد يكون تقييماً نفعياً يقيس المفيد والضار من الأحداث والوقائع التى حدثت وتحديث

وسوف تحدث ، كما أن تقييمه قد يكون تقييمًا دينيًا أو أخلاقيًا فيقيس ما حدث ويحدث وسيحدث في ضوء القيم الدينية والأخلاقية ، كما أن تقييمه قد يكون تقييمًا اجتماعيًا فيقيس ما حدث ويحدث وسيحدث في ضوء المناسب وغير المناسب ، أو المقبول اجتماعيًا وغير المقبول . وقد يكون تقييمه تدقيقًا فيقيم ما حدث ويحدث وسيحدث في ضوء الجمال والقبح . إلى آخر تلك التقييمات المتباينة التي ينحو إليها مع ترتيبها حسب الأولويات التي يجدها مناسبة لثقافته واهتماماته .

ولعلنا بعد هذا نقوم بالقاء الضوء على التقييم الزماني بأضلاعه الثلاثة وعلاقته بسوية شخصية المرء على النحو التالي :

أولاً - الانحياز والموضوعية : فكما كان المرء خاليًا من الانحياز والتعصب في تناوله للمواقف والأحداث والأشخاص فينظر بنظرة موضوعية خالية بقدر الإمكان من الكراهية والحب ، فإنه يكون أكثر سوية . بيد أننا يجب أن نعترف بأن تذكر المواقف والأحداث والأشخاص يكون في الغالب مصطبغًا بالصبغة الوجدانية . ولكن ثمة تباينًا من شخص لآخر بآراء طغيان العاطفة على الأحكام التي يصدرها . فإذا استطاع المرء عند تذكره للمواقف والأحداث والأشخاص لإجماع عاطفته سواء كانت عاطفة حب أم عاطفة كراهية ويصدر في أحكامه بغير تحيز أو تعصب ، فإنه يكون إذن متصفًا بالموضوعية .

ثانيًا - تناول السلوك الشخصي بنظرة موضوعية : وما يقال عن المواقف والأحداث والأشخاص من وجوب النظر إليهم بنظرة موضوعية ، كذا فإن من الواجب أن يتناول المرء سلوكه في الماضي والحاضر والمستقبل بهذه النظرة الموضوعية ، فلا ينحاز لنفسه أو يبرر مناحي سلوكه الرديئة أو يكون مصابًا بالغرور

فيضفى على نفسه ما ليس فيه من مزايا أو يتهم الآخرين بأنهم كارهون له وأن سبب عزوفهم عنه أو اضطهادهم له هو تعصبهم أو انحيازهم للآخرين دونة . فإذا استطاع المرء أن ينظر إلى نفسه وإلى ما صدر وبصدر عنه من سلوك بعادلة دون أن يظلم نفسه أو يتحيز لها ، فإنه يكون إذن متصفًا بالسوية .

ثالثًا - تقييم التأثير والتأثير الذاتيين : وعلى المرء لكي يقف على مدى تمتعه بالسوية النفسية والاجتماعية أن يقف على ما تلقاه من مؤثرات من الخارج ، وما استطاع أن يؤثر هو به في توجيه الأحداث أو في توجيه شخصيات المتلقين عنه بتلك المؤثرات التي وجهها إليهم . فهو يسائل نفسه عما تأثر به من حيث الكم والكيف ومن حيث مدى تفاعله بواسطة تلك المؤثرات التي تلقاها من الخارج ، وما استطاع أن يحيله من تلك المؤثرات التي تلقاها إلى قوام من قوامه وإلى لحم من لحم شخصيته ، ثم يسائل نفسه عما استطاع أن يصدره إلى الواقع الخارجى بما يضمه من أشخاص وجماعات من مؤثرات . وإلى أى حد تستمر المؤثرات التي وجهها إلى الخارج مؤثرة وفعالة . ويتعبير آخر فإن على المرء الذي يرغب في الوقوف على مدى سويته أن يقف على وضعه بالواقع الاجتماعى الذى يتعامل معه . فهل هو مجرد شخص هامشى ، أم أنه شخص متفاعل مع ذلك الواقع الاجتماعى من حيث أخذه عنه وإسهامه فى تصيغه والتقدم به خطوات إلى الأمام .

رابعًا - الفوائد والمضار المتأتية عن المرء : وكما أن الشخص الذى يقيم نفسه من حيث تأثره وتأثيره فى الماضى وتأثره وتأثيره فى الحاضر وتأثره وتأثيره الذى يتوقعه فى المستقبل من الأهمية بمكان ، فبأن يتناول أيضًا بالتقييم ما استطاع

ويستطيع وسوف يستطيع تقديمه من فوائد للآخرين ، وما استطاع
ويستطيعه وسوف يستطيع تحاشيه من مضار . فهو يسائل نفسه
عما إذا كان ويكون وسوف يكون شخصية مفيدة أم شخصية
ضارة ، وهل الفوائد التي يقدمها أقل من المضار التي يحدثها لنفسه
وللآخرين من حوله .

خامساً :- أخيراً فإن الشخص السوي لا يغفل عن المشروعات
والأهداف والخطط التي تتعلق بالمستقبل القريب والمستقبل البعيد .
فهل هو بالفعل يستشرف المستقبل وما يستطيع اتخاذه من خطوات
عملية بإزائه ؟ وهل هو قد وضع أهدافاً يرغب في تحقيقها ؟ وهل
أماله في المستقبل فارغة المضمون أو عبارة عن أحلام يقظة
لا سبيل لتحقيقها أم أنها أحلام يقظة قابلة للتحقيق والتنفيذ والخروج
بها من حيز الآمال إلى حيز الواقع الحى .

بيد أن هناك مجموعة من العقبات التي تقف حائلاً أمام المرء
وبين تقييمه لذاته بإزاء أضلاع الزمان الثلاثة التي عرضنا لها نقوم
باستعراضها على النحو التالي :

أولاً - العوامل اللاشعورية : فالمرء بطبيعته يخزن في
لاشعوره الكثير من الركامات الخيرية غير المواتية . والواقع أن
تلك الركامات قد تغلف أحداث الماضى ووقائع الحاضر وتوقعات
المستقبل . فهي تشكل حجاباً قد يكون كثيفاً يعمل على حجب الحقيقة
عنه . فالكثير من النسيان يكون مرده إلى تلك العوامل أو الركامات
اللاشعورية ، كما أن الكثير من المنزلاقات السلوكية التي تحيق
بالمرء في حاضره يكون مردها إلى ما يعتمل بدخيلته من مؤثرات
لاشعورية . وكذا فإن الكثير من القصور أو حتى العجز عن توقع
أحداث ووقائع المستقبل ، ومن ثم عدم القدرة على التخطيط
لمجابهتها يعود إلى اعمال تلك المقومات والعوامل اللاشعورية
التي تنشط وتشكل حاجزاً سميكاً بين المرء وبين آفاق المستقبل .

ثانياً - العقبات الخارجية : وإلى جانب تلك العوامل
اللاشعورية ، فإن هناك المؤثرات التي تصدر عن الآخرين إلى
المرء وتشكل حاجزاً أو عائقاً بينه وبين عملية التقييم ذاتها . فلقد
يعمل الناس المحيطون بالمرء على عجزه عن تقييم الماضى
والحاضر والمستقبل . فلقد يكون تثبيط الهمة من جهة أو التشجيع
المفرط من جهة أخرى عاملاً على وضع تلك العقبات أمام المرء
فيعجز عن تقييم شخصيته سواء انصب ذلك التقييم على ماضى
المرء أم على حاضره أم على مستقبله .

ثالثاً - المستوى الثقافى والأخلاقى : فمما لا شك فيه أن
الجهل والغرور يشكلان عاملاً فعالاً في العجز عن تقييم المرء
لنفسه ، سواء انصب التقييم على ماضى المرء ، أم على حاضره ،
أم على مستقبله . فالشخص الجاهل لا يفكر إلا في اللحظة الراهنة
التي يمر بها ، كما أنه لا يأخذ في اعتباره سوى الموقف الراهن
الذى يجد نفسه فيه . والشأن نفسه بإزاء المغرور الذى ينسى ماضيه
إذا كان ماضياً متواضعاً ولا يأخذ في اعتباره سوى الوضع الحالى
المزموق أو الوضع الذى يعتقد أنه مرموق ، كما أنه لا يفكر فى
المستقبل . وإذا هو فكر فيه فإن تفكيره لا يكون واقئياً بل يكون
مبالغاً فيه من حيث النجاح الذى سوف يحرزه أو المكانة المرموقة
التي سوف يحصل عليها .

★ ★ ★

Looloo

www.dvd4arab.com

٩٨	معنى انحراف الشخصية
٩٨	المعنى الجنسي
١٠٥	المعنى الغضبي
١١٢	المعنى الخوفي
١١٧	المعنى النكوصي
١٢٤	المعنى القهري

الفصل الخامس

١٣٠	خصائص الشخصية المنحرفة
١٣٠	فقدان الاتزان الوجداني
١٣٧	التناقض العقلي
١٤٣	التوظيف السيئ للغة
١٤٩	العجز عن التكيف الاجتماعي
١٥٥	انحرافات الإرادة

الفصل السادس

١٦٠	العوامل الوراثية وسوية الشخصية
١٦٠	تكاملية الوراثة
١٦٧	توريث الاستعدادات
١٧٣	التفسير التفاعلي للوراثة
١٧٩	تأخر البزوغ الوراثي
١٨٥	تسارع البزوغ الوراثي

الفصل السابع

١٩١	كيمياء الجسم وسوية الشخصية
١٩١	الاتزان الهورموني وسوية الشخصية
١٩٧	العلاج النفسي بالمخدرات

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٥	مقدمة
---	-------

الفصل الأول

٧	معنى السوية
٧	المعنى النمائي
١٤	المعنى التكاملي
١٩	المعنى الوجداني
٢٥	المعنى العقلاني
٣١	المعنى التكيفي

الفصل الثاني

٣٧	خصائص الشخصية السوية
٣٧	النمو المتوازن
٤٣	الأخذ والاعطاء
٥٠	الاستمرارية الخيرية
٥٦	ردود الفعل المناسبة
٦٣	النظرة الزمكانية

الفصل الثالث

٦٨	العوامل التي تدعم السوية النفسية
٦٨	الرعاية المتوازنة
٧٥	الإحساس بالطمأنينة
٨١	امتصاص الصدمات
٨٧	التدريب على حل المشكلات
٩٤	القدرة على التعاون

الفصل الحادى عشر

٣١٥	التطورات الحضارية وسوية الشخصية
٣١٥	التطورات التكنولوجية وسوية الشخصية
٣٢١	الانتقال إلى بيئة حضارية مغايرة
٣٢٨	التليفزيون والتدفقات الإعلامية والترفيهية
٣٣٤	التلوث البيئى وسوية الشخصية
٣٤١	الحضارة وما تحمله معها من حوادث

الفصل الثانى عشر

٣٤٦	العوامل الاقتصادية وسوية الشخصية
٣٤٦	الأزمات الاقتصادية وسوية الشخصية
٣٥٣	الثروة المفاجئة
٣٦٠	الكوارث وسوية الشخصية
٣٦٥	البطالة وأثرها فى سوية الشخصية
٣٧١	الفصل من العمل والإحالة إلى المعاش

الفصل الثالث عشر

٣٧٦	التربية وسوية الشخصية
٣٧٦	التربية الجسمية والنمو المتكامل
٣٨٣	التربية والتذوق الروحى
٣٨٩	التربية والتذوق الجمالى
٣٩٥	التربية والتذوق الأخلاقى
٤٠٢	التربية بين الأنانية والغيرية

٢٠٤	الإيمان وأثره فى سوية الشخصية
٢١٥	أثر الضغوط الخارجية فى كيمياء الجسم
٢١٧	أثر العوامل اللاشعورية فى كيمياء الجسم

الفصل الثامن

٢٢٢	هندسة الوراثة وسوية الشخصية
٢٢٢	المسح الوراثى
٢٢٨	التخطيط التوريثى
٢٣٥	هندسة الوراثة والسوية النفسية
٢٤١	هندسة الوراثة والسوية الاجتماعية
٢٤٧	هندسة الوراثة والإبداعية

الفصل التاسع

٢٥٣	العوامل البيئية المؤدية إلى انحراف الشخصية
٢٥٣	العوامل الأسرية
٢٦٠	العوامل المدرسية
٢٦٧	العوامل الوظيفية
٢٧٣	العوامل السياسية
٢٨٠	المآزق الأخلاقية

الفصل العاشر

٢٨٥	الظروف الاجتماعية وسوية الشخصية
٢٨٥	تفكك الأسرة وسوية الشخصية
٢٩٣	استقلال الأولاد ونزوحهم عن الأسرة
٢٩٨	فقدان شريك الحياة
٣٠٤	النزاعات الأسرية وسوية الشخصية
٣١٠	انفصال الزوجين لفترات طويلة



يوسف ميخائيل أسعد

الشخصية السوية

يلقى الضوء على موضوع هام بالنسبة لجميع المثقفين ، وبخاصة أولئك المهتمين بعلم النفس . وهو يتضمن خمسة عشر موضوعاً هاماً ، تعالج أهم الزوايا المتعلقة بالشخصية السوية . فإلى جانب معنى السوية ، وخصائص الشخصية السوية ، والعوامل التي تدعم السوية النفسية ، فإنه يعرض لمعنى انحراف الشخصية ، وخصائص الشخصية المنحرفة ، وغير ذلك من موضوعات خصبة تعتبر علامات إبداعية جديدة في الدراسات السيكولوجية .

الناشر

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

الطبع والنشر والتوزيع
بدرع جليل - القاهرة - 1994